صفحات من التركية والمهدية

بشير كوكو حميدة

دار الارشاد - الخرطوم

الإهداء

إلى أبنائي وبناتي طلبة وطالبات المدارس الثانوية الذين أمضيت زهرة شبابي بينهم ، وكنت موضع تقديرهم واحترامهم أهدي هذه الصفحات المتواضعة .

بشير كوكو حميدة
وزارة التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

حفزني الى تقديم هذه الصفحات ما اشار عليّ به بعض زملائي المعلمين وكثير من الطلاب الذين درست ، وفحوى اشارتهم ان أحاول الكتابة عن تاريخ السودان بعد أن سد « تاريخ اوربا الحديث » قليلا من كثير من اوجه النقص في مكتبة الطلبة والطالبات . فليس أحرى بالكتابة عن تاريخ هذا البلد من ابنائه ـ هذا التاريخ الذي وجد فيه بعض الاجانب مادة دسمة لنيل الدرجات العليا والشهرة والمال . ومع ذلك لم يغوصوا في أعماقه أو ينفذوا الى لبابه ، بل منهم من حاول ان يشوه بعض معالمه !

ومما لا مجال للشك فيه أن تاريخنا القومي الحديث قد تناوله بالبحث والاستقصاء اساتذة سودانيون أجلاء . ومع ذلك فالحقيقة ما زالت باقية وهي ان طلاب المدارس الثانوية عندنا كثيرا ما يشعرون بالحاجة الى مادة مركزة متمشية مع المنهج لتعينهم على السير قدما نحو غايتهم المنشودة ، وتوفر عليهم شيئا من الجهد والزمن ، وما احوجهم الى الزمن وهم يعالجون عديد العلوم في هذه المرحلة الحرجة من حياتهم الدراسية . ومن أجل ذلك فقد رأيت انه من الخير ان أعد مادة قد تكون لهم زادا يتبلغون به في مسيرتهم الطويلة نحو رحاب العلم الفسيحة .

وليس همي ها هنا أن أكتب مؤلفا متكاملا بالمعنى المعروف ، وانما قصدت الى تقديم مجموعة من الحقائق في حيز محدود علها تفي بحاجة الدارسين أو المقبلين على الجلوس لامتحان الشهادة الثانوية السودانية وغيرهم . هذا قصارى ما عندي .

لم اشأ كذلك أن استقصي كل ما يستقصى عن هذه الحقب ، وانما اجتهدت قصارى اجتهادي أن تكون فصول الكتاب في قالب مقالات . فلم أسجل فذلكة من ترجمات الشخصيات البارزة الا في القليل النادر . فان اصبت الهدف أو اقتربت منه

فلله المنة ؛ وهذا حسبي . وان وردت ثغرات في هـــذه المحاولة ـ وهذا طبيعي ـ فاليقين عندي ان زملائي وزميلاتي المعلمين والمعلمات سيسدون النقص . وعلـــى الله قصد السبيل .

بشير كوكو حميدة
وزارة التربية والتعليم

١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

الفصل الأول

الفتح التركي ـ المصري (١٨٢٠ ـ ١٨٢١)

دوافع محمد علي باشا لفتح السودان

من الثابت الذي لا نزاع فيه ان الفتح التركي ـ المصري (١٨٢٠ ـ ١٨٢١) كان حدثا تاريخيا هاما للغاية ، وآية ذلك ان أوجـــه الحياة السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية قد اعتراها كثير من التغير او قل تغير مجرى التاريخ في ماضي بلادنا العزيزة . والفتوح في كل زمان ومكان تصحبها او تأتي في ركابها عديد التغيـرات . ومن الفاتحين من تدفعهم شهوة الغلبة وحب السيطرة على الغير فيشعلونها نـارا تلظى أو حروبا شعواء ولهم مندوحة عنها ! ومن تحصيل الحاصل ان نقرر انهم مرضى نفوس . ومن الفاتحين من يبتغون من حروبهم التوسع والمال الوفير والجاه العريض وبقية عروض هذه الدنيا . من هؤلاء محمد علي باشا (١٧٨٩ ـ ١٨٤٩) فيما نعتقد . فما هي الدوافع التي حدت به ليغزو هذا البلد ؟

يذهب بعض المؤرخين الى وضع محمد علي في مصاف عباقرة الحروب أمثـال الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر ونابليون . والحق ان محمد علي قد حقق ما عجز عنه نابليون في تنفيذ سياسته في الشرق اذ « ساد الشرق بطريقيه : طريـق البحر الاحمر وطريق نهر الفرات وجمع العالم العربي تحت لوائه وكون دولة تمتد من جزيرة كريت غربا الى خليج العجم شرقا ومن جبال « طورس » شمالا الى بلاد سنار جنوبا ، وحاصرت جنوده حصن « عكا » فما لبث ان سقطت في يده وانتصرت على جيـوش السلطان في مواقع عدة كان محمد علي على اثرها قـاب قوسين او أدنى من عـرش الخلافة » . (١) وفيما يبدو ان محمد علي كان يجعل من نابليون بونابرت مثله الأعلى فهو يدرس سيرته ويترسم خطاه .

(١) واذا كانت هذه حال محمد علي ذي الشخصية الديناماكية فلا جرم يجتهد قصارى اجتهاده في أن ينشيء جيشا عرمرما مدربا علـى احدث الطـرق الحربية الاوربية في أيامه . والواقع من الامـر ان تكوين الجيوش الجرارة القويـة المنظمة كان من الضرورات اللازمة لبناء الدول في مطلع القرن التاسع عشر . ومـن هنا نشأت حاجة الباشا الى الجنود الاشداء الذين يتحلون بالطاعة عند لقاء العدو .

---

(١) تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة : محمد رفعت (١٩٢٧) ص ١١٥ .

وإذا سألنا عن جنده الالبانيين والاتراك وغيرهم ، ما بال هؤلاء ولماذا طمع الى الحصول على غيرهم ؟ الاجابة على ذلك ان اولئك العسكر لم يكونوا مادة صالحة لتحقيق مآربه لانهم كانوا مصدر فوضى وشقاق ومتاعب لـه اذ رفضوا مشروعه للاصلاح وتطوير الجيش على أسس اوربية حديثة بحجة ان تلك بدعة ! وهم في الحقيقة كانوا يتبرمون من قيود النظام الجديد وما يفرضه من دقـة وطاعة عمياء . ولقد تآمروا على اغتياله لانه فرض على بعضهم النظام العسكري الجديد وعاثوا في البلاد فسادا وسلبا ونهبا . ومن اجل ذلك وجه النظر نحو السودانيين الذين امتازوا في نظره بخلال تعتبر مثالية في مجال الجندية الا وهـي الشجاعة وقوة الشكيمة والانقياد والصبر على المكاره . والحق ان السود في بلادنا هذه قد اشتهروا منذ ايام الفراعنة بشدة البأس في الحروب . فلا عجب اذا جندهم الفراعنة واشركوهم في عدة معارك ضد اعدائهم .

وحتى في العصور المتأخرة استخدم الاخشيديون (في القرن العاشر الميلادي) وكذلك الفاطميون ابان حكمهم الطويل ، استخدموا السودانيين السود في جيوشهم . ولم ينته تسبين السود في جيوش مصر الا بعد مجيء الايوبيـين الذي اعتمدوا علـى الجند من الاتراك والاكراد والديلم (١) . وتحضرني بهذه المسألة حقيقة وهي ان من بين الاغراءات والحوافز التي دفعت تجار الرقيق لاقتناص الزنوج من البلاد الافريقية وفي كل العصور السالفة التي مارسوا فيها تجارة الرقيق ، قوة اجسام اولئك الافارقة التعساء الذين كانوا يساقون الى البلاد الآسيوية وغيرها لينخرطوا في سلك الجندية .

ولقد رأى محمد علي الزنوج السودانيين يباعون في اعداد كبيرة ارقاء في أسواق النخاسة بالحجاز ومصر ، فاقتنع بأنهم النوع الذي يبحث عنه بين الرجال ، والمادة المناسبة التي طالما تمناها . فراودتـه فكرة هي انه اذا فتح السودان فلا محالة سيحصل على الاعداد الكافية التي تفي بغرضه .

وثمة هدف آخر رمي اليه محمد علـي من الحصول على بني الزنج مـن السودانيين هو امداد مصر بأيد عاملة للكدح في حقول الزراعة والمصانع . وفي هذا الصدد يقول رتشارد هل : «ان تعليمات الوالي لقادة جيشه قد ركزت على حاجته للعبيد بمصر ليعملوا في مشاريعه الزراعية والصناعية . واهم من ذلك ليكونوا جيشه الاسود الذي كان يحلم به (٢) ويبين هل ايضا ان الباشا قد اقتنع بابقاء المصريين يفلحون الارض وانه لعلى يقين ان الشماليين من السودانيين راغبون عن الجندية .

1) Yousuf Fadl Hassan, The Arabs and The Sudan « 1967 » P. 49 .

2) Richard Hill, Egypt in The Sudan 1820 - 1881 « 1959 » P. 7 .

وعلى ذلك فان السود كانوا أمنية الفؤاد ومعقد الرجاء بالنسبة اليه ، فلا غرو فقد وضع بعض المؤرخين هذا السبب على رأس قائمة الدوافع التي حدت بمحمد علي ليفتح السودان .

ولا بد لنا ونحن في معرض الحديث عن مشروع محمد علي العسكري لان نورد نقطة وهي ان الباشا ، اذ يهتم بالجيش ، انما يضع نصب عينيه ان سلطان تركيا لن يتركه وشأنه او يرحمه اذا تضعضعت قواه الحربية . ومن اجل ذلك فان اعداد جيش قوي اضحى مسألة حياة او شيئا يتعلق بكيانه وبقائه على قيد الحياة مع ما يتمتع به من مكانة مرموقة وسطوة .

(٢) شيء آخر أفعم نفس الباشا بالاماني المعسولة في الكسب الذي يعود عليه بعد غزو السودان وهو الحصول على الذهب الذي يوجد – في تقدير محمد علي – بكميات ضخمة في بعض الاماكن كجبال بني شنقول وغيرهـا . وفي احتمال الاثراء اغراء وسحر عجيبين ، وللذهب بريق واي بريق ! وهو بلا مراء عنصر ثمين سيمكنه – بعد ان يقتنيه – من اتمام مشاريعه العمرانية وتطوير مصر في الميادين المختلفة . وفيما يظهر ان السودان قد اشتهر بالذهب منذ القدم ، فاكتشاف الذهب والزمرد في صحراء شرقي السودان قد فتح الباب على مصراعيه للباحثين عن الثراء من العرب الوافدين من مصر منذ اوائل القرن التاسع الميلادي (١) . وقد ذكر نعوم شقير في كتابه « جغرافية وتاريخ السودان » اشتهار السودان بالذهب، حيث يقول عـن اسباب فتح هذا البلد : « الاستيلاء على مناجم الذهب في سنار التي طبقت شهرتها الآفاق وكثرت فيها الاقاويل والقصص الموضوعة لا سيما في مدينة القاهرة » .

ان الظن بوجود الذهب والمعادن النفيسة بكميات كثيرة في السودان كان من المغريات التي شجعت ايضا جنود محمد علي الالبانيين وغيرهم على الاندفاع نحو هذا البلد بهدف الكسب والثراء .

(٣) ومن اهداف محمد علي في غزو هذا البلد القضاء على بقايا المماليك الذين هربوا الى السودان . ان الحديث عن المماليك طويل ويمكننا ان نجتزيء بالقول انهم كانوا يحقدون على محمد علي ويتربصون به الدوائر ويعدون العدة لحربه . فهم بلا ريب موتورون لضياع سلطانهم على مصر ؛ بيد ان الباشا قد استطاع بدهائه ان يستميل بعض قادتهم وبذا فشل مخططهم . ومع ذلك لم يطمئن من ناحيتهم ، وكان من اللازم ان يقطع دابرهم فحبك لهم مجزرة القلعة المشهورة (اول مارس ١٨١١) التي اغتال فيها امراءهم وقضى على كثير منهم في القاهرة وبقية انحاء القطر المصري . وقد ادانه على هذه الفعلة الشنيعة بعض المؤرخين لانه غدر بالمماليك وهم

1) yousuf Fadl Hassan, The Arabs and The Sudan , P. 50 .

ضيفان عنده ! غير ان البعض قد برر هذا الغدر بأن افعال المماليك كانت تتنافى ومصلحة البلاد وكانوا اشبه بحكومة داخل الحكومة المصرية .

نعود الى المماليك الذين نفدوا بجلودهم من سيف الباشا الذي كان مسلطا على رقابهم وجاءوا الى السودان عام ١٨١٢ . فهؤلاء الهاربون بمن معهم من عبيدهم كانوا في كامل عدتهم وعتادهم الحربي ، الامر الذي مكنهم من انشاء دولة في دنقلا رغم الحروب التي كانت تدور رحاها بينهم وبين الشايقية . وفي ذلك الوقت «طارت الشائعات في مصر وجسمت قوة المماليك في دنقلا وقدر عددهم بحوالى ١١٠٠ رجل ومعهم ما بين ٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ من السود يتسلحون بالمدافع التي صنعوها محليا ، وكذلك معهم نفر من الجنود الانكليز والفرنسيين ... » (١) ومن الواضح ان هذا التقدير لقوة المماليك هنا فيه كثير من المبالغة والتهويل لأن عددهم كما تشير المراجع لا ينوف على الثلاثمائة مقاتل .

واكبر الظن ان محمد علي قد جن جنونه لهذه الشائعات لانه خشي ان يستفحل أمر المماليك في السودان فلا يقوى على استئصال شأفتهم ، او خاف ان يصحو ذات صباح فيجد ان الاوان لسحقهم قد فات فيندم ولات ساعة مندم ! كتب في هذا الصدد الدكتور مكي شبيكة فقال : وقد ينتهزون فرصة ضعف الملكات الصغيرة في السودان ويبتلعونها الواحدة تلو الاخرى ، وقد يتقدمون شمالا بقوتهم الجديدة لاسترداد حقهم الذي اغتصبه محمد علي ، وقد يقودون جيشا من السود الذين عرف وسمع عن قوة بأسهم وشدة مراسهم ما عرف وسمع .

ولكي نزيد موضوع المماليك وتخوف محمد علي من جانبهم ايضاحا يحسن بنا أن نقف على ما ذكره الشاطر بصيلي عبد الجليل حيث يقول : « وكانت خشية مصر أن يتعاون المماليك مع اثيوبيا على قيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الاوسط وتنفذ الى ساحل البحر الاحمر وتنشيء في هذا الجزء من وادي النيل مشيخات وزعامات تخضع في صورة او اخرى للمماليك الذين يرتبطون في شكل ما مع دولة اوربية عن طريق محالفات، صداقة وامتيازات تجارية » (٢) .

ازاء كل هذه المخاطر من ناحية المماليك، لم يسع محمد على الا ان ينفذ جيشه الى السودان ليقطع دابرهم ويتخلص من شرورهم ويضم دويلتهم الى بقية املاكه .

(٤) تأتي بعد ذلك مسألة اكتشاف منابع النيل — هذا النهر الخالد : شريان الحياة بالنسبة للمصريين . فالوقوف على منابعه وروافده وفيضانه وكل ما يتعلق به من حقائق كان ضرورة ملحة للقائمين بالامر في مصر . فهم ، بحكم وضعهم

(١) Richard Hill, P. 8.

(٢) الشاطر بصيلي عبد الجليل « معالم تاريخ سودان وادي النيل » ص ٢٧ .

السياسي ، لا بد من ان يطمئنوا الى ضمان ما تحتاج اليه بلادهم ، بل السودان نفسه من مياه النيل ، ذلك لأن ملوك الحبشة وحكام النوبة — فيما تقول المصادر — قد هددوا مصر في الماضي (في القرنين : السابع عشر والثامن عشر الميلاديين) بتحويل مجرى النيل حتى لا تصل مياهه اليها ، وبالتالي تتعرض حياة المصريين الى الضياع .

ان اهتمام محمد علي باكتشاف منابع النيل انما يرجع في المقام الاول الى الانتفاع بمياه النيل الثرة في مشاريع الزراعة والعمران ، والى توسيع دائرة المعارف الانسانية ونعني بذلك الاستزادة من العلم . وفي تقديري ان النيل قد خلب عقول القدماء بروعته وحير الالباب بفيضه وسحره . ولعل حب الاستطلاع قد اغرى حكام مصر القديمة باكتشاف أسراره وفك طلاسمه ، فارسلوا الحملات لهذا الغرض ؛ لكنها باءت جميعا بالفشل فذهبوا الى تصورات خرافية وقالوا : « ان الآلهة تريد اخفاء هذه المصادر عن اعين الناس لغرض في نفسها » وقال هوميروس الشاعر اليوناني المشهور : « النيل سيل نازل من السماء ، اما المصريون القدماء فقد رفعوه الى مقام الآلهة كما هو مشهور في تاريخهم » (١) ولقد كتب المؤرخ محمد رفعت عن حملة فتح السودان فقال : « كان من اغراض الحملة حل اللغز الذي حير الناس منذ « هيرودوت » وهو محاولة استكشاف منابع النيل والسير فيه الى اقصى نقطة ممكنة ، ولذلك ارسل محمد علي مع الحملة ، تشبها بنابليون ، علماء فرنسيين ليمدوا ابنه اسماعيل قائد الحملة بالمعلومات الجغرافية والخاصة بالتعدين » (٢) .

(٥) ومن بين الاسباب الهامة التي عجلت بغزو السودان ان هذه البلاد كانت حينذاك على حالة لا تحسد عليها من الضعف والانقسام . ومن آيات ذلك ان سلطنة سنار كانت تنحدر سريعا نحو هاوية الخراب ، فملوكها اضحوا لعبا في ايدي وزرائهم من الهمج (قيل ان الهمج من العرب والنوبة ، وقيل انهم فرع من العوضية الجعليين) . ومنذ ايام بادى ابي شلوخ (١٧٢٤ — ٦٢) أشهر ملوك سنار لانتصاره على ملك الحبشة ياسو) وآخر من تمتع بعز السلطان — رغم انه عزل اخيرا ! — فقد آلت السلطة الحقيقية الى ايدي هؤلاء الهمج فكانوا يولون من يشاءون ويتخلصون ممن يشاءون من السلاطين حتى اضحت صولة الملك باهتة . فما كان من السلاطين الا ان انجرفوا في تيار الملذات والترف . وفي هذه الانحرافية ضعف على ضعف . وحتى الهمج انفسهم كانوا ينفسون على بعضهم البعض السلطة ويحيكون الدسائس والمؤامرات لتولي منصب الوزارة . وكان حكمهم ترديا تستند

(١) نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ١٨ .

(٢) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة (١٩٢٧) محمد رفعت ص ١٤٠ .

قوة السلاح . وهذا النوع من الحكم ـ وفقا للشاطر بصيلي ـ « يغرس معه بذور الانحلال وتتكس معه الظروف القائمة الى حالة بدائية » .

وعلى الجملة فان حكومة سنار قبيل الفتح التركي ـ المصري قد اصابها الوهن والانحلال والعقم .

ولقد انتظم القطر بأسره روح الانفصال وانعدم الشعور بالقومية فتعددت الممالك الصغيرة والمشيخات التي كانت تتناطح فيما بينها ، والتي لم تجمعها جامعة وإفتقرت الى القائد الذي يجمع شتاتها ويخلق منها وحدة متكاملة . فكل قبيلة كانت متقوقعة في عقر دارها بعيدة عن امكانية تآزرها مع غيرها ضد اي غاز اجنبي . وفي ذلك يقول الشاطر بصيلي :

« انقسمت القبائل الى معسكرات بتطاحن بعضها البعض وعمل اليأس والقنوط الذي خيم على الحياة اليومية على انهيار المجتمع وتكونت منه مجموعات مسعورة تعمل على السلب والنهب فتركت الاراضي الزراعية وهجرها القائمون عليها قانعين بالقليل ، والتجأ الشعب الى اصحاب السجاجيد وخلفائهم في قضاء الحاجات، من دفع الاذى والضرر وجلب للمنفعة والخير والمثوبة من الله تعالى » (١).

(٦) ولان محمد علي كان يخطط للنهوض بمصر اقتصاديا واجتماعيا فقد عنى بالتجارة عناية فائقة خاصة وان موقع مصر الجغرافي الممتاز قد شجعه على المضي قدما في مشاريعة فبنى الاسطول التجاري . ومن ثم شرع يبحث عن الاسواق المناسبة فأيقن ان ذلك لا يتأتى الا بالغزو . وعلى ذلك فان السودان في تقديره تربة صالحة يمكن ان تستغل موارده ، وتؤسس فيه اسواق للمنتوجات المصرية وتحتكر تجارته ـ هذه التجارة التي كانت ضرورة للمصريين منذ عهد سحيق او منذ زمن الفراعنة الذين لاقوا في تأمينها ما لاقوا من عنت ومشاق .

ما من ريب ان التجارة بين السودان ومصر قد توقفت او كادت بسبب الفوضى التي ضربت أطنابها في العهد الاخير لمملكة الفونج بعد ان كانت رائجة تدر دخلا كبيرا لكلا البلدين . ذكر نعوم شقير ان سنار قد اشتهرت بالثروة والغنى ،وكان التجار يجيئون اليها بالبضائع من مصر والحجاز والهند عن طريق النيل والبحر الاحمر . ويبين ان اهم صادراتها التجارية الذهب والعبيد وسن الفيل والخرتيت والزباد والعسل والسياط والابنوس والجلود والقصاع والبغال والابل . ومن اجل ذلك هدف محمد علي الى اعادة المياه الى مجاريها وارجاع النشاط التجاري كأحسن ما يكون الارجاع عسى ان يحقق ربحا كبيرا يعود على القطرين بالخير العميم .

(١) الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ص ٩٦ .

(٧) ان الحديث عن التجارة يقودنا الى حقيقة هي أن والي مصر قد اعتزم غزو السودان ايضا للتوسع وبسط نفوذه على سواحل البحر الاحمر الغربية بعد أن ثبت قدميه ومهد لتجارته في الجزيرة العربية حتى الخليج الفارسي .

(٨) ثمة نقطة جديرة بالملاحظة أوردها رتشارد هل في كتابه « مصر في السودان » وهي أن التاريخ المصري يحوي بين دفتيه مبدأ يقرر ان اي أحد ،كائنا من كان ، يسيطر على البحر الاحمر يصير تلقائيا راعيا للاماكن المقدسة في الحجاز ومسيطرا على طرق الحج الى بيت الله الحرام . واذا تسنى لمحمد علي ان يبسط نفوذه على البحر الاحمر فسوف يوجه التجارة في ذلك البحر وجهة تحقق مصلحة مصر . وفي ذلك الوقت « لم يكن الباشا بغافل عما يجري على سواحل الجزيرة العربية حيث اخذت شركة الهند الشرقية تدعم مركزها وتوطد نفوذها في تلك السواحل العربية . ومن هنا فان حملات محمد علي ضد الوهابيين ما بين عامي ١٨١٣ و ١٨١٨ ، وزحفه على السودان سنة ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ كانتا مرحلتين لمخطط واحد » (١) . وعلى ذلك فقد أزمع الا يسبقه آخرون على امتلاك تلك البلاد ومن بينها السودان .

(٩) المعت في فقرة سابقة الى ان محمد علي كان معجبا بنابليون بونابرت اذ جعله مثله الاعلى وقدوته الحسنة ، ولطالما باهى بأنه رأى النور في نفس العام الذي ولد فيه نابليون (١٧٦٩) ومما لا شك فيه ان اسم نابليون مرادف للفاتح الذي قهر الدول وأسس الامبراطورية الضخمة . ومحمد علي ، كتلميذ لنابليون، ان صحت هذه التسمية لا بد له من أن يتوسع هو الآخر ويبتني لنفسه مجدا وفخارا عظيمين . او كما قال ضرار صالح ضرار : « وكذلك كان محمد علي باشا يريد أن يصبح قابضا على زمام الجزيرة العربية حتى يصل المحيط الهندي ، وعلى السودان حتى يسيطر على شواطيء البحر الاحمر وحوض النيل ، ثم ينظر بعد ذلك الى البحر الابيض المتوسط . هكذا كان والي مصر واسع الطموح ويريد ان يشيد امبراطورية واسعة الارجاء في الشرق الاوسط قرب الامبراطورية العثمانية » (٢).

(١٠) نضيف الى قائمة هذه الدوافع وهي كثر ، ما اشارت اليه بعض المراجع وهو أن محمد علي ، وقد امتاز بالحصافة وبعد النظر ، ربما فكر في الاعتصام بالسودان اذا اضطر تحت وطأة الضرورة الملجئة الى ذلك ، ومن يدري فقد تقلب له الايام ظهر المجن وتدفعه دفعا الى الهروب من خطر داهم او موت محقق علما بأن الدول الاخرى قد تألبت عليه فيما بعد .

(١١) ان وجود عناصر مشاغبة في جيش محمد علي من الالبانيين

(١) ريتشارد هل (مصر في السودان) ص ٨ .

وغيرهم لا يتمشى وبناء جيش حديث على أدق النظم الاوربية ، بل لا يساعد على استتباب الأمن في البلاد . وما حوادث السلب والنهب والثورات التي قاموا بها في الماضي ببعيدة . والآن هاهم اولاء يعودون من الجزيرة العربية وهم مظفرون بعد ان حققوا ما حققوا من انتصارات . فاذا تركهم الوالي وشأنهم في عاصمة البلاد او في المدائن الاخرى فلربما يعيثون فسادا وفوضى ، وبالتالي لا يتركون له فراغا لتنفيذ سياسته الاصلاحية وغيرها . اذن تقضي الحكمة بابعاد هذه الاعداد من العسكر الى حروب اخرى تستنفد طاقاتهم وتلهيهم عن مصر ، فارسلهم في حملة الفتح يقينا منه ان السودان سيكون حقلا لنهب وسلب هذه العناصر الخطيرة .

(١٢) اورد الشاطر بصيلي رايا في كتابه « معالم تاريخ سودان وادي النيل » فحواه ان محمد علي كان يستهدف اعادة النظام في السودان ، وتوثيق العلاقات بين البلدين !! ونحن نشك في ان نية محمد علي كانت خالصة لوجه الله او لوجه السودانيين . فالباشا كما جاء في ترجمته قد زاول التجارة — تجارة الدخان — وقضى شطرا كبيرا من حياته عاكفا عليها حتى ترسبت في وجدانه وصبغت تصرفاته فيما بعد . يقول المؤرخ محمد رفعت عن هذا الطور من حياة الباشا « ان تدربه في التجارة كان له أعظم أثر عملي في حياته السياسية اذ مكنته غريزة التاجر من الانتفاع بموارد البلاد زراعيا وصناعيا وتجاريا وبذلك حصل على الثروة اللازمة لانشاء دولة على أقوى وأمتن القواعد » (١) وعلى ذلك فالرأي الامين يقضي بالقول بأن محمد علي انما جاء الى السودان ليعب من خيراته ، وليشبع نهمه وغريزة حب الامتلاك والعظمة في نفسه . وهي غريزة متأصلة في اعماق الكثيرين من خلق الله . هذا كل ما نعرف وما ينبغي أن نعرف كما يقول الشاعر الانجليزي كيتس .

(١٣) ويقولون ان محمد علي قد اعتزم الاحتفاظ بشطر الوادي الجنوبي كي يتسنى لمصر اتمام « رسالتها » من حيث واجب النهوض بالسودان الى مصاف الامم الراقية ! وهذه ايضا مسألة فيها نظر ! واغلب ظني ان المستعمر ، كائنا ما كانت نواياه ، فانها دائما وابدا موضع شك . ومن الخطل ، بل من السذاجة ان نصدق مثل هذا القول . فنحن على رأي القائل :

وللمستعمرين وان الانوا   قلوب كالحجارة لا ترق

(١٤) أخيرا يذكر الدكتور محمد فؤاد شكري دافعا آخر وهو ان محمد علي قد استند الى ما يعرف باسم «نظرية الخلو أو الملك المباح» وفحوى هذه النظرية أن السلطة كانت مغتصبة من اصحابها الشرعيين ، ونشرت قبائل العربان الفوضى في

(١) محمد رفعت « تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة » (١٩٢٧) ص ١٠٢ .

انحاء السودان . فاذا استطاع حاكم ان ينتزع هذه الاراضي من قبضة اولئك الذين اغتصبوا كل سلطة بها ، وان ينشيء حكومة مرهوبة الجانب تذود على حياضها وتصون السودان من الغزو الاجنبي وتكفل لاهله الاستقرار والعيش في هدوء وسلام ، فقد صار واجبا ان يستمتع هذا الحاكم بكل ما تخوله سلطته من حقوق السيادة على هذه الاراضي الخالية وهذا الملك المباح اصلا ! »

نحن لا نملك ازاء هذا التبرير الا أن نقرر ان هذه نظرية خاطئة من أساسها وهي أشبه بقانون الغاب لانها لا تعدو ان تكون تغولا أو دعوة للتغول على حقوق الآمنين ، وتعديا على حدود الاخرين لا لشيء غير انهم ضعفاء او مستضعفون . والا كيف يستقيم عقلا ان يكون السودان خلوا لا يمتلكه احد وفيه سلطنة سنار التي كانت في بعض عهودها ذات عزة وسطوة وهذه المملكة وان اصابها الوهن وتعاورتها البلايا في أطوارها الاخيرة الا انها ما زالت قائمة آنذاك . وان الدويلات الصغيرة وان استقل بعضها الا ان أغلبها ظل تابعا لسنار ضعفت هذه التبعية أم قويت . وهنالك سلطنة دارفور ، وما كردفان التي فتحها الدفتردار بقوة السلاح الا ولاية من ولايات هذه السلطنة . واذا عنى باولئك الذين اغتصبوا السلطة المماليك فان نفوذهم كان محصورا في دنقلا .

وقول الباشا عن صيانة السودان من الغزو الاجنبي مردود ايضا لان الغزو التركي نفسه اجنبي . واي غزو اجنبي سيكون ادهى وامر من غزو الدفتردار لكردفان وحملاته الانتقامية ومجازره البشرية في حوض النيل ؟ وعلى ذلك فان هذه النظرية تمحل للاسباب ليسوغ لنفسه غزو هذا البلد .

تلك جملة القول في اغراض محمد علي في فتح السودان ولا يفوتنا أن نضيف حقيقة وهي ان طبيعة محمد علي التي فطرت على حب الحروب والفتوح حدت به ليقدم على غزو السودان سنة ١٨٢٠ — ٢١ .

والآن الى السؤال الخالد وهو الى اي مدى وفق محمد علي في تحقيق مآربه من فتح السودان في عام ١٨٢١ ؟

بادىء ذي بدء دعنا نأخذ هدفه الاكبر وهو الحصول على السود الاشداء للجندية وللاعمال في المزارع ودور الصناعة المصرية وربما للخدمة في البيوت . لعلنا نذكر ان محمد علي بعد أن زفت اليه البشرى بالاستيلاء على مملكة الفونج بعث بابنه ابراهيم باشا الى السودان ليعين اخاه على وضع الاسس لادارة هذا البلد وللوقوف على منابع النيل وللحصول على الارقاء . فوصل سنار في اكتوبر ١٨٢١ ، واتفق الاخوان على أن يذهب اسماعيل الى فازوغلي للذهب ويتحرك ابراهيم الى مناطق الدينكا . وقد بدأ ابراهيم سيره صوب الجنوب في ٥ ديسمبر ١٨٢١ غير انه اصيب

بمرض اقعده عن مواصلة السير قبل ان يترك الجزيرة وراء ظهره ، فرضي من الغنيمة بالاياب . وتولى طوسون بك قيادة جيشه فوصل الى ارض الدينكا . ولكنه لم يحصل على اكثر من مائتي زنجي . وفي رواية اخرى كانت الحصيلة ستمائة رجل عاد بعدها الى سنار . ومهما يكن من شيء فان مأمورية ابراهيم باشا لا قتناص السود لم تكلل بالنجاح المنتظر منها .

وفيما يتعلق بمجهودات اسماعيل في هذا الميدان فقد ارسل احد كبار قادة حملة الفتح ويدعى قوجه احمد اغا على رأس كتيبة الى جبل تابى فاصطادت الفا وستمائة زنجي ارسلوا توا الى مصر كدفعة اولى . (١) وقد قفل اسماعيل راجعا من اغارته . ولكن حظه لم يكن وافرا في اعتقاده لانه جاء بحوالي ٤٧٧ رقيقا صالحين للخدمة العسكرية وبقيتهم من النساء والاطفال .

على ان ظمأ محمدعلي لاقتناء الزنوج لا يروى ، فكتب الى سلطان دارفورليتفق معه على ارسال عدد من الزنوج . كما أمر أن تجبى الضرائب ان امكن ارقاء من الذكور الاقوياء . ثم مضى يكاتب ابنه اسماعيل ، وفي احد خطاباته يقول : « ان الغرض من انتدابكم الى تلك الديار باختيار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيزكم بسواد عظيم من الجنود والمهمات واللوازم العديدة هو عبارة عن الحصول على العبيد اللازم ابتغاؤهم وفق المطلوب وايصالهم الى ثكنات اسوان غير معرضين للضياع والتلف . وليس في نيتنا ولا في نظرنا غاية اعز من هذا الامل كما هو ظاهر وان قيمة العبيد الصالحين عندنا بمثابة الجواهر نظرا لمقتضى الوقت والحال . بل هو أعز من ذلك واجل كما هو بديهي واظهر » (٢) .

ورغم هذا التكالب من جانب الباشا للزنوج فان الاعداد التي ارسلت – كما يتضح من معظم المراجع – لم تكن بكافية لمتطلبات جيشه . على اننا نجد في كتاب « تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة » لمحمد رفعت، ان عدد الذين جمعوا من السود ثلاثون الفا تم تدريبهم على التمرينات العسكرية عام ١٨٢٤ وارسل منهم فرقا الى بلاد العرب واخرى الى السودان وارسل الباقي الى حرب الموره . ويستطرد هذا المؤرخ فيقول « ولكن النتيجة لم تكن سارة ابدا ، لان ابناء السودان لم يألفوا المعيشة الشاقة بعيدين عن أوطانهم ، ولم تقو أجسامهم الهزيلة على احتمال البرودة فمرض منهم عدد عظيم ومات معظمهم في سنين قلائل » (٣) .

يتضح من هذا ان محمد علي قد فشل في تحقيق هذا الهدف الكبير بالنسبة اليه رغم الجهود المضنية التي بذلها في هذا الشأن .

---

(١) السودان عبر القرون : الدكتور مكي شبيكة .
(٢) السودان عبر القرون : الدكتور مكي شبيكة ص ٩٨ .
(٣) تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة ، محمد رفعت ص ١٢٤ – ١٣٥ .

أما الهدف الثاني فهو الذهب . ولقد اعتقد الباشا – خطأ – ان بعض مناطق السودان غنية جدا بهذا المعدن النفيس او « ان السودان ترابها تبر » ! كأن طيفا الم بخياله شبيها بما جال في خاطر الشاعر الذي يقول :

والتبر كالترب ملقى في اماكنه   والعود في ارضه نوع من الحطب

وظل هذا الاعتقاد جازما عنده الى وقت طويل حتى استحال الى شيء اشبه بهوس تملك مشاعره ! ومن المعلوم ان محمدعلي كان يخطط للنهوض بمصر اقتصاديا واجتماعيا ، والذهب بالطبع عنصر ثمين يمكن ان ينفق من ثمنه على مشاريعه العمرانية .

تحقيقا لهذا الغرض توجه اسماعيل بعد فتح سنار نحو بني شنقول الى حدود الحبشة يصحبه العالم الفرنسي المسيو كيار للتنقيب عن الذهب . فحطت حملتهما الرحال في خور « أبو » بأرض الكماميل (٢٠ يناير ١٨٢٢) حيث يوجد التبر . وكم كانت دهشة اسماعيل عظيمة حينما لم يعثر الاعلى قطع صغيرة لاتستأهل قليلا من كثير مما تكبد من مشاق . واسماعيل ، كأبيه ، كان يظن ان تلك المناطق مليئة بمناجم للذهب لا ينضب معينها بدليل انه عندما خضع له ملك فازوغلى فرض عليه وعلى جباله جزية مقدارها « الف أقة من الذهب وألف عبد ! » اخيرا رجع اسماعيل الى سنار بعد ان منيت محاولته بالفشل.

على ان محمد علي لم تعجبه هذه النتيجة ، ولم يقتنع بما توصل اليه ابنه الشاب من بحث وتنقيب . فقر رايه على ان يزور السودان ويقف بنفسه على عمليات التعدين في بني شنقول رغم كبر سنه وضحالة معرفته في هذا الميدان . وهذا ان دل انما يدل على أن الامل لازال يفعم نفسه ، فصمم ان يبلغ بهذا الامر الى اقصى مداه . وقد وصل الخرطوم في ٢٣ نوفمبر ١٨٣٩ . وكان يستهدف ايضا ان يلم بالوضع الاداري هنا .

وفيما يختص بقصة الذهب فقد بلغ الباشا مقطع اليقين من تجارب الخبراء والفنيين بأن كميات الذهب الموجودة هناك ضئيلة ، ومن العبث ان تستخدم فيها وسائل التعدين الحديثة وتضيع فيها جهود واموال . وهكذا اخفق محمد علي في تحقيق هذا الغرض .

اما عن اكتشاف منابع النيل فقد بعث محمد علي ببعض رجاله في رحلات على النيل للاستكشاف في المدة ما بين ١٨٣٨ – ١٨٤١ ولكنها لم تتعد حدود نهر سوباط . وعلى هذا فان الباشا لم يقطع شوطا طويلا في ذلك المضمار .

واذا كان التوفيق لم يحالف محمد علي في تحقيق مطمعين اساسيين ، واذا كانت تجارة القوافل في السودان قليلة لاغناء فيها آنذاك ، فان حملة الفتح لم تكن

فاشلة كل الفشل ، بل حققت اغراضا واشياء حيوية منها ضمان انسياب مياه النيل الى مصر دون معوق اذ انتفى سبب اشفاق المصريين من تحويل مجرى النيل على ايدي السودانيين . كما اصبح البحر الاحمر جزءا لا يتجزأ من املاك مصر بعد سيطرة الباشا على ساحله الغربي . ونحن نعلم انه قد ضم الحجاز من قبل بعد حربه ضد الوهابيين .

ولا يفوتنا ايراد حقيقة هامة هي القضاء على نفوذ المماليك الذين طالما ارقوا جفني الباشا ، والذين استسلم منهم من استسلم في مراغه (جنوبي أرقو) ثم في شندي لقائد الحملة ، وفر منهم من فر الى خارج السودان . وعلى ذلك فقد غدوا اثرا بعد عين !

بالاضافة الى ما تقدم فان تجارة السودان اضحت تحت سيطرة محمد علي التامة فأوجد سوقا للمنتوجات المصرية وفتح الباب على مصراعيه لمن يريد من المصريين ان يستثمروا امواله هنا . وكذلك أمن حدود مصر الجنوبية ، وهيأ لنفسه الملجأ الذي يعتصم به اذا ما دعت الضرورة اواضطرته الدول الاجنبية للفرار من مصر .

وقصارى القول فان محمد علي باشا لم يوفق في الكسب المادي من غزو السودان بالصورة التي جسمها خياله قبل الفتح . بيد انه حقق عديد الاغراض ومن بينها الكسبان : الادبي والسياسي اذ أسس امبراطورية مترامية الاطراف تطاولت الى مثلها الرقاب وتحلبت اليها الاشداق — اشداق المستعمرين . واضحى بفتوحه واصلاحاته بين معاصريه شخصية ديناميكية مرموقة يشار اليها بالبنان في ذلك الزمان .

***

الفصل الثاني

الفتح التركي — المصري (١٨٢٠ — ١٨٢١ م)

لعله من المهم ان نذكر في مستهل هذا الحديث عن حملة فتح السودان بعض الدوافع التي حدت بمحمد علي باشا ليغزو السودان — في ايجاز ملحوظ — لاننا فرغنا منها آنفا في الفصل السابق وآية ذلك اننا نعالج هذا الموضوع على اساس انه مقال قائم بذاته !

كان محمد علي باشا — على ما علمنا — يستهدف من فتح السودان الحصول على الزنوج الاشداء ليخلق منهم جيشا لتحقيق اهدافه التوسعية ، وليجد فيهم الايدي العاملة لفلاحة الارض ودور الصناعة المصرية . وهدف ايضا الى استنزاف ما في السودان من ذهب ليستعين بثمنه على اتمام مشاريعه العمرانية في مصر . ومن يدري فلربما كانت تستهويه صفرة الذهب ! كما اعتزم ان يقضي قضاء مبرما على البقية الباقية من المماليك الذين هربوا الى السودان واقاموا فيه دويلة حسب انها قد تنمو وتتوسع حتى تصير طامة كبرى عليه وعلى غيره . وهنالك فكرة استكشاف منابع النيل مصدر الخيرات لمصر ، وضرورة الرقابة على مياهه لكيلا تتهددها دولة فتهدد بالتالي حياة المصريين . وما من ريب ان السودان كان على جانب كبير من الضعف والانقسام ، مما أغرى الباشا بالسطو عليه . ولا ننسى اهمية تجارة السودان وما تجود به طبيعته من منتوجات هامة لمصر . ولان الوالي كان طموحا محبا للتوسع ، فقد اعتزم ان يستولي على سواحل البحر الاحمر ليجعل من ذلك البحر بحيرة مصرية خالصة ، بل يشيد له امبراطورية ضخمة . أضف الى ذلك فكرة ايجاد ملجأ يعتصم به الباشا اذا جنت عليه الليالي ، والليالي من الزمان حبالى ! اخيرا نكتفي من قائمة اهداف محمد علي بأنه اراد ان يبعد جنده الالبانيين وغيرهم عن مصر خشية ثوراتهم وفوضويتهم التي طالما اقضت مضجعه .

سير الفتح — المصري للسودان (١٨٢٠ — ٢١)

مما لا مجال للشك فيه ان غزو السودان كان مشروعا ضخما يحتاج الى كثير من التخطيط الفني الدقيق لكي تسير الحملة الى غايتها البعيدة دون ان تعترضها اهوال في الطريق . ومن أجل ذلك فقد بدأ محمد علي أول ما بدأ بالتمهيد لحملته

بإرسال وفد صداقة الى سلطان سنار (١٨١٢) يطلب اليه ان يطرد المماليك الذين لجأوا الى السودان بعد مكيدة قلعة القاهرة (١٨١١) التي قضى فيها على كثير من رجالاتهم . وقد حمل هذا الوفد لملك سنار هدايا فاخرة قدرت قيمتها بنحو أربعة آلاف من الريالات من الملابس الحريرية والاسلحة وما الى ذلك . وكان الوفد في واقع الامر يبطن اكثر مما يظهر اذ رمى الى هدف اكبر مما ذكر وهو التجسس على قوة السودانيين ومدى استعدادهم للدفاع عن ديارهم ، وما ينبغي ان يجهز من لوازم لانجاح عملية الفتح .

رجع الوفد بهدية من ملك سنار لم تنل اعجاب الباشا ، بيد انه سعد بالمعلومات التي جمعها الجواسيس ، وهي الاهم في نظره لانها كشفت الكثير عن ضعف هذه البلاد ، مما شجعه على انفاذ الحملة بعد فراغه من حروبه ضد الوهابيين بالحجاز .

ولكي يزيد اطمئنانا عن حالة السودان وعدم مقدرته على الصمود في وجه الغزاة ، ارسل محمد علي صهره محمدخسرو الدفتردار عام١٨١٨ في رحلة استطلاعية الى بلاد النوبة لكشف الطريق بين اسوان وحدود دنقلا ، ولمعرفة اخبار المماليك في تلك المناطق . وفي العام التالي آثر ان يذهب هو الآخر الى منطقة النوبة ايضا لنفس الغرض (١) .

ومما هيأ ذهن الباشا لفتح السودان دعوة بعض كبار رجال السودان له لكي يتدخل في شؤون هذه البلاد . ومن هؤلاء الملك نصرالدين ابو حجل آخر ملوك الميرفات ببربر . ذهب ابو حجل الى اداء فريضة الحج فرجع ليجد ان عرشه قد اغتصبه على ود تمساح . وفي رواية اخرى اوردها نعوم شقير في كتابه «جغرافية وتاريخ السودان» ان الهمج قد اساءوا الى الملك ابي حجل ، فيمم شطر مصر ، وحرض محمد علي باشا على فتح سلطنة سنار انتقاما منهم ومسحا لما لحقه من ضيم . بمعنى ذلك انه سوف لا يقاوم هو وقبيلته اذا ما جاءت حملة غازية . ثم ذهبت وفود سودانية اخرى يترأسها زعماء ثائرون على اوضاع الحكم في مناطقهم منهم ابو مدين المطالب بعرش الفور . وراح الىمصر ايضا الشيخ بشير ود عقيد من قرية ام الطيور قبالة عطبرة غرب النيل بهدف ان يعاونه الباشا ضد عدوه ملك نمر (٢) .

كل واحد من هؤلاء الشاكين كان يحفر لخصمه او يتظلم للباشا وكأنما هذا الباشا دار العدالة او سبيل الخلاص. فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار! ولعمري هذه كانت بمثابة شهادة واضحةلكل ذي عينين عما آلت اليه الامور في السودان

(١) رتشرد هل « مصر في السودان » ص ٨
(٢) ضرار صالح ضرار « تاريخ السودان الحديث » ص ٢٦

بسبب التناحر والخلافات التي فتت في سواعد ابنائه ، واقنعت والي مصر بأن السودانيين ، وهم في تلك الحال ، من العسير ان يتكتلوا ضد دخيل غاز . ولما ايقن ان الدول الاجنبية لن تهاجمه على اقل تقدير آنذاك ، لم يبق بعد ذلك الا اعداد العدة والزحف .

ولقد شهد يونيو ١٨٢٠ استعدادات واسعة النطاق شملت بعث علماء مع الحملة ليكونوا مرجعا لقائدها في النواحي الجغرافية وامور التعدين وما الى ذلك من الامور الفنية التي تتطلب دراية وعلما . يذكرنا هذا الاجراء بما قام به نابليون بونابرت في حملته على مصر حين استصحب عددا من العلماء والفنيين . فلا غرو فالباشا معجب بنابليون وما فتىء يطبق خططه الحربية .

كانت استراتيجية والي مصر – كما يقرر هل – بسيطة تتلخص في انفاذ حملتين : احداهما لضم البلاد النيلية حتى سنار . وقد عقد لواءها لابنه اسماعيل كامل ثالث أو اصغر انجاله . والاخرى يقودها صهره الدفتردار الى كردفان ودارفور . اما حملة سنار فقد كان قوامها حوالي اربعة آلاف من الجنود (وفي رواية ٤٥٠٠) منهم سلاح الفرسان ، ويتكون من الاتراك والارناؤط والمغاربة والالبان . وسلاح الطوبجية أصحاب المدافع (معهم ٢٤ مدفعا) تحت قيادةضابط أمركاني . ولا ننسى العبابدة من الصحراء النوبية ومصر العليا الذين بلغ عددهم ٧٠٠ رجل بجمالهم . وهناك جند من شمال افريقيا وسود من اواسطها ! اذن كان هذا الجيش خليطا غريبا من عناصر مختلفة .

لم يغفل محمد علي الدور الفعال الذي تلعبه الدعاية في النفوس ، فهي كالاخلال بتوازن العدو النفسي ، ضرورة لا محيص عنها . هكذا ينبئنا التاريخ العسكري في كل زمان ومكان . فالباشا ، ايمانا منه بهذا العامل ، بعث مع الحملة بعض كبار العلماء السنيين لان سكان السودان كانوا سنيين ، وهم القاضي محمد الاسيوطي الحنفي ، والسيد احمد البقلي الشافعي والشيخ السلاوي المغربي المالكي ليقنعوا السودانيين بالاستسلام دون اراقة الدماء لان الخضوع لجلالة السلطان امير المؤمنين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب ديني ، وان دينهم يحتم عليهم الا يقاوموا جيش خليفتهم !!

لست ادري على وجه التحقيق مدى استجابة الاهلين في ذلك الوقت لهذا التبرير الذي قدمه هؤلاء العلماء للسودانيين. فالناس على اية حال مكرهون لقبول اي شيء يفرضه اولئك الغزاة الاجانب لان سيوفهم كانت مسلطة على الرقاب ،على رأي المثل العربي « مكره اخاك لا بطل» . وتشير بعض المراجع الى ان محمد علي قد اضطر الى اصدار فتوى تبيح له غزو السودان لكيلا يتحرج او يرفضجنوده المسلمون محاربة اخوانهم في الدين دون مبرر أو وجه حق !

وهكذا يتضح لنا ان محمد علي قد استغل الدين استغلالا بشعا ليحقق مآربه بأي ثمن : وحري بنا في هذا المجال ان نومىء الى حقيقة اوردها رتشرد هل وهي ان المؤرخين لم يعثروا بعد على برهان قاطع يدلل على ان محمد علي استأذن الباب العالي في فتح السودان ! معنى ذلك ان مخاطبته للمواطنين هنا بأن دينهم يفرض عليهم ألا يحملوا السلاح في وجه جيش خليفة المسلمين ان هي الا افك !

من واجب علماء الحملة ايضا مراقبة اعمال العسكر حتى لا يتعدى الاراذل منهم حدود الله او يقوموا بأعمال مجافية لما جاء في الشريعة الاسلامية الغراء .

سير حملة سنار

تحرك الجيش بقضه وقضيضه من القاهرة نحو الجنوب بالبر الغربي والنيل في أوائل يوليو ١٨٢٠ م تحمل عدته وعتاده ثلاثة الف مركبا وثلاثة الف جملا . وبعد أن تخطى الشلال الاول توغل الجيش في بلاد النوبة التي كان يحكمها في الدر حسين كاشف الذي انتوى ان يذود عن حياضه بالغا ما بلغ الخطب من فداحة . على أن أخاه حسنا كان فيما يظهر واقعيا اذ رفض ان يقر أخاه على ما اعتزم . فما عتم حسين أن هجر دياره ونفد بجلده الى كردفان . فعين اسماعيل باشا حسنا حاكما على المنطقة الواقعة بين أسوان وحلفا .

من حلفا واصل اسماعيل مسيرته في بلاد السكوت فالتقى بحاكمها الكاشف حسن وردي الذي اتخذ من قلعة جزيرة صاي حصنا حصينا لانه امتلك عددا من البنادق والمدافع ! هذه الحقيقة تدحض القول بأن كل قبائل السودان « همجية لا تعرف استعمال الاسلحة النارية » . غير أن وردي لم يستعمل هذه الاسلحة ضد المغيرين عليه ، بل رفع راية الاستسلام . فأمنه اسماعيل وأقره على منطقته . ثما هو الا ان بعد اسماعيل ، حتى تحفزت دواعي التمرد في نفس الكاشف على الناظر الذي تركه اسماعيل في سكوت . وسرعان ما بعثت اليه الحكومة المصرية جندا قبضوا عليه .

بعدئذ دان الملوك والزعماء في شمالي البلاد الواحد تلو الآخر ، فسلم صبير ملك المحس في دلقو ، فولاه اسماعيل امر منطقته . ثم تقدم طمبل محمد ادريس ملك ارقو بفروض الطاعة فعينه اسماعيل « كاشفا » على بلده تابعا لحاكم دنقلا المصري . والكاشف ضابط منوط به حفظ الامن وجمع الضرائب في منطقته .

ومن ثم دخل الجيش مراغه (جنوبي أرقو) وهي مركز للمماليك . ولا نزاع ان القضاء على المماليك ضالة الفاتحين المنشودة . ولكن عدد المماليك هناك كان قليلا . فسلم منه عشرون وهرب ستون ليستسلموا بشندي فيما بعد . اما اولئك الذين كانوا في دنقلا الاردي فقد فروا الى دارفور ، ومنهم من اتجه صوب الجزيرة العربية .

صمود الشايقية :

في ديار الشايقية اختلف الامر بالنسبة لسير الحملة الحثيث الذي لم تعترضه حتى ذلك الوقت عقبة فالشايقية الذين تعشقوا الحرية والانطلاق قد ثاروا على سيطرة العبدلاب منذ ايام السلطان بادي ابو دقن (١٦٤٣ ـ ١٦٧٨ م) او قبل مائة وخمسين سنة على وجه التقريب . وكانوا على جانب كبير من الاعتزاز باستقلالهم وكثرة عددهم وبراعتهم في القتال . وصفهم نعوم شقير في كتابه « جغرافية وتاريخ السودان » بقوله : « وقد اشتهر الشايقية في السودان بالشجاعة وحب الغزو كما اشتهروا بالضيافة والكرم ، وكانوا في حروب دائمة مع ملوك النوبة » .

لا غرابة اذن اذا وقفوا وقفة جبارة في وجه الطغاة المغيرين الذين طلبوا الى الشايقية ان يتخلوا عن خيلهم وسلاحهم ويتفرغوا للزراعة ويتركوا الحرب للذين يشغلون بالحرب ، ويدفعوا الجزية . هنا انبرى لهم زعماء الشايقية وهم الملك صبير كبير الحنكاب (نسبة لمركزهم حنك شمال ارقو) * والملك وردوا عليهم بقولهم: « أما الجزية فنؤديها بلا حرب ، واما خيولنا وسلاحنا فما نسلمها الا بالحرب لعلنا نفوز وتبقى لنا » (١) .

الواقع ان هؤلاء الزعماء لم يقبلوا حتى الجزية الا لانهم كانوا على ثقة من ان السلاح الناري فوق ما يطيقون . ومن نافلة القول ان نقرر ان في موقفهم هذا تحديا لا جرم . وعلى ذلك لا مندوحة لاسماعيل عن حربهم لانه خشي ان يترك وراء ظهره قبيلة مسلحة بهذه الصلابة والعناد .

كانت الجولة الاولى للشايقية الذين ارسل لهم اسماعيل مائة فارس لجس نبضهم « فأحاط فرسان الشايقية بهم احاطة السوار بالمعصم ، وانقضوا عليهم انقضاض النسور فقتلوا منهم ٧٥ رجلا وافلت الباقون وفيهم عشرون جريحا الى اسماعيل باشا . فلما رآهم طار صوابه ولم يعد له صبر حتى يأتيه المدد من الوراء » (٢) .

تلت ذلك معركة كورتي (٤ نوفمبر ١٨٢٠) او على الاصح معركة ام بقر وهي قرية قرب كورتي فيها التقى الجمعان . فظهر الشايقية وكأنهم اسد غاب ، وبرزوا كما يبرز الكماة الصناديد الذين لا يخشون الموت أو يرهبون الردى . كيف لا وفي مقدمتهم مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ قبيلة السواراب التي كانت على بعيرها تلهب الحمية وتضرم الحفيظة وتهون على الرجال بذل الارواح في سبيل الحرية والوطن . وقصة مهيرة ، هذه الفتاة الجريئة ، تعيد الى اذهاننا موقف سلمى ام زمل من

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٤٩٥
(٢) نفس المرجع .
* والملك جاويش كبير العدلاناب (مركزهم مروى) والملك عمر كبير العمراب وردوا.

خالد بن الوليد قائد جيش المسلمين في حرب المرتدين . سلمى هذه كانت تقف على بعير ايضا « تضرم النخوة في قلوب جندها وترد الشجاعة الى من ادبر للفرار » (١).

من أسف فان الشايقية قد خسروا المعركة تحت وابل الرصاص الذي انهمر عليهم كالمطر . فاستشهد منهم زهاء ٨٠٠ رجل . وكما نرى فان القوتين غير متكافئتين هؤلاء يحملون السلاح الابيض ، واولئك يقذفون الحمم من بعيد . ولولا ذلك لصارت الحال غير الحال وتغير مجرى المعركة . وعقب هذه الكارثة التي حاقت بأبطال الشايقية اندفع اسماعيل بعسكره وفي حقد دفين نحو كورتي فأحرقها ليشفي غليله !

ما كاد الشايقية يخسرون هذه الجولة حتى عبروا النيل للضفة الشرقية ، وتحصنوا بطابيتي حنك وكجبى فلحقهم اسماعيل واضطرهم الى الجلاء منهما . فتحصنوا في قلعة بجبل الدقر . فما كان منه الا ان رماهم بقنابل المدافع ، الامر الذي أجبرهم على الخروج . فلاحقهم الاعداء واعملوا السيف في الرقاب . وثمة مسألة تتناقلها الالسنة في وقتنا هذا هي ان السفلة والانذال من جند اسماعيل استباحوا أعراض الشايقية وهتكوا حرماتهم . غير اني لم اعثر على نص في هذا الصدد ، مما يضعف من احتمال وقوع مثل هذه الطامة . وقد اسر الاتراك البعض ومن بينهم صفية بنت الملك صبير ، فأحسن اسماعيل معاملتها وردها مكرمة معززة الى والدها، الشيء الذي جعله يكبر هذا الروح ، ويلقي السلاح مستسلما لاسماعيل. وكذلك كان موقف اسماعيل مع مهيرة التي أعادها الى ذويها دون ان يمسها سوء ! وبعد ذلك سلم الملك عمر . ولم يبق الا الملك جاويش ـ وهو اكبرهم ـ فآثر أن يفر الى شندي ليعيد الكرة على الاعداء من هنالك عسى أن تدور عليهم الدائرة . بيد انه سلم أخيرا في شندي .

ومن عجب فان الشايقية بعد كل هذا قد انخرطوا في سلك جنود اسماعيل لانه رأى ان يفيد من شجاعتهم وطاقاتهم الحربية فأصبح اعداء الامس اصدقاء اليوم! فاذا لم يحققوا نصرا فلا اقل من ان يفيدوا من المنتصرين ، او على راي القائل (ولعله المرحوم العقاد ان لم تخني الذاكرة) « اذا لم تكن ما تريد فأرد ما يكون » .

اجمال القول في موقف الشايقية انهم اعدوا للقاء العدا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، فبلغت قوتهم في بعض الروايات ثلاثين الفا من الخيول والجمال مع اسلحتهم . ولقد استماتوا في الدفاع عن ذمارهم ، فلم تهزمهم شجاعة الاتراك والالبانيين وانما هزمهم السلاح الناري وحده . وقبل أن نتوقف عن الحديث عن هذه القبيلة لا بد من الاشادة بموقف المراة الشايقية التي وقفت بجانب الرجل تنفث فيه

---

(١) عباس محمود العقاد « عبقرية خالد » ص ١٢١

العزيمة والحماس ليذود عن وطنه أو يهلك دونه .

فتح بربر (١٨٢١)

واصلت الحملة مسيرتها في فبراير ١٨٢١ فمخرت المراكب عباب النيل وتبعتها فرقة لحمايتها ، وزحف اسماعيل بفرقة أخرى عبر صحراء بيوضة فنزل على النيل عند الباقين . ومن ثم سار حتى حط الرحال في ديار الميرفات أو في قرية الغبش قبالة بربر (٥ مارس ١٨٢١) ليستقبل زعماء العشائر ، ويضمن خضوعهم وولاءهم له . فكان أول المستقبلين الملك نصر الدين ابا حجل ملك الميرفاب . ونحن بالطبع نذكر دعوته لمحمد علي باشا ليغزو السودان ! وقد رحب ابو حجل باسماعيل وهنأه على انتصاره على الشايقية !! هذه صورة من صور التفكك والنزاع بين القبائل . ثم أوفد الملك نمر ابنه لمقابلة اسماعيل ، واعلان الطاعة والانقياد له . ولكن الاخير تأبى في كبرياء وصلف والح على حضور مك نمر شخصيا . فما عتّم مك نمر أن شد الرحال الى ابن الباشا .

تختلف الروايات عن مقابلة اسماعيل لنمر ، فالمؤرخون المصريون وعلى راسهم نعوم شقير ، يقولون بأن نمرا جاء الى الباشا طائعا « فأمنه وكساه واقره على بلاده » . ويقول الشاطر بصيلي ان اسماعيل قد احسن معاملة نمر وأكرم مثواه . ونحن نشك في هاتين الروايتين لان المشهور والمتواتر ان اسماعيل ابدى منذ الوهلة الاولى صلفا وعنجهية في مقابلة هذا العاهل الكبير وكأني بهذين المؤرخين المصريين قد ارادا أن يعدا الاذهان لمهاجمة نمر بعد اغتيال اسماعيل ! ومن جهة أخرى فان المؤرخين السودانيين يقولون بأن المقابلة كانت جافة بعيدة عن الكرم والمجاملة . نذكر على سبيل المثال ما اورده ضرار صالح ضرار في كتابه « تاريخ السودان الحديث » وهو ان اسماعيل تصرف تصرفا مسيئا مشينا بمكانة نمر اذ تركه يقف بعيدا عن مقره وهو يلعب الشطرنج ، ولم يكرمه بشيء ، بل لم يقدم له سيفا علامة الامان والاطمئنان كما فعل مع الزعماء الآخرين .

ولعل هذه الجفوة أو هذا الجفاف في معاملة ملك الجعليين تعود الى ان اسماعيل كان على يقين من ان نمرا أوى الشايقية الذين فروا بعد هزيمتهم وعلى راسهم جاويش ، كما آوى بعض المماليك في السابق . ومهما يكن من شيء فقد استقر راي اسماعيل على أن يأخذ مك نمر معه حتى سنار خوفا من ان يخلق له قلاقل اذا تركه وراء ظهره .

ومن القبائل الاخرى التي يممت شطر بربر لتقديم فروض الطاعة لاسماعيل الكبابيش والبشاريون والحسانية . هؤلاء البدو كان نصيبهم من هذه المقابلة ان غنم الباشا جمالهم لتفيد منها الحملة ! وهكذا سعت الى حتفها بظلفها ! وفي المتمة سلم لاسماعيل المساعد ملك السعداب في غربي شندي . ثم سلم الملك جاويش ومن معه

من الرجال في ١٥ مايو ١٨٢١ لاسماعيل فعينه هو وبعض مشائخ الشايقية ضباطا على رجالهم « وكان هذا أول دخول الشايقية الباشبوزق في جيش الحكومة المصرية بالسودان ، وقد بقوا فيه الى قيام الثورة المهدية » (١) .

بعد هذه المكاسب التي انهالت على قائد الحملة من الزعماء دون عناء ، تحرك الجيش الفاتح حتى وصل نقطة قبالة الحلفاية (٢٥ مايو ١٨٢١) وهنا قدم ناصر ود الامين زعيم العبدلاب الطاعة لاسماعيل فكساه كسوة فاخرة . ولا يخامرنا شك في ان اسماعيل قد تذكر مجد العبدلاب التليد فكانت هديته مناسبة لحفيد الشيخ عبد الله جماع . وعلى رأي المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكريم المكارم

ونظرا لكبر سن الشيخ ناصر فقد اكتفى اسماعيل باصطحاب ابن ناصر معه . ولما وصل الجيش موضع أم درمان الحالية عبر النيل الى مقرن النيلين او مكان الخرطوم في ٢٨ مايو ١٨٢١ .

سقوط سنار :

قصة سقوط السلطنة الزرقاء ، على ما عليها من ضعف ، تؤسف وتؤلم . فهي ـ كما اسلفت الاشارة ـ اصطلحت على بنيتها علل الفناء قبل ان يطمع فيها والي مصر . فالسلاطين لم يعودوا سلاطين بالمعنى المعروف ، وما برح وزراء الهمج في طغيانهم وتهافتهم على السيادة والسلطة حتى داهمهم الغزاة .

كان السلطان على مملكة الفونج المتداعية آنذاك بادي السادس بن طبل (١٧٩١ ـ ١٨٢١) على ان السلطة الفعلية قد تركزت كالعادة في يد وزيره محمد ود عدلان . وفيما يظهر ان هذا الوزير كان مقداما جريئا ، فهو الذي رد على كتاب اسماعيل باشا الذي بعث به من المتمة الى بادي السادس ليستسلم ، رد عليه بخطاب يفيض ثقة وشجاعة ، وفيه سطرت قولته المشهورة وهي : « لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية فنحن الملوك وهم الرعية . اما بلغك ان سنار محروسة محمية بصوارم قواطع هندية وخيول جرد أدهمية ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية » . ولما كان لزاما عليه أن يعد العدة والعتاد ، فقد فكر في جمع بعض القبائل النيلية والمسبعات بكردفان لتلتقي جميعا بجيش اسماعيل في معركة حاسمة . وكاتب سلطان دارفور للتكاتف ضد العدو الاجنبي . بيد ان كل مجهوداته قد ذهبت أدراج الرياح أذ اغتاله عملاء ابن عمه حسن ود رجب لاخذ ثأر بينهما يرجع الى ان محمدا ود عدلان قتل محمدا ود رجب سابع وزراء الهمج . ومع ذلك

---

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٤٩٧

فان حسنا ود رجب لم يستطع ان يستولي على السلطة اذ تناهى الى سمعه ان جيش اسماعيل يستحث الخطى نحو سنار فهرب الى جبال فرنيس على حدود الحبشة . وبعدئذ لم يرفع احد راية المقاومة اللهم الا المقدوم مسلم في كردفان .

نعود الى طوابير اسماعيل التي لم تكد تصل مدني حتى جاءها رجب ود عدلان والارباب دفع الله أحمد وخضعا كغيرهما من الزعماء لقائدها . وكعهدنا به في مثل هذه الاحوال امنهما . وأخيرا عندما اقتربت الحملة من سنار عاصمة المملكة قابل السلطان بادي السادس ، آخر ملوك الفونج ، اسماعيل باشا ليتنازل عما تبقى له من سلطة اسمية ، فوقع وثيقة اعترف فيها بتبعيته لسلطان تركيا وبالتنازل عن ادارة البلاد الى والي مصر . وكان من البديهي أن يسعد اسماعيل بهذا النصر المؤزر ويكسو السلطان (سابقا) كسوة شرف فاخرة ويعينه شيخا جابيا للضرائب على بلاده !! وبعدئذ دخل اسماعيل سنار في ١٤ يونيو ١٨٢١ دخول الظافرين .

هذه هي خاتمة المطاف ، ونهاية تلك السلطنة التي طبقت شهرتها الآفاق والتي ظلت قائمة منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، فسبحان مغير الاحوال ! وفي هذه الخاتمة المؤسفة جادت قريحة أحد الشعراء بقصيدة رثى فيها ذلك المجد الضائع منها ما يلي :

آه على بلدة الخيرات منشؤنا   اعني بذلك دار الفنج سنارا
آه عليها وآه من مصيبتها   لم نسلها اين ما حللنا اقطارا
فأوحشت بعد ذاك الأنس وارتحلت   عنها الاماثل بدوانا وحضارا
وصار عمرانها المحسون مندرسا   يصيح بوم به في الليل صرارا
أضحت تعاينها من بعد بهجتها   كأنها لم تذق للخير آثارا

لا شك ان هذه الابيات فيها صدق ، وفيها لوعة وحرقة على ضياع الوطن والحرية والمجد ، رغم عدم جودتها من ناحية ادبية محض .

ضم فازوغلي (يناير ١٨٢٢)

ما أن استقر اسماعيل بضعة أشهر في سنار حتى زحف بجيشه نحو بلاد فازوغلي بهدف التوسع في تلك المناطق ، وللوقوف على مناجم الذهب في بلاد بني شنقول. وفي أول يناير، وعلى مقربة من فازوغلي ، التقى اسماعيل باشا بحسن ملك فازوغلي لقاء وديا خضع فيه الاخير . يقول نعوم شقير عما تم في هذه المناسبة : « وضرب اسماعيل باشا على فازوغلي وجبالها جزية قدرها الف أقة ذهب والف عبد ذكر » !

حملة كردفان :

لا نزاع في ان من تخطيط محمد علي باشا ان يضم الى جانب ممالك ومشيخات النيل وبلاد فازوغلي ، كردفان وسلطنة دارفور ليفيد من مواردهما الثرة . فأوكل قيادة حملة كردفان الى صهره محمد بك خسرو الدفتردار . وكلمة دفتردار كما يبدو من لفظها معناها المشرف على سجلات او تسجيلات الاراضي في مصر ، وللارض ما لها من اهمية اقتصادية في ذلك العصر .

ومن الجدير بالذكر هنا ان تجريدة كردفان لم تعط من التسجيل وتدوين حقائقها ما تستحق . ويؤخذ من حديث رتشرد هل ان احدا لم يعثر على شاهد عيان لمعركة بارة ! فلا غرابة اذا اختلفت تواريخها ووصف بعض احداثها .

ومهما يكن من امر فقد رجعت المراكب التي حملت مؤن وذخائر حملة سنار لتقل جيش الدفتردار الى الدبة ومنها الى كردفان . هكذا رسم الوالي الخطة منذ الوهلة الاولى . ويقيننا انها نفذت بحذافيرها .

كانت كردفان تابعة لسلطنة دار فور ويدير شئونها المقدوم مسلم . تحرك نحوها جيش الدفتردار من الدبة ، وقوامه نحو اربعة الف مقاتل ضربوا في الصحراء تجاه بارة مستخدمين جمال الكبابيش التي اجرها الدفتردار للقيام بعملية الحمل والنقل . ولم يقتصر امر الكبابيش على مد الحملة بالابل ، بل كانوا ادلاء يرشدون الى اماكن الماء واقصر الطرق في خضم الصحراء . ويرجع هذا التعاون مع هؤلاء الاجانب الى المصالح الاقتصادية التي ربطت الكبابيش وكذلك العبابدة مع المصريين منذ القدم .

ولقد دارت بين الفريقين مكاتبات يأمر الدفتردار فيها المقدوم مسلم بالتسليم دون اراقة دماء ، ويأبى الاخير الا ان يذود عن حماه . ومن الخير ان نذكر طرفا من خطاب المقدوم الذي رد فيه على الدفتردار . ففي بعض فقراته يقول : « نحن ما خالفنا كتاب الله ولا سنة رسوله ولا عهد الله لكم بقدوم بلادنا . انتم غاصبين وظالمين وسايلين كما قال الشيخ فحاز دفع سايل . ان جيت بلادنا انت سايل وظالم ونحن مظلومين ان متنا في دارنا متنا مظلومين وشهداء بين يدي الله » .

ولعمر الحق انه الايمان بالله والوطن والحزم والعزم ، كل اولئك يتضح من هذا الخطاب المليء بمشاعر الوطنية الحقة والصلابة . ولكن ليت شعري ماذا يجدي ذلك مع جشع الاتراك وطغيانهم وسلاحهم !

معركة بارة (ابريل ١٨٢٢)

لم تجد اذن المكاتبات بين الفريقين ، ولم تثمر محاولة الدفتردار لاقناع المقدوم بالاستسلام دون ان تراق الدماء . ومن أجل ذلك واصل الدفتردار زحفه نحو

بارة . ويذهب البعض الى القول بأنه كان ينبغي على المقدوم ان يشن اغارة على جيش الدفتردار وهو في قلب صحراء بيوضة . ولست ادري ماذا تفيد مثل هذه الكرة مع المدافع وبقية الاسلحة الفتاكة ! وما حدث فان المقدوم قد انتظر اعداءه في بارة شمال الابيض حيث وقعت الواقعة في ١٦ ابريل ١٨٢٢ . وكانت بحق معركة شعواء. وللمرة الثانية تتفوق الاسلحة النارية على فرسان كردفان فيخرون صرعى في حومة الوغى شهداء الوطن وضحايا الطغيان والعدوان .

ولقد شهد الفاتحون لرجالات كردفان وقائدهم المقدوم بالبسالة والجراة والاستهانة بالموت . قال نعوم شقير عن معركة بارة : « حدثت واقعة دموية قاتل فيها الفريقان قتال الابطال . وكان الدفتردار والمقدوم مسلم في مقدمة رجالهما يحمسانهم على الاستهلاك في الدفاع ، وكان رجال المقدوم مسلم مسلحين بالحراب وكثير منهم مسلحين بالبنادق فثبتوا امام الجيش المصري طويلا واقتحموا نيرانه غير مبالين بالموت حتى اخترقوا صفوفه وجرحوا كثيرين من عساكره الطوبجية فوق مدافعهم وما زالوا يكرون ويفرون حتى قتل قائدهم مسلم » (١) والفضل ما شهدت به الاعداء . والحق ا نمعركة بارة كانت وجها مشرقا آخر للسودان وصفحة ناصعة أبرزت الكثير من شجاعة السودانيين .

انتهت المعركة لصالح الدفتردار فدخل الابيض عاصمة كردفان بدون مقاومة . وبذا اتسعت رقعة الامبراطورية المصرية . ومن ثم اخذ يخطط لغزو دارفور . على ان مجريات الاحوال قد غيرت رأي محمد علي عن ضم تلك البلاد ، فأعلن (في اكتوبر ١٨٢١) تخليه عن غزو دارفور . وكفى الله أهل دارفور شر القتال .

في ختام هذا الموضوع يجمل بنا ان نتطرق ـ في ايجاز الى العوامل التي ساعدت على انجاح حملتي الفتح على هذا النحو حتى ابتلعتا في سهولة ويسر كل الممالك والمشيخات السودانية .

من هذه العوامل ان النظام القائم وهو اشبه بالاقطاعي في بعض جوانبه كان عقبة كأداء لخلق حكومة مركزية قوية وجيش جرار يكون للبلاد درعا واقيا وحارسا امينا من ريب الزمان واعتداءات المعتدين . فما من عجب أن يلتهم اسماعيل باشا هذه الممالك الواحدة بعد الاخرى . ولو اتحدت هذه الدويلات ووقفت وقفة رجل واحد تناضل في عناد واصرار ، لرجع الدخيل خاسرا مكهوما ، على رأي الشاعر :

تأبى الرماح اذا اجتمعن تكسرا   واذا افترقن تكسرت آحادا

واذا رجعنا الى جيش الباشا الذي فتح بـه السودان الفيناه عاديا لم يكن

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » (١٩٦٧) ص ٥٠٦

خريطة السودان تبين طريقي اسماعيل باشا والدفتردار

متطورا بالقياس الى مستوى الجيوش الاوربية . ومع ذلك فقد فاق المقاتلة من المواطنين الذين اعتمدوا اساسا على السلاح الابيض التقليدي العتيق الذي وضعته الدول الاخرى في المتاحف منذ زمن بعيد . أما أولئك فقد امتلكوا المدافع وقنابلها . وعلى هذا فالسودانيون وأعداؤهم لم يكونوا كفؤين متناظرين . ومع ذلك لو وجد الروح والتكاتف بين القبائل لما حقق الاتراك كل هذه الغلبة على الاقل بمثل تلك البساطة . والا كيف انتصر المهدي وأصحابه الميامين على هؤلاء الحكام بعد مرور ما يزيد على الستين سنة علما بأن نظم الحكومة التركية المصرية قد ارتفعت لا مراء ؟

يلحق بما تقدم ايضا فقدان الشعور بالقومية السودانية ، وفاقد الشيء لا يعطيه . فكما ألمعت آنفا ان كل قبيلة كانت متقوقعة في عقر دارها او رقعتها الضيقة ولم تكن على استعداد لتذود عن غيرها . وكانت كل قبيلة تتعصب لنسبها ، وتأنف ان تعلوها قبيلة اخرى . هذه صورة طبق الاصل للحياة العربية في العصر الجاهلي !

والحق ان القومية حركة حديثة بدات في أواخر القرن الثامن عشر في غربي أوربا وأمريكا الشمالية . وهي من أعظم العوامل التي أثرت وتؤثر في مجرى التاريخ (١) والسودان في ذلك الوقت كان بعيدا عن هذه التيارات العربية ، ولم يحس بقوميته الا مؤخرا .

ثمة سبب لا يغفل وهو فشل الدعوة التي قام بها الوزير الشجاع محمد ود عدلان لجمع قبائل العبدلاب والجعليين وغيرهم لمصادمة الجيش الفاتح في منطقة الخرطوم الحالية فلم تجد استجابة . وكذلك كان مصير مكاتباته مع محمد الفضل سلطان دارفور في هذا الشأن اذ لم تأت اكلها . فكانت النتيجة الحتمية ان سقط السودان فريسة سهلة في ايدي الترك .

مجمل ما يقال ان حملتي غزو السودان قد وفقتا وأي توفيق في السيطرة على هذه البلاد بسبب التمزق والخلف بين القبائل والدويلات المتناحرة . هذا الى جانب الاسباب التي تقدم ذكرها . وبهذا الفتح اضحى السودان جزءا لا يتجزأ من أملاك والي مصر . وهكذا جثم الحكم الاجنبي على صدور المواطنين حتى هبوا أخيرا وتخلصوا من نير التسلط التركي المصري على اثر نشوب الثورة المهدية (١٨٨١) بقيادة البطل السوداني محمد احمد المهدي في يناير ١٨٨٥ م .

(١) دائرة المعارف البريطانية المجلد .

الفصل الثالث

الادارة فى العهد التركي ـ المصري

(١٨٢١ ـ ١٨٦٣ م)

غني عن القول ان الحديث عن الادارة التركية المصرية في كل هاتيك الحقب (١٨٢١ ـ ٦٣) حديث جد طويل . ولقد دبجت فيه الرسائل المطولة ، وسطرت عنه الاسفار الضخمة ، وليس من اليسير ان يناقش في صفحات قلائل . ومن أجل ذلك فلا مجال للافاضة في هذا الفصل ، وأن الاغتصاب أمر لا معدى عنه .

قضي الامر بالنسبة لاستقلال السودان وحرية بنيه ـ على نحو ما علمنا ـ فدانت البلاد بعد سقوط كردفان (أبريل ١٨٢١) واستسلام سنار (١٤ يونيو ١٨٢١) لاسماعيل بن محمد علي باشا قائد حملة النيل . وخرج ابن الباشا من الجهاد الاصغر الى جهاد أكبر ، ان صح التعبير . وهو العمل على استتباب الامن وتنظيم القطر لتتحقق أغراض الوالي وهي استغلال موارد البلاد لمصلحة أتراك مصر .

النظام الضرائبي :

لعل أول ما يسبق الى الخاطر في هذا الموضوع نظم الضرائب التي كانت بحق محيرة للعقول . فالحكام الجدد قد جهدوا ليعصروا المواطنين السودانيين ويستخرجوا منهم كل ما يمكن استخراجه من مال دون ما مراعاة لواقع الحال ، فلا غرو فقد حطموا الحياة الاقتصادية ودفعوا بالكثيرين الى حمأة الفقر والتعاسة .

ان الذين وضعوا النظام الضرائبي الجديد كانوا من ذوي الاهواء والاغراض ، وعلى رأس هؤلاء حنا الطويل (قبطي أصلا) وهو مشرف أو كما يسمونه « مشير » مالي ، ومحمد سعيد أفندي ، ومعهما زعيم سوداني وهو الارباب دفع الله ود أحمد حسـ . أما حنا الطويل فقد قيل انه اقرض الباشا مالا استعان به على اعداد حملة الفتح على أن يسترد ذلك الدين من ضرائب سنار ! (١) وأغلب الظن ان الارباب دفع الله قد استجاب لتقديرات هذين الاجنبيين بدافع من الطمع للكسب على حساب مواطنيه من وراء هذا التعاون .

١) Richard Hill « Egypt in The Sudan » P. 14.

تجاهل حنا الطويل الوضع الضرائبي التقليدي البسيط الذي كان سائدا في السابق ، والذي لم يزد كثيرا على العشور المفروضة على غلة الارض أيا كان نوع ريها ، وبعض ضرائب اخرى بسيطة لا يؤبه لها ويمكن دفعها في يسر . فنقل نظام الضرائب المصري ، على ما على البلدين من اختلاف في شتى النواحي ، وأجرى تغييرات طفيفة لتناسب المقام . وقد وقع العبء على أهل القرى النبيلة لان الرعاة المتجولين في البوادي ما زالوا بعيدين خارج نطاق النفوذ الحكومي ، وعلى ملاك الارقاء والمواشي . ففرضوا على مالك كل عبد خمسة عشر ريالا في وقت لم يزد ثمن العبد على ثلاثين ريالا ! وعشرة ريالات على كل بقرة ، وخمسة ريالات على الحمار ومثلها على النعجة أو الخروف (١) . وقد اختلفت المراجع في فئات هذه الضرائب ، فبعضها انقص هذا المقدار وبعضها زاده . وأيا كان نصيب هذه الفئات من الصحة فقد كانت باهظة للغاية . وهي وفقا لما يقول « تاريخ العرب » اشبه بعملية تغنيم او مصادرة لممتلكات الشعب منها الى شيء آخر ! ولما كانت النقود نادرة عزيزة فقد آثر محمد علي أن يدفع ملاك الارقاء الضرائب من العبيد الاشداء لينضموا تحت لواء جيشه !

هذه القيود التي كبل بها الحكام الجدد المواطنين كانت مثار سخط وتذمر شديدين بين الناس ، بل كانت رمزا للعبودية في انظار الكثيرين . فلا جرم تظهر بوادر الثورة على التو خاصة وان الشائعات قد انطلقت تردد ان اسماعيل قد لاقى حتفه في جبال الصعيد . فما كان من الساخطين على الوضع الا أن هبوا واخذوا يشنون الاغارات على قوات الحكومة . الامر الذي اقنع اسماعيل بضرورة تخفيض الضرائب . بيد انه لم يفعل من ذلك شيئا لان دفاتر الضرائب قد ارسلت الى مصر قبل حضوره . على ان بعض المراجع تشير بأن اسماعيل قد خفضها بالفعل .

وبمرور الزمن تطورت نظم الضرائب فشملت العشور على السواقي ، النخل ، عوائد الملاك ، الجمارك وعلى اصحاب الحرف والصناعات . كما ادخل نظام الالتزام وهو اعطاء مديرية كاملة لاحد الزعماء نظير جعل معين يدفع سنويا . وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تعين « بعض الجنود المشاة والخيالة لحفظ الامن في القبائل التي يكثر فيها السلب والنهب ، وعلى القبيلة ان تدفع مرتباتهم اما كاملة او مناصفة بينهما وبين الحكومة » .

وقد تمتع الفقهاء ورجال الدين والاعيان والمشايخ ببعض الامتيازات من الحكومة كاغداق الهبات والعطايا عليهم ، واعفائهم من الضرائب التي تجبى على الارض التي يزرعون او على غيرها هذه الاعفاءات الضرائبية كانت واضحة في عهد خورشيد باشا

(1 P. M. Hoit, « A Modern History of The Sudan » P. 43.

(١٨٢٦ – ٣٨) كان الهدف من هذه المعاملة الرقيقة كسب ولاء هؤلاء الافرادللوضع القائم ،ولخلق حوافز لدفعهم لجمع الضرائب بروح عال . ومما لا شك فيه ان هذا التمييز بين المواطنين قد خلق استياء خفيا وثورة داخلية في النفوس اذ ليس من العدالة في شيء ان تثقل الحكومة كواهل البعض وتترك آخرين يمرحون ويتمتعون بدخولهم كاملة غير منقوصة على حساب غيرهم . ليس هـذا فحسب ، بل ان الاعفاءات قد تطورت بشكل عجيب حتى شملت بعض القبائل . يقول الشاطربصيلي « بالاضافة الى هذه الاعفاءات التي منحت لفريق من أهل المدن فان هذه الامتيازات قد شملت خلال حكمدارية غوردون بعض القبائل والعشائر مما زكى روح الحسد والتباغض بين القبائل » (١) .

هذه الاسباب مجتمعة قد أدت الى فرار بعض الناس الى الجبال تهربا من دفع الضرائب والى ظهور بوادر التمرد .

ولا يفوتنا في هذا المجال ايراد حوادث كان لها ما بعدها في نفوس السودانيين قاطبة الا وهي مجازر الدفتردار .

حملات الدفتردار الانتقامية وآثارها

مما زاد من كراهية المواطنين للاتراك ايضا في الطور الاول من تاريخ هذا الحكم ذلك الحادث المشؤوم وهو اغتيال اسماعيل على أيدي الملك نمر وبعض رجالاته في شندي قرب نهاية عام ١٨٢٢ . ويرجع سبب ذلك الاغتيال الى اشتطاط اسماعيل في مطالبه التي كانت أقرب الى التعجيز منها الى أي شيء معقول . وللاهانة التي لحقت ملك الجعليين من ذلك الشاب الصلف المتغطرس . وكان خليقا باسماعيل ان يعلم ان السودانيين لا يرضون الضيم ، فهم على رأي الشاعر :

– يلاقون المنايا كالحات ولا يلاقون الهوانا – .

لا يسعني المقام هنا لذكر تفاصيل الحادث ، ولكن ما يهمنا هنا ان الثورة قد اشتعلت في البلاد ما بين شندي ومدني . ثار الجعليون بقيادة ملك نمر والمساعد، وثار العبدلاب بقيادة ناصر ود الامين وثارت الجزيرة ايضا . الامر الذي اضطر حاميات كردي ، الحلفاية، الخرطوم، العيلفون والكاملين للجلاء والترجه بمشقة الى مقر الرئاسة بمدني . وعلى الرغم من ان الموقف كان حرجا بالنسبة للحكام ، الا ان الاسلحة النارية كان لها اثرها ايضا على تغيير النتيجة اخيرا . وكذلك افتقرت هذه الثورة الى القيادة الواعية الموحدة (٢) . وكما قال رتشرد هل فان هذا العصيان كان هبة يائسة اعوزتها القيادة والهدف . فما من عجب ان يكون نصيبها الفشل بعد

(١) الشاطر بصيلي عبد الجليل « معالم تاريخ سودان وادي النيل » ص ١٤٢
(٢) ب.م.هولت .

مجيء الدفتردار الذي اصبح سر عسكر السودان او القائد الاعلى للقوات.

والدفتردار كما يبدو من سيرته كان شيطانا في مسلاخ انسان لج بـه البغي فتعدى حدود الله وكل الحدود . والحق الذي لا تجوز فيه انه ما من جريمة يرتكبها انسان بالغة ما بلغت من السوء والضرر هي مسوغة لمسح آلاف لارواح البريئة من الوجود . فهذا الدفتردار ومن معه من حثالات البشر قد قتلوا أهل المتمة واحرقوها وخربوا شندي . وفي الدامر أحرقوا مسجد الصوفي الشيخ محمد المجذوب «وكأنه بيت أوثان » ! كما أحرقوا الحلفاية وأحدثوا مجزرة في العيلفون وسبوا الكثير من الاحرار والعبيد على السواء . ولما انتصر هذا الطاغية على نمر والمساعد في واقعة النصوب بالبطانة (قرب أبي دليق) قتل من الجعليين اعدادا هائلة . وبلغ به العسف ان ارسل الاسرى الى مصر ليباعوا في اسواق النخاسة ! اما محمد علي فقد اعماه الغضب على ضياع ابنه . وما فتيء يأمر محوبك بعقاب عرب الشكرية والبشاريين.

من تحصيل الحاصل ان نقول ان هذه المجازر البشرية قد رسبت في نفوس السودانيين كراهية بلغت اقصى مداها . وكانت النتيجة ان اصبحت بعض البلاد خرابا يبابا ينعق فيها البوم بعد أن كانت الديار عامرة بأهلها . ففي الجزيرة –مصدر الغلال –هجر الكثيرون ديارهم ، واختل التوازن بين بعض القبائل فقبيلة رفاعة التي كانت ذات منعة في شرقي النيل الازرق كادت تؤول الى زوال . والفونج الذين كانوا سادة أوسلاطين قرابة قرنين من الزمان انزووا في الجبال الجنوبية . والعبدلاب الذين اعلنوا الثورة على البغاة حرموا اراضيهم فاعطيت للشايقية الذين ظلوا على ولائهم للترك ، بل اشتركوا في ضرب القبائل الاخرى . واستمر الشايقية يمتلكون هذه الاراضي كاقطاعيات حربية .(١) ويقال أن الارواح التي ازهقت في تلك المجازر المرعية كانت حوالي خمسين ألفا ! غير اننا لا ندري على وجه التحقيق صحة هذا العدد ولا مقدارما منيت به البلاد من خسائر مادية . غاية ما هنالك ان الذين كتبوا عن هذه الاحداث قد اعتمدوا على التخمين ليس غير .

التنظيم الاداري الجديد

ما كاد السودان يخضع للفاتحين حتى وضعوا نظاما اداريا مؤقتا وهو تقسيم السودان الى أربع مديريات : هي دنقلا ويحكمها عبدي كاشف بربر وعليها ماحوبك، كردفان ويحكمها الدفتردار وسنار تحت سيطرة اسماعيل نفسه . وفيما بعد اضيفت الخرطوم ، فازوغلي واخيرا التاكة بعد فتحها على عهد احمد باشا ابي ودان . ولان اسماعيل لم يأت ببرنامج لادارة السودان فقد اوكل مهمة الحكم في بعض المناطق

(١) ريتشارد هل « مصر في السودان » ص ١٨ .

المشايخ والكشاف وغيرهم . وفي الخمس سنوات الاولى ادار البلاد حكام عسكريون في المناطق المختلفة فعين قائمقام تركي على كل خمس عشرة الى ثلاثين قرية . والقائم مقام هو نائب الكاشف ، وما الكاشف الا ضابط حربي مسؤول عن حفظ الامن وجباية الضرائب في المنطقة المنوط بادارتها . ولكي يؤدي القائم مقام واجبه كاملا من ناحية الامن والضرائب ، فقد أعطي قوة صغيرة من العسكر تتألف من خيالة ومشاة وقليل من ابناء الشايقية . وعلى رأس كل عشرة من « القائم مقامات » كاشف له معاونون في مركزه .

وتعيين السودانيين منذ البداية كان وسيلة اقتصادية لم تكلف الحكام صرفا يذكر ، وفي ذات الوقت ضمنت حفظ النظام وجباية الضرائب .

وعلى الرغم من أن محمد علي قد تميز غيظا على فقد ابنه اسماعيل، ورغم روح الانتقام الذي طغى على وجدانه ، الا انه لم يرض عن مبالغة الدفتردار في الوحشية والتقتيل لانه رجل واقعي ، فاذا قضى الدفتردار على سكان السودان فأي نفع يعود عليه ؟ الواقع ان محمد علي قدر أن حملات الدفتردار تكلف كثيرا وتغرس بذور الحقد والضغينة في نفوس السودانيين للحكم التركي ، وتخلق زعزعة وعدم استقرار ربما تلحق أضرارا بالغة بالانتاج واحتكار منتوجات البلاد التي استهدفت استغلالها. وعلى ذلك فان السياسة الرشيدة تقضي باستدعاء الدفتردار ونشر الامن ، ووضع اسس ادارية يطمئن اليها المواطنون .

عثمان بك (١٨٢٥)

ولغ الدفتردار ، ذلك الوحش الجبار ، في دماء السودانيين حتى أروى غليله، فنفض يديه الآثمتين من دماء الابرياء ، وأسدل الستار على تلك المأساة الكريهة ليرحل بطلها الى القاهرة لغير رجعة ، وليبوء بالاثم الذي قل ان يدانيه اثم في تواريخ بني الانسان. فخلفه في منصب السر عسكر ثم منصب الحاكم العام عثمان بك جركس البرنجي (١٨٢٥) فبنى قلعة في الخرطوم ووضع فيها حامية . وكانت هذه هي اللبنة الاولى لمدينة الخرطوم التي تطورت في سنوات قلائل الى عاصمة السودان المصري لاستراتيجيتها وجمال موقعها عند ملتقى النيلين .

عثمان بك هذا كان فظا غليظا القلب لم يعرف الرحمة معنى اذ قتل عددا من المواطنين بطرق رهيبة . ومع ذلك فان ادارته كانت من الرداءة بمكان . وكانت وسائله في جباية الضرائب وحشية اجبرت كثيرا من الزراع على مغادرة وادي النيل.(١) وكانت أيامه نحسا على الاهلين اذ انتشر وباء الجدري واشتد الغلاء والقحط حتى

---

(١) رتشرد هل « مصر في السودان » .

أكل الناس الحمير والكلاب ! ويذكر نعوم شقير ان نصف السكان قد ماتوا من المرض والقحط والقتل ، ولحسن حظ المواطنين فقد لقي عثمان حتفه ولما يبلغ العام، فذهب غير مأسوف عليه . وكان أسوأ خلف لاسوأ سلف !

ماحوبك (١٨٢٥ – ٢٦)

تميز ماحوبك (مدير بربر سابقا) بصلاحيته للحكم فضبط « وربط » نظام العسكر (الجهادية) الذين سرحوا ومرحوا في طول البلاد وعرضها من غير ضابط ولا رابط ! وقد افاد كثيرا من مشورة كبار رجالات الجزيرة امثال شيخ عبد القادر ود الزين الذي جعل منه مستشارا في الشئون الاهلية .

ومما يذكر ان ماحوبك قد اعفى المواطنين من الضرائب مدة ثلاث سنوات لسوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية في الاعوام القليلة الماضية . وكما قرر دكتور هولت فان سياسة ماحوبك على قصر مدتها كانت نقطة تحول في تاريخ الحكم التركي المصري.

على ان محمد علي كان بحاجة الى عقلية اكفأ من عقلية ماحوبك لتقوم بتنظيم اقتصاديات السودان وهي بيت القصيد بالنسبة اليه . فوقع اختياره على خورشيد اغـا .

فترة السلم والبناء

علي خورشيد اغا (١٨٢٦ – ٣٨)

بمجيء علي خورشيد أغا الى ادارة السودان يستمر التغير (للأصلاح) الذي وضع لبنته الاولى ماحوبك . وتبدأ فترة سلام وبناء تستمر اثنتي عشرة سنة لان الحكمدار الجديد قد اهتم ، اول ما اهتم ، بكسب ثقة السودانيين فتم له ما اراد بما توخاه من سياسة اللين والاسترضاء للمواطنين . وهو في الواقع كان ينفذ سياسة والي مصر الذي تيقن ان الطريقة المثلى في التعامل مع رعاياه هي الرفق بهم ولين العريكة مع العمل الدائب لزيادة الانتاج باستغلال الثروات الحيوانية والمعدنية والزراعية . ولقد كسب منذ الوهلة الاولى ثقة محمد علي الذي خوله سلطات واسعة ليحكم هذا البلد وينمي موارده حتى تتم الفائدة المرجوة منه . وعلى حد قول دكتور هولت فان تعيين خورشيد قد قصد منه الى بدء فترة جديدة ذات ادارة مدنية اكثر من عسكرية .

لكي يحقق خورشيد الرخاء والثراء لا محيد له من ان يعطي الامان ويغري آلاف المواطنين بالعودة الى ديارهم تلك التي هجروها ونجوا الى دارفور وجبال النوبة ودار عطيش على حدود الحبشة خشية على ارواحهم من مجازر الدفتردار، وفداحة

الضرائب وسوء المعاملة . فاستعان بالشيخ عبدالقادر ود الزين الذي دعا الى اجتماع بعض وجهاء السودانيين فأحصوا القرى وما تبقى فيها من سكان. ثم أرسلت خطابات تتضمن العفو العام على الهاربين والدعوة لرجوعهم الى مأواهم والوعود بعدم ازعاجهم واعفائهم من الضرائب في العام الذي يعودون فيه . وعملا بنصيحة الشيخ عبد القادر ود الزين فقد استثنى الحكمدار أيضا الاعيان ومشايخ الطرق «ورجال الدين» ان صح أن للدين رجالا معينين من دفع الضرائب ليكسب تأييدهم وولاءهم للحكومة . وبالفعل أتت هذه الاستراتيجية أكلها اذ عاد المهاجرون الى بلادهم فأحيوا الارض بعد موتها .

ومن اصلاحات خورشيد في الحقل الزراعي أنه احضر عددا من الفلاحين المصريين والخولية ليعلموا النيليين الري بالسواقي والاحواض ، هؤلاء الذين كانوا يعتمدون في زراعتهم على الامطار او زراعة المساحة الضيقة بعد نزول النيل وكذلك جلب خورشيد انواعا جديدة من المحصولات كقصب السكر والقمح وبعض انواع الفواكه والخضروات . وحاول أن يحسن نوع الضأن في السودان بجلب أصناف ممتازة ومنذ البداية تفاءل الناس بقدومه لهطول الامطار . وكما يقولون « الخير على قدوم الواردين » .

انتهج خورشيد سياسة عمرانية ، فبنى الخرطوم عاصمة مستديمة للقطر وشيد جامعها بالطوب الاحمر ، وحث الناس على البناء المنظم بالطوب الاحمر ايضا بدلا عن البوص وجلود البقر ، وامدهم بمواد البناء دون مقابل . ولا ننسى انه جلب ايضا بعض الصناع المهرة والفنيين لتعليم الناس بعض الصناعات والحرف المختلفة . فلا غرابة اذا انتظمت الحياة وارتفع مستوى المعيشة .

قام خورشيد بجولات في بعض ربوع السودان ، منها انه ذهب الى القلابات حيث يسكن التكارنة الذين تخلفوا من حجيج الغرب ، ففرض عليهم ضريبة . ثم اسس فيها حامية عسكرية لاهميتها الاستراتيجية او الحربية . ومنذ ذلك التاريخ تطورت القلابات الى مركز تجاري كبير بين السودان والحبشة .

على ان سياسة خورشيد – رغم جودتها في عديد المناحي – لم تخل من جانب مظلم الا وهو اقتناص السود وتجارة الرقيق اذ قام بحملة عام ١٨٢٨ الى منطقة الدنكا للحصول على اكبر عدد منهم لينتظموا في سلك الجندية . غير أنه لم يوفق كثيرا في هذه الاغارة لان الدنكا استماتوا في الذود عن حياضهم . وبعد عامين (١٨٣٠) سطا خورشيد على بلاد الشلك ، ورجع محملا بالغنائم الكثيرة . ولم يقف الامر عند الصالحين للعسكرية ، بل كانت الحكومة تقبض على الآمنين في ديارهم من نساء واطفال ليباعوا في سوق النخاسة . وكان الجنود يتسلمون أحيانا مرتباتهم عبيدا ! هذه الافعال الذميمة من هذا الرجل الذي يتربع على قمة الجهاز الاداري في السودان

قد شجعت بعض المواطنين من الشمال ليقوموا بخطوات مماثلة ، مما زاد من انتشار تجارة الرقيق اللعينة .

وقرب نهاية حكم خورشيد – كما يقرر الدكتور مكي شبيكة – طارت اشاعة مفادها ان المكادة او الاحباش ينتوون القيام بهجوم على السودان . وان بعض القبائل المتاخمة والهاربين من دفع الضرائب سينضمون اليهم ليطيحوا بالوضع القائم، ويرجعوا الحكم الى اهله . والحق ان الاحباش حسب رواية نعوم شقير ، قد نزلوا على القلابات ، فقتلوا شيخها وكثيرا من الجند والمدنيين في واقعة كلنبو (١٨٣٨) وقفلوا راجعين الى بلادهم .

هذه الشائعات والاخبار قد ازعجت خورشيد باشا ، فما عتم ان طلب نجدة من مصر . وعلى جناح السرعة بعث محمد علي قوة كبيرة بقيادة احمد باشا ابو ودان . وقبل وصول هذه الحملة جمع خورشيد جنده وزحف بهم نحو كسلا . بيد انه لم يجد اثرا للاحباش ، ولا حركة ثورة من جانب الاهالي . فرجع الى الخرطوم، ومن ثم شد الرحال الى القاهرة للعلاج من داء الناسور .

ولقد ودعه اهل الخرطوم وداعا حارا يفيض عاطفة جياشة . يقول الدكتور مكي شبيكة « وتجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الاهالي جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع حتى قيل ان الشيخ عبدالقادر هجر نفسه من الاكل والشراب يومين حزنا على فراقه » . وهذا ان دل انما يدل على وفاء السودانيين وعاطفتهم النبيلة ، وحبهم لمن يمتاز بالعدل والاخلاق الفاضلة . حقا ان سياسة خورشيد كانت على الجملة رشيدة .

احمد باشا ابو ودان (١٨٣٨ – ٤٣)

تملك الاسى كثيرا من أهل الخرطوم لفراق خورشيد اغا . غير انهم سرعان ما اكتشفوا ان خلفه احمد باشا ابا ودان لا يقل عنه جودة وتقديرا للمسؤولية ان لم يفقه . واحمد باشا هذا من مماليك محمد علي على الشراكة ، اسمه أحمد باشا حركس . اشتهر في السودان باسم « أبو أضان » لكبر اذنيه !

واصل ابو ودان سياسة خورشيد الرشيدة واشتهر بالعدل والحزم . وقد تمتعت البلاد في عهده برخاء حتى قيل ان اردب الذرة كان بخمسة قروش ! فلا عجب اذا اثرت بعض اقاليم السودان . ويمكننا أن نقف على جانب من سياسته في كلمات نعوم شقير حيث يقول « وشرع في الاحكام بحسن سياسة وبعد نظر فنظم الدواوين والمديريات وحسن حال الكتبة والموظفين ثم التفت الى امر الضبط والربط فأبطل السخرة ومنع تعدي العساكر على الفلاحين ووطد الامن في البلاد حتى امن المسافر والمقيم من حلفا الى اقصى حدود السودان وبذلك اطمأن الاهالي وزادت عمارتهم

وخصبت ارضهم حتى صار اردب القمح بخمسة قروش واوقع الله هيبته في قلوب العباد مع انه لم يكن بذيء اللسان ولا سفاكا للدماء بل كان وقوراً كثير الصمت وكانت اوامره ونواهيه مقصورة على ما قل ودل » (١) .

انتظمت الامور في البلاد فوجه احمد باشا النظر نحو احتلال السودان الشرقي لان هذا الجزء من القطر ما زال خارج نطاق النفوذ الحكومي . وقر رأيه على القيام بحملة نحو التاكا لاستغلال مواردها الكثيرة . كانت قبائل التاكا من الهدندوة والحلنقة تناصب بعضها البعض العداء لثارات قديمة . وبعد مقاومة من الهدندوة احتل ابو ودان دلتا القاش ، وبنى سدا صغيراً على هذا النهر للافادة من مائه في ري الاراضي الخصيبة .

اما الخطوة الثانية فهي تسليم الحلنقة بقيادة زعيمهم محمد ايلة في قوز رجب . ولان الحكمدار ابا ودان قد مال نحو الحلنقة ووافق على ان يقيم مركز حكومته في بلادهم — موضع كسلا الحالية — فقد قرر الهدندوة مقاومته . فما عتم احمد باشا ان حول عنهم مجرى القاش ، ثم داهمهم وقتل كثيرا من رجالهم ، وأسر زعيمهم محمد دين ، وزج به في غياهب السجن الى ان توفي .

وعلى هذا النحو ضمت بلاد التاكا فجعل منها احمد باشا مديرية كسلا . وبهذا صارت مديريات السودان سبعا هي : فازوغلي ، سنار ، الخرطوم ، كسلا ، بربر ، دنقلا وكردفان . وعلى اساس هذا التقسيم رسمت خريطة للسودان .

على ان مدة حكم احمد باشا ابي ودان لم تطل بسبب تهمة الصقت به وهي انه كان يعتزم فصل السودان عن مصر كما فعل محمد علي مع سلطان تركيا . بمعنى آخر ازمع ان يحكم السودان كوال لسلطان تركيا راسا . وفي هذا مجال لحرية اكثر في التصرف وربما الاستقلال مستقبلا ، مما أقض مضجع محمد علي . ومن أجل ذلك فان موت احمد باشا (دفن في الخرطوم) كان فجائيا ! يقال ان محمد علي حاك له مكيدة اغتيل بها ، فدسوا له السم بايعاز من الباشا ! وبهذه الصورة البشعة انتهت حياة رجل فذ .

اللامركزية :

فيما يبدو ان الشائعات التي حامت حول مطامع احمد باشا ابي ودان في الاستقلال، ووضع هذا البلد تحت نفوذ سلطان تركيا مباشرة قد اخافت محمد علي من تعيين حكمدارين لادارة السودان . ومن اجل ذلك فقد دفعه اشفاقه وهواجسه الى ان يلغي منصب الحكمدارية ويغير جهاز الحكم بان يدير البلاد على اسس

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » (١٩٦٧) ص ٥٢٠ .

اللامركزية . بمعنى ان يستعيض عن الحكمدارية المركزة بتقسيم القطر الى مديريات مستقلة هي دنقلا ، بربر ، الخرطوم ، التاكا ، سنار ، فازوغلي وكردفان . تكون هذه المديريات مسؤولة رأسا الى مصر في تعاون بين المديرين لتحقيق المصالح المشتركة . وخصص لكل مديرية حامية من الجنود .

عهد بتنظيم هذا الوضع الجديد الى احمد باشا المنكلي (١٨٤٤ — ٤٥) وعلى هذا الأساس فان المنكلي كان منظما ليس الا .

طبق هذا التقسيم الجديد ، غير انه برهن على عدم جدواه ، وآية ذلك ان المديرين لم ينصاعوا لاوامر المنكلي . وكان كل مدير يطبق القوانين والنظم حسب فهمه وبطريقة مغايرة للاخرين . وبما ان طرق المواصلات بطيئة ، وان مصر بعيدة ، وان الباشا قد تقدمت به السن ، فقد كانت مراقبة اعمال المديرين عسيرة . وظل بعض العرب الرحل يتهربون من دفع الضرائب بحجة انهم دفعوها في مديرية أخرى ! وكان من الصعوبة بمكان ضبط الامور في تلك الظروف . فلا غرو فقد دبت الفوضى والاضطراب في جهاز الادارة .

ومن جهة اخرى شهدت هذه الفترة نموا في التجارة بين السودان ومصر اذ احتكرت الحكومة بعض السلع الهامة كالعاج وريش النعام والصمغ العربي . كما شهدت فسادا في الحكم لان بعض المديرين كانوا انتهازيين جشعين همهم الاول ملأ جيوبهم . وكانوا قدوة سيئة لبقية الموظفين . فما من عجب اذا هرب بعض المواطنين من دنقلا الى كردفان وغيرها من ثقل الضرائب .

تلك جملة العوامل التي جعلت محمد علي يقرر ارجاع المركزية او الحكمدارية على الا يكون الحكمدار قويا كأبي ودان لكيلا تحدثه نفسه بالانفصال عن مصر . فوقع اختياره على خالد باشا (١٨٤٦ — ١٨٥٠) الذي لم يتمتع بكفاءة ابي ودان وخورشيد . ولكنه لم يشكل خطورة بانفصال او خلافه . وفي ايامه لم تتحسن الاحوال في البلد لرداءة حكمه .

من الاحداث الهامة في فترة خالد باشا ان محمد علي قد وضع يده على ميناءي سواكن ومصوع سنة ١٨٤٦ على عهد السلطان عبد المجيد على اساس جزية سنوية يدفعها لسلطان تركيا . وما من ريب ان لهذين الميناءين اهمية كبيرة كمنفذ الى العالم الخارجي ومن ناحية اخرى فان الحكومة افدت منهما بوضع حد لهروب بعض المواطنين الى سواكن تفاديا لدفع الضرائب .

اقتصاديات البلاد

اسلفت الاشارة (في الفصل الاول) الى ان اهداف محمد علي باشا من فتح السودان استغلال موارده الثرة ، واحتكار تجارته . وبالفعل وضعت الحكومة يدها على هذه التجارة ، مما اثار طمع ونقد بعض الأوربيين الذين نادوا بفتح باب التجارة لكافة الراغبين فيها . فطالبوا بتطبيق القانون العثماني الذي يكفل حرية التجارة في

كل انحاء الامبراطورية العثمانية . ولكن محمد علي كان من القوة بحيث استطاع ان يعزل السودان عدة سنين عن مشاركة التجار الغربيين في تجارة هذا البلد . فهو لم يأبه للاتفاقية التجارية التي أبرمتها بريطانيا مع الباب العالي عام ١٨٣٨ ، وبمقتضاها يحق لها ان تتاجر في بلاد الامبراطورية العثمانية بما في ذلك السودان . بيد ان الباشا قد راجع اخيرا نفسه وسمح بحرية التجارة في السودان اذ ترك احتكار النيلة اولا ، ثم تخلى عن احتكار الصمغ العربي والعاج وريش النعام . تم ذلك قبل نهاية عهد احمد باشا ابي ودان (١٨٣٨ ـ ٤٣) .

ولكي تحصل مصر على بعض المحاصيل النقدية ، بعث محمد علي الى عثمان بك نفرا من العمال المهرة لزراعة الافيون والنيلة (للصبغة) والقطن والشعير ، ولتعليم الاهلين دباغة الجلود . وقد صحبهم بعض النجارين والحدادين والبنائين . ثم جاء مصريون آخرون الى دنقلا (١٨٢٨) تهربا من وطأة الضرائب . وقد اعتزم الباشا ان يوقف زراعة الافيون في مصر ويقصر زراعته على السودان ! غير ان التجربة قد منيت بالفشل والحمد لله ! في حين أن زراعة النيلة قد نجحت نجاحا ملحوظا حتى اصبح محصولها من منتوجات السودان الرئيسية في ذلك الوقت . ولقد وجد محصول النيلة طلبا وتسويقا في الخارج بسبب الثورة الصناعية في أوربا ذلك لان المنسوجات كانت بحاجة الى هذه المادة . وظلت النيلة مرغوبا فيها الى ان اكتشف مواد صبغة جديدة فاستغنت عنها مصانع الاقمشة الاوربية .

يقال ان محمد علي أعجب بالفول السوداني فحاول زراعته في مصر . وما من شك ان الصمغ العربي الذي امتاز السودان بانتاجه في العالم كان ذا اهمية كبرى ذلك لانه مطلوب في الدول الاوربية التي كانت ولا زالت تستعمله في صناعة الورق والحلوى وما شابه ذلك . لهذا احتكرت الحكومة هذا المحصول النقدي القيم منذ سنة ١٨٢٥ ، فأفادت من ذلك كثيرا .

ثمة مزروعات أخرى كان السودان وما زال مدينا في زراعتها والافادة منها الى يومنا هذا للمصريين وهي اشجار الفاكهة المختلفة . ففي عام ١٨٣٣ ارسلت كمية منها الى سنار تلبية لرغبة الحكمدار خورشيد ، من هذه شتل العنب والليمون والرمان والتين . وكذلك جلب المصريون قصب السكر الذي نجحت زراعته في مديريتي بربر وسنار ، فانشأت الحكومة مزرعة قصب سكر ضخمة في الكاملين على النيل الازرق ومعها مصنع للسكر (١) . كل هذه المحاصيل وغيرها كانت تروى بالسواقي والاحواض في بعض المناطق الى جانب الزراعة المطرية .

وهنالك الثروة الحيوانية التي استغلتها الحكومة . وظل السودان طيلة التركية

(١) رتشرد هل « مصر في السودان » .

المصدر الرخيص الذي يمد مصر دوما بما تحتاج اليه من الجمال والبقر والجلود (جلود البقر والضأن والماعز) وسن الفيل (من الجنوب) وريش النعام الذي كان يصطاده العرب الرحل والبجه .

استغلال المعادن :

تناهى الى سمع محمد علي باشا ـ من تقارير **الدفتردار** ـ بعد فتح كردفان ـ ان تلك المديرية يوجد فيها عنصر الحديد ، مما اثلج صدر الباشا لان مصر كانت تستورد كل ما يلزمها من حديد من الخارج . فأمر بان ترسل فورا خمسمائة قنطار كدفعة أولى . وفي أبان ادارة علي خورشيد صنعت من حديد كردفان المسامير اللازمة لصناعة المراكب الكثيرة . وقد خطط محمد علي لاستغلال هذا المعدن ، فارسل الى السودان بعثة مؤلفة من ثمانية خبراء انجليز لهذا الغرض . غير ان المنية سرعان ما اختطفت جلهم ففشلت البعثة . (١) والواقع من الامر ان الحديد كان بكردفان ، ولكن المشكلة الخالدة او على الاصح المشكلتين هما الخبرة الفنية وصعوبة المواصلات ولعلنا نذكر ان محمد علي قد فشل في محاولاته لاقتناء الذهب من مناطق بني شنقول .

مجمل ما يقال عن كفاح محمد علي في سبيل النهوض باقتصاديات السودان ان مجهوداته لم تثمر بالصورة التي رسمها خياله . ويعود ذلك في المقام الاول الى ان الحكام الذين اداروا البلاد كانوا على وجه العموم غير مقتدرين في مجال الاقتصاد لانهم كانوا اصلا جنودا ، وليس التخطيط للانتاج ميدانهم . وفي تنقيبه عن المعادن فقد كان الباشا كالظمآن الذي يركض خلف السراب يحسبه ماء !

النظام المالي (٢)

من الغرائب في سلطنة سنار ان السلاطين والوزراء الذين استحوذوا على السلطة لم يسكو عملة سودانية ! معنى هذا ان التجارة الداخلية والتبادل عامة كان في جملته يتم بطريقة المقايضة وهي التجارة البكماء البدائية التي درج عليها الانسان على مدار تاريخه الطويل منذ العصور الحجرية ! لهذا فان سلطنة الفونج كانت متخلفة في هذه الناحية لم تواكب الامم في عصرها . ومع ذلك فان السودان لم يكن خلوا من عملة او عملات ! ففي شرقي السودان كانت العملة الرائجة ريالا نمساويا من ميناءي سواكن ومصوع ، وكان نقدا ثابتا للتبادل في تجارة البحر الاحمر والحبشة . وثمة نقود اوربية من الذهب والفضة كانت متداولة على الساحل وفي

(١) ريتشرد هل « مصر في السودان » .
(٢) اعتمدت في جمع الحقائق عن النظام المالي على كتاب ريتشرد هل « مصر في السودان » .

الداخل ايضا .

وبعد فتح السودان (١٨٢١) ازداد حجم التجارة الخارجية ، وتبعا لذلك صار استعمال النقود على نطاق واسع ضرورة لا محيد عنها . ولذلك وجدنا مجموعة من قطع النقد الاوربية ذهبية وفضية من ذوات الفئات العالية متداولة بين الايدي في المدن الكبيرة . في حين ان الريال النمساوي ظل رائجا في تجارة البحر الاحمر . فضلا عن ذلك فثمة تشكيلة من العملة العثمانية الذهبية ، وهناك القروش والبارة والخيرية (قطعة ذهبية صغيرة) المصرية . كل اولئك كان متداولا في هذا البلد !

اما في جنوب السودان او على وجه التحديد جنوب كاكا في اعالي النيل فان اية عملة ، حتى عام ١٨٦١ ، كانت غير قابلة للتداول . وكانت البلاد داخل افريقيا الوسطى تتاجر بالمقايضة والخرز والمسابح .

ولقد سارت حسابات الحكومة على غرار النظام المصري . وكانت الحسابات ترفع الى القاهرة شهريا ثم سنويا للمراجعة لعدم وجود مراجعين بالسودان . على ان بعض المديرين كانوا احيانا يراجعون حسابات مديرياتهم . وكان في راي محمد علي ان كل مديرية يتعين عليها ان تغطي مصروفاتها وتزيد . واذا اتهم احد المسئولين بالفساد او الافساد فان مجموعة من المراجعين كانت تبعث للتحري .

وفيما يتعلق بالضرائب فقد سبق القول الى تبيين شيء عنها .

الجمارك

في مطلع الحكم التركي المصري لم تنتظم الجمارك في السودان . وما كاد عام ١٨٢٥ يحل حتى وجدنا محطة جمركية عند ملتقى النيلين حيث تفرض جمارك على البضائع الواردة من كردفان عن طريق النيل الابيض . وقد اسست محطة اخرى في المتمة ، وثالثة في بربر . وبعد ان استأجر محمد علي سواكن ومصوع من سلطان تركيا عام ١٨٤٦ ضمتا الى هذه القائمة فيما نظن .

كانت جمارك الواردات الخارجية تدفع في الاسكندرية . ومن ناحية قانونية فان هذا الدفع في الاسكندرية مفروض فيه ان يغني عن اي دفع آخر . غير ان محمد علي لم يهتم في بادىء الامر للاتفاقيات بين سلطان تركيا والدول ، فقرر ان تدفع جمارك على صادرات وواردات السودان بحجة ان السودان قد فتحه هو ، وانه يعتبره خارج معاهدات السلطان والدول الاخرى (١) . وقد الغى محمد سعيد باشا الجمارك بين السودان ومصر تسهيلا للتجارة بين القطرين .

(١) رتشرد هل « مصر في السودان » .

النظم القانونية

قبل مجيء الحكم التركي المصري كان السوداني المسلم لا يعرف شيئا في مجال القوانين غير تعاليم الشريعة الاسلامية الغراء . ولم يكن لدى السودانيين — في الاغلب الاعم — الملم بقليل او كثير من القوانين الوضعية ! وحتى الشرع الاسلامي لم يتمكن من معرفته معرفة حقة الا القليلون . ولم يكد محمد علي يفتح السودان حتى ادخل فيه القوانين المدنية والعسكرية التركية المتأثرة بالنظم الغربية .

وقد جدت الحكومة في ان تلتقي بالفقهاء والعلماء الاسلاميين ، فاذعن هؤلاء مع غيرهم من المتعلمين للوضع السياسي القائم لانهم مدينون له برواتبهم ومكانتهم في المجتمع . وقد اخذت هذه الفئة مكانها مع القضاة والعلماء المبعوثين من مصر فكونوا طبقة موالية للحكومة (١) من هؤلاء القضاة الشرعيون الذين كانوا يعالجون — في المحاكم الشرعية بالمديريات — كل ما يتعلق بالاحوال الشخصية التي تهم المواطنين من امور الزواج والطلاق والميراث وما الى ذلك . اما في المدن الصغيرة فان هذه المسائل يقوم بالنظر فيها نواب شرع تابعون للجهاز القضائي وهنالك المفتي المنوط بالافتاء ! وعلى رأس هؤلاء جميعا رئيس القضاء بمثابة قاضي القضاة عندنا .

ومن عجب فانه على الرغم من ان السودانيين المسلمين كانوا ، على الجملة ، مالكية في مذهبهم السني ، الا ان القضاء الشرعي في السودان قد توخى تعاليم المذهب الحنفي ! وآية ذلك ان الاتراك العثمانيين كانوا يعتنقون المذهب الحنفي . وكما قيل : « الناس على دين ملوكهم » .

كان لكل مدينة مجلس محلي او محكمة لها رئيس وثمانية اعضاء من الاعيان وبعض التجار . ثم تدرجت العضوية لتشمل الضباط والموظفين الذين احيلوا للمعاش . هذه المحاكم قد تولت الفصل في القضايا البسيطة . وهنالك مجلس الاحكام بالخرطوم وهو بمثابة محكمة الاستئناف للسودان . ولا يخضع هذا المجلس الا للمحكمة العليا بالقاهرة . ولا يفوتنا ان نذكر ما كانت تقوم به الضبطيات القضائية بالمدن اعني مباشرة التحقيق في القضايا الجنائية وتقديمها للقضاء ليبت فيها . ولا زال القرويون عندنا يحتفظون بهذا الاسم فيطلقون على محكمة القرية «الظابطية» .

هذه السلطة القضائية في مديريات السودان كانت تتعرض احيانا لتدخل السلطة التنفيذية . بمعنى ان المديرين كانوا في بعض الاحايين يتغولون على كثير

(١) رتشرد هل « مصر في السودان » .

من السلطات ويبيحون لانفسهم صلاحيات فوق صلاحياتهم وعلى الخصوص في القضايا الكبيرة .

ولقد تميزت فترة محمد علي بالتحري فيما يهم الحكومة والمواطنين من مشاكل اذا ما حدث خلل او تلاعب من جانب المسؤولين ، اذ كان الباشا يرسل لجنة للتحري فيما يترامى الى سمعه . وعلى اساس تقرير هذه اللجنة اما ان يفصل المتهم من منصبه او يقدم للمحاكمة او طبعا يطلق سراحه اذا برئت ساحته .

الجيش السوداني

الجيش درع البلاد الواقي ، والجند هم حماة الوطن . هاتان حقيقتان انطبقتا على الجيش في ابان الحكم التركي المصري ، بمعنى ان الجيش هو الذي حمى ذمار الاهلين على الحدود . وفي ذات الوقت كان سلاحا ذا حدين قصد منه الحكام الى سحق الثورات الداخلية وتدعيم سلطانهم على السودانيين .

وكما تقدم فان محمد علي باشا قد بنى مجده بسواعد جنده من الاتراك والالبانيين وغيرهم ممن فتح بهم البلاد وخاض بهم غمرات الدنيا . فحاجته الى دماء جديدة من العسكر لجيشه الجديد كانت من بين الدوافع لفتح السودان . وعليه فان هذه العناصر المختلطة قد دخلها عنصر جديد قوي هو العنصر الزنجي من السودانيين الذين جندهم محمد علي في جيشه ، والذين حصل عليهم اما بغزوات الاصطياد في مطلع العهد التركي المصري او الشراء او تقبلهم بدلا عن الضرائب حتى بلغ ما حصل عليه منهم ثلاثين الفا ساقهم جميعا الى مصر حيث دربوا على حمل السلاح واعمال الجندية في بني عدي سنة ١٨٢٤ « فاستعان بهم محمد علي وارسل منهم فرقا الى بلاد العرب واخرى الى السودان وارسل الباقي في حرب المورة » (١)

غير ان احلام محمد علي التي طالما داعبت خياله في تكوين جيش عرمرم من السودانيين قد تبددت بمرض ثم موت معظم هؤلاء العساكر السود المنضوين تحت لواء الجيش المصري ، الامر الذي جعله يجند مصريين « النظام الجديد » .

عوامل البيئة التي اودت بحياة الكثيرين من السود في مصر حتمت ان يعمل الجنود السودانيون في بلادهم . وعليه فان الذين انقذوا من قبضة تجار الرقيق وحرروا ثم جندوا واولئك الذين التحقوا بسلك الجندية بالطرق المذكورة آنفا ، قد كونوا فرق « الجهادية » وكان الضباط من الاتراك او الاجانب . على ان السودانيين قد فتحت لمن يبرهن منهم على جدارة وظيفة امباشي وجاويش . واخيرا وجدوا فرصهم الى الترقي للرتب العالية . وكانت المصطلحات العسكرية باللغة

(١) محمد رفعت « تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة » ج ١ ص ١٣٤ .

التركية ، وظلت هكذا حتى عصر اسماعيل اذ عربت ، لان مجموعة الضباط قد انضم اليها افراد من المصريين العرب والسودانيين الذين لا يعرفون التركية ، وبقيت اسماء الرتب على ما كانت عليه بالتركية .

رغم المآسي المفجعة بموت آلاف السودانيين السود في مصر ، لم يقتنع محمد علي ويتخلى عن استخدام العسكر السود في خارج السودان . ففي عام ١٨٣٥ بعث الباشا اوامره الى حكمدار السودان خورشيد ليجند فرقتين للعمل بالحجاز لان جنده في عسير بالحجاز قد قضى عليهم الوهابيون (١) . وتنفيذا للامر العالي ارسلت الفرقتان . ومرة اخرى حدثت المأساة بموت مئات السود اثناء عبور البحر الاحمر ، وبمرض الكثيرين وبقائهم ببربر نتيجة الاعياء والارهاق . ولكن هذه المآسي من مرض او موت لم تثن الباشا عن عزمه لانه كان غليظ القلب !

بمرور الايام زاد عدد السودانيين في الجيش لا سيما بعد الفتوح وامتداد النفوذ التركي المصري في البلاد المختلفة ، ولان المصريين كانوا في البداية يكرهون التجنيد ولم يألفوه لانهم درجوا على فلاحة الارض ، او هكذا اراد لهم حكامهم عبر تاريخهم الطويل . ولما ارغم محمد علي الفلاحين على الالتحاق بالجندية ناصبوه العداء . واخذ الفلاح النشيط يوقع الاذى بنظره وجسمه ويهاجر الى بلاد العرب وبلاد الشام تهربا من نظام الجندية . غير ان المصريين ما لبثوا ان رحبوا بالنظام الجديد بعد ما وجدوا فيه من تأنق في ملبس الجندي وسعة عيشه ومكافأة المجتهد منهم ومنزلة الجندي بين الناس (٢) ، ومن ثم جاء الجنود المصريون (العرب) الى جيش السودان وكونوا عنصرا آخر فيه .

ومن السودانيين الذين انتظموا في سلك الجندية ابناء الشايقية بالطبع الذين انخرطوا في جيش اسماعيل بن محمد علي بعد استسلام الملك جاويش في المتمة في ١٥ مايو ١٨٢١ . وبتعيين جاويش ضابطا على عدد من رجاله ، وتعيين الشيخ عبود ـ شيخ قبيلة السواراب على رجاله ، بدأ اول دخول الشايقية الباشبوزق في جيش الحكومة المصرية بالسودان . وقد بقوا فيه الى قيام الثورة المهدية (٣) .

عمل الجنود سواء اكانو من السودانيين او الاجانب في جباية الضرائب . ومنهم من كانوا قساة غلاظ القلوب ، اشاعوا الرهبة في نفوس المواطنين بسياطهم التي كانت تلهب اجساد دافعي الضرائب . فلا غرابة اذا كره الناس منظر الباشبوزق .

لا تكتمل الصورة عن الجيش السوداني في نظري الا اذا اشرت الى ثورات

(١) ريتشرد هل « مصر في السودان » ص ٤٧ .

(٢) محمد رفعت « تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة » ج ١ ص ١٣٥ .

(٣) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٤٩٧ .

الجنود السودانيين (الجهادية) في الابيض اولا (١٨٦٤) وفي كسلا سنة (١٨٦٥) بسبب تأخير رواتبهم مدة ستة اشهر لسوء الحالة الاقتصادية ، ولان الخزانة كانت فارغة ! وكانت أوامر الخديوي اسماعيل عنيفة للغاية وهي اعدام القادة رميا بالرصاص وتكبيل البقية في الاصفاد الى اجل غير مسمى . ولكن ذلك التمرد قد انتهى بسبب توسط الضابط السوداني آدم العريفي الذي تدرج في سلم الترقي حتى قلد رتبة القائد الاعلى للقوات المصرية السودانية ومنح لقب باشا لكفاءته واخلاصه في اداء واجباته وولائه . ولا يفوتنا بهذه المناسبة ان نذكر ان آدم باشا هذا قد تسلم مقاليد الامور في السودان مؤقتا ريثما يعين مدير أو حكمدار بعد ان اتهم ممتاز باشا مدير قبلي السودان بالفساد والافساد . وفي هذا ما فيه من الثقة الكاملة التي تمتع بها هذا السوداني .

اجمال القول ان العنصر السوداني قد برز بشكل واضح في جيش البلاد وتبوأ السوداني مكانه اللائق به مع رصفائه من العناصر الاخرى . بيد ان معشر الجنود عامة قد تحولوا رويدا رويدا الى جباة ضرائب اكثر منهم رجالات جيش !

اللغة الرسمية

لغة المكاتبات الرسمية بين والي مصر واولى الامر في السودان ـ وفق ما يقول رتشرد هل ـ كانت التركية . ومع ذلك كان لكل مدير كتبة ومسجلون يستعملون العربية والتركية على حد سواء وبعد وفاة محمد علي قل استعمال التركية . معنى ذلك ان اللغة العربية اخذت مكان الصدارة لانها لغة الشعبين السوداني والمصري باستثناء المديريات الجنوبية وبعض القبائل . والحق ان اللغة العربية حتى على عهد محمد علي كانت مستعملة في المكاتبات الرسمية بدليل ان خورشيد باشا ظل منذ عام ١٨٣٦ يكتب رسائله لحكومة القاهرة بالعربية .

وفي ايام محمد سعيد باشا كانت جل المكاتبات من السودان الى مصر بالعربية. واخيرا وباعتلاء اسماعيل باشا الاريكة الخديوية سنة ١٨٦٣ سادت اللغة العربية وبزت منافستها حتى تقلص استعمال التركية واقتصرت على المكاتبات بين القاهرة واستانبول .

على ان كبار المسؤولين ما برحوا يتكلمون التركية . ولا شك ان الخديوي نفسه تركي اصلا . فمحمدعلي باشا لم يكن البانيا كما يظن البعض، بل تركيا ولد في كفالا بمقدونيا . وعلى حد تعبير هل فان افندينا لا يتحدث لغة الضاد ! ويمضي هل فيخبرنا ان الملك فاروق كان الحاكم الوحيد بين احفاد محمد علي الذي يعرف شيئا عن الادب العربي ! فاعجب ان شئت لحكام مصر الذين لا يفقهون لغة اهلها !. ولعل من الخير ان نذكر بهذه المناسبة ما أورده هل ايضا وهو ان اصطلاح «مصري» ينبغي

أن يؤخذ بشيء من الحذر . فالسودان لم يفتحه مصريون عرب ، وليس بين الجنود الذين غزوا هذه البلاد مصري ، ولم يقم بالادارة فيه مصريون بمعنى الكلمة ولكن حكمته فئة من الترك سيطرت على مصر منذ العصور الوسطى (١) .

تقييم سياسة محمد علي

لعله من المفيد في ختام حديثنا عن سياسة محمد علي في السودان ان نشير الى بعض الجوانب المضيئة والمظلمة في ادارته بايجاز . والحق ان ادارة محمدعلي لها محاسن لا يماري فيها الا مكابر . منها هذه الحكومة المركزية الموحدة التي لم يعهدها السودان عبر تاريخه الطويل ، والتي على اثر قيامها ذابت الدويلات الصغيرة والمشيخات المتعددة في وحدة سياسية متكاملة . وانتهت بذلك الاغارات والحروب التي كانت تشنها بعض هذه الدويلات على غيرها . وقد خفت حدة العصبية القبلية التي كانت طاغية على ذلك المجتمع . وبتأمين المواصلات أمن الناس من شر المجرمين وقطاع الطرق وكل المخاطر التي كانت تعترض سبيلهم .

وعلى الرغم من ان مملكة الفونج في ابان ازدهارها كانت تتاجر مع مصر والجزيرة العربية ، الا ان ضم السودان الى مصر قد زاده انفتاحا نحو العالم الخارجي بتجاربه وانجازاته ، وبالتالي نحو المدنية والنور . ولان محمد علي أدار السودان بعقلية تجارية ، فقد توخى سياسة عمرانية رمت الى تطوير الزراعة وتحسين وسائل الري وانواع الحيوان لزيادة المعطيات ، ولتتم الفائدة المرتقبة .

ومن ناحية اخرى فثمة جانب مظلم في هذا الحكم التركي المصري ونعني بذلك انتشار الرشوة والاختلاسات بين الاداريين والموظفين عامة بهدف الإثراء أيا كانت الوسيلة التي يتحقق بها . وتعليل ذلك ان اولئك الموظفين كانوا ينظرون الى السودان على أنه منفى ، ولا بد من ان يعوضوا مافاتهم من لين العيش في المدن المصرية ! وما من ريب ان هذه الامراض الخبيثة وهذه النقائص الاجتماعية قد بثها القوم في هذا البلد الذي كان معافى منها قبل مجيئهم . ومن أسف فقد ظلت قائمة الى يومنا هذا ! وهنالك الضرائب الباهظة التي عانى منها المواطن السوداني ما شاء الله له ان يعاني ، مع فظاعة جباتها واشتطاط الباشا في جمعها بأية وسيلة . وكذلك احتكر والي مصر تجارة السودان ولم يترك للمواطنين الفرصة سانحة للكسب معه في هذا الميدان الاقتصادي الحيوي . وان ننسى فلا ننسى الحاح محمد علي في طلب الزنوج للجندية وللعمل في الحقول والمصانع المصرية ، مما دفع المسؤولين هنا لاصطياد الابرياء من جبالهم ومكامنهم ، واستعبادهم وقد ولدتهم امهاتهم احرارا !

(١) رتشرد هل « مصر في السودان » .

أدارة عباس الأول (١٨٤٨ – ٥٤)

عباس باشا هو ابن طوسن بن محمدعلي . خلف عمه أبراهيم ، واتصف بالرجعية وبحرصه على النظام في الادارة وميله الى رفع مستواها في السودان . بيد انه جابه عدة مشاكل على رأسها مطامع الباب العالي في استعادة نفوذه على مصر بعد وفاة محمد علي . وقد اخذ السلطان خطوة في هذا الاتجاه باسترداد مينائي مصوع وسواكن . وكانا قد ضمهما محمد علي نظير نسبة تدفع من جماركهما لخزينة جدة . ثانيا مشكلة الاجانب الذين كانوا يحاولون الافادة من الامتيازات الاجنبية . ثالثا رغبات المستنيرين والمثقفين في تحسين احوال البلد . واخيرا فان بعض افراد اسرته كانوا يحيكون له الدسائس فيحبطها بكل جبروت وعنف . فلا غرو اذا شغل عباس بمتاعبه الداخلية وعجز عن التفرغ لمعالجة الامور في السودان .

ولما تولى عباس الحكم في مصر كان الحكمدار في السودان هو خالد باشا (١٨٤٦ – ٥٠) فاهتم باستخراج الذهب لينتفع به اولا ثم يعطي شيئا منه للحكومة ! ولم يكتف بذلك بل اختلس آلاف الجنيهات وقد تبين لعباس من اول وهلة رداءة الوضع السياسي في السودان . فبعث بعبد اللطيف باشا حكمدارا الى هذا البلد . فقام ببعض الاصلاحات كتنظيم الادارة بجلب عدد من الكتبة والمحاسبين والاطباء وغيرهم . ثم عدل في المديريات فأضاف فازوغلي الى سنار وفصل دنقلا من بربر واضاف بلاد الجعليين الى بربر وشيد بعض المباني الحكومية . وباختصار فان لطيف باشا كان من ابرز الحكمداريين الذين عينهم عباس الاول .

في هذا الوقت فتحت القنصليات الاجنبية في الخرطوم ، ووفد الرهبان والمبشرون لنشر المسيحية ، والتجار الاجانب وبخاصة تجار الرقيق ، وتجدر الاشارة الى انهم احضروا معهم الاسلحة النارية التي اخذوا يرعبون بها الاهلين لاقتناصهم . وكانوا يدفعون اثمانا بخسة للسلع التي يشترون ، مما ضاعف ارباحهم . ولهذا فقد حاول لطيف باشا ان يحد من نشاطهم بتسعير الصمغ والعاج لكي يشتري الاجانب بالمزاد العلني من الحكومة ، الامر الذي اثار حفيظتهم فشكوه وقدموا عريضة ضده للخديوي عباس معتمدين على ما للاجانب من امتيازات في الاملاك العثمانية . ومطالبين بحرية التجارة . وعلى الرغم من هذه الشكوى ومن كراهية عباس باشا لهم ، فان نفوذ الاجانب قد قوى ، واشتد ضغطهم عليه حتى اضطر الى استدعاء لطيف باشا وتعيين رستم خلفا له .

وبعد ذلك حكم السودان عدة حكمداريين عرفوا بالضعف والفساد ، وكان اسوأهم جميعا علي باشا سري وما من ريب ان النتيجة المنطقية هي تدهور الاحوال

في البلاد ، فانتشرت تجارة الرقيق ، وزادت الضرائب حتى أثقلت كواهل المواطنين وكانت طريقة جبايتها قاسية فظيعة . وعلى الجملة فان الادارة في هذا العهد كانت رديئة .

ومما يذكر ان عباس باشا قد فتح مدرسة اولية في الخرطوم عام ١٨٥٣ بهدف الخلاص من المغضوب عليهم وعلى راسهم رفاعة الطهطاوي . وفي هذا الوقت قوي نفوذ تجار الرقيق اذ بنوا مراكز محصنة في الجنوب للاغارة على الاهلين. وقد اغلقت مناجم الذهب في مناطق بني شنقول .

ادارة محمد سعيد باشا (١٨٥٤ – ٦٣)

تلقى محمد سعيد بن محمد علي ثقافة غربية اكسبته افقا واسعا وعطفا على رعاياه في مصر والسودان على السواء . ويقال انه كان معجبا بالشعب السوداني حادبا عليه بدليل انه كان اول من كون اورطة سودانية خاصة من الشايقية وخيالة كردفان ، ورقي بعض الجنود السودانيين الى ضباط .

ومن الاصلاحات التي قام بها سعيد انه الغى الجمارك بين مصر والسودان ، ومنع تجارة الرقيق ، فاذا وجد ارقاء مهربين اعتقهم ومنحهم حريتهم . وبما ان علي باشا سري – حكمدار السودان – كان منغمسا في الفساد والرشوة فقد فصله ، وعين محمد سعيد باشا اخاه الامير عبدالحليم باشا حكمدارا ليقيم شعائر العدل. فان دل هذا انما يدل على اهتمام سعيد البالغ بالسودان. ولنستمع الى فقرة مما قاله في الفرمان الذي اصدره مخاطبا السودانيين : « تحيطون علما وتدركون معرفة وفهما انه لما كان من اقصى آمالنا ادخال جميعكم في سلك العمار والرفاهية » (١).

زار محمد سعيد السودان سنة ١٨٥٧ للسياحة والنزهة كما صرح ، ولكي يضع لها النظم التي تكفل لها العمران والرفاهية . وتشير بعض المصادر المصرية الى انه زارها ايضا للعمل على تأمين الحدود الشرقية من ناحية الحبشة لان ثيودور كاسا او ثيودور الثاني امبراطور اثيوبيا كان يهدد بغزو السودان ، وتكثر اغارات رجاله على حدود السودان الشرقية لانه كان طامعا في ضم البلاد السودانية حتى سنار . وكان الاعتقاد الذائع أن الانجليز كانوا يحرضونه على عدوان الادارة المصرية في السودان . وكذلك جاء سعيد الى هذه البلاد ليزيل اسباب شكاوى الاهالي من كبار موظفي الحكومة في العاصمة والاقاليم ، هؤلاء الذين استبدوا في احكامهم وتعسفوا دون ان يردعهم رادع لبعد الشقة بين الخرطوم والقاهرة .

---

(١) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » (نقلا عن دفتر ١٨٨٣ بتاريخ ١٢ ربيع الاول سنة ١٢٧٢ هـ) .

ولقد هال سعيد باشا البؤس الذي يقاسيه الناس في السودان ، وايقن ان هذه الاحوال السيئة انما جرها الحكام . ويقال انه فكر في الجلاء وترك السودان لاهلها ! استمع في بربر الى شكاوى الاهالي ومـا تضمنته عرائضهم من فداحة الضرائب ، فجمع المشائخ والرؤساء وطلب اليهم ان يؤمروا عليهم اميرا يختارونه من بينهم يتوسمون فيه الخير . وفي شندى اعلن عزمه ، وفي حضور الزعماء الوطنيين ، على اعادة جميع الموظفين الاتراك الى القاهرة ليترك للاهالي ادارة شئونهم بانفسهم . وقد صمم سعيد على تطبيق اللامركزية الادارية والاستغناء عن العساكر الغير نظامية ـ الباشبزك ـ وترك اختيار جامعي الضرائب للسودانيين وامر بتأليف مجالس وجمعيات من المواطنين لمناقشة الشئون العامة مع المديرين كل هذه السودنة ليضع حدا للقسوة والفساد .

وفي طريقه من بربر الى الخرطوم الغى سعيد الحكمدارية لعلاج الفساد الذي استشرى في البلاد ، وامر بان تتصل المديريات وهي اربع في كل سياستها راسا بمصر . ونصح كل المديرين بضرورة التعاون التام والشورى مع المجالس المحلية ليشترك المواطنون في امور الحكم . وخفض الضرائب تخفيضا اقل مما قدره المشايخ من ٢٥٠ قرشا على الساقية ، الى ٢٠٠ قرش ، كما أوصى بتنظيم المدن وتشجيع السكان على عمل الحدائق في منازلهم والا تربط أموال على الاطيان التي تغرس فيها الاشجار المثمرة . ونظم البريد بانشاء محاط لتغيير الجمال المنهكة(١) وعلى الجملة فقد استهدف سعيد باشا رفاهية الشعب السوداني .

ومن دواعي الاسف فان اللامركزية لم تنجح لنفس الاسباب التي راينا ابان حكم محمد علي لتمرد بعض كبار المشائخ على المديرين لزوال هيبة الحكمدارية . فبدأ بعض المشائخ يظلمون الناس مما حدا بالاهالي ليقدموا عرائض احتجاج للقاهرة ؛ الشيء الذي جعل سعيدا يعير في ايامه الاخيرة نظام اللامركزية ويرجع الحكمدارية .

على ان كثيرا من مشاريع سعيد باشا التي كان يزمع انشاءها في السودان لم تتم بل ظلت حبرا على ورق لان سعيدا كان كثير المشاغل وآية ذلك ان العمل في حفر قناة السويس قد بدأ في ابان عهده ، فلم يترك له زمنا كافيا للنظر في احوال السودان . ورغم ان مشاعره عن السودان طيبة ، لم تتحسن الامور كما كان يأمل.

جملة ما يقال في سياستي عباس ومحمد سعيد باشا ازاء السودان ان الاول لم يول هذا البلد ما يستحق من عناية واصلاح رغم ان المصريين كانوا يعتبرون السودان جزءا مكملا لبلادهم . فما من عجب في ذلك لان عباسا هذا كما صوره

(١) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ١٣٠ .

المؤرخون قد بقى الى النهاية حاكما مستبدا متباعدا عن شعبه كارها للاصلاحات وبصورة خاصة الاصلاحات الاجنبية . وقد اعتبر عهده نكسة اذ اغلقت المدارس والمعاهد واهملت المصانع المصرية . ولم يفتح مدرسة الخرطوم الاولية تفضلا منه ، وانما لشيء في نفسه وهو نفي المغضوب عليهم امثال رفاعة الطهطاوي الى السودان. ولم يفتحها للسودانيين ، ولكن لابناء الاتراك الموجودين هنا ! فأي خير نرجوه لهذا البلد من هذه الشخصية الغريبة ؟

اما محمد سعيد فقد كان ، على نقيض سلفه ، مصلحا مستنيرا متأثرا بتربيته الغربية . وفي ايامه خطت مصر خطوات الى الامام نحو الازدهار في المجالات الاقتصادية والاجتماعية . ولم يهمل شأن بلادنا اذ « اهتم كذلك بالسودان بعد ان كان في عهد عباس منفى للمجرمين والمغضوب عليهم فزاره سعيد سنة ١٨٥٧ مع صديقه (دلسبس) واصلح في ادارته وحكومته » .(١) ومع ذلك فان السودان مازال في تلك الحقبة بحاجة الى مصلح جاد لان مساوىء الحكم التركي المصري لازالت تعج بها البلاد .

(١) محمد رفعت (تاريخ مصر السياسي) ص ١٩ .

الفصل الرابع

ادارة الخديوي اسماعيل في السودان

(١٨٦٣ – ٧٩)

عندما يبدأ المؤرخ البحث عـن الخديوي اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي يشعر أنه ازاء مرحلة تاريخية جديدة تتميز بحيوية دافقـة وتعج باحداث جسام ، كيف لا وعهد اسماعيل قد امتاز بأنه عصر نهضة وتقدم في عديـد المجالات ، فهو الذي دفع مصر الى الامام في مجال الاقتصاد وعمل على احياء العلم والفكر بتشييد دور العلم وتشجيع التأليف والصحافة والآداب والفنون . وهذا لعمر الحق كاف لان يبوأه مكانه الأسنى بين عظماء الحكام في تاريخ مصر واملاكها . ومن ناحية اخرى فان اخطاء اسماعيل واقتراضه الاموال الطائلة من دول الغرب الراسمالية ، قد جرت على بلاده التدخل الاجنبي وعزله ، ثم احتـلال الانجليز لمصر (١٨٨٢) في نهـاية المطاف ، فتأثر بذلك السودان .

وفي أبان حكم اسماعيل بلغت الادارة التركية – المصرية في السودان قمتها ، وآية ذلك ان هذه الادارة قد استعادت قوتها التي فقدتها منذ أيام محمد علي باشا . وعلى عهده تضخمت رقعة امبراطوريـة مصر الافريقيـة . ورغم اقتداره ، الا ان اسماعيل قد اعوزه الحذر الذي تميز به جده . فضلا عن ذلك فقـد حكم اسماعيل في وقت وضحت للعيان فيه اطمـاع الدول الاجنبيـة في مصر وفي افريقية بصورة عامة . وعلى هذا فان الاعوام الاخيرة لعصر اسماعيل كـانت عصيبة انتهت بكارثة ساحقة » (١) .

ويمكن ان نجمل سياسة اسماعيل ازاء السودان في انه ازمع أن ينمي هذا البلد اقتصاديا ، ويقوي دعائم الحكم فيه ، ويطور وسائل مواصلاته البرية والبحرية على

(١ P. M. Holt, A Modern History OE The Sudcn (1961) P. 62.

السواء ، ويوسـع حدوده . وفي رأي دكتور هولت ان من أبرز الظواهر السياسية في هذه الحقبة امتداد مساحة السودان امتدادا بعيـد المدى ، والاصرار الشديد على محاربة تجارة الرقيق والقضاء عليها ، وتعيين الاجانب الذين لم يكونوا مسلمين أو من رعايا العثمانيين ، بل كانوا اوربيين مسيحيين في الوظائف المدنية والعسكرية العليا بالسودان . ولعل في الخطاب الذي بعث به اسماعيل الى موسى باشا حمدي – حكمدار السودان – صورة أوضح عن سياسة الباشا تجـاه هذا البلد ، وفيه يقول : « وخلاصة القول ان هذا القطر الجسيم الحق بالمملكة من قديم العهد واصبح حقا مكتسبا لها فالواجب يقضي بعدم اضاعة شبر مـن حدوده المعينة . وبما أن تعمير واصلاح الاقليم المذكور وادخاله في عـداد المديريات المصرية التـي هي اكثر عمرانا وازدهارا وكذا توسيع نطاق تجارته من اقصى آمالي وافكاري ، بنـاء عليه يلزم أن تعاملوا سكانه بالعدل والحقانية ، وأن تبذلوا اقصى جهدكم في تزييد عمرانه وتوسيع نطاق تجارته وايصاله الى غاية الكمال من جهة الامن والانضباط العام » (١).

الى جانب النهوض بالسودان اقتصاديا اعتزم اسماعيل أن يقلد السودانيين بعض المناصب الادارية ، ولذا عين احمد بك ابايسن ، كبير مشايخ قبيلة الشكرية ، مديرا للخرطوم وسنار ، وهو أول سوداني يرقى الى هذا المنصب الرفيع . ولقد برهن ابوسن على كفاءة نادرة ، وان السوداني اذا ما اعطى الفرصة ليحكم ساس الرعية سياسة رشيدة .

الاصلاحات الادارية التي أجراها اسماعيل

اتضح بما لا يدع مجالا للشك سوء اللامركزية التي اديرت على اساسها البلاد في أبان حكم محمد سعيد ، فما عتم اسماعيل ان اعاد نظـام المركزية بايفاد موسى حمدي باشا حكمدارا للسودان عام ١٨٦٢ عندما كان قائما بالامر اثناء مرض عمه محمد سيد باشا . فدعا هذا الحكمدار الجديد المديرين والمشايخ الى اجتماع في العاصمة واخبرهم بهدف الخديوي في اشراك السودانيين في الادارة . وقد اجاز هذا المجلس مقترحات هامة عن جمع الضرائب (تدفع على ثلاثة اقسـاط) وعملت أوراق تسمى السراكي وهي عبارة عن ايصالات تبين في الواحد الضريبة التي دفعت وما تبقى منها ، والمركز الذي وردت فيه . وتجـدر الاشارة الى ان موسى حمدي قد زاد تقدير الضرائب من مائة الف جنيه عـلى عهد محمد سعيد الى ٢٣٢،٥٠٠ جنيه فناءت بها كواهل المواطنين .

ومما يذكر ان الحكومة كانت تكره المزارعين لدفع ما عليهم مـن الضرائب عينا

---

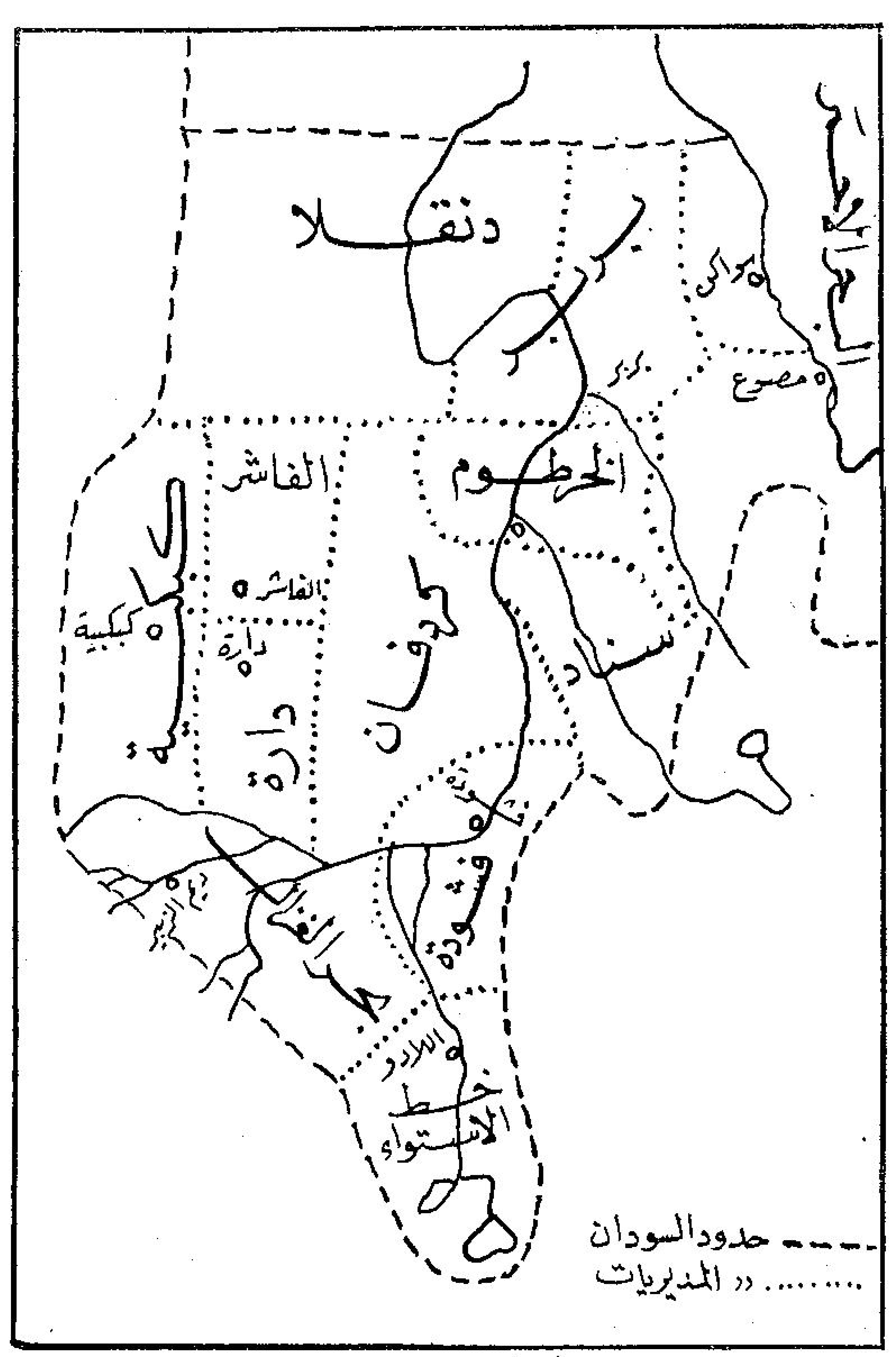
(١) دفتر المعية السنية رقم ٥٢٦ صحيفة ٥٨ بتاريـخ ٦ شوال ١٢٧٩ (نقلا عن السودان عبر القرون للدكتور مكي شبيكة) .

أي كميات من المحاصيل والدمور بأسعار لا تزيد على ربع قيمتها في السوق ، الامر الذي كان يملأ مخازن الحكومة ، ويرفع الاسعار للمستهلكين ! ومن أجل ذلك فان موت موسى حمدي باشا قد نزل بردا وسلاما على دافعي الضرائب .

وجدير بالذكر في هذه الفترة ان السودانيين الاكفاء قد وجدوا فرصهم في تولي المناصب الادارية كوظيفة مدير وغيرها بعد ان كانت أعمالهم مقصورة على مشيخة القبائل وبعض الاعمال الكتابية البسيطة في دواوين الحكومة . وقد يرجع ذلك الى ندرة الاتراك المقتدرين من ذوي الخبرات في شئون السودان او الى اتاحة الفرص لبعض قادة السودان ليتبوءوا مكانهم اللائق بهم في تسيير دفة بلادهم . من هؤلاء آدم بك العريفي (الكردفاني) الذي رقي الى رتبة امير اللواء (١٨٦٧) وأعطى لقب باشا لخدماته العسكرية ، فهو الذي هدأ ثورة الجنود السودانيين الذين تمردوا على الحكومة في كسلا عام ١٨٦٥ . ومن زعماء السودان ايضا أحمد بك عوض الكريم أبوسن شيخ قبيلة الشكرية الذي تقدم ذكره ، ومحمد بك راسخ مدير بربر (١٨٦٩) ومدير بربر ودنقلا عام ١٨٧١ . على ان نسبة هؤلاء ضئيلة بالنسبة للكثرة الغالبة من الاتراك والمصريين .

خلف موسى حمدي باشا على حكمدارية السودان جعفر صادق (١٨٦٥ – ٦٦)، وجعفر مظهر وكيلا له . فكان مجيئه في وقت عصيب لأن الخزانة كانت خاوية على عروشها ، فلم يتسلم الموظفون رواتبهم مدة ستة اشهر ، فاضطرت حكومة القاهرة الى سد العجز ! ومن آثار ذلك تمرد بعض الجنود أولا قبيل وفاة موسى حمدي . ثم نشبت ثورة الجنود السودانيين في كسلا عام ١٨٦٥ اثناء حكمدارية جعفر صادق. وكانت اوامر والي مصر اقتلاع جذور التمرد باعدام القادة رميا بالرصاص ، وان تكبل بقيتهم في الاغلال الى ما شاء الله او حتى الموت . ولقد توسل مدير التاكة الى السيد الحسن الميرغني زعيم طائفة الختمية ليستعمل نفوذه حتى يلقي الجند السلاح . وبعد وساطة قام بها آدم بك العريفي ، انهى الجنود تمردهم . هذه الثورة جعلت اسماعيل باشا يفكر جديا في ترحيل العسكر من السودانيين السود الى مصر ، ويحضر بدلا عنهم مصريين على غرار النظام البريطاني الذي وضع جنودا من الانجليز في الهند وغيرها من المستعمرات واخيرا استقر رأي الوالي على أن ينقص عدد كتائب السود ويرسل بعضها الى مصر ويحل محلها بقوات من المصريين والشايقية والالبانيين .

ولعل من أهم الاحداث على عهد جعفر صادق ان الحكومة قد ضمت فشودة عام ١٨٦٥ في منطقة الشلك — هذه المنطقة التي سيطر عليها احد ابناء الدناقلة ويدعى محمد خير الأرقاوي . وقد انشأت الحكومة بها نقطة حربية لمنع تجارة الرقيق ، بل رفعتها الى مديرية عاصمتها فشودة نفسها ، ولا شك ان فشودة تتمتع بموقع استراتيجي ممتاز فهي « مفتاح النيل الاعلى لوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة



مديريات السودان المصري في عهد اسماعيل

(مقتبسة من السودان عبر القرون للدكتور شبيكة)

الواصلة من الخرطوم والحبشة الى جنوبي السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل كنهر سوباط وبحر الغزال والنيل الابيض وبحر الزراف ، وهي نقطة الاتصال بين السودان وجهات خط الاستواء ، ومن يملكها يضمن النفوذ في شمالي السودان وفي الجهات الجنوبية منه الى البحيرات الاستوائية ، فلا غرو ان تكون لها مكانة كبيرة من الوجهتين السياسية والاقتصادية » (١) . ونحن بالطبع نذكر حادث فشودة (١٨٩٨) الذي قامت على اثره أزمة حادة بين بريطانيا وفرنسا كادت تثير حربا بين الدولتين الاستعماريتين آنذاك .

كذلك أيقن اسماعيل باشا بضرورة ضم سواكن ومصوع نهائيا الى أملاكه . وقد سبق القول الى ان هذين الميناءين استأجرهما محمد علي من سلطان تركيا بمبلغ ٢٥ الف جنيه سنويا . فرأى اسماعيل ان من الخطل ان يظل موقف سواكن ومصوع على ذلك الوضع وهو استمرار سيطرة جدة عليهما لانهما ينتميان بحق الى السودان . فاستصدر من الباب العالي او السلطان العثماني فرمانا (أمر عالي) سنة ١٨٦٥ بمقتضاه حولت ادارتهما لاسماعيل ما دام على قيد الحياة . وفي نظير ذلك يدفع ايرادهما السنوي لخزانة جدة . غير ان اسماعيل لم يقتنع بذلك ، فحصل على فرمان آخر (٢٧ مايو ١٨٦٦) من السلطان بعد ان بذل اموالا طائلة ودفع رشا ! وبموجبه صار اسماعيل وورثاؤه أو خلفاؤه من بعده حكاما على مصر وملحقاتها وهذين الميناءين . فجعل منهما محافظتين كل منهما قائمة على حدة . واستمر الحال على هذا المنوال الى ان اخلى المصريون السودان بعد الثورة المهدية فاحتلت ايطاليا محافظة مصوع عام ١٨٨٥ ، وأضيفت سواكن الى بقية البلاد بعد الفتح الانجليزي المصري .

الى جانب اهمية سواكن ومصوع الاقتصادية كمخرجين لتجارة السودان ، فانهما قد لعبا دورا كبيرا في محاربة تجارة الرقيق في بادىء الامر . ولكن تجار الرقيق عرفوا أخيرا كيف يتجنبون مراكز السلطة ويصدرون ضحاياهم عن طريق مرافىء اخرى صغيرة .

(جعفر مظهر باشا)

تقلد جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ — ٧١) منصب حكمدار بعد عودة جعفر صادق الى مصر بسبب وعكة المت به . وفيما يبدو من سيرته انه كان من خيرة الحكمداريين الذين مروا على هذا البلد اذ كان عادلا نزيها ذا خلق وتدين . شيد المدارس وقرب علماء السودان وفتح المحاكم لحل مشاكل الاهلين . وفي أيامه رقي الضابط السوداني

(١) عبد الرحمن الرافعي بك « عصر اسماعيل » (١٩٤٨) ص ١٠٥

آدم بك العريفي الى رتبة القائد العام للجيش المصري بالسودان لولائه وتفانيه في اداء واجباته . كما بذل كل ما في وسعه للضرب على ايدي تجار الرقيق ومن حذا حذوهم أو تعاون معهم من الحكام . وعلى سبيل المثال قبض على احمد بك حلمي مدير النيل الابيض الذي وجد متلبسا بجريمة ممارسة تجارة الرقيق فحكم عليه بالاشغال الشاقة في فازوغلي ! كتب ابراهيم فوزي باشا عن جعفر مظهر وعن سياسته في السودان فقال : « فارق الخرطوم وعليه دين يربو على الف جنيه ، وهذا من أقوى الدلائل على نزاهته ، وقال ان راتبه لم يكن يفي بحاجاته ، لكثرة ما كان ينفقه على الفقراء والمعوزين ، وما كان يقيمه من المآدب للعلماء وذوي الفضل ، قال ولا يزال السودانيون يذكرون له هذه الميزات ، وهم مجمعون على ان ايام ولايته كانت غرة في جبين السودان » (١) .

هذه خلال أريحيي ، فما من عجب اذا انعطفت اليه قلوب بعض السودانيين . والناس في كل زمان ومكان قد أشربوا حب الأريحيين . بيد أن ثمة عيبا في سياسته وهي مبالغته في فرض ضرائب باهظة على ملاك السواقي بلغت ستة جنيهات على الساقية الواحدة ! وكما ذكر الدكتور مكي شبيكة فان هذه السياسة قد ادت الى هروب الناس من مديريتي بربر ودنقلا . على ان جعفر مظهر كان ، كما يقال ، يرمي من وراء ذلك الى « التثبت من أقصى ما يستطيع ان يدفعه الفلاح لا الى استلام الستة جنيهات بأكملها » . وهؤلاء الذين ذعروا وتركوا مزارعهم نزحوا الى الجنوب واشتركوا في تجارة الرقيق ! وعلى هذا النحو زاد الحكمدار من مشاكل الحكومة التي كانت تسعى الى محاربة الاسترقاق وتجارة الرقيق .

ومن جهود اسماعيل لاصلاح الادارة في السودان أو من التغييرات التي تمت في هذه الحقبة تعيين رجال الأمن أو الشرطة (البوليس) لان الأمن في كافة المدن استلزم وجود قوة لتضرب على أيدي العابثين المجرمين الذين تهددوا ممتلكات الناس وسلامتهم خاصة وان عدد السكان قد ازداد ونشطت حركة التجارة . وقد تم اختيار هؤلاء من الجنود غير النظاميين ووزعوا على المدائن والمراكز المختلفة . فادوا واجبهم كأحسن ما يكون الاداء .

وهكذا ادى اسماعيل باشا خدمة جليلة الى كثير من افراد الشعب السوداني .

ممتاز باشا

على عهد جعفر مظهر باشا ظهرت شخصية لعبت فيما بعد دورا بارزا في

(١) السودان بين يدي غردون وكتشنر ج ١ ص ٦٧ (نقلا عن الرافعي بك « عصر اسماعيل ») .

السودان وهي شخصية ممتاز باشا الذي تسلم ادارة سواكن ممثلا للحكومة المصرية سنة ١٨٦٥ . ولقد ابدى نشاطا ورغبة صادقة في تطوير مناطق البحر الاحمر .. ففي عام ١٨٦٧ انبأ والي مصر بانه سيحاول حجز الماء في خور تمانيب الكيلا ينساب من التلال في البحر الاحمر دون ان تفيد منه المنطقة . وكان اسماعيل قد أفضى من قبل الى ممتاز بحقيقة نمت الى علمه من بحار وهي وجود ينبوع قرب سواكن ، وان ماءه يمكن أن يستغل لسقي المدينة . وأهم من ذلك وضح ممتاز انه سيقوم بتجربة زراعة القطن في طوكر بدلتا خور بركة .

الواقع ان القطن كان محصولا مربحا في ابان الحرب الاهلية الامريكية (١٨٦٣ – ٦٥) أفاد منها ملاك الأراضي في مصر . وبعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها ، وعاد الامريكان لانتاج القطن وعرضه في الاسواق انخفضت اسعاره . هنا – كما يقرر رتشرد هل – كانت مشكلة الخديوي (منح اسماعيل لقب الخديوية رسميا من سلطان تركيا سنة ١٨٦٧ وظل خلفاؤه يحملون هذا اللقب حتى عام ١٩١٤) هي أن يزرع مساحات كبيرة قطنا لكي يعوض ما فاته من انخفاض الاسعار . فلا جرم يسعد من مقترحات ممتاز .

فيما يختص بمسألة الماء العذب لسواكن فقد وفق ممتاز في بناء خزان الماء الذي تساءل الخديوي عن امكانية انشائه . وبذا امد اهل سواكن بماء الشرب وغيره . وقد تحصل على الايدي العاملة لهذا المشروع العملاق بتسخير بعض سكان مدينة سواكن .

ولقد أثنى الخديوي على نشاطات ممتاز ودعاه ليعود الى القاهرة ليوضح آراءه عن مشروع التوسع في زراعة القطن . وهناك طرح ممتاز مشروعا للبحث على أساسه يتم انتاج نصف مليون قنطارا من القطن كل عام في شرقي السودان ، الشيء الذي اغرى اسماعيل بارجاع ممتاز لينفذ مخططه (١) . وعلى ذلك توجب أن تجري بعض التغييرات الادارية .

ان اتساع رقعة السودان بعد ضم سواكن ومصوع ، واحتمال ضم الاستوائية على يد المكتشف البريطاني صموئيل بيكر ، جعلتا الخديوي يقوم ببعض التغييرات في ادارة هذه البلاد . ففصل السودان الشرقي الذي يشمل محافظتي سواكن ومصوع ومديرية التاكة ، وعين ممتازا (١٨٧٠) محافظا عليه ، واطلق على هذه البلاد « محافظة سواحل البحر الاحمر » . جاء هذا التغيير في أمر الخديوي حيث يقرر : « انه بالنظر الى ما هو معلوم من اتساع جهات الاقاليم السودانية وتباعدها عن بعضها بمسافات جسيمة مما يشق على الحكمدار استدراك استكشافاتها واختيار

(١) رتشرد هل « مصر في السودان » .

أحوال سكانها في زمن مستقرب ، هذا مع ضرورة الاقتصاد ولاجراء الاسباب الموصلة لتقدم الاهالي وعماريتها وملاحظة ترغيبهم وتشويقهم الى الزراعة واكتساب منافعها التي هي الأساس الأكبر لسعة الثروة العمارية ونمو التجارة ونحو ذلك فلهذه المناسبات اقتضت ارادتنا نزع محافظات سواكن ومصوع والتاكة وباقي سواحل البحر الاحمر لحد بربرة التي هي آخر حدود الحكومة واجعالهم ادارة مخصوصة بمحافظة مستقلة تسمى محافظة سواحل البحر الاحمر وعينا ممتاز باشا محافظا عليها » (١) .

هذه التطورات الادارية قد أغضبت جعفر مظهر – الحكمدار – على ممتاز باشا لان الاخير كان منذ زمن يكاتب الخديوي رأسا دون اهتمام برئيسه . ولطالما شكاه جعفر للخديوي مبينا ان ممتازا كان يهمل الروتين اليومي في عمله .

لم يقف الامر عند هذا الحد بالنسبة للحكمدار ، بل فصلت الاستوائية واعطيت ادارتها لصموئيل بيكر الانجليزي رغم اعتراض الحكمدار جعفر . واخيرا فصلت مديرية بربر واتبعت « للمعية السنية » لا للحكومة المصرية ، وأسندت ادارتها لحسين بك خليفة شيخ قبيلة العبابدة . وعلى هذا النحو تقلص نفوذ الحكمدار في الخرطوم .

نرجع الى نشاطات ممتاز باشا في حقل زراعة القطن ، فقد شرع في وضع مخططه موضع التنفيذ اذ زرع القطن في دلتا طوكر وكسلا ، وطلب المحالج وكل ما يلزم من آلات وأدوات تعين على جني القطن وتصديره . وسنعود الى الحديث عن ممتاز وقطنه عندما نناقش منجزات اسماعيل باشا في مجال الاقتصاد والخدمات الاجتماعية .

عود الى اللامركزية :

لم يكتف الخديوي بما أجراه من تعديل في السودان ، بل الغى منصب الحكمدارية (١٨٧١) فغادر جعفر مظهر باشا العاصمة . وبعدئذ صهر الباشا مديريات الخرطوم ، سنار ، فازوغلي ، النيل الازرق ، النيل الابيض ، كردفان والتاكة وجعل منها وحدة سياسية أطلق عليها « قبلي السودان » وأوكل ادارتها لممتاز باشا في ٥ نوفمبر ١٨٧١ . وثمة وحدة أخرى هي « بحري السودان » شملت مديريتي بربر ودنقلا . وعلى هذا الأساس رجعت بربر مرة ثانية الى نفوذ الحكام هنا ، وعين حسين بك خليفة مديرا على بحري السودان .

وفيما يظهر ان السلطات الواسعة التي نالها ممتاز باشا قد اغرته وأفسدت طباعه . وكما يقولون : كل سلطة تفسد ، والسلطة المطلقة تفسد افسادا مطلقا !

(١) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ١٣٩

فممتاز هذا أسكرته السلطة أو القفزة السريعة التي قفزها الى أعلا الرتب فلوى عنقه وعمل أشياء غير مسئولة وظالمة (ولكل ظالم يوم) ولم يكترث لمشاعر المواطنين (١) ، فأثار دافعي الضرائب وفرض عليهم أن يدفعوا ما عليهم قطنا بدلا عن النقد لكي يكبر مقامه في نظر سيده الخديوي ! وعندما شعر بأن الخزانة فارغة أكد للخديوي ان وجود العسكر بالسودان لا طائل تحته وغير ضروري ، وعليه يمكن سحبهم الى مصر ! ولعل هذا كان اقتراحا غريبا في نظر الباشا .

أخيرا اتهم السودانيون ممتازا بالفساد والافساد وتقبل الرشا (جمع رشوة)، يقول نعوم شقير عن ممتاز : مد يده الى الرشوة واخذ من سنار وحدها على رواية بعض معاصريه مائة وخمسين ألف ريال ونيفا ، وسرعان ما وصلت الأوامر بفصله ومصادرة أمواله وسجنه بالخرطوم رهن التحقيق . في هذا الاثناء تسلم مقاليد الحكم في البلاد (موقتا) آدم باشا العريفي السوداني وهو القائد الاعلى للجيش . ثم جاءت لجنة من مصر لمحاكمته على التهم الموجهة ضده ومنها الاختلاس من مال الدولة . وما ان وصلت هذه اللجنة حتى فارق ممتاز الحياة . وكما يقرر هل مهما عدت ذنوب ممتاز فاليه يرجع الفضل في تعليم السودانيين زراعة القطن في مساحات كبيرة منتجة .

اسماعيل ايوب باشا (١٨٧٣ – ٧٧)

من رجالات الجيش الذين عملوا بالسودان في السابق . بعث به الخديوي « ليربط العقد الذي انفرط على عهد جعفر مظهر » . ومن اغراض ارساله الى السودان ايضا القضاء على الرشوة والاختلاس وتنظيف جهاز الحكم من الشوائب . تقلد اولا منصب مدير قبلي السودان عام ١٨٧٢ خلفا لممتاز . وقد برهنت اللامركزية على فشلها ثلاث مرات لوضع السودان الجغرافي . وفي هذا الصدد يقول الدكتور شبيكة « ثبت فشل اللامركزية وتجزئة السودان الى ادارات مستقلة حيث تكوينه الجغرافي لا يدع مجالا لمديريات منفصلة ولا بد من أن تحتك أجزاء الاداة الحكومية. فقد كان يشكو المسيطر على مديرية الخرطوم من مدير التاكة لالتجاء القبائل بمديريته هربا من الضرائب » (٢) . ومن أجل ذلك فقد أضحى لزاما نبذها ، وعين اسماعيل ايوب باشا حكمدارا للسودان بعد أن أمضى خمسة عشر شهرا مديرا على قبلي السودان .

وهكذا اعيدت المركزية مرة أخرى .

---

(١) تاريخ ملوك السودان ص ٣٩ ـ نقلا عن « مصر في السودان » لهل .
(٢) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » (١٩٦٤) ص ١٤٢

ولقد تميز عهد أسماعيل أيوب بالفتوح اذ ضمت مصر سلطنة دارفور ، زيلع، بربرة وسلطنة هرر في الشرق .

ومن مجهودات الخديوي لاصلاح الادارة في السودان أو من التغييرات الهامة التي حدثت على عهد اسماعيل ايوب ان « انشئت محطات عسكرية بين الخرطوم ودارفور الى حدود وداي (غربي دارفور) ، وبين بربر على النيل وسواكن على البحر الاحمر ، لتأمين سبل المواصلات ، مما كان له أثره في تنشيط التجارة » (١).

غردون باشا (١٨٧٧ – ١٨٧٩)

تأتي بعد ذلك فترة حكمدارية شارلس جورج غردون . وقبل أن نتحدث عنه كحاكم عام لا بد من رجوع الى الوراء الى أيامه في الاستوائية . وعلى ما هو معلوم فان غردون كان معروفا لدى السودانيين اذ عينه الخديوي اسماعيل مديرا على خط الاستواء خلفا لصموئيل بيكر عام ١٨٧٤ . فاختط اللادو عاصمة للمديرية ونظم سلسلة من الحاميات النيلية على أرض صلبة ، بمعنى ان القبائل هناك لم تناصبه العداء . وقد جهد جهد عزمه ودبلماسيته لمصالحة وكسب القبائل التي آلمها غزو تجار الرقيق وصرامة بيكر وعنفه . فبدلا من أن ينهب جنود غردون طعامهم من القبائل اخذوا يفلحون الارض لانتاج أقواتهم ، وتغيرت مشاعر زعماء القبائل نحو الحكومة لان غردون احترم سلطانهم وقدر وزنهم في مجتمعاتهم الصغيرة . وعلى هذا النحو نجح غردون من حيث فشل بيكر .

وتشير بعض المراجع الى أن الحكومة البريطانية قد حرصت على أن يعود غردون الى السودان مرة أخرى وفي وظيفة الحاكم العام لشيء في نفسها ! فاستجاب الخديوي اسماعيل وعين غردون حكمدارا عام ١٨٧٧ بمقتضى الفرمان الذي أصدره في ١٧ فبراير ١٨٧٧ لغردون « بالولاية على جميع أصقاع السودان بما فيها دارفور وبحر الغزال ، وخط الاستواء ، وهرر وسواحل البحر الاحمر ، مع مصوع وسواكن وزيلع ، وبربرة . وخوله في حكمه سلطة مطلقة ، عسكرية ومدنية » (٢) ويعتبر هذا الحدث أي تعيين حكمدار أجنبي من التغييرات الهامة في الادارة التركية المصرية في السودان ، ومن محاولات الخديوي لاصلاح هذه الادارة . والحق ان تعيين غردون الاول حاكما على خط الاستواء قد تم على أساس توصية أو طلب من بريطانيا. يقول نعوم شقير « وبعد استعفاء باكر باشا من خط الاستواء أوصى ولي عهد انجلترا اسماعيل بأن يكون الكلونيل غردون في مكانه . وكان اسماعيل يود بقاء تلك البلاد لمصر فأمر بتعيينه » (٣) كتب عبد الرحمن الرافعي بك عن غردون فقال :

---

(١) عبد الرحمن الرافعي بك « عصر اسماعيل » ١٩٤٨ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي بك « عصر اسماعيل » (١٩٤٨) .
(٣) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ١٩٦٧ ص ٥٦٢

« وهو ليس حاكما أجنبيا فحسب ، بل ينتمي الى دولة لها في مصر مآرب استعمارية لا تخفى ، اذ كانت تتطلع الى مصر ، وتعمل على انشاء امبراطورية افريقية انجليزية تبنيها على انقاض الامبراطورية المصرية » . وفي تقدير هذا المؤلف ان تعيين غردون يعتبر نجاحا للسياسة البريطانية التي اصبح لها نفوذ سياسي على الخديوي اسماعيل ، وان اختيار غردون تم بعد أن مشت بريطانيا خطى نحو التدخل في شؤون مصر بشراء اسهم مصر في قناة السويس عام ١٨٧٥ .

ولنا أن نتساءل عن سبب رضوخ الخديوي لتعيين غردون بهذه السهولة ؟ الواقع ان الخديوي كان يستهدف كسب عطف بريطانيا ومساعدتها له في مشاكله المالية . بيد ان بريطانيا كما يقرر الرافعي أيضا « كانت أشد عليه وطأة من الدول الاخرى » معنى ذلك ان اسماعيل لم ينل ما كان يصبو اليه من وراء هذا التعيين ، ولم يترك مهمة الحكم في مراتبه العليا للمصريين ، فاتهم بتحيزه للاجانب . ولست أدري أن جاز لنا ان نشبهه بالمنبت الذي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى لا سيما ان غردون قد نفر كثيرا من السودانيين من الحكم التركي المصري هذا .

يقرر دكتور هولت ان غردون قد جابه منذ الوهلة الاولى تركة مثقلة ناتجة عن سياسة الخديوي التوسعية وهي مشاكل الحدود بين السودان والحبشة ، والثورة بدارفور (ثورة هرون الرشيد) ، والفوضى في بحر الغزال وفي خلال أشهر قليلة حاول غردون أن يصل الى تسوية مع الحبشة ، وان يهدىء ثائرة دارفور . اما بحر الغزال فقد عين عليها سليمان الزبير ظنا منه انه سيتعاون مع الحكومة . غير ان هذا النجاح الذي حققه غردون كان موقوتا اذ تعقدت مشاكله فيما بعد . ويمضي دكتور هولت ليبين ان صعوبات غردون يعود بعضها الى عوامل شخصية والبعض الآخر الى الظروف القائمة آنذاك . فقد كانت تعوزه الخبرة فيما يختص بشئون الادارة ، وكان يمقت البيروقراطية . كما كان حولا قلبا في تصرفاته ، متطرفا في مسيحيته ، ولا يفقه شيئا عن لغة الناس الذين يحكم ! ولسوء حظه تقلد منصبه الكبير في وقت أخذ نجم الخديوي السياسي يأفل . ولم تكن في حوزته قوة عسكرية يعتد بها أو مال يشد به أزره . كان عديم الثقة في مرءوسيه من المصريين وكانت نزواته وتقلبه في تعيين البعض ثم فصلهم تدل على فقدانه المقدرة على الحكم والتمييز . على حين ان ثقته في من تنقصهم الخبرة من السودانيين والاوربيين قد اثرت على مستوى الادارة » (١) .

ومن صور التغيير التي أجراها غردون في ادارة السودان أنه اعتمد الى حد

(١) ب.م هولت « تاريخ السودان الحديث » .

كبير على الاجانب ، ومن هؤلاء مسداليا بك الايطالي وقد عينه مديرا لدارفور ، وجيسي باشا (ايطالي ايضا) مديرا على بحر الغزال ، وفردريك روسي ، قنصل المانيا في الخرطوم مديرا لدارفور ، وشارل رجوليه الفرنسي مديرا لدارة ، واميلياني مديرا لكبكابية ، والدكتور زوربخين مفتشا للصحة ، والضابط سلاطين (ضابط نمساوي) مفتشا للمالية ، وجيقلر باشا النمساوي مديرا عاما لمنع تجارة الرقيق . وقد تولى الحكم في الاستوائية الكلونيل بروت الامريكاني ففصله وعين بدلا عنه الدكتور شنتزر الالماني الذي اطلق عليه فيما بعد امين باشا .

والحق ان ادارة غردون كان لها اثر واي اثر على المجتمع السوداني . ومما حدث من تغيرات بسبب سياسته في هذه الحقبة ما أورده شايي لونج بك (ضابط امريكي دخل في خدمة الجيش المصري سنة ١٨٧٠) حيث يقول « ان امر غردون باحتكار الحكومة محصول العاج قد أثار تجار السودان على الحكومة ، وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل المنطوي على الظلم النواة الاولى للثورة المهدية ، وكانت ادارته فوضى . وبالجملة فقد تولى حكم السودان والأمن واليسار يسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ ، كان ينوء تحت اعباء الديون ، والثورة تتمخض في احشائه » (٢) .

الجدير بالذكر ان اصبع الاتهام قد اشارت الى غردون باشا على انه أغفل المديرية الاستوائية ، فلم يدعم مركز الحكومة فيها بالقدر المطلوب . ومرد هذا التغاضي الى انه عمد الى التمهيد لبريطانيا لتستعمر تلك المناطق ! وما في ذلك من عجب اذا احضرنا في اخلادنا ان غردون كان جنديا من جنود الاستعمار خدم الامبراطورية البريطانية في عديد الأماكن .

ومن التغييرات التي قام بها غردون أيضا — حسب رواية الرافعي بك — انه اغلق المدارس التي فتحت في هذا البلد بحجة ان المال اللازم لتسييرها غير متوفر ! كما وقف حجر عثرة في طريق الطلاب المتفوقين الى مصر للاستزادة من التعليم ! فلا غرابة في ذلك لان المستعمر دائما يسوءه ان يرى نور العلم يشع فيبدد دياجير الظلام في البلاد التي تقع في قبضته .

من الملاحظ أيضا ان مساعي غردون الجادة في محاربة تجارة الرقيق ومحاولاته اخماد الثورات قد شغلته عن الالتفات الى ما عداها من اعمال هامة . من هذه ثورة سليمان الزبير (١٨٧٧) التي هدف الى الانتقام لوالده الذي حرمته الحكومة المصرية من العودة الى وطنه بتحديد اقامته في مصر . وفيما اعتقد ان الحديث عن

(٢) الكلونيل شايي لونج « مصر ومديرياتها المفقودة » ص ١٨٦ (نقلا عن عبد الرحمن الرافعي بك « عصر اسماعيل ») .

هذه الثورات السودانية لا يستقيم الا اذا توقفنا عند ثورة سليمان الزبير لما انطوت عليه من خطورة وما ترتب عليها من نتائج .

ثورة سليمان الزبير (١٨٧٧)

تشير المصادر الى أن ثورة سليمان الزبير ضد الحكومة عام ١٨٧٧ مردها الى الانتقام لوالده الذي حرم من الرجوع الى هذا البلد — كما تقدم — بتحديد اقامته في مصر لكيلا يشكل خطورة على الحكم التركي المصري في السودان اذا ما عاد الى أرض الوطن ، والى الاستقلال ببحر الغزال — مسرح نشاطاته الاقتصادية والسياسية . وفيما يبدو أن الوشايات المشؤومة من المغرضين وذوي الاهواء قد لعبت دورا كبيرا في اثارة الخواطر وتعقيد القضية بين الطرفين : الحكومة وعلى رأسها غردون واعوانه من الاوربيين من جهة ، وسليمان وآله وجنده من جهة أخرى .

ولعله من المفيد أن نرجع الى رواية الزبير رحمة عن ثورة ابنه حسب ما نقلها نعوم شقير في كتابه « جغرافية وتاريخ السودان » . يقرر الزبير أن ابنه سليمان قاد جيشه (٤٠٠٠ مقاتل) بعد سفر أبيه الى مصر واتجه صوب شكا واقام فيها حتى ذهاب غردون الى دارفور . وفيها أمر غردون سليمان بمقابلته ومعه جيشه فانصاع سليمان لامر الحكمدار . وكان أحد الوشاة قد صور لغردون ان الزبير أشار الى ابنه بالثورة ضد الحكومة اذا تأخر رجوعه من مصر . فما كان من غردون الا أن وزع جيش سليمان اذ اعطى الواشي ويدعى سعيد بك حسين — أحد سناجق الجيش — أعطاه ألفا من جند سليمان وجعله مديرا على شكا ، واعطى الباقي للنور عنقرة من سناجق جيش سليمان وارسله الى كبكابية ؛ « وامر سليمان فرجع الى شكا بقلة وذلة » .

على أن غردون قد قابل سليمان مرة أخرى في شكا (سبتمبر ١٨٧٧) ومنحه لقب بك وعينه مديرا على بحر الغزال . فسعد سليمان بذلك وذهب الى ديم زبير . وكانت بحر الغزال خاضعة لادريس أبتر أحد تجار الدناقلة الذي عينه الزبير وكيلا عنه . ولما ذهب سليمان الى بحر الغزال وجد ادريس قد أخل بالنظم وطغى وبغى ، فاعتزم محاكمته . ولكن ادريس قد هرب الى الخرطوم ووشى بسليمان الى غردون بأنه ينتوي الاستقلال ببحر الغزال على اساس انها ملك ابيه ، وليس للحكومة فيها حق .

ثمة رواية أخرى تقرر أن غردون ، عندما عرج على الابيض في طريقه الى دارفور لقمع ثورة الفور بقيادة هرون الرشيد ، نما الى علمه من الوشاة ان سليمان لم يشأ ان يتعاون مع الحكومة لاخماد حركة هرون الرشيد . فكون غردون فكرة سيئة عن سليمان . وقبل مقابلة الوشاة كان غردون يظن أن سليمان شاب طائش .

كتب عنه فقال : « ثم اعرض أن سليمان افندي ابن الزبير باشا هو ولد صغير وليس متعقل وأشغاله جميعها هي أشغال مجانين » (١) . .

واعتقد غردون أن أس القلاقل ومتاعب الحكومة في تلك المناطق النائية وجود اشخاص مشاغبين وطموحين أمثال سليمان الذين يرون ان يواصلوا التكسب من تجارة الرقيق وان يستقلوا بمقاطعاتهم بعيدا عن نفوذ الخرطوم .

من المحتمل أن يكون غردون محقا لحد ما في هذا الرأي ، بيد أن معلوماته عن سليمان قد استقاها من جانب واحد ، وهو جانب اعداء سليمان الطامحين الى الارتقاء لمكانته ومكانة أبيه . وكان ينبغي أن يكون غردون موضوعيا يمحص الاخبار التي تصله حتى يصل الى الحقيقة . والحق ان غردون كان منذ الوهلة الاولى متحيزا تحيزا بغيضا ضد سليمان ينظر اليه بعين السخط ، وعين السخط تبدي المساويا ، ويعتبره نخاسا وثائرا . فليس بمستغرب اذا وطن نفسه على أن يحطم قوة سليمان العسكرية بجذب أعوانه الى جانب الميري ، او تفريق رجاله ايدي سبا ليتخلى عنه جنده البازنقر .

وتنفيذا لهذه السياسة التي رمت الى اذلال سليمان ذهب غردون الى الاول في شكا ، وامره بالتوجه الى بحر الغزال ليعمل مرؤوسا لادريس ابتر الذي عين مديرا لبحر الغزال . وكانت هذه بحق صدمة جرحت شعور سليمان لان ادريس أبتر كان بغيضا لديه ، بل كان بالامس القريب يعمل في خدمة سليمان وخدمة أبيه من قبله . وفضلا عن ذلك فقد كان ادريس هذا متهما بأنه دس للزبير . « وبقدر ما حاول سليمان أن يثني غردون عن عزمه وأن يعطيه الرئاسة والقيادة لم يتزحزح غردون عن موقفه وافهمه ان الرئاسة والقيادة لا تسلم له الا بعد أن يبرهن كفاءته واخلاصه في منصب المرءوس » (٢) . ومع ذلك فان سليمان قد كظم غيظه وهدأ ، ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة لانه كان في سويداء قلبه يكن للحكومة ولعاملها ابتر الحقد والبغضاء . وهو معذور في ذلك لانه بشر ، ولانه غلب على أمره . وظل يجتر ذكريات الماضي القريب بكل ما فيه من أبهة وعظمة تمتع بهما والده ، وكان خليقا أن يرثهما من بعد والده . على انه كان ينتظر الساعة المرتقبة ليضرب ضربته ، ولينتقم لوالده ولنفسه من الذين أذلوه وظلموا أباه .

من البديهي في مثل هذا الموقف أن يكاتب سليمان والده ليطلعه على ما حاق به من تجن وليستأنس برأيه وتوجيهاته . فكان رد الزبير مركزا على وجوب الطاعة

(١) دفتر ٤٩ وارد تلغرافات — نقلا عن الدكتور مكي شبيكة «السودان عبر القرون» .
(٢) الدكتور شبيكة « السودان عبر القرون » ١٩٦٤ — ص ١٨٩ .

للحكومة ، وفي نفس الوقت الاجتهاد في القضاء على ادريس أبتر علما بأن الاخير هو الحاكم الرسمي لبحر الغزال ! هنا يتضح التناقض . علـى أن الزبير باشا لا يرى تعارضا في الموضوع وتجربته الماضية مع البلالي (بعثته الحكومة لضم بحر الغزال فقتله الزبير) خير برهان على ان الامر سينتهي بسلام . هذا الخطاب وقع في يـد الحكومة فاستغله غردون في مقبل الايام للضغط على سليمان وآل الزبير عامة . وكان غردون يرى ان الزبير هو الذي حرض ابنه على التمرد . ومن أجل ذلك شكل محكمة قضت غيابيا باعدام الزبير وابنه ومصادرة ممتلكاتهم !

أما سليمان فقد عيل صبره على تحمل هذه الغصة في حلقه وعلى المرائر التي تجرعها ، فكر برجاله على زرائب خصمه ادريس ابتر ، وجاهر بتحديه له . وكان أبتر غائبا عن عاصمته ، وسرعان ما أرسل مدير الاستوائية الاخبار الى الخرطوم . وغردون بدوره بعث بها الى خديوي مصر في خطاب جاء فيه « يوم تاريخه وردت لنا مكاتبة من خط الاستواء تفيد تأكيد ما بلغنا من أن ابن الزبير باشا تحارب مع مديرية بحر الغزال وأنه هجم على المركز وبارز بالعصيان ومستعد للمحاربة وقتل من قتل واخذ ما اخذه من أمتعة واسلحة الميري . وحيث الآن تأكد عصيان ابن الزبير باشا فاذا وافق يؤمر بقبض والده ووضعه بالحديد وضبط جميع نقوده وأمتعته الموجودة معه كون بلغنا انه يوجد معه زيادة عن خمسة آلاف جنيه مع الترخيص لنا ببيـع امتعته الموجودة بالسودان وتوريدها للميري وضبط اقاربه وفاميليته وسجنهم والا فالأمر مفوض » (١) . وقد وصل رد الخديوي بأن يعمل غردون ما يتمشى والصالح العام لانه مفوض بذلك !

بيت غردون النية كما يبدو من خطابه للقضاء على آل الزبير ، ولعله كان مطمئنا الى أن الخديوي سوف لا يرد له طلبا . فأسرع لتوه وقبض على عائلة الزبير وكـل ذويه في الخرطوم والجيلي وصادر اموالهم . ثم أعلم سليمان ان اهله واموالهم لن يفك أسارهم الا اذا انهى تمرده ضد الحكومة . وفي ذات الوقت انفذ غردون حملة على رأسها جسى باشا ويوسف باشا الشلالي لسحق سليمان وقوته . وقدانتصرت اسلحة جسى النارية على قوة سليمان في واقعة قندة (مارس ١٨٧٩) أولا ، ثم عزز جسى انتصاره في موقعه ديم الزبير (مايو ١٨٧٩) فما عتم سليمان انزحف نحو دارفور حيث أقام في غربي الكلكة من أعمال دارفور ، فتعقبه جسى .

ان انسحاب سليمان الى دارفور قد اقض مضجع غردون لانه خشى ان يتعاون التجار الجعليون مع سليمان أو يتم تحالف بينه وبين هرون الرشيد الذي ما زال على قيد الحياة يقبع في مخابيء جبل مرة . وسرعان ما شد غردون الرحال الـى

---

(١) دفتر ٥ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٧ يوليو ١٨٧٨ ـ نقلا عن شبيكة(السودان عبر القرون) ص ١٩٣ .

دارفور حيث التقى بجسى ووضعا خطة لمواجهـة الموقف وهي أن يطـارد جسى سليمان « فقاد جسى العساكر من دارة وبعض مشائـخ الرزيقات والمعاليا أصحاب الثأر على الزبير ، وسار حتى وصل الكلكة فأرسل رسلا بكتاب ألى سليمان يدعوه الى التسليم . هنا تذكر سليمان نصائح والده التي وردت في خطاب طويل أرسله الى سليمان اثناء عصيانه نذكر طرفا منه « ثم اعلم يا ولدي ان تماديكم في العصيان يضر بمركزي الأدبي هنا كما يضر بكم هنـاك ويجلب عليكم سخط الله والحكومة فحافظوا على كرامتكم وكرامتي واستوعبوا وصيتي » . (١) وصل هذا الخطاب الى سليمان فعمل به ، وخرج الى جسى مستسلما ومعه ٧٠٠ رجل فيهم ثمانيـة من اقاربه . وعلى حسب رواية نعوم شقير فان بين جنود جسى كثيرا من الذين كانوا يكرهون سليمان والجعليين عامة ، فوشوا بـــه الى جسى وصوروا له أن تسليم سليمان واقاربه خدعة ليس الا . فاتخذ هذه الوشاية الساقطة مسوغا لقتلهم . ولكنه قتلهم بأمر من غردون ، وكانت لغردون ندحة عن قتلهم ! هكذا يرى بـعض المؤرخين ان قتل سليمان كان خطة مدبرة اتفق عليها غردون وجسى . وفي ذلـك يقول ضرار صالح ضرار : « كانت هذه من اكبر الخيانات التي عرفت فيتاريخالبلاد فقد كان غردون يخشى انه ان سجن سليمان استطاع الزبير بنفوذه في القاهرة ان يطلق سراحه ولذلك فقد كان متفقا مع جسى على هذه المؤامرة بقتل سليمان دون تقديمه للمحاكمة وذلك في ١٤ يوليو ١٧٨٩ » (٢) .

على هذه الصورة البشعة ، وبهذا الغدر والبغي انتهت حياة مواطن ثائر رفض الظلم والمهانة في اباء وشمم .

ولقد احتج الزبير احتجاجا صارخا لما لحق آله وذويه في السودان من ظلم واجحاف دون ما سبب جنوه . فاقتنع الخديوي ببراءتهم . وامر باطلاق سراحهم. ومن نافلة القول ان نقرر ان مثل هذه الاحداث لن تمر دون أن ترسب الكثيـر في النفوس . وما حدث فان الجعليين ومن تربطهم بهم أية علاقات كرهوا هذا النير . كما كرهه الفور في غربي السودان لسحق ثورتهم عام ١٨٨٠ التي قادها هرون (لقب نفسه بالرشيد) أحد احفاد سلاطين دارفور الذي أعلن نفسـه سلطانا والتف حوله الاهلون نسبة للضرائب الباهظة التي فرضتها الحكومة وسوء جبايتها . وقبل ثورة هرون قامت ثورة الصباحي أحد قواد جيش سليمان الزبير ، فألقي القبض عليه واعدم .

على هذا النحو قمع غـــردون ثورات السودانيين بالحديد والنار ، فأخذت

---

(١) نعوم شقير جغرافية وتاريخ السودان (١٩٦٧) ص ٦١٦

(٢) ضرار صالح ضرار « تاريخ السودان الحديث » (١٩٦٦) ص ٩٧ .

الشكوك تساور النفوس عن نزاهة ذلك الحكم القائم بعد غدر غردون واعوانه المسيحيين بسليمان الزبير وصحبه .

ما كاد غردون يفرغ من ثورة سليمان حتى تسلم برقية من القاهرة تبين أن السلطان عبدالحميد الثاني قد عزل الخديوي اسماعيل من منصبه في يونيو ١٨٧٩، وعين نجله محمد توفيق خلفا له على أريكة الخديوية . وسرعان ما شعر غردون أن من العسير عليه ان يستمر حكمدارا للسودان بعد ذلك لعلاقته والتزاماته الشخصية نحو اسماعيل الذي كان له سندا . فضلا عن ذلك فان تلك الدول الغربية التي سيطر ممثلوها على زمام الامور في مصر لن تترك له حرية التصرف في شئون السودان أو تمنحه تلك الصلاحيات المطلقة التي تمتع بها على عهد اسماعيل . فما عتم ان استعفى من منصبه فأعفي . وقد خلفه على حكمدارية السودان محمد رؤوف باشا الذي نشبت الثورة المهدية في ابان حكمه .

مجمل القول في فترة غردون انها كانت تعج بالثورات والزعازع. ولقد وجه غردون جل طاقاته لقمعها ولمطاردة تجار الرقيق وتطهير البلاد من ارجاس تلك تلك التجارة المشينة . بيد انه كان عنيفا للغاية في معاملة النخاسين . ولقد اعترف بجبروته وارهابه في قوله « وقد اقمت ما يشبه الحكومة الارهابية في معاملة هذه التجارة » . وهذا الانهماك في ابطال الاسترقاق قد شغله عما عداه من أعمال الاصلاح في الميادين الاخرى التي من شأنها ان تعود على البلد بالخير والرفاهية وقد اتهم بأنه كان يعمل بايعاز من حكومته لتعطيل عجلة التقدم في السودان فاتخذ من الرق ذريعة لتحقيق هذا الغرض ! ومما يذكر أن غردون قد حاول جاهدا ان يبرم اتفاقا مع يوحنا ملك الحبشة لتحديد التخوم بين البلدين . غير انه لم يوفق . شيء آخر هو أن شبهات حامت حول غردون وفحواها انه مهد لبلاده لتستعمر المناطق الاستوائية ، ومصداق ذلك ما قاله بيكر وهو : « ان اهتمامي الاول كان لخدمة مصر وفي نفس الوقت كان علي أن أساعد على نشر نفوذ انجلترا وقد تحمس غردون لنفس الغرض وضحى بحياته املا في وصول انكلترا الى الخرطوم » (١) . ويمكن ان نقول : شهد شاهد من أهلها ! وفي واقع الامر ليس هذا ببعيد على غردون لان الانجليز قد كانوا ولا زالوا يتعشقون بلادهم ، وهي عندهم أشبه بصنم يعبدونه ، ويفخرون بامبراطوريتهم ويحاولون جهد الاستطاعة الاستزادة من أملاكهم . فلا غرابة اذا صنع غردون ذلك من أجل وطنه ، ولا شيء يعدل الوطن !

بعد هذه الجولات مع غردون نرجع الى ادارة اسماعيل عامة فنذكر ان من بين

(١) دوجلاس مري وسلفا هوايت ص ٣٥٣ ـ نقلا عن مكي عباس ص ٤٢ ـ نقلا عن الشاطر بصيلي ص ١٦٣ .

الاصلاحات الادارية التي أدخلها الخديوي في السودان تلك الجدية في قمع تجارة الرقيق بصورة لم تعهدها عصور الذين سبقوه . فالسابقون لم تتسم مجهوداتهم بفعالية تذكر ، ولا نبالغ اذا قلنا ان محاولاتهم في هذا الحقل كانت اسمية ليس الا. وكان تجار الرقيق من السطوة والنفوذ بمكان ، الى ان اعتلى اسماعيل الاريكة الخديوية فشن عليهم حربا شعواء وضيق عليهم الخناق حتى جفت ينابيع ثرائهم الحرام من تجارة الرقيق البشعة . واسماعيل ، بحكم تأثره بالحضارة الغربية ، ازمع أن يسجل اسمه بحروف من نور في سجل الانسانية الخالد بمحاربة الاتجار بالادميين . فعمل كل ما في وسعه لمحو آثار الاسترقاق من املاكه . ولقد مشى خطى بعيدة المدى في هذا الشأن . وهو ، وان لم يوفق كل التوفيق في اقتلاع جذور تجارة الرقيق ، الا أن ما قام به يعد صفحة ناصعة في تاريخه ، ويعتبر مفخرة وأية مفخرة !

نأتي اخيرا الى نقطة لا بد من الاشارة اليها في قائمة انجازات اسماعيل وما حدث من تغيير على ادارة السودان وهي توسيع رقعة هذه البلاد بصورة تدعو الى العجب . فالخديوي قد استهدف من فتوحه الكثيرة شيئين اساسيين : هما محاربة تجارة الرقيق ، وهذا هدف انساني لامراء فالتوسع للعظمة وعلو الشأن وللمكاسب المادية التي تحققها عادة الفتوح . ولقد امتدت امبراطورية اسماعيل حتى شملت من جهة الجنوب بحيرتي البرت وفكتوريا وما بينهما من بلاد . ومن ناحية الشرق سواحل البحر الاحمر وخليج عدن ، وفي الجنوب الشرقي وصلت حدودها المحيط الهندي ، واضاف الى أملاكه هناك سواكن ، مصوع ، زيلع ، بربرة ، هرر وسواحل الصومال الشمالية . وامتد نفوذ مصر من بوغاز باب المندب الى رأس جردوفون ، ثم الى راس حافون على المحيط الهندي (انظر الى الخريطة) ومن الناحية الغربية وصلت حدود هذه الامبراطورية الى مملكة وداى غربي دارفور (١). وبقيام الثورة المهدية تقلصت هذه الامبراطورية وانكمشت حدودها كثيرا .

ان التوسع التركي المصري قد فتح الباب على مصراعيه للكشوف والتحقيقات الجغرافية والعلمية ، فلا غرو فالكشوف التي تمت قد اسهمت في اثراء علم الجغرافيا بما قدمت من خرائط وبيانات وما الى ذلك .

جهد ما يقال في سياسة اسماعيل ازاء السودان انه قام بعديد المحاولات لاجراء تغييرات ادارية بهدف اصلاح الجهاز الاداري . فتارة يحكم البلد على أساس المركزية ، وطورا ينقلب الى لا مركزية ثم ينكص الى المركزية . او كما قال الدكتور شبيكة « فمرة تنعزل المديريات عن بعضها البعض واخرى تندمج اثنتان أو ثلاث

(١) عبد الرحمن الرافعي « عصر اسماعيل » .

في مديريات عموم ، وثالثة تجزأ المديرية الى قسمين وتعدل الحدود ولكن بوجه عام كانت البلاد تدار وتحكم من الخرطوم قصبة الاقاليم السودانية بواسطة الحكمدار وينوب عنه مديرون في الاقاليم والمدير يشرف على نظارة الاقسام وهؤلاء بدورهم على مشايخ الاخطاط » (١) . وتحول اسماعيل من وضع اداري الى آخر ان هو الا محاولات لاصلاح اداة الحكم، فما أن يكتشف عيبا في وضع اداري حتى يسارع الى تغييره. وهو ـ كما ورد في سيرته ـ سريع التحول عن راي اذا اقتنع بصحة غيره. ولقد وفق اسماعيل لحد كبير في تحقيق هدفه الانساني الخاص بابطال تجارة الرقيق . فهي ، وان لم يمح آثارها من المجتمع السوداني ، الا انه خطا خطوات بعيدة المدى في هذا المضمار .

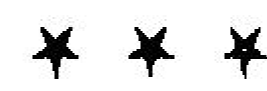
اما اصلاحاته العمرانية فقد وفق في بعضها وبصورة خاصة في مجال المواصلات اذ ربط البلاد بخطوط تلغرافية وانشأ مكاتب للبريد ، مما سهل اعمال الاداريين والاهلين على السواء . وكان للمدارس التي فتحها في بعض مدن السودان أثر لانها كونت النواة للموظفين والعمال السودانيين فيما بعد ، وكانت قبسا بدد بعض ظلمات الجهل التي اطبقت على هذه البلاد . وقد المعت الى فوائد سياسة اسماعيل التوسعية في انها افادت الجغرافيا والعلم كما وسعت نطاق التجارة . كما اشرت الى ان الامن قد استتب في ربوع البلاد بتعيين رجال الامن ، ومن دلائل ذلك ما قاله السير صموئيل بيكر : « ان السائح الاوربي يمكنه أن يجوب تلك الاصقاع البعيدة دون أن يخشى على نفسه اكثر مما يخشاه من يتنزه بعد غروب الشمس في حديقة هايدبارك بلندن » . ومن جهة أخرى فان تعيين اداريين اجانب امثال غردون ومن جاء بهم من الاوربيين ليحلوا محل المصريين ثم السودانيين بهدف أصلاح الادارة ، كان مثار سخط بين المواطنين لانهم راوا فيهم اعداء للاسلام ، وبالتالي اعداء لهم . أو هم في نظرهم متسلطون ما كان ينبغي ان تطأ اقدامهم هذه الارض الطاهرة . وفي هذا الصدد يقول ضرار صالح ضرار ، « وبذلك وضع غردون بذرة التعصب الديني في البلاد بعمله ذلك مقربا اليه المسيحيين الاوربيين ليخضع بهم السودانيين المسلمين ؛ وكانت التفرقة الدينية التي خلقها غردون ذات أثر بعيد في نفوس الوطنيين لانهم اعتبروها حربا صليبية عليهم الوقوف أمامها بالجهاد في سبيل الله ، وأصبحت المشاعر القومية والدينية منصهرة ممزوجة لا يمكن أن يفرق بينها كما أن الكفر والتركية اصبحا صنوين في أعين السودانيين اذ اقترن كل منهما بالآخر اشد اقتران وصعب التمييز بينهما » . (٢) ورغم سيطرة الاروبيين على الادارة ، ورغم رواتبهم

---

(١) دكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » (١٩٦٤) ـ ص ٢٤٥

(٢) ضرار صالح ضرار « تاريخ السودان الحديث » (١٩٦٦) ـ ص ١٠٣

العالية ، فان غردون قد فشل في اصلاح النظام الضرائبي ، وظلت البلاد تنوء بعبئها الثقيل . ولم ينم غردون موارد السودان بالقدر الذي يسد العجز في الميزانية التي ظلت مرتبكة في عهد حكمداريته . وعلى ذلك لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان تسليم أمور السودان لاولئك الاجانب كان محاولة غير موفقة من جانب اسماعيل . وقد تلتمس له بعض العذر في تعيينهم لقلة الكفاءات التي تستطيع ان تواكب روح العصر والمبادىء التي آمن بها الخديوي . فوكلاؤه هنا من طراز قديم او كما قيل « من المدرسة التركية القديمة » . ومهما يكن من شيء فان سياسة الخديوي اسماعيل تجاه السودان قد عيبت في بعض نواحيها ، بيد أن الجانب المضيء فيها قد طغى على كل ما عداه .



الفصل الرابع

مشروعات الخديوي العمرانية في السودان

تقدمت الاشارة الى ان نوايا الخديوي اسماعيل نحو السودان كانت طيبة فهو قد خطط للنهوض بمستواه الاقتصادي والاجتماعي . ولقد ضمن هذا في خطبة العرش حيث قال : « واما الاقاليم السودانية بالمثل لم اترك امرها ، بل بذلت غاية جهدي في اصلاح احوالها وترقي اسباب الزراعة والتجارة بها ، كما انه جاري العمل الان في امتداد خطوط التلغراف الى مدينة الخرطوم التي هي مركز تلك الاقاليم والى سواكن حتى قارب الانتهاء ، وبالمثل صارت المباشرة في خط تلغرافي ايضا من سواكن الى مصوع وعند نهو واتمام ذلك سيصير تفرع جملة خطوط بحسب اللزوم ، لان كل كامل الادوات والمهمات اللازمة لذلك موجودة وجاهزة للعمل ، وبواسطة ما صار اجراؤه هناك من التنظيمات والاجراءات النافعة حسب ما اقتضاه الموقع لله الحمد قد بدا ظهور الثمرة المقصودة ، وتزايد ايراد الحكومة اضعاف ما كان » . (١) والحق ان مشاريع اسماعيل لتطوير السودان قد شملت كثيرا من أوجه التخطيط الاقتصادي التي عرفت في أيامه . فالزراعة قد نالت من عنايته . ولعله من المفيد ان نرجع قليلا الى الوراء لنرى ما تم على عهود الولاة السابقين من تقدم في مجال الزراعة عسى ان تكتمل الصورة في الاذهان .

تطوير الزراعة :

سبق القول الى أن محمد علي باشا ، بعد فتح السودان ، أرسل جماعة من العمال المهرة الى عثمان بك (١٨٢٥) لكي يزرعوا الافيون والنيلة (للصباغة) والقطن والشعير ، ويعلموا الاهلين دباغة الجلود . اما الافيون – على ما هو معلوم – لم تنجح زراعته لحكمة ارادها الله تعالى ، أو لخير اريد بهذا البلد ، والا لابتلى البعض من الاجيال السابقة واللاحقة بتعاطي ذلك السم وما فيه من المضار الكثيرة . وتطرقنا الى الحديث عن نجاح زراعة النيلة ، وانها أصبحت محصولا نقديا معتبرا ، بل

(١) عبد الرحمن الرافعي بك « عصر اسماعيل » ج ٢ ص ١٠٥

اضحت من المنتوجات الرئيسية (في غرب السودان) ببلادنا اذ فتح الباب لتصديرها الى اوربا لكثرة الطلب لها واستعمالها في صبغ الاقمشة . وفيما يقال ان محمد علي امر باجبار الناس للتخلي عن زراعة الذرة وتحويل المزارع الى حقول « نيلة » ! الى ان استبدلت النيلة بمواد اخرى تم اكتشافها مؤخرا .

ولما جاء خورشيد اغا حكمدار السودان (١٨٢٦ – ٣٨) زوده الباشا بمجموعة من الفلاحين والخولية ليعلموا المواطنين طرق الزراعة المنتجة . كما جلب انواعا جديدة من المحصولات لم يكن للسودان سابق معرفة بزراعتها والافادة منها كقصب السكر الذي نجحت زراعته في بربر وسنار ، والقمح وبعض انواع الخضروات والفواكه كالعنب والرمان والليمون والتين . ولا ننسى الخراف التي جلبها لتحسين انواع الضأن في السودان . وما من شك ان السودانيين مدينون لذلك العهد بهذه المحاصيل التي ما زلنا نتوسع في زراعة بعضها ونفيد منها الى يومنا هذا .

هذا ما كان من أمر الزراعة قبل الخديوي اسماعيل . والواقع ان هذه صورة مجملة للغاية ويتعين علينا بعدئذ ان نقف على ما اسهم به اسماعيل باشا في هذا الحقل .

اهم ما أتى به الخديوي من جديد في مجال الزراعة في السودان هو زراعة القطن . والحق ان القطن كان معروفا لدى بعض السودانيين قبل الفتح التركي – المصري عام ١٨٢١ . ونحن نعلم ان الدمور من القطن كان ضمن الوسائل التي يتبادل بها الناس السلع بدلا عن النقد الذي كان نادر الوجود في ابان السلطنة الزرقاء . وثمة قصة تروى وهي ان حنا الطويل كان ذات يوم يتلفع بوشاح او ربما كان ثوبا (فردة) في حضرة محمد علي ، فاستفسر الباشا عنه واخبر انه من قطن السودان . فما كان منه الا أن أمر بارسال بذرته التي اصبحت فيما بعد – على حد قول ضرار صالح ضرار « ام القطن المصري الطويل التيلة » .

قصة القطن وزراعته في مساحات شاسعة بطلها احمد ممتاز باشا محافظ سواكن عام ١٨٦٥ وقد اومأت لها في الفصل السابق وقلت ان ممتازا قد أفضى الى الخديوي بأنه اعتزم (١٨٦٧) أن يقوم بتجربة زراعة القطن في طوكر بدلتا خور بركة. والقطن في تلك الحقبة كان سلعة عزيزة ومطلوبة لقلة انتاجه في العالم نظرا لان الامركان الذين كانوا ينتجونه بكميات كبيرة قد شغلوا بحربهم الاهلية (١٨٦٣ – ١٨٦٥) الامر الذي هيأ لملاك الاراضي المصريين ان يثروا . اما وقد وضعت تلك الحرب اوزارها فقد تيقن اسماعيل بضرورة انتاج القطن بكميات ضخمة لتعوض عما حدث من انخفاض في أسواق العالم . ومن أجل ذلك فقد سر بفكرة ممتاز (١) .

(١) ريتشرد هل « مصر في السودان » .

بدأ ممتاز أول ما بدأ بزراعة خمسين فدانا كتجربة اولى . ولان هذه التجربة قد نجحت ، فنحن ما زلنا نفيد من قطن دلتا بركة حتى هـذا الوقت . ثم اقترح ممتاز على الخديوي أن يزرع مساحة لتنتج حصيلة نصف مليون قنطارا من القطن كل عام في شرقي السودان . وفي غمرة الاحلام الوردية بجنى كميات خيالية من القطن ، عين اسماعيل ممتازا مديرا على مناطق عديدة شملت سواكن ، التاكة ، مصوع وساحل الصومال . معنى ذلك ان نفـوذ ممتاز قد امتد حتى بوغاز باب المندب . ثم امتدت زراعة القطن الى كسلا (خور القاش) ، وطلب له ممتاز المحالج والآلات اللازمة . ان الآمال العراض في تعميم زراعة القطن في كثير من بقاع السودان قد جعلت ممتازا يدرس جغرافية السودان وطبيعة اراضيه كيما ينشر زراعة هـذا المحصول في اماكن اخرى .

على أن العائد من القطن فيما يبدو ، لم يكن كبيرا ، ولم تفد منه البلاد الفائدة المنتظرة آنذاك . ويرجع ذلك الى صعوبة المواصلات . ومهما يكن من امر فان ممتازا قد خلد اسمه في تاريخ السودان الحديث بسبب تلك التجارب القيمة . فهو « ابو القطن » في السودان ان صح التعبير . ومن تحصيل الحاصل ان نقول اننا حتى هذا التاريخ نعتمد الى حد كبير على القطن كمحصول نقدي .

ثمة شخصية اخرى برزت في مجال الزراعة وهي شخصية حسين بك خليفة الذي عين مديرا لبربر عام ١٨٦٩ ومدير السودان البحري سنة ١٨٧١ . حذا حسين بك حذو ممتاز اذ شجع المواطنين على الزراعة وحسن الري بالاحواض وشق القنوات وعمر السواقي ، وجهد في ترغيب الذين هجروا ديارهم بسبب ثقل الضرائب للعودة الى بلادهم . ورغم كل هذه النشاطات المقدرة من ممتاز وحسين ، الا ان الثمرة التي جنتها البلاد لم تعادل المجهودات التي بذلها الحاكمان ، ولكنها على وجه العموم كانت حقبة عمرانية لم يعرف لها السودان مثيلا في كل عهد التركية السابقة من حيث الزراعة .

وعلى عهد الحمكدار اسماعيل ايوب (١٨٧٣ – ٧٧) توسعت الحكومة في زراعة القطن ، وجلبت آلات الري اللازمـة ، وشيدت محلجين للقطن في كسلا والخرطوم ، وانشأت الاسواق في كسلا والقضارف والقلابات لبيع القطن .

الى جانب القطن قام المسؤولون بزراعة الدخان في القضارف ، وانتج نوع «لا يقل جودة عن دخان الاناضول، واستعمله المدخنون في جميع نواحي السودان»(١) ومن المحاصيل التي أولتها الحكومة عنايتها ايضا التمر الذي كان يجلب من منطقة دنقلا ويصدر الى بقية انحاء السودان والحبشة .

(١) النيل والسودان ومصر للمسيو شيلو بك ص ١٠٥ – نقلا عن مصر اسماعيل للرافعي بك .

تطوير التعليم :

لا نزاع في أن المجتمع السوداني قبل الفتح التركي – المصري كان – على الجملة – متخلفا رعويا، ومع ذلك فان هذه المجموعات القبلية الناطقة بالعربية المسلمة كانت – وفقا لدكتور هولت – تتمتع بنصيب من المعرفـة او بشيء من ابجديات الثقافة ، بل فيها نخبة كانت على صلة بعالم الثقافة الاسلامية العظيم . ومن الصفوة او الشخصيات البـارزة في هذه الثقافـة السودانية البسيطة الشاعر والفقيه (الفكي) . (١) فالشاعر هو الذي يتحدث بلسان قبيلته ويذود عن ذمارها ويعلن للملأ مفاخرها . أما الفقيه فدوره معروف ، فهو معلم القرآن الكريم وبعض مبادىء الفقه ، ويعيش على ما تجود به اريحية الناس في القرية وعلى الخصوص آباء التلاميذ او « الحيران » . وكتاتيب القرى (الخلاوي) تضرب جذورها في اعماق بعيدة في بيئتنا السودانية ، وهي أساس التعليم في البلاد .

ولقد انعم الخديوي على الخلاوي باعانات شهرية ، ورواتب من الذرة لغـذاء التلاميذ بل خصص رواتب لبعض الطلاب ليتلقوا العلوم في الازهر الشريف بهدف أن تتشرب ارواحهم بثقافة الازهر ونظمه ليحلوا محـل الصوفيين او رجال الطرق الصوفية الذين لم يتمتع بعضهم بعلم ذي بال .

ان أول محاولة لادخال شيء من التعليـم الحديث في السودان كانت المدرسة الاولية التي فتحت على عهد عباس باشا سنة ١٨٥٣ لتعليم ابناء الموظفين المصريين ، ولمن يرغب من ابناء السودانيين . وقد لاحظ احـد الرحالة الانجليز وهو جيمز هاملتون أن بالمدرسة اربعـة وثمانين تلميذا مـن ابناء الاتراك والمصريين . وكانوا يدرسون القرآن الكريم واللغة العربية والتركية وقليلا من الرياضيات . وكان يدير هذه المدرسة رفاعة بك رافع بدوي الطهطاوي مدير مدرسة الترجمة بالقاهرة سابقا الذي اقصاه عباس باشا للسودان لكراهية الاخير للثقافة الغربية التي كان يعربها الطهطاوي !

هذه المدرسة لم تبق الا سنوات قلائل ، ولم تلعب دورا يذكر في تعليم النشء بالسودان . على أن بعض المراجع تشير الى أن بعض خريجي مدرسة عباس قـد قاموا بالتدريس في المدارس التي فتحها الخديوي اسماعيل .

أما اسماعيل فقد أمر موسى باشا حمدي – حكمدار السودان (١٨٦٢ – ٦٥) بانشاء خمس مدارس في عواصم المديريات على غرار النظام المصري . كتب الخديوي عن وجوب بناء هذه المدارس قوله : « وحيث ان تأسيس خمس مدارس في المديريات المذكورة لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشروح موافق لنفس

(١) دكتور ب .م هولت (تاريخ السودان الحديث)

المصلحة بناء عليه بادروا الى اجراء ايجابية في تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم باحسن وجه » (١) . وتنفيذا لهذا الامـــر فتحت مدرسة الخرطوم الاولية سنة ١٨٦٧ . وفي العام التالي فتحت مدارس مماثلة في بربر ، دنقلة ، الابيض ، وكسلا ، على أساس أن تسع كل مدرسة زهاء المائة تلميذ . كما فتحت مدرسة في مديرية النيل الأبيض لتعليم ابناء الزنوج الذين فك اسارهم من تجار الرقيق. ليلتحقوا بعد اكمال المرحلة الدراسية بالخدمة العسكرية .

وقد وصل التلاميذ في هذه المدارس ـ بعد ثلاث سنوات ـ مستوى ليس به من بأس في القراءة والكتابة والحساب أهلهم للالتحاق بدواوين الحكومة كمحاسبين وكتبة وموظفي تلغراف وعمال بترسانة الخرطوم . وقد بعث بعضهم الى مصر ليتلقوا صناعة مكنتهم من ادارة ماكينات حلج القطن .

ومما يذكر أن هناك مدرسة الارسالية اللاتينية بالخرطوم التي كانت تعلم شيئا من الصناعات الى جانب العلوم الاخرى . وكانت تبعث نفرا من الممتازين ممن اعتنقوا المسيحية الى اوربا لمواصلة دراساتهم اللاهوتية .

وللخديوي أيضا أياد بيضاء على المساجد اذ بنى بعضها بالطوب الاحمر وصان البعض الآخر من عوامل البلى . بيد أن هذه المساعدات القيمة لم يكتب لها البقـاء طويلا لاضطراب الاحوال الاقتصادية ثم السياسية في مصر .

وباختصار فان الخديوي ـ باعث النهضة العلمية في مصر ـ قد انعكس شيء من روحه الطيب على السودان . فابتنى المدارس الاولية ، وهي ، على قلتها وضآلة مستواها ، خير من لا شيء . وكان ينبغي أن ينشر التعليم في المدائن والقرى ، ويتيح الفرص لابناء السودان ليتدرجوا في سلم التعليم بانشاء مراحل فوق التعليم الاولي . ومن يدري فلربما كانت هذه من بين مخططاته . غير ان نكبات الدهر قد أدت الى أفول نجمه السياسي ، فذهب ولم يكتمل البناء .

تطوير المواصلات

المواصلات في السودان كانت مشكلة عويصة لاتساع هذا البلد وللمخاطر التي تعرض لها المسافرون واموالهم ، ولبطء الوسائل التي تستخدم لهذا الغرض . ومع ذلك فقد ظلت العلاقات التجارية مستمرة بين السودان ومصر منذ أيام الفراعنة الاوائل . وقبل التحدث عن المواصلات على عهد اسماعيل يجمل بنا ان نرجع الى الوراء لنرى موقف المواصلات في السابق لربط الماضي بالحاضر .

---

(١) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ١٤٣ .

في أبان سلطنة سنار كانت القوافل التجارية تسير على الطريق بين دراو وبربر ، وكان العبابدة ـ وفق ما يقول رتشرد هل ـ سادة الطريق الصحراوي بمعنى انهم كانوا يحملون البضائع على ابعرتهم ويحمونها من شر البشاريين الذين كانوا يقطعون الطريق وينهبون ما مع المسافرين من أموال وأمتعة .

ولان العبابدة قد تعاونوا مع محمد علي باشا في حملة فتح السودان ١٨٢٠ ـ ٢١ ، فقد كافأهم اسماعيل بن محمد علي بتأكيد استمرارهم في حراسة الطريق الصحراوي ، بل منحهم امتيازا آخر وهو جباية ضريبة تبلغ العشرة بالمائة من قيمة السلع المصدرة من السودان نظير التزامهم بحراسة الطريق وتقديم الابل عند الحاجة اليها ، وحماية القوافل .

وقد سمحت الحكومة لزعيم العبابدة خليفة ود الحاج محمد ـ صاحب الامتياز الذي تقدم ذكره ، بفتح طريق اقصر بين كروسكو وأبي حمد ، وقام بنظافة وصيانة الآبار على الطريق ، وبنى خانا للقوافل في أبي حمد كأجراء ضداعتداءات البشاريين لهذا سارت تجارة القوافل (رغم سلحفائيتها) على ما يرام .

ومن جهة اخرى فان النيل كان شريانا نابضا بالمواصلات بين السودان ومصر وبصورة خاصة عندمـــا نمت التجارة اذ كان الجزء الاكبـر من السلع يصدر من السودان عن طريق النيل . فليس عجيبا اذن أن يوجد بين الموظفين المصريين من الموا الماما كبيرا بحقائق عن النيل والملاحة فيه .

ولقد ادخل المصريون نوعا من المراكب الشراعية لم يكن لدى السودانيين سابق معرفة به الا وهي « القياسة » ناقلة البضائع ، « والذهبيـــة » ناقلة المسافرين وغيرهما . ومن عجب فان بعض القرويين عندنا ما زالوا يطلقون هذين الاسمين على البواخر النيلية الحديثة ! وقد اسست أماكن لصناعة المراكب (من الخشب والحديد) في البلاد التي توجد بها الاشجار الصالحة (كالسنط) لهذا الغرض . من اجل ذلك نشطت حركة التجارة بالمواصلات النيلية منذ أيام خورشيد باشا .

ولقد حاول محمد سعيد باشا أن يتغلب على عقبة الشلالات الكأداء التي تعوق سير الملاحة على النيـل يقينا عنده ان السودان ، مهمـــا كثر انتاجه ، فان هذه المعوقات ستقلل من فعالية وتسويق هذا الانتاج . لذلـــك بعث أحد المهندسين الاوربيين ليقوم بمسح الشلالات ويضع الخطط لشق مجرى دائم للسفن . ولكـن تكاليف المشروع الباهظة حالت دون تنفيـذه . فاقتصرت الملاحة بالسفن البخارية على المناطق الواقعة شمال وادي حلفا ، وحتى هناك ظلت الملاحة موسمية عندمـا يكثر الماء في الشلال الاول (١) .

---

(١) ريتشرد هل « مصر في السودان » .

اما في عهد الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ — ٧٩) فقـــد خطت بلادنا في حقل المواصلات الى الامام ، وتمت بعض المشاريع التي كانت في السابق حبرا على ورق أو مجرد افكار وتطلعات ليس غير . فمشاريع التنمية للسودان شملت كل جوانب التخطيط الاقتصادي التـــي عرفت في زمن اسماعيـــل . وقد تيقن الخديوي ان السودان ، ما لم يربط بشبكة مواصلات بالبر والبحر ويمد بخدمات البريد والبرق فانه سيظل عديم الفائدة (١) . ففي سنة ١٨٦٣ أسست في مصر شركة ملاحة ، فما عتم الخديوي ان امر بتسيير خط للملاحة بين السويس وميناءى سواكن ومصوع .

في عصر اسماعيل أيضا نسفت الصخور التي كـــانت تقف حائلا دون مرور السفن في الشلال الثاني جنوب حلفا القديمة . ولم تعد هناك حواجز لمرور المراكب الشراعية والبواخر ، الامر الذي زاد من ربط السودان ومصر لان هذه السفن كانت تحمل المسافرين والبضائع والبريد بين البلدين . وقد كثرت البواخر النيلية التي ارسلت من مصر الى السودان ، بل صنعت بواخر اخرى في ترسانة الخرطوم التي اسسها محمد علي باشا . فأخذت هذه البواخر تمخر العباب حتى جنوب السودان حيث تم تطهير النيل الابيض من بعض السدود .

وهكذا اتى الخديوي اسماعيل بما لم يستطعه محمد سعيد ومن سبقهم من الولاة .

عني اسماعيـــل ايضا بتأسيس البريد في السودان لخدماته ذات الاهميـــة الكبرى ، فأمر بتشييد مكاتب للبريد في عواصم المديريات والمراكز الهامة . فانشئ اولا مكتب بريد سواكن (١٨٦٧) ، وفي ١٨٧٣ فتحت مكاتب بريد الخرطوم ، بربر ، دنقلا ، وادى حلفا وكروسكو . تلت ذلك مكاتب اخرى في كسلا ، سنار ، المسلمية القضارف ، فازوغلى ، كركوج ، فشودة ، الابيض والفاشر . فانتظمت البوستة بين هذه البلاد ، وبين السودان ومصر ، اذ كان البريد يحمل مرتين في الاسبوع من الخرطوم الى القاهرة . وظلت هذه المكاتب عاملة حتى نشوب الثورة المهدية .

يلي ذلك اهتمام الخديوي بمد خطوط التلغراف التي اولاها عناية منذ بداية حكمه لحل مشكلة المواصلات في داخل السودن ولربط القطرين . ففي عام ١٨٦٣ اخذ يناقش ضرورة ربط خطوط التلغراف المصرية بالخرطوم وسواكن . فقال ان التلغراف سوف يخدم اغراضا منها الرقابة على حكومة السودان ، وتنمية التجارة وما الى ذلك . كان اول هذه الخطوط ولعله أهمها خـط مصر ـ دنقـلا ـ بربر ـ

(١) ريتشرد هل « مصر في السودان » .

الخرطوم . الواقع ان الخط وصل قبالة الخرطوم في موضع الخرطوم بحري الحالية . وتم انشاؤه عام ١٨٧٠ . وفي سنة ١٨٧٤ ، تحت رقابة جيقلر — كبير المهندسين — وضع الكيبل المائي في النيل الازرق لربط العاصمة بغيرها من البلاد . ومن ثـــم اصبحت الخرطوم هي المركز لهذه الخطوط التي انتشرت في بقية انحاء البلاد : في الشمال والوسط والشرق والغرب حتى الابيض . ثم وصل الخط الفوجة على حدود دارفور في ١٨٧٥ تمهيدا لفتح سلطنة الفور . وقد بلغ عدد مكاتب التلغراف واحدا وعشرين مكتبا ، وهي نسبة ليس بها من بأس في ذلك العهد .

ومما لا مجال للشك فيه ان الخدمات التلغرافية قد أفادت الادارة التركيـــة المصرية فوائد جليلة .

خطوط السكك الحديدية

آمن الخديوي بضرورة انشاء خطوط سكة حديد في السودان ، وصرح بأن هذه الفكرة لم تبرح مخيلته لحظة واحدة لانها اساس جديد في العمران والتقدم ، ولانها ستقرب الشقة بين مصر والسودان ، وتزيد مركزية الادارة وبالتالي تدعـــم فعاليتها ، ويتمدين السودانيون . ومضى اسماعيل ليبين ان موظفيه متحيزون ضد السودان ، فهـــم يحبون اضواء القاهرة ، ويتخيلون انه ارسلهـــم الى الســـودان ليتخلص منهم . ولهذا فان الخط الحديدي سوف يزيل هذه الاوهام (١) .

كان من اهم مشاريع اسماعيل في السودان ان يمد خطين حديديين بين مصر والخرطوم ، وبين الخرطوم وسواكن . فبدأ بحثا دقيقا قام به فنيون مصريـــون واجانب عن أقصر الطرق واسهلها ثم شرع الفنيون في مد الخط من حلفا متجهـــا نحو الجنوب في فبراير ١٨٧٥ . ولكنه لم يمتد اكثر من سبعة وخمسين ميلا اذ أوقف لاضطراب امور الخديوي المالية في مصر . اوقفه غردون عام ١٨٧٨ . ومن أسف لم يحظ السودان بنعمة ذلك الخط الحديدي .

الخدمات الصحية :

الخديوي اسماعيل ، كدابه في أعمال الخير ، وجه همته للشؤون الصحية في مصر لمقاومة الامراض ومكافحة الاوبئة ، وبصورة خاصة وباء الكوليرا الفتاك . والسودان بدوره ، كوحدة ضخمة من املاكه ، قد نال شيئا من هذه العنايـــة الصحية اذ بنيت مستشفيات في الخرطوم وبعض عواصم المديريات كدنقلة ، بربر ، سنار والابيض . وفي ايام حكمدارية جعفر باشا مظهر (١٨٦٦ـ٧١) الذي جـد

(١) ريتشرد هل « مصر في السودان »

في المحافظة على الصحة العامة ، تدرب عشرون من تلاميذ مدرسة الخرطوم الاولية على طرق العلاج البسيطة تحت رعاية طبيب مستشفى الخرطوم ـ اكبر المستشفيات ـ حيث كان يسع في عام ١٨٧٣ ، ٢٧٠ سريرا للمرضى . وقد رمى جعفر مظهر من تدريب هؤلاء التلاميذ الى اصلاح حال السودانيين بالسودانيين انفسهم .

ورغم ان الخديوي قد أمر بارسال عدد من الاطباء الى السودان ، ألا انعددهم كان قليلا ، الامر الذي كان يحول دون تطعيم المواطنين بشكل عام حينما تنتشر الاوبئة كالجدري وغيره . ذكر هل ان الاجانب الذين زاروا الخرطوم في الحقبة الاخيرة لحكم الخديوي اسماعيل قد اثنوا على التقدم المادي الذي احرزته الحكومة في الميادين المختلفة . ولكن الخدمات الصحية لم تعجبهم لانها كانت دون المستوى المطلوب . ويقرر هل ايضا ان خدمات الاطباء المصريين بالسودان قد بقيت حتى بعد قيام الثورة المهدية اذ رحب الخليفة عبدالله بهذا القدر الضئيل من علم الغرب التجريبي .

وايا كان نصيب هذه الخدمات الصحية من الفعالية لصالح المواطنين ، فانها كانت على الجملة حسنة من حسنات اسماعيل تضاف الى قائمة اعماله المجيدة في هذا البلد .

وصفوة الحديث فان الخديوي اسماعيل قد جهد جهد امكانياته ليطور السودان في مجالات الزراعة والتعليم والمواصلات وما الى ذلك . واغلب الظن ان دوافع اسماعيل باشا كانت مزيجا من المنافع الذاتية والنواحي الانسانية ، ومصداق ذلك ما ورد في احاديثه وكتاباته العديدة عن هذا البلد . فهو يريد ان يفيد السودان من المواصلات « الفوائد الجمة » على حد تعبيره ، ويأمل للاقاليم السودانية ان « تبلغ غاية الكمال » في مختلف الميادين . وان « أهم ما نفكر فيه ونسعى اليه هو العمران وترقية الزراعة والتجارة في تلك الجهة » . وهكذا دواليك من العبارات التي اطلقها هنا وهناك في رسائله والتي تنم عن اتساع أفقه وحسن نواياه نحو السودان . فسياسته لم تكن نفعية محض رائدها استنزاف خيرات السودان وحسب ، ولم تكن انسانية خالصة لوجه الله . ومن السذاجة ان نتوقع غير هذا من حاكم كاسماعيل عرف منذ باكورة شبابه بحب اراضيه الخاصة (ملك مابقرب من خمس الاراضي المزروعة في مصر) والاجتهاد في استغلالها . ومهما يكن من امر فان فترة اسماعيل ، على مافيها من نقائص (ألمحت اليها في باب الادارة) ، كانت على الجملة ، الوجه المشرق للتركية السابقة أو قل هي الشعاع الذي اضاء بعض ظلمات ذلك الحكم التركي ـ المصري الغاشم في بعض جوانبه . واذا ما أخذنا في الاعتبار قصر المدة التي تمت فيها كل هذه التطورات العمرانية والانجازات التي حققها الخديوي اسماعيل للسودان ، اتضح لنا جليا الدور الكبير الذي قام به لينتشل هذا البلد من وهدة التخلف ويسير به نحو دنيا المدنية والنور .

الفصل الخامس

الرق وتجارة الرقيق في السودان

فذلكة تاريخية :

مارس السودانيون الرق وتجارة الرقيق في السابق ، هذه حقيقة لا يماري فيها احد . بيد ان هذه الظاهرة الاجتماعية لم تكن بدعة ابتدعها الاهلون هنا وانفردوا بها دون العالمين . وانما هي قديمة موغلة في القدم . واكبر الظن انامتلاك الرقيق كان جزءا من غريزة حب التملك المتأصلة في اعماق الانسان ، أو هي الفطرة التي فطر عليها كثير من الاقوياء لاستعباد الضعفاء او المستضعفين في الارض . فالرق نظام اباحه اصحاب الحضارات القديمة كالفراعنة والاغريق ثم الرومان . وعلى الرغم من أن قدماء الاغريق قد قطعوا شوطا بعيد المدى في مضمارالحضارة ، الا اننا نجد حتى فلاسفتهم يبيحون الرق !

فأرسطو فيلسوف اليونان القديم يقرر ان الرق ضروري وطبيعي ، وانبعض الناس قد خلقوا للعبودية ! ولان اثينا قد مارستالرق فان ديمقراطيتهارغم جودتها في بعض الوجوه ـ قد حرمت العبيد من حقوق المواطنين الاحرار كالانتخابات والاشتراك في الحكم . ويقول ارسطو ايضا في صراحة عجيبة « ان الطبيعة اوجدت رجالا للامر والسيطرة وآخرين للطاعة والخضوع » وما من شك ان هذا خطأشنيع ، فليس ثمة قانون كائنا ماكان يبيح استعباد اناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا . ويمضي ارسطو في توضيح رايه هذا فيقول « فالعبيد هم الذين خلقوا للخضوع ، ويجب على الاحرار ان يستكثروا منهم ليستخدموهم في الاعمال اليدوية ويتوفروا هم للاعمال الفكرية » .(١)

اما افلاطون فقد قضى في جمهوريته الفاضلة « بحرمان العبيد حق « المواطنة»

---

(١) مصطفى الرافعي « الاسلام نظام انساني » ص ٩٦

وإجبارهم على الطاعة والخضوع للاحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء . ومن تطاول منهم على سيد غريب اسلمته الدولة اليه ليقتص منه كما يريد » . (١) من هنا نعلم ان العبيد عند الاغريق الذين علموا البشرية الكثير ، لم تحترم ادميتهم !

الرق في الاديان السماوية :

ان الديانتين السماويتين اللتين سبقتا الاسلام لم تحرما الرق . والثابت ان اليهودية قد اباحته . ولما جاءت المسيحية لم تحرمه ، ودليلنا على ذلك ماورد في كتاب العقاد « حقائق الاسلام واباطيل خصومه » حيث قال ان الرسول بولس قد أمر العبيد باطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ! وكذلك فعل الرسول بطرس، فقال بوجوب طاعة العبيد لاسيادهم آباء الكنيسة بحسبان الرق كفارة ، من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الاعظم » (٢) وفي هذه الحقائق ما يكفي للرد على المفترين على الاسلام من المتعصبين من المسيحيين والضالعين في ركابهم القائلين بأن الاسلام قد شرع الرق .

والحقيقة التي لا مماراة فيها ان الاسلام لم يشرع الرق وانما شرع العتق . فالرق — وفق ما يقول العقاد — كان مشروعا قبل الاسلام في القوانين الوضعية والدينية بجميع انواعه وما اقره الاسلام موجود الآن وهو استبقاء اسرى الحرب حتى يتم الصلح بين الدولتين أو الدول المتحاربة على تبادل الاسرى . وما عدا ذلك من صنوف الرق فقد حرمه . بل أوجب على الدولة أن تعمل على فك اسراها واعتاقهم بالفداء . وكذلك الافراد حثهم على العتق وجزاء ذلك ماجاء في حديث محمد صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أعتق امرء مسلما استنقذ الله بكل عضو منه عضوا من النار » .

ليس هذا فحسب ، بل ان الاسلام قد استوجب العتق في بعض الحالات فهو « كفارة عن القتل الخطأ وعن الظهار ، وعن اليمين ، وفي الحالة الاخيرة يخير المؤمن بين اطعام عشرة مساكين او كسوتهم او تحرير رقبة » وورد في القرآن الكريم « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا » وكما يقرر مصطفى الرافعي فان هذه الاية تؤدي الى الغاء الرق أن أخذت على ظاهرها لانها توجب على المسلم أن يكاتب رقيقه متى سأله ذلك ووجد فيه خيرا وقد شاع اسلوب الكتابة بين المسلمين . وللارقاء حقوق اوجبها الاسلام وهي حق الحياة ، الحصانة الجسدية الحصانة العائلية والرفق بالرقيق. وثمة احاديث كثيرة في هذه المعاني لا يسعنى المقام لذكرها . اذن لا نعدو الحق اذا قلنا ان الاسلام كان وما زال

---

(١) عباس محمود العقاد « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » (١٩٦٦) ص ٢٠٢
(٢) عباس محمود العقاد (حقائق الاسلام وأباطيل خصومه)

الامثل بين كل الانظمة السابقة واللاحقة في مسألة الرق .

الرق في العصور الحديثة :

يعتبر جون جنثر (مؤرخ امريكي محدث) الرق نغمة قبيحة اونشازا طغت على تاريخ افريقيا قرابة القرنين والنصف من الزمان او منذ سنة ١٥٦٢.حتى مطلع القرن التاسع عشر . ولقد حدث استرقاق على جانبي قارة افريقيا: الغربي والشرقي على السواء ، لان تجارة الرقيق اللعينة كانت مربحة للغاية .

فالاوربيون كانوا يخطفون الزنوج او يشترونهم من القبائل الافريقية ، ثم يصدرونهم الى الولايات المتحدة وجزر الهند الغربية . وعلى الجانب الشرقي من القارة تاجر العرب بالارقاء وصدروهم الى شبه الجزيرة العربية وتركيا وبعض بلدان الشرق الاوسط . والجدير بالذكر انالافارقة انفسهم قد لعبوا دورا كبيرا في استرقاق بعضهم البعض وفي بيع الضعفاء منهم الذين يهزمون في الحروب القبلية، الى الاوربيين . ففي غرب افريقيا لم يستطع تجار الرقيق الاوربيون ان يتوغلوا في داخل القارة خوفا على حياتهم من هجمات الاهلين الخطيرة . وعلى ذلك فقد كانوا يضطرون الى الانتظار على ساحل المحيط الاطلسي ليشتروا من الافريقيين الذين يتغلبون على غيرهم ! واستمر الاوربيون زهاء الثلاثة قرون (١٥٨٠ ـ ١٨٨٠) يزاولون تجارة الرقيق في افريقيا .

ان اول من بدأ تجارة الرقيق من الغربيين هم البرتغاليون حول منتصف القرن الخامس عشر الميلادي اذ بنوا القلاع على ساحل أفريقيا الغربي ، وصنعوا السفن بطريقة تمكن من شحن اكبر عدد ممكن من الارقاء . وبعدئذ اندفع منافسون آخرون من الانجليز والفرنسيين والهولنديين والدنماركيين وغيرهم للافادة من الاتجار بالبشر !! غير أن البريطانيين صاروا بمرور الزمن ابرز النخاسين . وهم الذين ابرموا اتفاقية يوترخت عام ١٧١٣ ، وبموجبها احتكروا هذا العمل المشين ،وتعاقدوا على ان يمدوا المستعمرات الاسبانية بمقدار ٤٨٠٠ زنجي كل عام . وتقوم بعملية الاقتناص شركة انجليزية تتمتع بالاحتكار مدة ثلاثين سنة ! (١)

الكنيسة والرق :

ومما يذكر ان استعباد الاوربيين للافارقة واخذهم الى امريكا للعمل بمزارعها قد اجازه أحبار الكنيسة علىأساس ان هذا الاجراء وسيلة لاختلاط الزنوج بالمسيحيين ، وبالتالي لانقاذ أرواحهم من الضلال ! وفي القرن السادس عشر أسست

---

(١) دائرة المعارف البريطانية المجلد ٢٠ ص ٧٧٩

الكنيسه الكاثوليكيه ارساليات كثيرة على ساحل افريقيا الغربي فاقتنت هـذه الارساليات آلاف العبيـد ، وسخرتهم لخدمتها ولتحقيق مصالحها . ولكن هذه الارساليات قد أصابها الجمود والعقم فكسدت تجارتها ، وفشلت في اداء رسالتها فانتهى أمر كثير منها . هذا هو ماضي الكنيسة الكاثوليكية ، وماضي الذين اذاقونا المرائر بدعاياتهم المغرضة ضدنا في جنوب السودان !

عود الى الرق في العصور الحديثة :

ما فتىء الاوربيون يمارسون تجارة الرقيـق ويكدسون الاموال الطائلة ويصطادون الابرياء حتى بلغت عدة ما أخذوه الى الامريكتين حوالي خمسة عشر مليونا . وما ان تيقظ الضمير الانساني وقامت جمعية مكافحة الرق والحركات المضادة له في انجلترا اولا ثم في بقية البلاد الاوربية والامريكية ، حتى اخذت الحكومات تسن القوانين لتحريم تجارة الرقيق . ففي انجلترا سن البرلمان قانونا عام ١٨١١ منع تجارة الرقيق منعا باتا في كل بلاد الدومنيون البريطاني . وعملت بالمثل بقية البلاد الاوربية . ثم خطت بريطانيا خطوة اخرى في هذا المضمار سنة ١٨١٥ اذ كسبت تأييد الدول لمنع النخاسة وتحرير الارقاء .

وهكذا ابطل الغرب تجارة الرقيق التي استمرت طيلة هذه السنين والتي أزهقت أرواح خمسة وعشرين مليونا خلال تجارة الرقيق بين أمريكا وأفريقيا ! هذه حقيقة يعرفها كثير من زنوج أمريكا اليوم ويعتبرونها مأساة مفجعة .

عود الى السودان :

اما في السودان فقد الف الناس الرق منذ زمن بعيد فقد مارسه الاهلون منذ ان دخل العرب السودان وانشأوا فيه الممالك والمشيخات . ومن الواضح البين ان الرق كان ضرورة اقتصادية واجتماعية . فالمجتمع قد درج على ان يقوم الارقاء بأعمال الزراعة والرعي والحلب وما الى ذلك ، وان تشتغل الاماء في المنازل. فلم تكن هذه الاعمال مما يقوم به السادة في حياتهم اليومية او الحرائر في بيوتهن !

حملات اصطياد السود

عصر محمد علي

عندما فتح محمد علي باشا السودان (١٨٢٠-٢١) كان من اهم اهدافه - كما تقدم - الحصول على الزنوج الاقوياء ليخلق منهم جيشا عرمرما يستعين به على تحقيق مآربه التوسعية وليذود به عن حياضه . ولكي يجد في الزنوج أيضا الايدي العاملة للحقول والمصانع . فأقام في عام ١٨٢١ معسكرا كبيرا بأسوان

لاستقبال السود . ونحن بالطبع نذكر أن اسماعيل بن محمد علي عندما دانت له البلاد أرسل قوجة أحمد أغا (من كبار ضباطه) الى جبل تابي لاصطياد السود فعاد بضحايا عدتهم الف وتسعمائة زنجي من الرجال والنساء والاطفال ، ارسلوا جميعا الى مصر لاختيار المناسبين للعسكرية وبيع البقية في أسواق النخاسة . ولعلنا نذكر أن اسماعيل بدوره قد قام بحملة لاصطياد السود في الجبال الجنوبية ولم يوفق الى ما أراد من اعداد هائلة . وان ابراهيم باشا الذي بدأ غزوته للجنوب قد رضي من الغنيمة بالاياب بسبب مرضه .

ولكي يزيد محمد علي حصيلته من السود ، منع الجلابة من الاتجار بالرقيق مع الخارج ، وامر ان يبيع التجار ارقاءهم للحكومة . بل اشار بأن يدفع المواطنون ما عليهم من ضرائب رقيقا من الرجال لينضووا تحت لواء الجيش . ومن ثم أخذت الحملات تتوالى حسب رغبة الباشا الملحة وحثه لرجاله هنا كيما يضاعفوا مجهوداتهم ويكثروا من حملاتهم . ففي عامي ١٨٢٢ و ١٨٢٣ بلغت عـدة الذين اصطادتهم الحكومة - وفق تقدير الامير عمر طوسون - ثلاثين الفا من الزنوج أعدوا للجيش. وكانت خطة الوالي في بادىء الامر ان يجند السودانيين السود ، وان يبقي على المصريين ولم يتجه نحو تجنيد المصريين الا مؤخرا بعد ان فشل في مشروع الجيش الكبير من السودانيين .

وعلى عهد خورشيد أغا (١٨٢٦ - ١٨٣٨) انتظمت حملات اصطياد الزنوج، فأصبحت نشاطا موسميا تقوم به الحكومة . وما هي الا ان استقر خورشيد في السودان حتى أرسل (١٨٢٦) أولى غزواته الى قبيلة الشلك على النيل الابيض . وكانت مناطق الشلك آنذاك تمتد حتى الكوة شمالا . ولكن هذه الحملة لم تزد على أن تكون استطلاعية . ثم أنفذ حملة أخرى قادها بنفسه (١٨٢٧) وكان ضحاياه في هذه المرة هم الدينكا في شرقي النيل الابيض . وبعد عراك بين الفريقين استبسل فيه الدينكا وذادوا عن انفسهم برماحهم وقسيهم ، وبعد ان كبدوا اعداءهم خسائر، انتصر خورشيد بقوة السلاح الناري وعاد بخمسمائة دينكاوي. وفي عام ١٨٣٠ اغار خورشيد على الشلك في منطقة فشودة (كدوك الحالية) بهدف الحصول على الزنوج والبقر . ولقد تحدى الشلك هؤلاء المغيرين عليهم . ورغم أن مدفع الاتراك قد حصد كثيرا من الشلك ، الا ان خورشيد ورجاله قد هزموا ، ولم يحصلوا في النهاية الا على مائتي شلكاوي . فرجع الحكمدار وجنده الى الخرطوم يجرون اذيال الهزيمة (١) .

بعد ذلك قامت حملة سليم قبودان سنة ١٨٣٩ نحو الجنوب تلك التي استهدف

(١) ريتشرد هل « مصر في السودان » .

منها محمد علي اكتشاف منابع النيل والحصول على المعادن التي ظهر انها موجودة هناك ثم تلتها حملتان وصلتا منطقة غندكرو . غير ان الرحلات التي قام بها سليم لم تأت اكلها اذ فشل في تحقيق هدفي محمد علي باشا على ان المهم في هذه الحملات انها فتحت الطريق لتجار الخرطوم من المواطنين والاجانب على السواء ليتاجروا في تلك البـلاد .

تجـار الرقيق :

فتح الطريق اذن الى جنوب السودان بعد حملات سليم قبودان . وبعـد ان كانت الحكومة تضع القيود على تحركات التجار الى أعالي النيل ، سمحت لهـم (١٨٥٣) بمزاولة نشاطاتهم التجارية هناك. فما كان من التجار الاوربيين والليفانتينيين والمصريين والسودانيين أنفسهم الا ان هرعوا في اعداد كبيرة الى جنوبي البلاد حتى غندكرو ، بل توغلوا نحو الغرب حتى بحـر الغزال . فبعدوا بذلـك عن سيطرة الحكومة . وقد استغل التجار الاجانب الامتيازات الاجنبية التي نالتها دولهم في مصر . وكان لكل تاجر جيشه الخاص ويتكون من الشايقية والدناقلة (١) ولهزريبة وفيها مركز رئاسته ومخازنه ، وله محطاته التي اتخذها قواعد لحملاته للحصول على العاج وهو الغرض الاساسي للتجار في بادىء الامر . ولكن سرعان ما انقلبت عملية صيد الافيال الى صيد الآدميين السود ! فهؤلاء التجار كانوا يرغبون فـي السوداوات او بنات السود ليكن جوارى أو سرارى ، وللعمل في المنازل أما الرجال فلزيادة جيشهم الخاص وما تبقى من الجنسين يساق الى أسوق النخاسة .

انشأ تجار الرقيق احلافا غريبة مع زعماء القبائل بالجنوب رمت الى نهـب وسلب القبائل الاخرى . وعلى ذلك تحولت الحروب التي كانت تنشب بين القبائل الى اغارات لجلب الرقيق . (٢) واخيرا سيطر هؤلاء التجار على زعماء القبـائل لامتلاكهم الاسلحة النارية التي لم يكن في طوق أهل الجنوب مقاومتها . بل أصبـح الاقوياء منهم أشبه بأمراء يحكمون مقاطعات واسعة ، فصارت اعلامهم ترفع علـى مراكبهم ومحطاتهم حتى لا تتدخل السلطات الحكومية في أعمالهم والحد من نشاطهم ، (٣) ولهذا نشأت حكومات داخل حكومة السودان !

ومن اشهر هؤلاء النخاسين الاجانب السيد أحمد العقاد من مصر ، وعلـي ابو عموري من صعيد مصر ، وغطاس القبطي ، وكوشوك علي التركي وغيرهم . ومن الاوربيين ما لزاك (فرنسي) وتقع دائرة نشاطه الكريه في بحر الغزال ومركزه

---

(١) ب . م . هورت

(٢) ب . م . هورت « تاريخ السودان الحديث » .

(٣) الشاطر بصيلي « معالم تاريخ وادي النيل » .

رمبيك . وثمة فرنسيان آخران هما باتيلمي ولافارج ، ونمساوي يدعى فرانـز بايندر . ومن الليفانتينيين ديبونو وقريبه أمبيلي المالطيان اللذان تجنسا بالجنسية الانجليزية . لهذا انبرت الحكومة الانجليزية للدفاع عن ديبونو سنة ١٨٦٢ حينمـا اتهم بممارسة تجارة الرقيق ، وادعت ان الادلة ضده غير متوفرة لكيلا يشـين سمعتهـا !

كان الاجانب من التجار يجدون مساندة وحماية من قناصلهم بالخرطوم . بل ان جل القناصل أنفسهم قداتهموا بالاشتراك في تجارة الرقيق بطرق ملتوية ، أو بدعوى انهم يتاجرون في العاج . غير انهم كانوا في واقع الامر يبيعون العـاج وحامل العـاج !! وكان من البديهي ان تمتعض الحكومة من هـذا الوضع ، وأن يطلب والي مصر الى الدول الكبرى رفع حمايتها عن رعاياها الذين يتاجرون بالرقيق في السودان ، وأن تسيطر مصر وتراقب تصدير الاسلحة النارية الى السودان للقضاء على تجارة الرقيق . وكما تقدم فا ن الدول الاوربية وعلى راسها بريطانيا قـد سنت القوانين لتحريم الرق وتجارة الرقيق . وبسبب الحاح مصر على القنـاصل لرفع ايديهم عن رعاياهم النخاسين اضطر تجار الرقيق الاجانب لبيع زرائبهـم واملاكهم الى الحكومة . فعوضتهم عما فقدوه ، وغادروا البلاد لغير رجعة فتخلصت من شرورهـم .

ولنا ان نتساءل عن الجنوبيين واهل جبال النوبة ممن اكتووا بنار تجاةالرقيق، هل كانوا من الضعف والسلبيـة بحيث اصبحوا صيدا سهـلا في أيدي اولئـك الوحوش ؟ الواقع أن هؤلاء المواطنين كانوا يذودون عن حماهم . ولكن أس البلايا بالنسبة اليهم الاسلحة النارية التي كانت تطيش عقول اولئك الابرياء ، وتردي من يستبسلون ويقفون للدفاع عن ديارهم قتيلين . والاسلحة النارية قد دخلت البلاد بدخول الاتراك وفتح السودان . الى جانب ذلك فهناك انقسام زعماء السود وسـوء العلاقات بينهم ، مما افقدهم التماسك والتآزر ضد العدو المشترك . وفي هـذا يقول شقير ومما جرا التجار على مثل هذه الافعال انشقاق ملوك السود بعضهـم على بعض فكانوا اذا هاجموا ملكـا منهم لم يخشـوا انتصـار جيرانه له بل ربمـا أستنصروا جيرانه عليه . وكانوا يقيدون أسراهم بقيود من حديد ويسوقونهم الى زرائبهم سوق الانعام حتى لقد يموت كثير منهم في الطريق وعند وصولهم الـى الزرائب ينتقون اقواهم بدنا واخفهم حركة وأثبتهم جنانا فيضمونهم الى عصاباتهم ويدفعون الباقي مع السن والريش الى النخاسين (١) .

والآن يجمل بنا أن نناقش الخطوات التي اتخذها الحكم التركي ــ المصري

---

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٥٥٦

لكي يقضي على تجارة الرقيق في السودان .

في تقديري انني قدمت لهذا الموضوع في مستهل هذا الفصل بما فيه الكفاية وعلى ذلك يتعين علينا أن نرجع قليلا الى الوراء لنقف على الدور الذي قام بهمحمد علي باشا لالغاء تجارة الرقيق في هذا البلد ، ثم نتتبع خطوات بقية الولاة .

دور محمد علي

من فضول القول ان نقول ان محمد علي باشا قد غير ما بنفسه عنممارسة الرق وتجارة الرقيق طوعا او بمحض اختياره . واية ذلك انني لم اعثر في سيرته على ما يدلل على نزعة انسانية خالصة . وهو الذي فتح السودان (من بين اغراض أخرى) لرجاله السود . وهو الذي كان يلح ويكثر من الحاحه في طلب الزنوج لتطعيم جيشه بهم . اذن فثمة عامل اجبره على أن يأمر بايقاف هذه التجارة اللعينة في السودان .

يعود هذا التغير من جانب الباشا في المقام الاول الى تدخل الانجليز الذين تناهى الى مسامعهم عن طريق السواح الاجانب (كانوا يزورون السودان منذ فتحه) تفشى تجارة الرقيق ، وكيف كانت حكومة الخرطوم تصرف الى بعض موظفيها رواتبهم من الرقيق بدلا عن النقد ! هذه الاخبار الم بها المستر كامبل قنصل بريطانيا العام الذي كانت تربطه بمحمد علي علاقة صداقة وتقدير متبادل ،فأفضى بها الى الباشا . فما عتم محمد علي أن بعث برسالة الى حكمدار السودان ،وفيها أمر صريح بترك اعطاء الرواتب للموظفين في شكل ارقاء بدلامن النقود . وفيهايقول: « مما كان من واضحات الامور مبلغ استهجان هذا النظام لدى الدولة المشار اليها قد وجب الغاؤه مراعاة لما استحكم بيننا وبين هذه الدولة من روابط الصداقة المتينة وعليه فيجب أن تكفوا فيما جر من اعطاء العبيد والجواري بدلا من العلوفة واما ان قلتم ان الاخذ بهذا النظام يعود على الميرى بفائدة فاقول لكم دعوا الفائدة في جانب فانا مستعد لقبول الضرر والخسارة في هذا السبيل ولذلك اطلب اليكم بصورة قطعية ان تلغوا النظام المذكور . (١) ويقرر الدكتور شبيكة أن الحكمدار ، تنفيذا لهذه السياسة ، جمع المديرين والمشايخ وكون مجلسا كبيرا للنظر في أمر الجناب العالي . فاستقر رأيهم على توزيع الارقاء في البلدان المختلفة وبيعهم لتدفع من اثمانهم الرواتب . ومن البين أن هذه الخطة لم تكن ابطالا للرق وتجارة الرقيق .

من الاوامر التي أصدرها محمد علي بشأن تجارة الرقيق وتنصله من تلك

(١) الدكتور مكي شبيكه « السودان عبر القرون » ص ١٠٩

التجارة بعد اذ تيقن انها مذمة له ، وانها مصدر ملامة ، بل متاعب له من جانب الدول الكبرى وبخاصة انجلترا ، ما جاء في احدى رسائله لخورشيد اغا حكمدار السودان (١٨٢٦ – ١٨٣٨) حيث يقول : « انني لا اريد تجارة لا تشرفني، واني لعلى استعدادلبذل كل تضحية اذا تطلب الغاء التجارةاية من التضحيات من جانبي»(١) وكما يقرر نعوم شقير فان محمد علي قد نادى بابطال تجارة الرقيق على رؤوس الاشهاد عند مازار السودان عام ١٨٣٩ .

على أن البريطانيين لم يقتنعوا بهذه الوعود والاوامر ، ولعلهم ظنوها سلبية لا تجدي فتيلا في هذا المجال . فأخذوا يضغطون على الباشا ليكون اكثر ايجابية ويضع حدا لحملات جلب الرقيق من مواطنهم . وكان محمد علي يحاول ان يعلل لهم معنى الغزوات التي يقوم بها جنده بأنها اجراءات لقمع حركات العصيان أو تعدي بعض القبائل على غيرها ! ويبين أن في هذه التحركات ، اذا أسر بعض اطفال الزنوج فانهم سرعان ما يرجعون الى اهليهم وينتظم الكبار منهم في سلك الجندية ، ويتمتعون بمعاملة الاحرار . او كما ورد في كتاب « السودان عبر القرون » (لشبيكة) بل يتمتعون بكامل حريتهم ولا يمنعون من التزوج مثل الجنود المجندة من الاهلين حسب اللزوم لسد النقص الموجود في الجنود كما هو الجاري في كل بلد ويستحقون الرتب حسب النظام العسكري ، فيقطعون مراحل التربية والتمدن الانسانية قطعا متواصلا، الامر الذي يؤدي الى ارتياح الاهلين المتمدنين . وفيما يبدو أن محمد علي كان مقتنعا بأن الغاء الرق في السودان بجرة قلم امر عسير ان لم يكن مستحيلا . وان ابطال الرق يحتاج الى توعية أو تربية وتعليم على حد قوله ، ومن ثم يلغى الرق ولعله قصد الى تحرير الوجدان أولا ، ثم يتم ابطال الرق لان التجارب قد دلت على ان العبيد (في كثير من انحاء العالم) الذين حرروا قبل ان يتحرر وجدانهم قد فشلوا في مواصلة حياة الحرية رغم انطلاقها وجمالها ، وفضلوا الرجوع الى سادتهم ! وفي هذا الصدد قال محمد علي الى ريتشارد مادن : « يعظم سروري اذا الغيت الرق الغاء تاما ، ولكن الواجب على الانسان أن يهيىء للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم ، لان مسألة الرق في هذه البلاد من اشق المسائل واشدها صعوبة ، على خلاف الحال في بلادكم ذلك أن الناس اعتادوا ان يستخدموا الارقاء لدرجة انه اذا أمتنع وجود الرقيق بالاسواق ، بادروا بالشكوى على نحو ما فعلوا سابقا عندما منعت جنودي من تسيير الغزوات لصيد الرقيق في سنار » (٢) .

(١) الحكم المصري في السودان للدكتور محمد فؤادي شكري ص ٦١٣ « نقلا عن الشاطر بصيلي ص ١٥١ » .

(٢) الدكتور محمد فؤاد شكري « الحكم المصري في السودان » ص ١٦٤ (نقلا عن الشاطر بصيلي ص ١٥٧) .

من جملة ما تقدم نخرج بخلاصة هي أن محمد علي قد أمر بابطال تجارة الرقيق . بيد ان الامر برمته كان حبرا على ورق ، فلم يحدث تقدم يذكر في هذا الشأن .

عباس باشا (١٨٤٨ – ١٨٥٤)

أما عباس باشا – على ما هو معلوم – لم يول السودان ما يستحق من عنايته ، فهو قد شب على أسس التربية القديمة ، وظل حتى اليوم الاخير من حياته حاكما مستبدا نافرا من شعبه . وقد اتسم عهده بالجمود والعقم والتعصب ضد الاصلاحات ، وعلى الخصوص الاصلاحات المقتبسة من الدول الاجنبية . فليس بمستغرب اذن ان لم يلتفت الى ما يحدث أو يجري في السودان وبصورة خاصة فيما يختص بالرق وتجارة الرقيق .

دور محمد سعيد

على عهد محمد سعيد باشا (١٨٥٤ – ١٨٦٣) تغيرت الامور بعض الشيء ، فالسودان الذي كان في ابان فترة عباس منفى للمجرمين والمغضوب عليهم ، وجد شيئا من التفات الوالي نحوه . بل تكبد محمد سعيد المشاق لزيارته والوقوف على احواله عام ١٨٥٧ . وكما قدمت آنفا ، أصدر سعيد أوامره لاصلاح الادارة وتخفيف اعباء الضرائب فيه . ومن اهم اصلاحاته محاولاته لابطال تجارة الرقيق في السودان.

ان مرد هذا الروح الطيب من جانب محمد سعيد لتعليمه وسعة افقه وتأثره بالغرب في محاربة الرق . وبالاضافة الى العامل الانساني لالغاء الرق ، فثمة عامل سياسي الا وهو أن محمد سعيد قد اعتزم ان ينهي سلطات تجار الرقيق ويستعيد نفوذ الحكومة في المناطق الواسعة التي فرض النخاسون عليها انفسهم واستحوذوا عليها .

وما ان اعتلى محمد سعيد أريكة الولاية حتى أعرب عن اعجابه وتقديره لنظرة الدول الغربية تجاه تجارة الرقيق . ففي ديسمبر ١٨٥٤ أصدر أمرا قاطعا لحكمدار السودان ليبطل تجارة الرقيق في اية صورة من صورها أيا كانت هذه الصور علنية ام سرية . واليك هذا النص من خطابه الذي بعث به الى الحكمدار هنا « صورة ارادة كريمة الى حكمدار السودان ان مبيع وشراء الجواري السود والعبيد الذين صاير جلبهم من السودان ودارفور صار منعه من طرفنا كليا وقد صدر أمر من طرفنا في هذا التاريخ الى المالية لاجل التحرير من كمرك اسوان والى مدير جرجا واسيوط في خصوص عدم اعطاء الرخصة للجلابين المارين عليهم بالاسرى الى مصر فحين تصير هذه الممنوعية معلومكم يلزم الدقة والاعتنا التام في منع مبيع وشراء

الجواري والعبيد ببلاد السودان سرا وجهرا ... » (١) وبهذه الخطوة بدأ الهجوم على الرق وتجارة الرقيق في هذا البلد .

ويقرر ريتشرد هل أن محاربة تجارة الرقيق في السودان بجدية واصرار يعتبر مخاطرة في بلد يعتمد اقتصاده على أعمال الأرقاء . ومع ذلك فان سعيدا ظل ينطح صخرة عاتية ليوهنها وهي صخرة الرق الذي امتدت جذوره الى اغوار بعيدة في كيان المجتمع السوداني .

وقد أسس محمد سعيد محطة (١٨٥٥) في فشودة على النيل الأبيض في جنوبي الحدود المصرية آنذاك لمنع تصدير الأرقاء والسيطرة على سفن النخاسين النازلة والمحملة بالزنوج . وجعل على فشودة والمناطق حولها محافظا هو صالح حجازي للقيام بمهمة ضبط الرقيق المجلوب من الجنوب وفك اسارهم ومنحهم حرياتهم . وفي أواخر ايامه كتب محمد سعيد الى مدير سنار والخرطوم قوله : « على الرغم من أن تجارة الرقيق قد ابطلت منذ زمن بعيد الا ان العبيد من النيل الأبيض ما زالوا يباعون في الخرطوم . ان هذا الاهمال لتنفيذ أمرنا لشيء عجيب ! ينبغي أن تبطل فورا هذه التجارة في منطقتك . كما يتعين عليك ان ترد كل السفن المحملة بالعبيد الى مواطنها » (٢) .

اثمرت حملات محمد سعيد لقمع تجارة الرقيق بعض الشيء اذ ضيقت الخناق على تجار الرقيق من بحارة ، وهم الذين كانوا يغيرون من النيل الابيض ، ونهاضه وهم الذين غزوا الجبال – جبال النوبة وجبال فازوغلي ، الى درجة ان بعضهم شكا سوء الحال . ويعني بذلك ضيق ذات اليد بتضاؤل دخولهم بسبب الرقابة التي فرضت عليهم . وهم في الواقع لم يتركوا هذه التجارة المشينة ، ولكنهم كانوا يسوقون ضحاياهم الى الاسواق وهم في حالة لا يحسدون عليها من التربص والذعر خوفا من الوقوع تحت طائلة القانون وضياع اموالهم .

والحق ان محاولات محمد سعيد قد أجدت في ناحية هي ان تجار الرقيق من الأوربيين قد زهدوا في الكسب من النخاسة ، فباعوا زرائبهم عام ١٨٦٠ الى وكلائهم العرب . ومن ثم « وضع جعفر باشا الضرائب على الزرائب ثم احتكرها السيد احمد العقاد شريك السيد موسى العقاد من الحكومة بخمسة آلاف جنيه في السنة على أن لا يتجر بالرقيق و لايغزو بلاد العبيد » (٢) .

على ان تجارة الرقيق لا زالت قائمة في جنوبي البلاد لان أسواق النخاسة التي

---

(١) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ١٢٦ .
(٢) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٥٥٨

أغلقت أبوابها في مصر ظلت مفتوحة في البلاد العربية الأخرى . يقول رتشرد هل ان قنصل النمسا العام الذي كان على صلة وثيقة بالمبشرين اللاتينيين في السودان قد أوعز الى محمد سعيد (١٨٦١) بأن يضع حدا لنشاط النخاس احمد العقاد . فما كان من الاخير الا ان حذر مدير الخرطوم وسنار من انهماك هذا الرجل في أعمال النخاسة وأوضح للمدير ان تلك القضية ستؤثر على مستقبله كاداري ، ولا بد من ان يقوم بعمل حاسم حتى تجري العدالة مجراها . ويمضي هل فيقول ان حكومة القاهرة قد فكرت في ذات العام (١٨٦١) في تعيين قوة بوليس نهرية لتقمع تجارة الرقيق على النيل الابيض . وعلى حسب نصيحة القنصل البريطاني في القاهرة انفذ محمد سعيد أربع سفن بخارية وست مراكب مسلحة كلها بالمدافع لتقوم بدوريات على النيل الأبيض لالقاء القبض على تجار الرقيق ومصادرة شحناتهم . فوصل هذا الاسطول الصغير الى الخرطوم في أوائل عهد اسماعيل باشا .

اجمال القول ان محمد سعيد قد قام بمجهودات حسنة لالغاء تجارة الرقيق غير انها لم تحقق ماكان يصبو اليه من نجاح . ويعود ذلك في المقام الاول الى ان الرق قد تأصل في أعماق المجتمع السوداني كما أومأت الى ذلك آنفا . ثانيا لم يهتم المسؤولون في السودان اهتماما كبيرا بتنفيذ سياسة محمد سعيد واوامره الخاصة بالرق . ولعل من اهم العوامل التي أدت الى تفشيل محاولاته وانتعاش تجارة الرقيق فتح النيل الأبيض للملاحة والتجارة اذ تدفق على السودان الاجانب من المغامرين والمكتشفين والتجار الاوربيين والليفانتيينيين الذين كانوا من الانذال والأراذل ، والذين استغلوا حماية قناصلهم استغلالا بشعا فعاثوا في البلاد فسادا ومتاجرة بالنفوس خاصة وأن ذلك العصر كان « عهد القناصل الذهبي في السودان كما كان الحال في مصر » .

ثمة حقيقة لا تغفل اوردها الدكتور محمد فؤاد شكري في كتابه « مصر والسودان » وفحواها أن محمد سعيد ذاته قد أشترك ـ على نحو من الأنحاء ـ في تفشيل خططه الرامية الى الغاء الرق وتجارة الرقيق حينما كون له حرسا خاصا من السودانيين السود الذين جلبهم باتفاق مع شركة السيد موسى العقاد وهي من أشهر الشركات التي مارست تجارة العاج والرقيق في جنوبي السودان وعلى هذا فقد نهى عن خلق وأتى مثله !

دور اسماعيل باشا (١٨٦٣ ـ ٧٩)

ورد في ترجمة الخديوي اسماعيل انه نال درجة عالية من المعرفة وسعة الافق ، كما امتاز بالذكاء والميل الفطري للنظام والاصلاح . فلم يكن بدعا منه أن يشنها حربا لا هوادة فيها ضد الرق وتجارة الرقيق المستهجنة في السودان .

وأسماعيل ـ كما سلفت الاشارة ـ قد أشرب حب المدنية الغربية ، وأشتهر بنزعته الاوربية وثقته العمياء في الاوربيين . فما ان اعتلى عرش مصر ، حتى وقف جنبا الى جنب مع الأوربيين العاملين على تحرير الأرقاء في انحاء العالم ليكسب ثناء الانسانية على مدار التاريخ ويسجل اسمه بحروف من نور في سجل الخالدين .

لعل اولى الخطوات العملية التي اتخذت لالغاء تجارة الرقيق في السودان هي التي قام بها اسماعيل باشا في اكتوبر ١٨٦٢ قبل وصوله الى دست الحكم حينما كان يقوم بالحكم نيابة عن عمه محمد سعيد . ففي ذلك العام أعلن الحكمدار موسى باشا حمدي التجار على رؤوس الاشهاد انه لن يسمح اطلاقا لاية مركب لتبحر الى الجنوب الا للاتجار في العاج فقط . وفي ذات الوقت فرضت ضريبة أطلق عليها « الويركو » مقدارها راتب شهر على كل مشتغل في تلك الرحلات التجارية من التجار والعمال .

كذلك اصدر اسماعيل امره بتحرير كل عبد او أمة يتضح ان مالكه أو مالكها قد اساء معاملته او معاملتها او قسى عليه أو عليها . كما عهد الى قوة عسكرية تستخدم وابورات الحكومة لتقوم بالرقابة على النيل الأبيض .

ثمة خطوة اخرى اتخذت في يونيو ١٨٦٤ وهي اعداد قوة بوليس نهرية . وفيما اعتقد اننا نذكر ان هذه القوة هي التي انفذها محمد سعيد باشا ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يرى ثمرة أعمالها . فأفاد منها اسماعيل ووجهها وجهتها الصحيحة وهي القاء القبض على النخاسين ومراكبهم النازلة من الاستوائية وبحر الغزال ومصادرة حمولتها . وفي البداية خدمت هذه القوة غرضها بيد انها سرعان ما فقدت فعاليتها . وعلى الرغم من انها صادرت ٣٥٣٨ رقيقا الا ان النخاسين قد تعلموا كيف يهربون من دوريات الحكومة أو يرشون رجالها . هذه الاجراءات قد منيت بفشل ذريع اذ استمرت تجارة الرقيق كما كانت في السابق وآية ذلك أن منابع الرق كانت بعيدة عن نفوذ الادارة . وعلى هذا فقد كان لزاما ان تتخذ خطوات أبعد مدى ، فأسست الحكومة مديرية جديدة عام ١٨٦٥ على النيل الأبيض سميت مديرية « البحر الأبيض » جعلوا عاصمتها فشودة في منطقة الشلك . وكانت خطوة موفقة بعض الشيء رغم انها كلفت اموالا كثيرة اذ قوت نفوذ الحكومة هناك لأن وضعها الاستراتيجي قد ساعد على سد الطريق المائي في وجه السفن النازلة من بحر الجبل وبحر الغزال ونهر سوباط . ومن آثار تأسيس هذه المديرية ان احد التجار الذين تآمروا على تلك البلاد وبسطوا سلطانهم عليها قد نفذ بجلده ، وآثر آخر السلامة والخضوع للسلطات .

على أن لعنة تجارة الرقيق ظلت قائمة . وفي هذه المرة مارسها مدير مديرية البحر الابيض الذي سولت له نفسه ان يحول الارقاء الذين صادرتهم السلطات الى

مصلحته ! فبرهن بذلك على خيانة الأمانة وانطبق عليه القول السائر : « حاميها حراميها » كما أن هذا المدير قد تراخى عندما تناهى الى سمعه أن بعض النهاضة قد سطوا على بلاد الدينكا والشلك . ولذلك امتعض الخديوي من سلوك هذا المدير ، وأرسل خطابا الى الحكمدار ضمنه العقوبة التي توقع عليه . واليك طرف من هذا الخطاب « فبينما الحكومة الغت بيع الرقيق الذي استرد من الاشقياء اذ هو يعيد بيعه لحسابه ، وفي ذلك ما فيه من الاستهتار بأوامر الحكومة ، ومن أجل ذلك يجب ان لا يكتفي بعزله وانما يجب أن يرسل أيضا الى فازوغلي ليعتقل هنا ويستخدم بالاشغال الخسيسة ليكون عبرة للآخرين . أما الرقيق الذي باعه فيجب استرداده واعادته الى أوطانه بالراحة واسكانه فيها ... » (١) .

ولقد نجحت مساعي اسماعيل لدى الباب العالي في الحاق ادارة مصوع وسواكن ببقية السودان عام ١٨٦٥ ثم ضمهما بفرمان سنة ١٨٦٦ ، فأصبح في مقدور الحكومة ان تضبط اعدادا هائلة من الارقاء الذين كانوا في طريقهم الى التصدير لخارج البلاد . بيد ان المهربين ـ وكانوا يروغون كما تروغ الثعالب ـ قد تركوا سواكن ومصوع كمنفذين ، واخذوا يصدرون ضحاياهم من المرافىء الصغيرة بعيدا عن أعين الرقباء وأماكن الخطر .

شيء آخر هو أن الحكمدار موسى حمدي باشا قد رفع جزية الرؤوس العاملة في حقل التجارة بالنيل الأبيض الى ثلاثة أضعاف . مما أثار التجار الاجانب وجعلهم يجأرون بالشكوى ويتهمون هذا الحكمدار بأنه يريد أن يقصيهم عن الانتفاع بالتجارة في ذلك النهر . هذا الضغط جعل التجار الأوربيين والليفانتينيين ينسحبون فيما بعد خلال السنوات التي تلت ذلك تاركين زرائبهم ومحاطهم في الجنوب حيث باعها بعضهم للتجار العرب لعجزهم عن مناقشة الاخيرين وباع آخرون زرائبهم للحكومة على عهد جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ ـ ٧١) ، فدفعت الحكومة فيها بسخاء طلباً للخلاص من شر أولئك السفلة المجرمين الذين استهدفوا الثراء الحرام بأية وسيلة .

على أن نوايا اسماعيل الطيبة ـ فيما يقرر دكتور هولت ـ قد هزمتها ثلاثة عوامل : اولا وجود أصحاب مصالح اقتصادية أقوياء بين مجموعة التجار . ثانيا فقدان الموظفين الامناء الذين يتقاضون مرتبات عالية كي تعصمهم من الرشا وغيرها . ثالثا عدم وجود أي نص قانوني خاص بمستقبل الرقيق بعد ان تصادرهم الحكومة ! كان المفروض ، من ناحية نظرية أن يرجع أولئك الابرياء الى قراهم على حساب النخاسين الذين ساقوهم من مواطنهم وساموهم الخسف . ولكن الارقاء في الواقع كانوا

---

(١) دفتر ٥٥٨ معية تركية وثيقة تربية رقم ٣٣ بتاريخ ٩ ربيع الثاني ١١٨٣ (نقلا عن شبيكة « السودان عبر القرون » ص ١٤٩) .

يؤخذون الى الخرطوم حيث يجند الكثيرون منهم في الجيش . وعلى ذلك فان الادارة نفسها قد غضت الطرف عن وسيلة مقنعة لجلب الارقاء وتجنيدهم (١) .

ان اجتهاد اسماعيل الواضح وعزيمته الصادقة في قمع الرق وتجارة الرقيق لا يماري فيهما أحد . غير ان كل هذه الجهود لم يكن مبعثها الجانب الانساني فحسب ، بل هنالك الدافع السياسي الذي المت اليه في الحديث عن دور محمد سعيد الا وهو ضياع نفوذ الحكومة في المناطق الجنوبية والغربية التي بسط عليها تجار الرقيق سيادتهم . ومن هنا يتضح هذا الحماس الفائض الذي افعم نفس الخديوي . فوضع خططه منذ مارس ١٨٦٥ لتضييق الخناق على النخاسين ؛ وظل يلاحق تنفيذها حتى لا يسرحوا ويمرحوا في البلاد دون رادع . من ذلك الرقابة على تصدير الاسلحة والبارود الى السودان لان تجار الرقيق كانوا يرهبون بها ضحاياهم ويسوقونهم بها سوق السوائم .

وقد اخذ اسماعيل يشتط في طلب التعاون من قناصل الدول الأجنبية في الخرطوم ليتخلوا عن حماية رعاياهم المشتغلين بتجارة الرقيق . وكما قال الدكتور محمد فؤاد شكري : « أصرت الحكومة المصرية على وجوب رفع هذه الحماية اذا اريد النجاح لاية محاولة للقضاء على تجارة الرقيق في الأقاليم السودانية » .

واذا تساءلنا عن السبب الذي مهد لتجار الرقيق ليسيطروا على تلك المناطق التي مارسوا فيها نشاطاتهم الشائنة وهي الجنوب (على جانبي النيل الابيض حتى غندكرو) وبحر الغزال ، وجبال النوبة وجنوبي دارفور ، فالاجابة على ذلك أن الحكومة نفسها هي المسؤولة عن كل ما حدث من عبث وفوضى .. وآية ذلك انها سمحت للتجار باحتكار تجارة العاج في تلك البلاد التي كانت خارجة عن سلطانها . وقد اتخذ هؤلاء من تجارة العاج وسيلة لذر الرماد في العيون ، أو ستارا يخفون وراءه مراميهم الدنيئة . ونسبة لهذا السماح او التنازل من جانب الحكومة فقد ذهب ريحها اذ لم يعد لها أي أثر هنالك .

ومن جهة أخرى فان الشركات التجارية التي منحت حق احتكار العاج قد فرضت سيطرة كاملة على السكان ، واخذت تجبي منهم الضرائب ! ومن أجل ذلك أضحى ضم تلك الأقاليم ، بحسبانها منابع ثرة للرق ، ضرورة ملجئة . فلا عجب اذا بدأت سلسلة فتوح الخديوي اسماعيل في السودان .

قبل أن نبدأ الحديث عن الاقاليم التي ضمتها الحكومة الى بقية السودان ، يجدر بي أن ابين هنا انني سأكتفي بحقائق مقتضبة للغاية أو قل باشارات عن ضم

---

(١) ب.م. هولت .

تلك المديريات ، ذلك لأنني سأفرد لهذه الفتوح الفصل التالي ان شاء الله .

ضم بحر الغزال (١٨٧٣)

اتخذ تجار الرقيق من بحر الغزال مرتعا فعاثوا فيهـا فسادا وتسلطوا على مقدرات الأهلين . وللأسباب التي تقدم ذكرها رأى اسماعيل انه لا مناص من ضم ذلك الاقليم الكبير حتى يبسط سلطانه عليه ويضع حدا لعبث العابثين .

وتنفيذا لرغبة الخديوي فقد عهد الحكمدار جعفر مظهر الى رجل يدعى محمد البلالي بادارة بحر الغزال بمعنى ان يكون ناظرا عليها . ولكن التجار وعلى راسهم الزبير رحمة قد رأوا في البلالي مغتصبا وشبحا يتهدد مصالحهم . فما هي الا ان شنوا عليه حربا حتى قتلوه . وهزموا كتيبته .

على أن الزبير – وكان ذكيا – قد أيقن ان الحكومة لن تتركه وشأنه ، فامتثل لها واظهر الخضوع للخديوي اسماعيل فعينه مديرا على بحر الغزال في ديسمبر ١٨٧٣

فتح دارفور (١٨٧٤)

يرجع فتح دارفور الى أن عربان الرزيقاء في جنوبي ذلك الاقليم قـد قطعوا الطريق بين بحر الغزال ودارفور ، بل تعدوا على حـدود بحر الغزال . ورغم أن الزبير رحمة قد اتفق معهم عام ١٨٦٦ على أن يسمحوا لقوافله تسير عبر اراضيهم بسلام ، الا انهم نكثوا العهد ، ونهبوا قوافله . وقد طالبهم بتعويض كاف ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فلم يجد بدا من حربهم واحتلال مركزهم في قرية شكا . التجأ شيخان من شيوخ الرزيقات الى سلطان دارفور . ولما طالب الزبير بتسليم الشيخين رفض السلطان ذلك . فنشبت الحرب بينهما ، وكان النصر حليف الزبير . وقد دخل الفاشر في ٣ نوفمبر ١٨٧٤ .

وبهذه الصورة أضيفت دارفور الى بقية المديريات بعد أن ظلت مستقلة طيلة هذا الوقت منذ فتح السودان عام ١٨٢١

ضم الإستوائية :

كانت المديرية الاستوائية مسرحا لنشاط تجار الرقيق ولسطرتهم . فاعتزم الخديوي ضمها ليقمع النخاسة ، ويضع حدا للفوضى واضطراب الامن فيها ولينشر المدنية في ربوعها . وفوق ذلك ليبسط سلطانه عليها ويزيد بها رقعة امبراطوريته .

وقد أوكل اسماعيل مهمة ضم مديرية خط الاستواء الى صموئيل بيكر الرحالة والمكتشف الانجليزي . فوصلها في ١٨٧١ وانشأ بهـا محطات عسكرية وحصونا . غير انه لم يستطع أن يقمع الرق فيها لموقف تجـار الرقيق العدائي ضده ولعنفه

وخشونته مع الاهالي هناك .

خلف بيكر على ادارة المديرية الاستوائية غردون عام ١٨٧٤ ، فواصل عملية التوسع وأسس عديد المحطات العسكرية التي امتدت الى قرب البحيرات . ولكنه لم يقمع تجارة الرقيق ويعود سبب فشله – فيما بين غردون – الى فساد الحكام في الخرطوم :

من هنا نعلم أن المديرية الاستوائية قد أضيفت الى بقية مديريات السودان .

شيء آخر هو أن الحكمدار موسى حمدي باشا قد رفع جزية الرؤوس العاملة في حقل التجارة بالنيل الابيض الى ثلاثة أضعاف مما اثار التجار الاجانب وجعلهم يجأرون بالشكوى ويتهمون هذا الحكمدار بانه يريد أن يقصيهم عن الانتفاع بالتجارة في ذلك النهر . هذا الضغط جعل التجار الاوربيين والليفانتينيين ينسحبون فيما بعد خلال السنوات التي تلت ذلك تاركين زرائبهم ومحاطهم في الجنوب حيث باعها بعضهم للتجار العرب لعجزهم عن منافسة الأخيرين . وباع آخرون زرائبهم للحكومة على عهد جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ – ٧١) فدفعت الحكومة فيها بسخاء طلبا للخلاص من شر أولئك السفلة المجرمين الذين استهدفوا الثراء الحرام بأية وسيلة .

بريطانيا وتجارة الرقيق :

أسلفت القول ان بريطانيا بعـد ان صالت وجالت في ميدان تجـارة الرقيق وحملت سفنها أكثر من خمسين بالمائة من الآفارقة الى امريكا وغيرهـا ، وابرمت اتفاقية يوترخت (١٧١٣) واحتكرت الرق لحسابها ، تيقظ الضمير الانساني فيها فألغت الرق وتجارة الرقيق . ومن ثم اخذت تسعى جادة لمحاربة هـذه التجارة في العالم وبصورة خاصة في أفريقيا . ومما يلفت النظر أن بريطانيا التي كانت تنتفع ماديا من هذه التجارة المستهجنة قـد تحمست أخيرا لابطالها ، ودفعت لرعاياها الانجليز – ملاك الرقيق – عشرين مليونا من الجنيهات في نظير تحرير عبيدهم ! هل كان الدافع الانساني كل شيء في هذا الاهتمام البريطاني الملحوظ ؟ للاجابة على هذا يقول الشاطر بصيلي ان الانجليز الذين كانوا يمتلكـون مزارع في المستعمرات قد أخذوا أعدادا كبيرة مـن الزنوج الأرقاء الى بريطانيـا . فخشي الانجليز أن يتم اختلاطهم مع الآرقاء عن طريق الزواج والتناسل فيفقد الدم الانجليزي نقاءه ، وبذا تنحط الحضارة البريطانية ! ان المحاكم البريطانية التي اعتبرت وجود الرقيـق في بريطانيا امرا غير شرعي لم تشر الى الرقيق الذي كان يعمل في الزراعة بالمستعمرات في ما وراء البحار فقد احتفظ البريطانيون بهؤلاء لاستغلالهم كأيد عاملة رخيصة حتى تستطيع منتجاتهم الزراعية ان تنافس المنتجات الاجنبية في أسواق أوربا !

ويستطرد الشاطر بصيلي في تبيين حقيقة بريطانيا فينبئنا انه بعد ان استقلت

الولايات المتحدة عن الامبراطورية البريطانيـة ، اخذت تنافس بريطانيا في التجارة الدولية وفي المجال البحري . ولذلك هدفت بريطانيا من حركتها الانسانية الى تحرير العبيد الموجودين في المزارع الامريكية كيما تقل الايـدي العاملة الرخيصة في قبضة الامريكان، وبذا ترتفع تكاليف الانتاج عندهم وبالتالي يعجزون عن منافسة البريطانيين في الحقل التجاري !!

بريطانيا أيضا لم يعجبها ابحار الاسطول الامريكي الى أفريقيـا لجلب الرقيق وغيره لان في ذلك منافسة للسيادة البريطانية على البحار ـ تلك السيادة التي ظلت بريطانيا تتمتع بها منذ زمن بعيد . وفي الغـاء الرق فرصة لتقليل صولة الاسطول الامريكي على مياه البحار .

هذا ما كان من أمر الحكومة البريطانية التي لبست مسوح الرهبان ، وحاربت الرق وتجارة الرقيق بأسم الانسانية والعدالة . ولكن احقاقا للحق فان بعض الانجليز اعضاء جمعية مكافحة الرق كانـوا مخلصين في مناشدتهم وضغطهم على حكومتهم لتخلص العالم من شرور ذلك الوباء الذي يسمونه الرق .

وفيما يتعلق بمجهودات بريطانيا مع ولاة مصر لابطال تجارة الرقيق فانها قـد بدأت على عهد محمد علـي . واستمرت تطلب الى الـولاة الغاء الرق ، بل اتخذت بريطانيا خطوة ايجابية هي قطع المواصلات بين السودان والحجاز كاجراء لمحاربة النخاسة . فنتج عن ذلك ضرر لحق التجارة بين البلدين . ولما اعتلى اسماعيل باشا الاريكة الخديوية زاد ضغط بريطانيا عليه بشكل ملحوظ لضغط الراي العام البريطاني وبخاصة جمعية مكافحة الرق .

معاهدة الرقيق (١٨٧٧)

قبل ان نتحدث عن معاهدة الرقيق بين انجلترا والخديوي اسماعيل ، يجدر بنا ان نذكر ان سلطان تركيا كان قد أصدر ـ مسبقا وبوحي من انجلترا (١٨٥٤) ـ امرا بمنع الرقيق الابيض ، وفي عام ١٨٥٧ امرا آخر بمنع الرقيق الأسود في أملاكه ومن ضمنها مصر على أساس أن مصر ولاية تركية .

اما عن معاهدة الرقيق فان الخديوي اسماعيـل ـ على ما علمنا ـ كان يحسن الظن بالدول الاوربية ويتودد لها . ولما اهتمت بريطانيا بأمر الرق اخذت تطالب منذ سنة ١٨٧٣ بابرام اتفاقية الرقيق . فما عتم الخديوي ان استجاب لطلبها . ومن ثم ابرمت معاهدة الرقيق بين انجلترا والخديوي اسماعيل في ٤ اغسطس ١٨٧٧ للتعاون على تحريم بيع وشراء الزنوج أو الرقيق السوداني والحبشي في مصر في سبع سنوات ، وفي السودان في مدى اثنتي عشرة سنة .

الواقع ان تحديد وقت لالغاء الرق امر من العسير تحقيقه كاملا ، ومع ذلك فان

الخديوي قد وافق على امضاء هذه المعاهدة . ومرد ذلك الى أسباب وضحها الدكتور محمد فؤاد شكري في كتابة « مصر والسودان » وهي أن اسماعيل باشا كان يقاسي من الازمة المالية التي اجتاحت بلاده ، وكان يتوقع من انجلترا معاونته على مشاكله المالية والتقليل من اشتطاط فرنسا في الضغط علـى مصر لتدفع ما عليها للدائنين الفرنسيين . وقد رمى الخديوي ايضا الى « نجاح مفاوضاته مع الانجليز انفسهم فيما يتعلق باعترافهم بالسيادة المصرية في ساحل البحر الاحمر الغربي والساحل الصومالي ، فقد رضى بابرام معاهدة لالغاء الرقيق مع انجلترا على هذا الاساس » (١)

بعض نصوص معاهدة الرقيق :

(١) « تعد الحكومة المصرية أن تمنع منعا كليا من الان فصاعدا ادخال الارقاء وتفرض اشد العقوبات على المخالفين » . (٢) .

(٢) « تعتبر المتعاملين بالنخاسة أو المشتركين في عملياتها بمنزلة السارقين القاتلين ويحاكم هؤلاء أمام المجالس العسكرية أو المجالس المختصة »

(٣) « تمنع مصر بقدر ما تحت يدها من سيطرة ونفوذ غزوات النهاضة وتعامل من يمارس هذه التجارة من القبائل معاملة القاتلين » .

(٤) « تصدر الحكومة المصرية امرا يرفق مع المعاهدة يحدد بمقتضاه منع الرقيق كلية في ارض مصر والسودان من ابتداء تاريخ معين في الامر . وتوضح العقوبة على من يخالف ذلك » .

(٥) تسمح مصر للسفن البريطانية باجراء التفتيش في مياه البحر الاحمر على المراكب للبحث عن الرقيق ويبين هذا البند طريقة التصرف في هذه الحالات .

نقد معاهدة الرقيق :

تناول المؤرخون معاهدة الرقيق بالنقد فبينوا صعوبة تنفيذها في الوقت المحدد لها . وقد جانبها التوفيق . فهي التي اثارت المواطنين في السودان ، وادت فيما بعد الى اشتعال نيران الثورة المهدية . ويقال ان غردون قد ذكر ان حكومة بريطانيا ارغمت الخديوي على ابرام هذه المعاهدة . وذكر الكلونيل ستيورت في تقرير لحكومته (١٨٨٣) قوله : « من المستحيل ان يتوقع انسان زوال الرق من السودان في عام ١٨٨٩ ؛ اي عند انتهاء فترة الاثنتي عشرة سنة المنصوص عليها في المعاهدة ، وان مشكلة عويصة كمشكلة تجارة الرقيق من المتعذر معالجتها بعقد المعاهدات » (٣) .

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » (١٩٦٣) ص ١٣٢
(٢) الشاطر بصيلي «معالم تاريخ سودان وادي النيل » ص ١٦١
(٣) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » ص ١٣٥

ومما يؤخذ لمعاهدة الرقيق من نقد أيضا انها تضمنت نصوصا تمكن الانجليز من انتهاك سيادة مصر بتفتيش السفن التي يرفرف عليها العلم المصري وضبطها بحجة ممارستها لتجارة الرقيق .

المشكلة في هذه المعاهدة ان تطبيقها سيحتم استعمال العنف وسيجر على الحكم القائم الكراهية والثورة ، وهذا ما حدث بالفعل . فغردون الذي عينه الخديوي اسماعيل حكمدارا للسودان (١٨٧٧ ــ ٧٩) ووكلاؤه من الاوربيين قد اشتطوا في الضغط على المواطنين ، وبصورة خاصة على تجار الرقيق . وقد بلغت بهم القسوة ان اخذوا بعض الناس بالشبهات واعدموهم قبل ان تثبت عليهم ادانة . واعترف غردون نفسه بانه اقام حكومة ارهابية فقال : « قبضنا على اثنتي عشرة قافلة رقيق في مدة شهرين . » وقال : « اني أوجه ضربة قاصمة لتجار الرقيق وقد اقمت ما يشبه الحكومة الارهابية في معاملة هذه التجار » (١) . كما كان يصدر أحكامه بالاعدام رميا بالرصاص على من يشتبه فيهم بممارسة النخاسة .

وهناك صورة أخرى رسمها السير آرشر عن عسف غردون في محاربة تجارة الرقيق حيث يقول : « ان غردون عندما كان يعجز عن معاقبة تجار الرقيق بالقتل رميا بالرصاص فانه كان يضربهم بالسياط ، ويصادر جميع ممتلكاتهم ، وينزع عنهم ملابسهم حتى يسيروا كما كان آدم يمشي عريان لا يستره شيء » (٢) . ولعمري تلك معاملة تأباها المروءة والاخلاق ! وفي هذا الصدد يقرر ميخائيل شاروبيم صاحب « الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث » أن غردون قد سلك « مسلكا نفر منه القلوب وحرك في صدور الاهالي كامن الحقد عليه » .

ومهما يكن من شيء فان غردون لم يطل به المقام في وظيفته كحكمدار للسودان لان الدول الاجنبية قد تدخلت في شؤون مصر السياسية وتم عزل الخديوي اسماعيل في يونيو ١٨٧٩ . فما كان من غردون الا ان قدم استقالته من منصبه في أواخر ذلك العام فقبلت .

وهكذا غادر غردون السودان تاركا الحكم لمعاونيه من الاوربيين بعد أن حرر كثيرا من الارقاء ، وانما داليهم كرامتهم السليبة وانسانيتهم المهدرة بقوة الحديد والنار . ولكن كان ذلك على حساب مستقبل الحكم المصري في السودان . بيد أن تجارة الرقيق ما زالت تمارس في الخفاء وان تقلص نفوذ التجار كثيرا جدا خشية البطش والتهلكة .

---

(١) الن « غردون في السودان » ص ١٤٠ (نقلا عن الشاطر بصيلي ص ١٦٤)

(٢) آرشر « الحرب في السودان ومصر » (نقلا عن ضرار صالح ضرار « تاريخ السودان الحديث » ص ١٠٠) .

ان جبروت غردون في قمع تجارة الرقيق لم يطهر البلاد من كل ارجاس الرق . وفي ذلك يقول المسيو دايل في مقدمة رسائل غردون الى اخته : « عهد الخديوي اسماعيل الى الكولونيل غردون مطاردة تجارة الرقيق في السودان ولكن المجهودات العنيفة التي بذلها ذلك الضابط الانجليزي لم يكن لها من نتيجة عملية سوى اثارة الطبقة التي كانت مصر تعتمد عليها في السودان » (١) .

ومن تحصيل الحاصل أن نبين أن أنفس المواطنين قد تهيأت للثورة بسبب البغضاء والكراهية للحكومة ، ولم يبق الا ظهور المنقذ . وما ثورة سليمان الزبير (١٨٧٩) وغيرها من الثورات التي قامت في هذه الحقبة والتي قمعها غردون بمضاء السلاح ، الا تعبير عما يجيش بالنفوس من غل ، وهي ارهاصات الى ان الثورة الكبرى التي تنتظم البلاد باتت وشيكة النشوب .

تجارة الرقيق بعد عام ١٨٧٩ م

خلف غردون على منصب الحكمدار في السودان محمد رؤوف باشا في ٢٧ مارس ١٨٨٠ . وعلى عهده ظهرت تباشير الثورة المهدية الظافرة التي خلصت البلاد من شرور الحكم الاجنبي .

على ان عزل اسماعيل (يونيو ١٨٧٩) واستقالة غردون من منصبه ، كان لهما اثر في مجرى الاحداث في السودان ، بمعنى أن تجارة الرقيق قد أطلت برأسها الكريه من جديد ، وبشكل سافر ، اذ حدث رد فعل عنيف في الدوائر التجارية التي كانت تمارس عملية الاسترقاق والنخاسة . وفي هذا يقول الدكتور محمد فؤاد شكري :

« ان النخاسين وتجار الرقيق ما لبثوا أن استعادوا الثقة في أنفسهم ، فرجعوا الى أوكارهم في بحر الغزال ودارفور واستأنف البقارة في كردفان غزواتهم لصيد الزنوج . ثم انه لم تمض شهور قليلة حتى كانت قوافل الرقيق تسير في دروبها القديمة من دارفور وبحر الغزال الى مصر والسودان الشرقي ، وحتى كانت مراكب الجلابين في النيل الابيض تحمل الرقيق من مناطق النيل العليا وتفرغ شحناتها عند فشودة ، وهي المحطة التي كانت في السنوات السابقة مركزا للمراقبة على النهر لتعطيل نشاط تجار الرقيق وتفتيش سفنهم الآتية من مديرية خط الاستواء ، وحتى صار الموظفون والمديرون السودانيون الذين الحقهم غردون بخدمة الحكومة بين عامي ١٨٧٧ ــ ١٨٧٩ في بحر الغزال ودارفور وكردفان وفشودة يتجرون الان في الرقيق علانية ودون خوف أو وجل » .

ومن ناحية أخرى فان هذه الفورة المفاجئة ــ فورة تجارة الرقيق او قل هذه النكسة كان لها ابعاد اخرى وهي ان نفوذ الحكومة قد هدد مرة اخرى في مواطن الرق

---

(١) عبد الرحمن الرافعي بك « عصر اسماعيل » ص ١٢٨

القديمة . وفيما ذكرنا آنفا ان من بين أهداف الخديوي اسماعيل في الفتوح ومشاريع التوسع بسط نفوذ الحكومة على تلك المناطق التي كانت مسرحا لنشاط النخاسين . هذه هي المشكلة التي جابهت الحكومة .

والان ما هو موقف الانجليز الذين انفقوا الاموال الطائلة وبذلوا الجهود الجبارة لابطال الرق ، من تجارة الرقيق في السودان بعد ان عادت الى ما كانت عليه في السابق ؟ الواقع ان الانجليز ظلوا على اصرارهم لتنفيذ معاهدة الرقيق بحذافيرها . ولقد سارع القنصل البريطاني العام في مصر — ادورد مالت — ونقل الى الخديوي محمد توفيق اهتمام حكومته بالغاء الرق والنخاسة في السودان . وتوفيق كما نعلم ، كان ضعيفا أسلم قياده للاجانب في مصر لكيلا يلاقي مصير والده اسماعيل الذي عزلوه من منصب الخديوية . فما عتم أن استجاب لرغبة مالت ، وبعث بأوامره الى حكمدار السودان محمد رؤوف في ١٥ مارس ١٨٨٠ ليبذل قصارى جهده ويواصل سياسة قمع تجارة الرقيق في السودان بشتى الوسائل. فصدع محمد رؤوف بالامر وسار على درب غردون في معالجة هذا الامر من حيث الشدة والقسوة .

مما يذكر ان محمد رؤوف باشا قد استبقى الموظفين الاوربيين في مناصبهم — أولئك الذين عينهم غردون رغم انهم كانوا بغيضين لدى السودانيين . وعلى ما هو معلوم فان اولئك الاوربيين كانوا في نظر المواطنين كفارا يشنون حربا مسيحية ضد الاسلام . ولم يكتف رؤوف بابقاء هؤلاء الاجانب في وظائفهم ، بل أمرهم ان يقوموا بخطوات عنيفة للضرب على أيدي تجار الرقيق . ثم خطا خطوة اخرى وهي انه سد طريق القوافل بين دارفور ومصر — ذلك الذي فتحه تجار الرقيق بعد ذهاب غردون . وكانت الاحكام ضد النخاسين عسكرية تصل أحيانا الاعدام لمجرد شبهة أو للظن بأن المتهم نخاس .

على ان هذه الضغوط الحكومية لقمع الرق لم تجد كثيرا لان رد الفعل كان أقوى مما كانت الحكومة تتصور . فلا عجب اذا هاجم المتحمسون من الانجليز سياسة رؤوف باشا ، ونعتوها بالضعف والتهاون فيما يختص بتجارة الرقيق .ونظرا لضغط البريطانيين على حكومة الخديوي ارسل الاخير اوامر مشددة للحكمدار بالسودان ليضاعف جهوده لمنع تلك التجارة المشينة . فلم يملك رؤف الا ان يضع تلك الاوامر موضع التنفيذ .

ان محمد رؤوف ، فيما وصفه المؤرخون ، لم يتميز بسعة الافق والاقتدار ، ولم يكن في طوقه ان يتصرف على خلاف ما يؤمر به . وحكومة القاهرة ، على ما نعلم في تلك الحقبة ، كانت تعاني من التدخل الاجنبي . فلا مناص من أن تنفذ معاهدة الرقيق على أمل ان تنال رضا الاجانب وعلى الخصوص الانجليز . ومع ذلك فان الرق ظل ممارسا ، ولكن بدرجة اقل . ولقد ازداد سخط المواطنين وزادت خطورة

سخطهم مع الايام . يقول الدكتور شكري : وأما نتيجة الامعان في سياسة الالغاء العنيفة هذه فكانت انتشار التذمر والسخط ليس بين تجار الرقيق وحدهم فقط ، بل سواد الشعب . الامر الذي جعل هذا التذمر والسخط عظيم الخطر على النظام القائم ، لان الاهلين وتجار الرقيق صارت تجمع بينهم الآن رغبة واحدة ، هي طرد المصريين من السودان » (١) .

خاتمة :

قصارى القول ان ولاة مصر : محمد علي ومحمد سعيد قد أسهما بنصيب معقول في محاربة تجارة الرقيق في السودان . أما الخديوي اسماعيل فقد جهد جهد طاقته وامكانياته لالغاء الرق وتجارة الرقيق في السودان . وخليق بالتاريخ أن يبذل للخديوي اسماعيل ما لديه من ثناء على ما أسداه للانسانية من عمل جليل في هذا الميدان . بيد ان مجهودات الخديوي وان أدت الى تقلص تجارة الرقيق الى مدى بعيد ، الا انها لم تجتث تلك اللعنة من جذورها . وآية ذلك ان الرق قد تأصل في أعماق المجتمع السوداني لانه كان عماد الاقتصاد القومي ، وكان ضرورة لا محيد عنها في ذلك الوقت . والمسألة برمتها كانت بحاجة الى اعمال الفكر والتروي والتعمق في معرفة البيئة السودانية ، فتجار الرقيق والطبقة المتوسطة عامة وزعماء السودان كل اولئك قد درجوا على استخدام الارقاء . بل ان اقتناء الرقيق كان مما يجعل للفرد وزنا في المجتمع ! يقول الدكتور مكي شبيكة في هذا : « صار الرجل من الجعليين والدناقلة لا يشاد بذكره الا اذا ترك فلاحة الارض والتحق بكبانيات بحر الغزال واقتنى المال والرقيق وغامر وخاطر من أجلهما . » (٢) وفضلا عن ذلك فثمة معوقات حالت دون محو الاسترقاق من المجتمع السوداني محوا تاما من ذلك اتساع رقعة السودان مع صعوبة المواصلات وعدم تعاون المسؤولين والموظفين الذين كانوا محافظين ، ولم يؤمنوا بمبدأ الغاء الرق من حيث هو ، وبالتالي لم يتجاوبوا مع مشاعر اسماعيل . فما من عجب اذا تقبل بعضهم الرشا ، وترك للنخاسين الحبل على الغارب . وحتى من كان منهم عفا طاهر الذيل قد أعوزه الحماس لمحاربة تجارة الرقيق . فلا جرم بقيت جريرة الرق في مجتمعنا الى أن قيض الله له الخلاص منها . والله تعالى فعال لما يريد .

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » ص ٢٥٩

(٢) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ١٣٨ — ١٣٩

الفصل السادس

توسع النفوذ التركي المصري

(١٨٦٣ – ١٨٨٠)

استطاع الخديوي اسماعيل – بما أوتي من زكانة وطموح – أن يشيد له امبراطورية افريقية شاسعة مترامية الأطراف في المدة التي قضاها على الأريكة الخديوية ما بين ١٨٦٣ – ١٨٧٩ . فبادىء ذي بدء حسن علاقاته بالدول الاخرى لكيلا تقف في طريقه نحو دنيا التوسع . ولقد أعلنها سياسة صريحة وهي أنه انما هدف من امتداد دولته الى الكشف الجغرافي ومحاربة الاسترقاق وتجفيف منابع الرق والنخاسة في منابعها الاصلية . وبرفع هذين الشعارين البراقين أخفى اسماعيل أكثر مما أظهر للعالم ! وعلى هذا لم يفطن أحد الى مراميه البعيدة ومطامحه في تأسيس امبراطورية ضخمة الا مؤخرا . وفضلا عن ذلك فثمة غرض من اغراض الفتوح اشار اليه الدكتور محمد فؤاد شكري في كتابه « مصر والسودان » وفحواه أن عدة مناطق في حوض النيل الأبيض والنيل الأعلى قد خرجت – عند وفاة محمد سعيد باشا في يناير ١٨٦٣ – عن نفوذ حكمدارية الخرطوم بسبب تدخل الأجانب في السودان ونشاطات النخاسين من الأجانب والوطنيين ومن أجل ذلك أضحى لزاما استرجاع سلطة الباشوية في السودان بتدعيم حكومة الخرطوم وضم المناطق الجنوبية وغيرها . ومن هنا يأتي اندفاع اسماعيل الشديد نحو اعداد العدة والعتاد لعمليات الامتداد .

على أن مسألة التوسع برمتها – في راي المؤرخ المصري محمد رفعت – كانت طفرة في الظلام وما لبث الدول أن افاقت من سباتها فرأت أن تقدم الخديوي كاد يقضي على نفوذها في افريقية فرفعت أصبعها مهددة وانذرت اسماعيل فلم يسعه الا الوقوف . وبعد ذلك انهار تدريجيا ذلك البناء الضخم الذي اقامته مصر بجهودها ودماء ابنائها (١) .

حقا أن مصر قد ضحت بالنفس والنفيس من أجل التوسع في وادي النيل الاعلى وغيره لصيانته من كل خطر أجنبي . فلا غرو فالنيل مصدر الخيرات لها وهو ضرورة ملحة لبقائها . وكل ما يمس النيل من خطر اجنبي يتهدد تلقائيا حياة المصريين . وكما يقرر رودلف سلاطين : « فان كل خطوة تخطوها دولة اخرى نحو النيل ينظر اليها بعين الفزع من كل من يقدر خطر السيطرة الأجنبية على ذلك النهر العظيم وما تجره من تضحية سعادة مصر وتقدمها وتعريضها لأعظم المضار » (٢) .

---

(١) محمد رفعت « تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة » (١٩٢٧) ج ٢ ص ٧٢

(٢) رودلف سلاطين « السيف والنار في السودان » النسخة الفرنسية ج ٢ ص ١٨٤

توسع الحكم التركي – المصري في وادي النيل

احتلال فشودة (١٨٦٥)

في حديثي عن تجارة الرقيق (الفصل الخامس) حاولت ان اوضح المجهودات التي قام بها الخديوي اسماعيل لابطال تجارة الرقيق المعيبة . ومن ذلك أوامره المشددة للحكمدار ليوقع عقوبات صارمة على الموظفين الذين يتعاونون مع ، أو يتسترون على أعمال النخاسين . وأن استيراد الاسلحة النارية قد وضعت عليه قيود لكيلا يستغل استغلالا سيئا في اقتناص الزنوج . وان محطات حربية قد انشئت في كاكا وفشودة لتقوم منها البواخر الحكومية بدوريات لقبض وتفتيش المراكب التجارية ومصادرة ما فيها من ارقاء ، وما الى ذلك من الخطوات التي اتخذت في هذا الشأن . غير ان كلا أولئك لم يكن كافيا لأن النخاسين قد عرفوا كيف يواصلون أعمالهم الكريهة بسبب بعدهم عن نفوذ الحكومة ، ولأنهم كانوا على علم تام بطبيعة المناطق الجنوبية وجغرافيتها ، فلم يجدوا مشكلة في اكتشاف طرق جديدة تبعدهم عن مراقبة الحكومة . بالاضافة الى ذلك فان كثيرا من الموظفين كانوا يقبلون الرشا مما سهل على النخاسين مواصلة نشاطاتهم .

هذه الأمور قد قادت الحكومة لترفع فشودة عام ١٨٦٥ الى مديرية سمتها مديرية البحر الأبيض وجعلت عاصمتها فشودة . وتذكر بعض المراجع ان المديرية اطلق عليها مديرية فشودة . وقد المحت آنفا الى موقعها الاستراتيجي . وبهذا الاجراء اضحى في مقدور الحكومة أن تقف في وجه النخاسين العاملين ببحر الغزال وخط الاستواء .

ولما كانت الزرائب معاقل وحصونا لحفظ الارقاء بعد اقتناصهم ، فقد فرض الحكمدار جعفر باشا الضرائب على هذه الزرائب . وفيما يذكر نعوم شقير فان هذه الزرائب قد احتكرها السيد احمد العقاد شريك السيد موسى العقاد من الحكومة بخمسة الاف جنيه في العام ، على الا يتجر بالرقيق ولا يغزو بلاد العبيد . ومع ذلك لم يزل رجاله يتجرون بالرقيق ويغزون الزنوج وأصبحت بلاد خط الاستواء وبحر الغزال فوضى واهلها بغاية الضيق والشدة . (١) ومن اجل ذلك وصلت الحكومة الى نتيجة منطقية الا وهي أنه لا محيص من أن تضم منابع الرق وعلى راسها بحر الغزال وخط الاستواء والا فان محاولاتها ستذهب ادراج الرياح .

ضم خط الاستواء

صموئيل بيكر (١٨٦٩ – ١٨٧٣)

الحديث عن المديرية الاستوائية يقودنا بالضرورة الى التحدث عن السير

---

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٥٥٨

صموئيل بيكر الرحالة الانجليزي الشهير الذي اكتشف بحيرة البرت (سماها باسم زوج ملكة انجلترا آنذاك) في مارس ١٨٦٤ ، وهي بالطبع احدى منابع النيل . وتشير المراجع الى ان بيكر قدجاء الى مصر في صحبة الامير ادوارد وليعهد انجلترا لحضور حفلات افتتاح قناة السويس فاهتبل ادوارد الفرصة وطلب الى الخديوي ان يوكل الى صموئيل بيكر مهمة القضاء على تجارة الرقيق في السودان بالنيابة عن الحكومة المصرية . وسرعان ما قبل الخديوي هذا الطلب لأنه كان يثق في الأوروبيين اولاً ، ويرمي الى كسب مودة بريطانيا ثانيا كما اسلفت في الفصل السابق .

ولقد علق بعض المؤرخين على تعيين بيكر لهذه المهمة فذكروا ان بيكر لم يات الى السودان ويتغرب في تلك الاصقاع النائية بدافع انساني بحت ، ولكن الحكومة الانجليزية إرادت أن تهيىء الجو لتستعمر وادي النيل في وقت لاحق . وفي هـذا الصدد يقول عبد الرحمن الرافعي بك : « ان انجلترا بعد انفاذ مشروع قناة السويس اخذت تتطلع الى احتلال مصر ، ترمق املاكها في السودان ، وتعمل على استصلاح احواله ، والتدخل في شؤونه ، لكي تخلف مصر يوما ما فيه ، وما ارسالها السير صموئيل بيكر، ثم الكلونيل غردون من بعده، الا تمهيدا لهذه الغاية الاستعمارية»(١)

تم تعيين بيكر في ابريل ١٨٦٩ ليقوم بحملة يضم فيها لمصر كل البلاد الواقعة في حوض النيل . وفي رواية أخرى البلاد التي تقع جنوب غندكرو حتى البحيرات العظمى في اواسط افريقيا ، وليقمع تجارة الرقيق ، وينظم التجارة المشروعة فيها ، وينشيء سلسلة من المحاط الحربية المسلحة بهدف حماية المصالح المزمع تحقيقها هناك ويفتح البحيرات العظمى للملاحة ويضع السفن المصرية في بحيرتي فكتوريا والبرت وينشط الزراعة .

اعطى بيكر راتبا كبيرا (راتب امير) مقداره عشرة الف جنيها في العام ، وتوجب عليه ان يخلق من عدم مديرية جديدة هي خط الاستواء ويكون عليها حاكما لمدة اربع سنوات . وقد زود بست بواخر نيلية وثلاثين مركبا وكتيبة قوامها الف وسبعمائة عسكري .

يقول الدكتور هولت لو كانت القوة الجسمية ، وقوة الشخصية تكفيان لانجاز تلك المهمة فان بيكر كان نعم الاختيار . بيد أن بيكر كـانت تعوزه صفات الاداري المهول . وانكى من ذلك انه لم يكن مدركا لحساسية موقفه ، فهو انجليزي مسيحي في خدمة حاكم مسلم . وكانت بعثته هذه بغيضة للغاية لدى تجار الرقيق والمنتفعين بالنخاسة من الاداريين ورجالات الجيش والمجتمع السوداني ككل (٢) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي بك « عصر اسماعيل » ج ١ ص ١٠٨ – ١٠٩
(٢) ب . م . هولت ص ٦٦

وصف رتشرد هل السير صموئيل بيكر في قوله ان بيكر كان يتمتع بطاقة فائضة وخشونة جسمية ، ولكن كانت تنقصه بعض الصفات الدقيقة التي تخلق من الاداري في افريقيا شخصية ناجحة . ويعود ذلك الـى افتقاره الى اللباقة ، وروح التوفيق . وقد تنبه الحكمدار جعفر باشا مظهرا الى حقيقة أفضى بها الى والي مصر وهي انه لا يرى مبررا او حكمة في اسناد أمر تلك البعثة الى رجل اجنبي .

غادر اسطول بيكر الخرطوم (٨ فبراير ١٨٧٠) ، وبدأ بانشاء محطة قـرب ملتقى نهر سوباط بالنيل الابيض سماها التوفيقية (نسبة لتوفيق ولي عهد مصر) وفتح طريقا في بحر الزراف . ومن ثم سار الى غندكرو فوصلهـا في ١٥ ابريـل ١٨٧١ ، ورفع عليها العلم المصري وقد اطلق عليها الاسماعيلية ، واعتبرها عاصمة المديرية الاستوائية . وهناك بدات عيوب بيكر تطفو على السطح حيث ارتكب خطأين شنيعين هما انه تشاجر اولا مع شيخ احمد العقاد الذي اشترى (١٨٦٨) تصريحا مكنه من احتكار التجارة في مساحة قدرت بحوالي تسعة الف كيلو متر مربع في جنوبي غندكرو شريطة أن يدفع للحكومة ثلاثة الاف من الجنيهات في العام . هذا العقاد اصبح له نفوذ على النيل الابيض بعد مغادرة تجار الرقيق الاجانب للسودان، وهو صاحب امتياز الاتجار بالعاج . وفيما تقـول الرواية ان العقاد ارسل ابـن اخته وصهره ليتفاوض مع بيكر بشأن تجارة العقاد ، فحدث بينهما خلاف . وكان واضحا منذ البداية أن اي شجار مع العقاد سيؤدي عاجلا او آجلا الى متـاعب لبيكر وموظفي الحكومة . ولان تجارة العاج كانت تكلف مصروفات كثيرة ، فقـد لجأ العقاد الى الاتجار بالرقيق ليستعيض بذلك عن خسارته .

الخطأ الثاني الذي ارتكبه بيكر هو انه اصطدم بقبائل الباري التي اخذ أبقارها عنوة لاطعام جنده ! وحارب أيضا قبائل الشير والبلينيان وغيرها . كل أولئك قد ناصبوا بيكر العداء ، وقطعوا عنه المؤنة بتحريض من تجار الرقيق وبخاصة ابي السعود لان هؤلاء كانوا يرومون استمرار احتكارهم التجارة وسيطرتهم علـى الأهلين .

واصل بيكر مسيرته من غندكرو نحو الجنوب في ٢٣ يناير ١٨٧٢ ، فأسس نقطة في الابراهيمية على بحر الجبل قرب الجبل الدفلاي . ثم انشأ نقطة في فاتيكو واخرى في فويره . وبعد ذلك استمر في سيره نحو بلاد اونيورو (متاخمة لبحيرة البرت ـ انظر الخريطة) حيث خلع ملكها كابريقة الذي رفض الخضوع لبيكر ، وتوج منافسا له (ريونجا) على العرش . وفي ١٤ مايو ١٨٧٢ اعلن بيكر ضم بلاد اونيورو الـى الحكومة المصرية ، واسس في عاصمتها ما سندي نقطة عسكرية . غير ان كابريقة قد حاول ان ينتقم لنفسه فهاجم تلك الحامية . وهي وان انتصرت عليه الا انها انسحبت من ماسندي الى شاطيء نيل فكتوريا .

بالاضافة الى ما تقدم فان بيكر قد اقام علاقات ودية مع امتيسى ملك بوغندة. وبهذا ضمن ولاء هذا الملك لمصر . ومن ثم تدرج الى بسط نفوذ الحكومة المصرية حتى بحيرة فكتوريا . ليس ذلك فحسب بل بفضل ولاء امنيسى لمصر انفتحت الطريق بين اعالي النيل وزنجبار وعلى شاطىء المحيط الهندي » .(١)

رجع بيكر ومعاونوه الى فاتيكو حيث خاضوا معركة ضد رجالات ابي السعود. ثم لاقوا مصاعب جمة من تجار الرقيق . واخيرا وصلوا غندكرو في ابريل ١٨٧٣ اذ انتهت مدة خدمة بيكر على خط الاستواء فسلم القيادة الى محمد رؤف بك وتحرك (٢٦ مايو ١٨٧٣) نحو الخرطوم ومنها الى مصر حيث استعفى .

هذه البعثة التى قام بها بيكر قد كلفت الدولة المصرية ٨٠٠,٠٠٠ جنيه (ثمانمائة الف من الجنيهات) وهذا بلا شك مبلغ ضخم اذا ما أخذنا في الاعتبار الضيق المالي الذي كانت تعاني منه مصر . وكما يقرر رتشرد هل فان هذه البعثة كانت بالنسبة لمصر فشلا غاليا ، بمعنى ان اسرافا قد حدث فيها . فأشار اليه الخديوي في بعض أحاديثه عنها . ومما يسجل هنا أن بيكر قد حرف الاوامر التي أعطيت له اذ ركز همه على قمع تجارة الرقيق على حساب الاغراض للحملة . ان قسوة بيكر وعنفه مع قبائل الباري وبنيورو ولوقنده وغيرها ، لتصوران اتجاه الغازي اكثر من اعمال الاداري . وكان السخط الذي اثاره في نفوس اهالي المناطق التي جابها أثر كبير في كراهيتهم للحكومة المصرية . فلا غرو فقد احتمى الناس هناك بتجار الرقيق ! بل اخذوا يتربصون الدوائر بموظفي الحكومة للقضاء عليهم ، الامر الذي زاد من مشاكل خلفه غردون .(٢)

خلاصة القول فان حملة بيكر لم تخدم غرضها بالصورة التي كانت متوقعة ، اذ لم يقض على تجارة الرقيق ، ولم يوسع نفوذ المصريين وفق الخطة المرسومة وحتى في المحاط القليلة التي انشأها كان نفوذ الحكومة مقصورا على ما حولها من مساحة ضيقة . وفضلا عن ذلك فقد خسرت الحكومة ثقة الاهلين .

تعيين غردون مديرا لخط الاستواء (١٨٧٤ — ١٨٧٦)

من الواضح البين أن حملة صموئيل بيكر لم تكلل بالنجاح وبالتالي لم ترض مطامح اسماعيل التوسعية . وما دام الخديوي قد طمح بنظره الى بسط نفوذه على وادي النيل حتى منبعه ، الى جانب اغراضه الاخرى ، فلا محيد من ان يواصل شخص آخر ما بداه بيكر . فوقع اختيار اسماعيل على الكلونيل شارلس جورج غردون عام ١٨٧٤ . ولقد تباينت الاراء حول هذا الاختيار ؛ فالمؤرخون المصريون

(١) عبد الرحمن الرافعي « عصر اسماعيل » ج ١ ص ١١٤
(٢) رتشرد هل « مصر في السودان »

يذهبون الى القول بأن الحكومة الانجليزية هي التي أوعزت الى الخديوي ليختار غردون خلفا لبيكر . كتب نعوم شقير عن هذا الموضوع فقال :

« بعد استعفاء باكر باشا من خط الاستواء أوصى ولي عهد انكلترا اسماعيل باشا بأن يكون الكلونيل غردون في مكانه وكان اسماعيل باشا يود بقاء تلك البلاد لمصر فأمر بتعيينه » . (١) ويقرر عبدالرحمن الرافعي بك ان تعيين غردون لم يتم بمحض الصدفة بل كان للساسة الانجليز ضلع كبير في ذلك ، بدليل ان ولي عهد انجلترا هو الذي اشار على الخديوي باسناد هذا المنصب الى غردون . ويمضي الرافعي ليقول : « فالسياسة الانجليزية كانت تنفذ خطتها من التمهيد للتدخل في شؤون السودان ، واختارت بداءة ، ذي بدء منطقة خط الاستواء لانها المنطقة التي جعلتها المرحلة الاولى لبرنامجها . اذ فيها منابع النيل فهي مفتاح السودان من جهة الجنوب ، كما انها مصدر الحياة لمصر » . (٢)

اما الدكتور مكي شبيكة فانه يرى أن الحكومة المصرية هي التي سعت لتعيين ضابط انجليزي فالتقت عن طريق الصدفة بغردون حينما طلب نوبار باشا — وزير الخديوي — من ضابط انجليزي في السفارة الانجليزية بالآستانة ليدله على انجليزي يخلف بيكر على حكم خط الاستواء . وما كان هذا الضابط غير غردون الذي خدم في حرب القرم وفي الصين . والان أتى في مهمة مندوب انجليزي في لجنة دولية تشرف على الملاحة في نهر الدانوب . وبعد أيام كتب غردون لنوبار باشا بانه يقبل الخدمة بدلا عن بيكر اذا وافقت حكومته . فسعت الحكومة المصرية لدى حكومة هوايت هول وتم الامر ودخل غردون في عقد مع حكومة الجناب العالي . (٣)

ومهما يكن من امر هذا التعيين وما انطوى عليه ، فان غردون قد قبل العمل في خط الاستواء براتب مقداره الفان من الجنيهات ، مما أدهش الجميع ، واكسبه تقدير وثقة الخديوي . وقد خوله اسماعيل سلطات واسعة (بايعاز من بريطانيا ليكون مستقلا في عمله) على كل البلاد التي تقع جنوب فشودة ليعمل على استتباب الامن والسلام في ربوع الاستوائية . وليمنع بالطبع تجارة الرقيق ، وينظم التجارة ، ويفتح الاقاليم الجنوبية والبحيرات العظيمة للملاحة ، وليربط تلك المناطق بمحطات عسكرية مسلحة لبسط نفوذ الحكومة المصرية . ولقد تم ذلك بموجب فرمان أصدره الخديوي بتاريخ ١٩ فبراير ١٨٧٤ جاء فيه انه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والاهلية قد عيناكم مأمورا على جهات خط الاستواء التابعة للحكومة وصار فرز

(١) نعوم شقير (جغرافية وتاريخ السودان) (١٩٦٧) ص ٥٦٢
(٢) عبدالرحمن الرافعي بك (عصر اسماعيل) ج ١ ص ١١٧
(٣) الدكتور مكي شبيكة (السودان عبر القرون) (١٩٦٦) ص ١٧٣

بالاضافة الى ما تقدم فان بيكر قد اقام علاقات ودية مع امتيسي ملك بوغندة. وبهذا ضمن ولاء هذا الملك لمصر . ومن ثم تدرج الى بسط نفوذ الحكومة المصرية حتى بحيرة فكتوريا . ليس ذلك فحسب بل بفضل ولاء امنيسى لمصر انفتحت الطريق بين اعالي النيل وزنجبار وعلى شاطىء المحيط الهندي » .(١)

رجع بيكر ومعاونوه الى فاتيكو حيث خاضوا معركة ضد رجالات ابي السعود. ثم لاقوا مصاعب جمة من تجار الرقيق . وأخيرا وصلوا غندكرو في ابريل ١٨٧٣ اذ انتهت مدة خدمة بيكر على خط الاستواء فسلم القيادة الى محمد رؤف بك وتحرك (٢٦ مايو ١٨٧٣) نحو الخرطوم ومنها الى مصر حيث استعفى .

هذه البعثة التى قام بها بيكر قد كلفت الدولة المصرية ٨٠٠٠٠٠ جنيه (ثمانمائة الف من الجنيهات) وهذا بلا شك مبلغ ضخم اذا ما أخذنا في الاعتبار الضيق المالي الذي كانت تعاني منه مصر . وكما يقرر رتشرد هل فان هذه البعثة كانت بالنسبة لمصر فشلا غاليا ، بمعنى ان اسرافا قد حدث فيها . فأشار اليه الخديوي في بعض أحاديثه عنها . ومما يسجل هنا أن بيكر قد حرف الاوامر التي أعطيت له اذ ركز همه على قمع تجارة الرقيق على حساب الاغراض للحملة . ان قسوة بيكر وعنفه مع قبائل الباري وبنيورو ولوقنده وغيرها ، لتصوران اتجاه الغازي اكثر من اعمال الاداري . وكان السخط الذي اثاره في نفوس اهالي المناطق التي جابها أثر كبير في كراهيتهم للحكومة المصرية . فلا غرو فقد احتمى الناس هناك بتجار الرقيق ! بل اخذوا يتربصون الدوائر بموظفي الحكومة للقضاء عليهم ، الامر الذي زاد من مشاكل خلفه غردون .(٢)

خلاصة القول فان حملة بيكر لم تخدم غرضها بالصورة التي كانت متوقعة، اذ لم يقض على تجارة الرقيق ، ولم يوسع نفوذ المصريين وفق الخطة المرسومة وحتى في المحاط القليلة التي انشأها كان نفوذ الحكومة مقصورا على ما حولها من مساحة ضيقة . وفضلا عن ذلك فقد خسرت الحكومة ثقة الاهلين .

تعيين غردون مديرا لخط الاستواء (١٨٧٤ – ١٨٧٦)

من الواضح البين أن حملة صموئيل بيكر لم تكلل بالنجاح وبالتالي لم ترض مطامح اسماعيل التوسعية . وما دام الخديوي قد طمح بنظره الى بسط نفوذه على وادي النيل حتى منبعه ، الى جانب اغراضه الاخرى ، فلا محيد من ان يواصل شخص آخر ما بداه بيكر . فوقع اختيار اسماعيل على الكلونيل شارلس جورج غردون عام ١٨٧٤ . ولقد تباينت الاراء حول هذا الاختيار ؛ فالمؤرخون المصريون

(١) عبد الرحمن الرافعي « عصر اسماعيل » جـ ١ ص ١١٤
(٢) رتشرد هل « مصر في السودان »

يذهبون الى القول بأن الحكومة الانجليزية هي التي أوعزت الى الخديوي ليختار غردون خلفا لبيكر . كتب نعوم شقير عن هذا الموضوع فقال :

« بعد استعفاء باكر باشا من خط الاستواء أوصى ولي عهد انكلترا اسماعيل باشا بأن يكون الكولونيل غردون في مكانه وكان اسماعيل باشا يود بقاء تلك البلاد لمصر فأمر بتعيينه » . (١) ويقرر عبدالرحمن الرافعي بك ان تعيين غردون لم يتم بمحض الصدفة بل كان للساسة الانجليز ضلع كبير في ذلك ، بدليل ان ولي عهد انجلترا هو الذي اشار على الخديوي باسناد هذا المنصب الى غردون . ويمضي الرافعي ليقول : « فالسياسة الانجليزية كانت تنفذ خطتها من التمهيد للتدخل في شؤون السودان ، واختارت بداءة ، ذي بدء منطقة خط الاستواء لانها المنطقة التي جعلتها المرحلة الاولى لبرنامجها . اذ فيها منابع النيل فهي مفتاح السودان من جهة الجنوب ، كما انها مصدر الحياة لمصر » . (٢)

اما الدكتور مكي شبيكة فانه يرى أن الحكومة المصرية هي التي سعت لتعيين ضابط انجليزي فالتقت عن طريق الصدفة بغردون حينما طلب نوبار باشا – وزير الخديوي – من ضابط انجليزي في السفارة الانجليزية بالآستانة ليدله على انجليزي يخلف بيكر على حكم خط الاستواء . وما كان هذا الضابط غير غردون الذي خدم في حرب القرم وفي الصين . والان أتى في مهمة مندوب انجليزي في لجنة دولية تشرف على الملاحة في نهر الدانوب . وبعد أيام كتب غردون لنوبار باشا بأنه يقبل الخدمة بدلا عن بيكر اذا وافقت حكومته . فسعت الحكومة المصرية لدى حكومة هوايت هول وتم الامر ودخل غردون في عقد مع حكومة الجناب العالي . (٣)

ومهما يكن من امر هذا التعيين وما انطوى عليه ، فان غردون قد قبل العمل في خط الاستواء براتب مقداره الفان من الجنيهات ، مما أدهش الجميع ، واكسبه تقدير وثقة الخديوي . وقد خوله اسماعيل سلطات واسعة (بايعاز من بريطانيا ليكون مستقلا في عمله) على كل البلاد التي تقع جنوب فشودة ليعمل على استتباب الامن والسلام في ربوع الاستوائية . وليمنع بالطبع تجارة الرقيق ، وينظم التجارة ، ويفتح الاقاليم الجنوبية والبحيرات العظيمة للملاحة ، وليربط تلك المناطق بمحطات عسكرية مسلحة لبسط نفوذ الحكومة المصرية . ولقد تم ذلك بموجب فرمان أصدره الخديوي بتاريخ ١٩ فبراير ١٨٧٤ جاء فيه انه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والاهلية قد عيناكم مأمورا على جهات خط الاستواء التابعة للحكومة وصار فرز

(١) نعوم شقير (جغرافية وتاريخ السودان) (١٩٦٧) ص ٥٦٢
(٢) عبدالرحمن الرافعي بك (عصر اسماعيل) جـ ١ ص ١١٧
(٣) الدكتور مكي شبيكة (السودان عبر القرون) (١٩٦٦) ص ١٧٣

هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان وصارت قائمة بنفسها غير تابعة الحكمدارية انما كافة لوازمها التي يقتضي الحال لتداركها من طرف الحكمدارية هــذه يجري تداركها بمعرفة الحكمدار وصرف ثمنها من طرفه مقابل محاسبة المالية بذلك (١).

وبوصوله الخرطوم ارتكب غردون خطأ وهو اعلانه (١٧ مارس ١٨٧٤) ان تجارة العاج لم تعد مفتوحة لكل من يريد أن يعمل بها ، بمعنى أن الحكومة قــد احتكرت العاج لان تجارة العاج كانت القناع الذي يخفي وراءه تجار الرقيق وجوههم الكالحة وأغراضهم المسفة . وبمقتضى هذا الاعلان لا يحق لاي شخص الذهــاب الى المديرية الاستوائية الا بتذكرة او اذن مكتوب من الحكمدار ومصــدق مــن السلطات في غندكرو . « وكذلك امتنع بفضل هذا القرار انشاء الجماعات المسلحة في مديرية خط الاستواء وادخال الاسلحة النارية والبارود اليها ، وصار كل مخالف لهذه الاوامر مهددا بتوقيع أشد العقوبات التي تجيزها القوانين العسكرية عليه »(٢).

هذا القرار اريد به الضرب على ايدي النخاسين ، ولكنه كان من اسباب نشوب الثورة المهدية لتذمر تجار الرقيق والنخاسين وغيرهم ولاغلاق النهر في وجه التجارة الحرة فتأذت من جراء ذلك تجارة السودان عامة .

وصل غردون باشا غندكرو في ١٥ أبريل ١٨٧٤ ، يصحبه ابو السعود الذي وجده في مصر وادخله معه في خدمة الحكومة مع بعض تجار الرقيق عساهم يقلعون عن أفعالهم القبيحة في الاتجار بالرقيق، وليضرب بهم تجار الرقيق الاخرين الذيــن يعرفون مكامنهم ومجالات نشاطاتهم ، فاستعان بهم على تحطيم بعض الزرائب غير انهم لم يخلصوا نواياهم ويوالوا الحكومة كما ينبغي ، ففصلهم . وفي هذا الاثنــاء قدم اليه كثير من زعماء القبائل وقدموا له فروض الولاء وأعربوا عن شكرهم علــى مطاردته للنخاسين الذين شكلوا خطرا على حيــاة الناس وسلبوهم نعمة الامــن والســلام .

أيقن غردون ان طقس غندكرو رديء لانها محاطة بالبرك والماء الآسن . فنقل العاصمة الى جبل اللادو شمال غندكرو في نوفمبر ١٨٧٤ . وقد امتد نفوذه أو حدود مديريته من نهر السوباط الى بحيرة فكتوريا وسرعان ما بــدأ غردون في تأسيس المحاط الحربية ، وهذا جزء هام من واجباته . وما كاد عام ١٨٧٤ يمر حتى وفق غردون في تأسيس عشر محاط حصينة على شاطىء النيل الابيض هي نقطة سوباط التي قامت على ملتقى نهر سوباط بالنيل الابيض ،والناصر على نهر سوباط ايضا ، وشامبه (شامبي) ، بور اللاتوكه ،اللادو ، الرجاف ، الدفلاي ، مكركه ، مرولي

---

(١) نعوم شقير (جغرافية وتاريخ السودان) ص ٥٦٣
(٢) دكتور محمد فؤاد شكري (مصر والسودان) (١٩٦٣) ص ١٣٣

مديرية خط الاستواء

على نهر فكتوريا ، ومقانقو على مصب نيل فكتوريا في بحيرة البرت . ـ انظر خريطة مديرية خط الاستواء ص ١١٢ .

حماية مصر على يوغندة

المعت آنفا الى أن صموئيل بيكر قد اقام علاقات وديةمع امتيسي ملك يوغندة وبذلك ضمن ولاء ذلك الملك لمصر . ولما ذهب غردون الى غندكرو وجد فيهامبعوثين من امتيسي جاءوا ليقدموا فروض الطاعة لموظفي الخديوي ويرجوهم أن يساعدوا مليكهم ضد عدوه كباريجا ـ ملك أونيورو ـ وقد أرسل غردون بدوره بعثة بقيادة الكلونيل شبابي لونج (أمريكي في خدمة الحكومة) لتشكر امتيسي وتقيم علاقات ودية بين الطرفين .

وفيما ذكرت (في فصل سابق) أن لونج ، وبموافقة امتيسي ، رفع العلم المصري على عاصمة يوغندة . وبموجب معاهدة أبرمت عام ١٨٧٤ مع امتيسي تقبل هذا الملك حماية مصر لمملكتـه . وقد قرر لونج أن نفـوذ مصر قد امتد الى كـل الاصقاع التي تحيط ببحيرة فيكتوريا ، وخاصة يوغنده ، وأن الملك امتيسي كان يفتخر بتبعيته لسلطان مصر .

ترك لونج حامية في يوغندة . والجدير بالذكر ان امتيسي قد طلب بمحض اختياره أن يتلقى شيئا من تعاليم الاسلام السمحة . ثم اعتنق الاسلام . غير انه ارتد الى المسيحية على يد الرحالة الانجليزي ستانلي .

وما ان مضى بعض الوقت حتى طارت الاخبار الى غردون بأن امتيسي ـ وهو ملك حول قلب أو متقلب الاهواء ـ قد نكث على عقبيه وناصب حكومة الخديوي العداء ، وحاصر الحامية المصرية هناك ! فاضطر غردون لسحب الحامية المصرية من يوغندة الامر الذي أغضب الخديوي .

وقد أوردت في حديثي عن ادارة غردون في الاستوائية رأي الدكتور شبيكـة عن معاداة امتيسي للحكومة وهو أن الحامية المصرية لم تعاونه ضد مملكة أونيوروو ويردف سببا اخر وهو أن البريطانيين لم يعجبهم توسع المصريين في بلاد يرغبون في الاستيلاء عليها . ومن أجل ذلك مهدوا للمبشرين ليمارسوا نشاطاتهم ضد الاسلام في يوغندة . ثم البو سلطان زنجبار ليحتج على الامتداد المصري هناك . واخيرا ضغطوا على الخديوي ليسحب جنوده فصدع بالامر ! ونظرا لهذه التطورات ولعـداوة أخرى أظهرها ملك أونيوروو ايضا ، وللامراض التي فتكت برجالات غردون ، فقد بات من العسير ضم البحيرات الى املاك مصر .

فتح بحر الغزال (١٨٧٣)

مما لا مجال للشك فيه ان فتح بحر الغزال قد ارتبط بالزبير رحمه ارتباطا

وثيقا وهو لحد كبير تاريخ الزبير . ومن أجل ذلك فلا مناص من أن نتحدث عن ترجمة هذه الشخصية المرموقة في تاريخ السودان الحديث.

الزبير رحمـة :

في تقديري أن احسن ما كتب في ترجمة الزبير رحمة منصور ما أخـذه نعوم شقير من الزبير نفسه سنـة ١٩٠٠م وسجله في كتابـه القيم جغرافية وتاريـخ السودان حينما كان الزبير في منفاه ، أو في سجنه الكبير بمصر حيث حـددت اقامته هناك .

يقول نعوم شقير : حدثني الزبير بأنه ينتمي الى قبيلة الجمعيات نسبة الى جدهم جميع من سلالة العباس رضي الله عنه . وانه ولد في جزيرة واوسى عـام ١٨٣١ وتعلم في مكتب (خلوة) الخرطوم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وتفقه على مذهب الامام مالك . وفيما يروي انه حاول أن يثني ابن عم له من السفر الـى بحر الغزال للعمل مع علي ابي عموري (من صعيد مصر) تاجر الرقيق المشهور . ولما أصر ابن عمه على المضي صحبه الزبير مكرها الى بحر الغزال ، والتحق بخدمة أبي عموري أيضا عام ١٨٥٦ . وعن خبر ذلك السفر يقول الزبير « انه جاء بأحسن ما كنت اتمنى بل كان سبب نجاحي وشهرني ورفع منزلتي الى مقام لم ينله احد في السودان قبلي وهيهات أن يناله احد فيه بعدي ، وعسى أن تكرهوا شيئـا وهو خير لكم » .

استقل الزبير من تجارة أبي عموري ، وأخذ يتاجر في تلك الاصقاع الجنوبية. فعرض بضاعة في بلاد قولو (١٨٥٨) وبـلاد النمانم (١٨٥٩) . وكانت السلـع الرائجة في تلك البلاد الخرز على اختلاف انواعه والودع والقصدير وكله مما يتزين به الاهلون نساء ورجال ويفضلونه على الذهب والفضة فيأخذونه من التجار مقايضة بسن الفيل والريش وغيرهما ، وقد دخل الزبير في حرب مع ملك قولو الـذي قتل شقيق الزبير وغنم اموالـه . فانتصر الزبير عليه وقتله ، وامتلك بلاده ومـا جاورها الى بحر العرب ، واتخذ عاصمته بايه (ديم الزبير فيما بعد) حاضرة له. ثم ضم الزبير بلاد النمانم (١٨٧٢) على اثر حرب شنها ملك النمانم على الزبير. وبذا اتسعت رقعة ملكه . يقول الزبير : « فصرت فيها ملكا وصار الناس يتقاطرون الي من كل الجهات للانتظام في خدمتي فجلبت الاسلحة وجمعت جيشا قويا وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت في تمدينها وعمارتها وتوسيع نطاق التجارة فيها ».(١)

عقد الزبير العزم على فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكردفان لبعـد طريق النيل وما يلفه من مخاطر . فأبرم اتفاقية في مارس ١٨٦٦ مع عربان الزريقات

---

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٥٧٧

على أن يفتحوا الطريق ويؤمنوا التجار والقوافل التي تسير عبر بلادهم نظير جعل معلوم يأخذونه من التجار . وقد ساعد هذا الاتفاق في تنشيط حركة التجارة .

حملة البلالي على بحر الغزالي (١٨٦٩)

بحر الغزال – على نحو ما علمنا – كانت منطقة يعيث فيها تجار الرقيق فسادا، فاعتزم الخديوي اسماعيل أن يضع حدا لتلك الفوضى والاستهتار بمقدرات الناس، ويبسط سلطانه على تلك الاصقاع التي بعدت عن نفوذ حكومة الخرطوم فانفرد بحكمها النخاسون . لذا انفذ الحكمدار سرية بقيادة الحاج محمد البلالي – أحد متخلفي حجاج الغرب – الذي ادعى انه جاء من المغرب ، وزوده بفرمان تعيينه مديرا على بحر الغزالي . وفي رواية أخرى ليكون ناظرا لبحر الغزال على أن يتبع مديرية فشودة . وفيما يقول ريتشرد هل فان البلالي كان رجلا ذا ماض غامض ، ولم يتميز بشيء غير البذاءة والوقاحة !

طاف البلالي ببعض اجزاء بحر الغزال معلنا توليه الحكم . ومن الناس من اطاعه ، ومنهم من أبى وحارب ، أو نفد بجلده اذ رأوا فيه دخيلا عليهم مغتصبا ، الى أن جاء دور الزبير فدارت معركة بين الفريقين انتصر فيها الزبير ولقي البلالي حتفه في المعركة . هنا واجهت الخرطوم ثائرا مظفرا ضد الدولة ! ولكيلا يدخل في مشكلة قد تودي بحياته أو سلطانه أرسل الزبير الى الحكمدار جعفر مظهر باشا يطلعه على جلية الامر في محاولة لتبرئة نفسه ، وبين أنه لم يصنع ما صنع الا دفاعا عن النفس والمال ، وما البلالي الا معتد . ليس هذا وحده ، بل وسط الزبير حسين بك خليفة مدير بربر ودنقلا ، واظهر الامتثال والخضوع للحكومة . وبعد مكاتبات دارت بين الخرطوم والقاهرة ، أيقن الخديوي أن الزبير رجل قوي وانه بعيد المنال ، وأن من الحكمة أن يتقبل خضوعه لان مصر لم يكن في طوقها أن تحكم تلك الاصقاع البعيدة عن النيل . فما كان منه الا أن عفا عن الزبير ، وجعل من بحر الغزال مديرية عينه عليها مديرا في ديسمبر ١٨٧٣ .

وهكذا أصبح الزبير مديرا شرعيا من قبل الحكومة على بحر الغزال ، واضحت مديرية بحر الغزال جزءا لا يتجزأ من بقية السودان . بيد أن طموح الزبير بك كان أكبر مما تحده تلك المديرية .

توسع الحكم التركي – المصري في غرب السودان

ضم دارفور (١٨٧٤)

فكرة ضم دارفور الى بقية مديريات السودان قديمة قدم التركية السابقة . وآية ذلك أن محمد علي باشا قد فكر في فتحها منذ الوهلة الاولى . ولعلنا نذكر حملة

الدفتردار كانت مهمتها فتح كردفان ثم دارفور . ولكن الباشا قد عدل أخيرا عن غزو دارفور .

تقدمت الاشارة الى أن جنوبي دارفور كان مسرحا لنشاطات تجار الرقيق. ولما كان الخديوي اسماعيل مصمما على تجفيف منابع الرق وبسط سيطرته على تلك المنابع ، فقد صار فتح دارفور أمرا حتميا . ففي عام ١٨٦٦ كتب الخديوي الى الحكمدار جعفر مظهر قوله : « لقد فكرت مرارا وتكرارا في ضم دارفور الى بقية السودان » . وكخطوة في هذا الاتجاه أرسل الخديوي محمد نادي بك في مهمة سياسية الى الفاشر ، وهو في واقع الامر جاسوس الغرض من رحلته الوقوف على احوال دارفور الداخلية . وقد خدمت مهمته غرضها اذ أشار الى امكانية الزحف على دارفور عبر كردفان . غير أن اسماعيل باشا قد أرجأ فتح دارفور آنذاك الى وقت لاحق .

ولقد اقترن فتح دارفور (١٨٧٤) باسم الزبير رحمة أيضا . وعلى ما علمنا ان الزبير قد ابرم اتفاقية مع الرزيقات عام ١٨٦٦ بهدف تأمين طريق القوافل والتجار . وبينما كان الزبير مشغولا بحرب النمانم في الجنوب نكث الرزيقات (في شمال بحر العرب) العهد وغنموا قوافله التي كانت سائرة نحو كردفان . فما عتم الزبير أن اشتكى هؤلاء الى سلطان دارفور – ابراهيم محمد حسين – صاحب السيادة الاسمية على الرزيقات . وقبل أن يتسلم ردا من السلطان غزا دار الرزيقات في ١٨٧٣ . وبعد معركة دموية دخل الزبير شكا . ويذكر الزبير ان السلطان لم يجب على كتابه ، ولم يكف الرزيقات عن تحديهم ، فاضطر لمداهمتهم في عقر دارهم .

ويمضي الزبير في قصة فتح دارفور ليحدثنا انه عندما غزا الرزيقات هرب شيخان من شيوخهم هم منزل وعليان ، ولجآ الى بلاط السلطان في الفاشر . فطالب الزبير بتسليمهما في خطاب الى السلطان ورد فيه : « نؤمل منكم الآن ان تأمروا بالقبض على منزل وعليان وترسلوهما الينا (بالشعبة) والحديد مع الحرس اللازم لنسترد منهما ما اخذاه من حقوق المسلمين بلا تشيل فيهما ولا ظلم بما يكون فيه تأديب لهما وعبرة لغيرهما . هذا ما رأينا والراي مفوض وادام الله بقاءكم آمين» . (١)

على ان السلطان ابراهيم كان حانقا على الزبير لدخوله بلاد الرزيقات التابعة له ، فكأنه أعتبر الزبير منتهكا لحرمة املاكه . ولذلك لم يرد على خطاب الزبير. بل ارسل السلطان كتابا الى الشيخ مادبو بن علي وبعض مشائخ الرزيقات ، وقد شحنه بالشتم والسباب للزبير ، واشار فيه الى أن يعد العدة للزحف عليه وطرده من البلاد .

---

(١) نعوم شقير ص ٥٨٤

ومن جهة اخرى فان الخديوي قد سعد بتوسع الزبير في دار الزريقات، فانعم عليه (بالمرتبة الثانية مع لقب البكوية) وعينه حاكما على شكا مع بحر الغزال ، على أن يدفع جزية مقدارها خمسة عشر الفا من الجنيهات للخزانة .

تأزم الموقف بعدئذ بين الزبير والسلطان ابراهيم لان الاخير قد ضاق ذرعا بوجود الزبير في شكا . فما كان من السلطان الا أن أمر احمد شطة ــ مقدوم الجنوب في داره ، وسعد النور ــ مقدوم الشرق بحرب الزبير . فأخذا يحشدان الجيش لمصادمته . وكان الزبير يلم بالكثير من اخبارهما ويرفعها الى الحكمدار أسماعيل أيوب ، وهو بدوره يبعث بهـا الى الخديوي . وكـانت، فرصة للخديوي طالما ترقبها لفتح دارفور . فأمر الحكمدار بأن يعلن الحرب على السلطان بحجـة انه معتد ، ولقمع تجارة الرقيق . كما أمره ان يقود جيشا يغزو به دارفور مـن جهة الشرق والزبير من جهة الجنوب لكيلا يترك الفخار كله في فتح دارفور للزبير.

نعود الى محاولات احمد شطة وسعد النور اللذين زحفا بجيش لجب علـى الزبير في شكا . فهزمهما في معركتين (يناير ١٨٧٤) احتل على اثرهمـا دارة في فبراير ١٨٧٤ ، وبنى فيها سورا واستحكامات لعبت دورا في انتصاراته اخيرا . وقد تقدم السلطان بشكوى للخديوي ضد الزبير واعتداءاته . ولكنه لم يجـد اذنا صاغية لشكواه . ثم تلت ذلك معركتان : واقعة الشرتاي احمد نمر وواقعة الامير حسب الله ــ عم السلطـان ــ (سبتمبر ١٨٧٤) ضد الزبير وقـد انتصر فيهمـا الزبير ايضـا .

واقعة منواشي (اكتوبر ١٨٧٤)

صادم السلطان ابراهيم استحكامات دارة التي يقبع خلفها الزبير وجنده ، ولكن دون جدوى اذ دارت عليه الدوائر . فهجره رجاله ولكنه لحق بهم ليجمعهم ويحتمي بجبل مرة . ولكن الزبير تعقبه ، فالتقى الجمعان في بلدة منواشي (جنوب شرق الفاشر) في ضحى السبت أكتوبر ١٨٧٤ اذ دارت رحى معركة رهيبة بـين الفئتين كتب النصر فيها للزبير ، وخر فيها السلطان صريعا بعد ان قاتل قتـال الابطـال الصناديد .

وبعد أن اخذ قسطا من الراحة ، دخل الزبير الفاشر ــ عاصمة السلطنة ــ في ٣ نوفمبر ١٨٧٤ . فلم يجد بها الا التجار وبعض العلماء فأمنهم واحسن اليهم . وفي هذا يقول الزبير : « فلما بلغ الاهالي ما عاملنا به التجار ، وانتشر خبر عدلنا ووفائنا بالعهود اخذوا يفدون الينا ليلا ونهارا مقدمين الطاعة والامتثال ، ولـم يكن الا ايام قلائل حتى دانت لنا جميع اهالي السلطنة من اعاجم وعربـان حضر وباديـة » .

وهكذا ضم الزبير سلطنة دارفور أخيرا الى الحكـم التركي المصري فـي السودان .

موقف الحكمدار :

اما اسماعيل ايوب ــ الحكمدار ــ الذي اوكلت اليه مهمة غزو دارفور من الشرق ، فقد اقام معسكرا في أم شنقة على حدود دارفور الشرقية ، واخـذ يبطىء عن قصد الى ان نما الى علمه ان الزبير ربما يدخل الفاشر بعد قليل . فتحـرك برجاله نحو دارة الى ان ارسل اليه الزبير من اخبره بفتح دارفور وسرعان ما قفل راجعا ودخل الفاشر في ١١ نوفمبر ١٨٧٤ . ومع ذلك لم يشأ هذا الحكمدار أن ينفرد الزبير بالمجد كله . فضمن مكاتباته الى القاهرة اشارات الى اعمال تدلل على ان له ضلعا في انتصار الزبير ! وعلى هذا رقي اسماعيل ايوب من رتبة امير اللواء الى فريق ، ومنح الزبير لقب باشا.

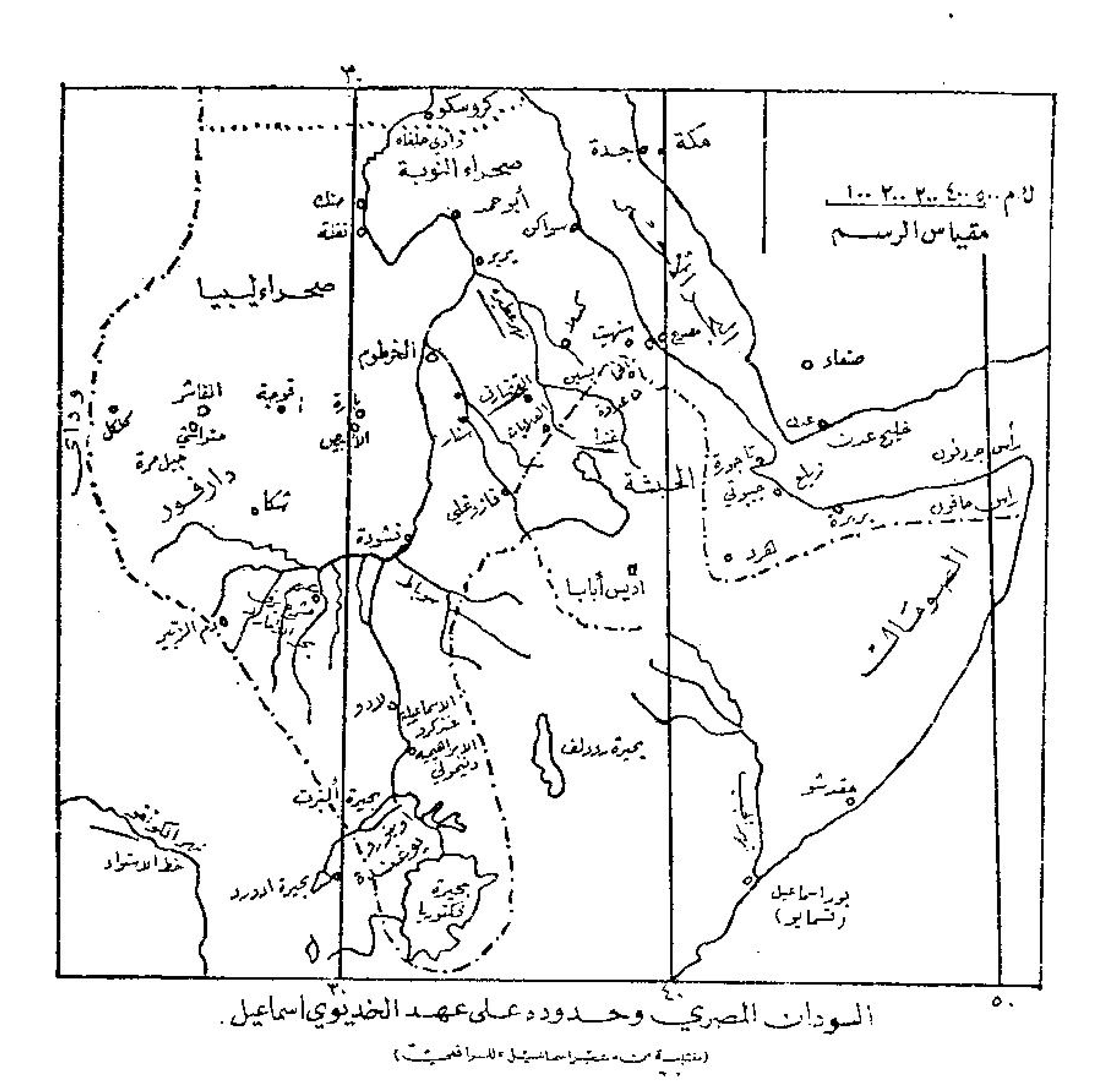
هذا الصعود في نجم الزبير سرعان ما اعقبه افول ! ذلك لان الزبير قـد احسن منذ الوهلة الاولى عند التقائه بالحكمدار في الفاشر بنفور وعدم أرتيـاح . وعلل ذلك بأن الحكمدار ربما كان ينفس عليه انتصاراته لان فتح دارفور برمته يرجع الى الزبير . وقد لاحظ الزبير اضطراب اجراءات الحكمدار المتعلقة بمشروع فتح الزبير لبرقو التي رغب الخديوي في فتحها . كما الم بخبر مفاده أن الحكومة قد انتوت ان تسرح جنوده وتتسلم مشاريعه ببحر الغزال . هذا الموقف جعل الزبير يظن ان الحكمدار انما يريد ان يحرمه ثمرة انتصاراته . وان الخديوي بلا ريب لا يقر هذه السياسة . وكان من البديهي أن يحدث صدام بين الرجلين قرر الزبير على اثره ان يشد الرحال الى مصر ليعرض القضية على الاعتاب السنية . وفي هذا يقول الدكتور مكي شبيكة : « والزبير بطبيعته البسيطة وتربيته ووسطه مـا كان يدري ما يجري في الخفاء من دسائس الاتراك وخدعهم . »

اخيرا انتهى الاشكال بطلب الزبير الاذن للسفـر الى مصر للمثول أمـام الخديوي وسرعان ما اذن له الخديوي اسماعيل . فسافر عام ١٨٧٥ الى القاهرة حيث حجز بها حوالي الثلاثين عاما ! فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ! ولم يرجع الى ارض الوطن الا بعد ان استعاد الانجليز والمصريون السودان .

وهكذا ظلم الزبير ظلما شنيعا رغم انه وفر على الحكومة الكثير من النفقات والمتاعب في ضم مديرتي بحر الغزال ودارفور . فكان جزاؤه كجزاء سنمار !

الزبير في مصر :

حياة الزبير في مصر زاخرة بالاحداث ، وسأقصر الحديث هنا على الجوانب



السودان المصري وحدوده على عهد الخديوي اسماعيل.

الهامة فيها . من ذلك انه حينما نشبت الحرب الروسية ــ التركية سنة ١٨٧٧ ، ندب الزبير لمرافقة النجدة المصرية لتركيا ، فسار معها وعاد الى مصر بعد الحرب.

وفي أبان الثورة المهدية طلبت اليه الحكومة المصرية عام ١٨٨٣ أن يذهب الى سواكن ليقضي على قوة عثمان دقنة الثائرة . فمشى الى السويس حيث أعلم انه سيعمل تحت أمرة بيكر باشا . وقد اشترط ان يقوم بالمهمة وحده . ولكن الحكومة المصرية لم تقبل هذا الشرط ، فعاد ادراجه الى القاهرة .

على الرغم من كراهية غردون للزبير ولابنه سليمان ، فقد طلبه غردون عام ١٨٨٤ عندما ذهب الأخير في بعثته لاخلاء السودان ليعينه في عملية الاخلاء على أن سلمه حكم السودان فيما بعد . وفيما نعلم أن الحكومة البريطانية قد رفضت الزبير بضغط من جمعية مكافحة الرق .

وفي عام ١٨٨٥ حامت حول الزبير شبهات واطلقت اشاعات على ان مكاتبات سرية قد دارت بينه وبين محمد أحمد المهدي في السودان . فألقي عليه القبض ، ونفي الى جبل طارق حيث قضى في الحبس ثلاثين شهرا الى أن ثبتت براءته . فأعادوه الى مصر .

من هذه السيرة المفعمة بالأحداث الجسام نخرج بحقيقة هي ان الزبير كان شخصية فذة . ولولا تجارة الرقيق التي مارسها لجاز لنا أن نضعه في مصاف أعظم الرجال في تاريخنا الحديث .

وصف أحد كتاب الغرب الزبير رحمة بأنه « رجل تجاري سياسي حربي » . وقال بعضهم : « انه خلق ليحكم » . أما ثيوبولد في كتابه «المهدية» فقد قال عنه : « لم يكن الزبير تاجر رقيق عادي . ونحن ، وان كنا لا نقر أعماله ، الا أننا لا نملك الا أن نعجب ببسالته وكرمه وطموحه واقتداره على القيادة وانتزاع احترام الرجال » (١) .

التوسع التركي ــ المصري على سواحل البحر الأحمر

ضم سواكن ومصوع

تعلقت همة الخديوي اسماعيل بامتلاك البلاد . وعلى حد قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم : « لو تعلقت همة ابن آدم بالثريا لنالها » . فاسماعيل لم يقف طموحه عند امتداد سلطانه في السودان وحده ، وانما طمح بنظره الى سواحل البحر الاحمر .

---

(١) أ.ب. ثيوبولد « المهدية » .

أسلفت الاشارة الى أن عصر اسماعيل قد شهد توسعا في الامبراطورية عندما الحق الخديوي سواكن بمصر . ومن المفيد أن نذكر هنا ان السلطان سليم العثماني قد مد فتوحاته في البحر الاحمر ، فاحتل سواكن ومصوع وزيلع وبربرة وجعلها تحت حكم الحجاز . ولما تقلد محمد علي باشا الحكم في مصر استأجر سواكن ومصوع عام ١٨٤٦ بمبلغ خمسة وعشرين الف جنيه كل عام لأنهما مخرجان مهمان للسودان الى العالم الخارجي . ثم جاء الخديوي اسماعيل والحقهما بمصر على أساس فرمان استصدره من السلطان سنة ١٨٦٥ . وبموجب فرمان آخر (مايو ١٨٦٦) ، وبعد جهد وبذل من اسماعيل ، وزيادة في جزية مصر السنوية ، أضيف هذان الثغران الى أملاكه ، وأصبحا محافظتين من ملحقات مصر .

احتلال سنهيت (١٨٧٤)

من بين الاجراءات التي اتخذتها الحكومة المصرية لدعم سيادتها في السودان الشرقي وعلى ساحل البحر الاحمر الغربي احتلال اقليم بوغوص أو سنهيت ــ أنظر الى الخريطة ص ١٢١ .

اعتزم اسماعيل ان يصل بين مصوع وكسلا بخط سكة حديد يمر بسنهيت غير ان ثيودور ملك الحبشة قد عارض هذا المشروع . ولكن ثيودور هذا قد مات في حرب ضد الانجليز . فخلفه على العرش يوحنا . وهو بدوره قد شغل بحرب . فما كان من اسماعيل الا أن اغتنم الفرصة وانفذ حملة بقيادة فرنز مونسنجر السويسري ــ قنصل انجلترا وفرنسا في مصوع . فاحتل سنهيت عام ١٨٧٤ .

ولقد احتج يوحنا ملك الحبشة احتجاجا صارخا لدى الدول الاوربية على احتلال الخديوي لسنهيت . ولكن دون جدوى . وعلى ذلك اصبحت جزءا من امبراطورية اسماعيل .

ضم زيلع وبربرة (يوليو ١٨٧٥)

زيلع وبربرة هما ثغرا سلطنة هرر ، وكانا من املاك السلطان العثماني تابعين لسنجق الحديدة ، ولهما أهمية كبيرة لموقعهما الاستراتيجي . ومن يضع يده عليهما يسيطر على الملاحة في خليج عدن الى مدخل البحر الأحمر .

ولان اسماعيل قد عزم على فتح سلطنة هرر ، فقد خطط لضم زيلع وبربرة أولا . فاجتهد ــ كدأبه ــ مع السلطان العثماني حتى حصل على فرمان في أول يوليو ١٨٧٥ تنازل السلطان بمقتضاه عن زيلع وملحقاتها (بربرة ، بولهار وتاجورة) نظير زيادة في جزية مصر السنوية مقدارها ١٣٢٣٦٥ جنيها مصريا . كتب عن هذ الخطوة القنصل الامريكي (بيردسلي) في يوليو ١٨٧٥ فقال : « ان الاستيلاء على زيلع قد

وضع ساحل البحر الاحمر الافريقي برمته تحت السيادة المصرية » (١) .

ضم هرر (سبتمبر ١٨٧٥)

تشير المراجع الى أن هرر كانت سلطنة اسلامية مستقلة تقع في شرقي الحبشة اسسها العرب الغزاة بعد الاسلام بقليل . ولها ثغران هامان هما زيلع وبربرة اللذان تقدم ذكرهما ، وعاصمتها مدينة هرر .

انتوى اسماعيل باشا فتح هرر لأهميتها الاستراتيجية ، ولأنها تعد من البلاد المكملة للسودان » .

بعد أن وقف العسكريون المرابطون في زيلع عن أحوال هرر ، زحف محمد رءوف باشا (حكمدار السودان فيما بعد) على رأس كتيبة من الجند في سبتمبر ١٨٧٥ . وقد تقدم سلطانها محمد بن عبد الشكور بطلب الى رءوف باشا وضح فيه أنه يقبل ويقر طائعا مختارا التسليم هو وأهل طاعته ومملكته الى الخديوي وان برغبته أن يكون تحت طاعة الحكومة الخديوية ليأمن على نفسه وماله وعياله ، ويرجو من الخديوية مكافأة لصداقته لها أن يصدر له فرمان كريم أن الامارة له ولذريته من بعده ، هذا ما دام صادقا هو وذريته للحكومة الخديوية » .

يتضح من هذا أن الطريق قد عبد لحملة رءوف باشا ، فلم يلبث ان فتح هرر ، ودخل عاصمتها في ١١ اكتوبر ١٨٧٥ . وعلى هذا النحو اضحت هرر خاضعة للنفوذ التركي المصري .

حملة جوبا (١٨٧٥)

مما تقدم وقفنا على حقيقة وهي أن الخديوي اسماعيل قد ضم البلاد التي كانت منابع الرق والمنافذ لتصدير الارقاء ، الى الخارج ولم يبق بعد ذلك الا مخرج واحد في منطقة نهر الجوبا ــ على ساحل افريقيا الشرقي ــ يصب في المحيط الهندي.

وعندما كان غردون باشا مديرا على خط الاستواء (١٨٧٤ ــ ١٨٧٦) تقدم بتوصية للخديوي اسماعيل فحواها أن يفتح طريقا تجاريا بين المحيط الهندي أو ساحل افريقيا الشرقي وخط الاستواء . وقد وضح مزايا هذا الطريق في مكافحة تجارة الرقيق وغيرها لكي تستحكم الحلقات فلا يجد تجار الرقيق مخرجا بعدئذ . وفضلا عن ذلك تتجنب الحكومة معوقات السد في النيل الابيض ، ذلك السد الذي لم تستطع الحكومة التغلب عليه بتطهير النيل الابيض منه .

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » ص ١٢٦

لم يستجب اسماعيل لمقترحات غردون من اول وهلة لأنه لم يشأ ان يدخل في مشاكل مع سلطان زنجبار ، فلربما كانت لهذا السلطان مطامع في الخليج الذي اقترحه غردون موضعا للمخرج المزمع انشاؤه . وفي عام ١٨٧٥ أيقن الخديوي أن سلطان زنجبار سوف لا يعترض على المشروع . فأعلن السيطرة المصرية على كل الساحل الصومالي . في حين ان بريطانيا كانت هي الأخرى طامعة في ذلك الساحل الصومالي .

وفي ذات العام (١٨٧٥) أنفذ الخديوي اسماعيل حملة بحرية من السويس في ١٩ سبتمبر ١٨٧٥ الى مصب نهر الجوبا بهدف ان تلتقي بحملة أخرى يرسلها غردون من الداخل لتحقيق الاغراض التي ذكرناها . فما هي الا أن سمعت بريطانيا بخبر الحملة ، حتى اعترضت على ارسالها باسم السيد برغش ــ سلطان زنجبار ــ . والحق ان السيد برغش كان بريئا مما زعم البريطانيون ، وآية ذلك ان بريطانيا كانت تستهدف وضع حد للتوسع المصري على الساحل الافريقي للمحيط الهندي لكي تلتهم تلك المناطق الهامة مستقبلا !

ازاء هذا الموقف البريطاني وتجنبا للدخول في مشاكل دولية بسبب تضارب المصالح ، وانصياعا لنصيحة بريطانيا بالتخلي عن ذلك الأمر ، لم يملك الخديوي الا أن ينسحب . ففعل ورجعت الحملة من حيث أتت .

خاتمة :

مما لا مجال للشك فيه ان الخديوي اسماعيل قد نال بغيته بضم البلاد التي كان يتوق الى ضمها . بيد ان ذلك التوسع الضخم كانت له آثار بينة ، من ذلك ان امتداد الامبراطورية المصرية الى المناطق الاستوائية ودارفور وساحل البحر الأحمر الغربي وبلاد الصومال حتى نهر جوبا قد ساعد كثيرا في قمع تجارة الرقيق . وان لم يبطلها ابطالا كاملا . وتجارة الرقيق ــ على ما علمنا ــ كانت الشعار الذي رفعه اسماعيل او الستار الذي أخفى وراءه طموحه في التوسع وعلو الشأن والكسب المادي . وكما قال السير صموئيل بيكر فان امتداد مصر الى خط الاستواء قد ادى الى انفتاح افريقيا الوسطى للحضارة والعمران . وفي كلمات المسيو سوتزارا (قنصل النمسا في مصر على عهد اسماعيل) فان الشعوب « الهمجية » التي خضعت للخديوي اخذت تتدرج نحو التقدم وتألف الادارة المنتظمة ، وان الاقطار السودانية التي كانت مقفلة قد فتحت للتجارة والرحلات ، مما مهد السبيل لدخول الحضارة اليها . وقد أومأت في فصل سابق الى أن فتح خط الاستواء قد ادى الى اثراء علم الاجناس والنبات والحيوان والكشف الجغرافي .

اما في السودان الشرقي وعلى ساحل البحر الأحمر الأفريقي فان هذه الفتوح

ــ كما يبين المؤرخون ــ قد أدت الى نشوب الحرب بين مصر والحبشة (١٨٧٥ و ١٨٧٦) لان الحبشة قد صممت على تحطيم الحلقة التي طوقتها بها مصر بامتداداها الذي عرفنا ، ولأن الخديوي قد بيت النية على اكتساح الحبشة فتحرش بها . وكانت حربا خاسرة هزمت فيها مصر ، وما كان أغناها عن خوضها !

ومن نتائج التوسع في السودان الشرقي ايضا أن انجلترا قد اعترفت (من حيث المبدأ) للخديوي بحقوق السيادة على الساحل الصومالي .

على أن هذا التوسع قد كلف الحكومة المصرية كثيرا جدا بمعنى أن كثيرا من الأرواح قد أزهقت وراحت ضحايا لمطامع الخديوي وتطلعه الى الرفعة والمجد والكسب الكبير . كما ضاعت أموال طائلة كان ينبغي أن تصرف على تقدم الشعب المصري ورفاهيته . وقد قادت سياسة التوسع الى ضغط انجلترا على الخديوي اسماعيل ليقمع الرق وتجارة الرقيق في السودان . وفي واقع الأمر كان الانجليز يتدخلون في شؤون مصر مستغلين تجارة الرقيق لتحقيق اطماعهم التوسعية . وبسبب العنف والقسوة التي طبقها غردون واعوانه من الغربيين ضد النخاسين وتجار الرقيق تنفيذا لمعاهدة الرقيق ، كره السودانيون الحكم التركي ــ المصري مما كان له أثر في نشوب الثورة المهدية في مقبل أيام ذلك الحكم .

الفصل السابع

الثورة المهديـة

اسباب نشوب الثورة المهدية :

في تصوري أن الثورة المهدية كانت مـن أعظم الثورات القومية التي نشبت في العالم على مدار التاريخ. وكانت نقطة تحول وانطلاق كبيرين فيتاريخ بلادنا العزيزة. ولقد انعكست آثار تلك الثورة على بلاد اخرى ، وتأثر بها تأثرا مباشرا بعض الاجانب وبصورة خاصة المصريون الذين فقدوا امبراطوريتهم على اثر شبوبها ، وزادت قبضة الاستعمار البريطاني وسيطرته على وادي النيل .

ولقد تأثر بالمهدي وحذا حذوه ثوار أفارقة نذكر منهم الملا محمد عبدالله حسن بطل الثورة الصومالية (١٨٩٩ ــ ١٩٢٠) الذي نادى بالنضال ضد الكفرة المستعمرين، واصدر فتوى بالجهاد أو الحرب المقدسة ضد المحتلين . ولقد اطلعت ثورة الصومال « بصورة جيدة على التنظيم العسكري والتكتيك لدى المهديين السودانيين » (١) .

كما تأثر بالمهدية بعض شعوب السودان الغربي . ففي سوكوتي آمن حياتو بن سعيد بن بلو سلطان سوكوتو بالمهدية وأعلن الجهاد في سبيل الله تحت راية المهدية . فما عتّم المهدي ان عينه عاملا على السودان الغربي . ومن أجل ذلك أعلن الجهاد تحت راية المهدي . ولما جهر محمد احمد بانه المهدي المنتظر جذب اليه كثيرا مـن أهالي السودان الغربي لاعتقادهم أن علامات المهديـة قد انطبقت عليه من ذلك ظهوره حول نهاية القرن الثالث عشر الهجري (٢) . وعلى ذلك فان الثـورة المهدية كانت رائدة تطاولت الى مثلها رقاب الثوار في شتى البقاع .

وفيما يقول المؤرخون ان الثورات ــ في الأغلب الأعم ــ لا تكلل بالنجـاح الى عندما يعم السخط كل طبقات المجتمع لما يقاسي الناس مـن ظلم وضغط وعسف .

---

(١) الدكتور مولود عطا الله (روسي) معهد الدراسات الافريقية في موسكو .

(٢) محمد أحمد الحاج « حياتو بن سعيد » مؤتمر « السودان في افريقيا » وحدة أبحاث السودان بجامعة الخرطوم » .

ويجب أن يصاحب ذلك احساس من الجماهير بضعف مادي أو أدبـي يعتري هيكل الجهاز الاداري القائم . ولا بد لكل حركة ثورية من جيش يكون على أهبة الاستعداد ليطيح بالوضع القـائم في الوقت المناسب . وفضلا عـن ذلك فان القيـادة الواعية الرشيدة تلعب ــ لامراء ــ الدور الفعال اذا قامت ببث الدعاية على أوسع نطاق لاثارة الجماهير ، ولاطلاع القاعدة بما تعتزم الثورة تحقيقه من اصلاحات بناءة. فهل يا ترى تحققت هذه العوامل قبل نشوب الثورة المهدية عام ١٨٨١ ؟ يكاد الباحثون الذين تناولوا هذا الموضوع بالتحليل يجمعون على أن سوء الادارة التركية المصرية يأتي على رأس القائمة ــ قائمة اسباب الثورة المهدية .

ويمكن أن نلخص اسباب الثورة المهدية في هذه الحقائق .

باديء ذي بدء يجمل بنا أن نشير الى السبب المباشر للثورة المهديـة لان اية ثورة ، كأية حرب ، كائنة ما كانت ، لا بد لها من سبب مباشر واسباب غير مباشرة . وحسب ما يبين بعض المؤرخين فان دعوة المهدية للجهاد وللخلاص من نير الحكم التركي هي السبب المباشر . أما الاسباب الاخرى التي كانت تعتمل في النفوس ، والتي لم تطف الى السطح الا بعد ان بلغ السيل الزبى ، فنستطيع ان نرتبها على النحو التالي :

(١) العنف والجبروت (حملات الدفتردار) .

تبدأ الاسباب غير المباشرة على حسب التسلسل التاريخي بالعنف الذي عقب الفتح والذي قام به الدفتردار بعد اغتيال اسماعيل باشا على أيدي الملك نمر ملك الجعليين ورجالاته . ولعلنا نستحضر في الاذهـان ان اسماعيل بن محمد علي كان موتورا من ناحية ملك نمر أذ اتهمه بايـواء المماليك والفارين من الشايقية . وبعد ان فتحت سلطنة سنار ورجع نمر الى بلاده ، وذهب اسماعيل لفتح فازوغلي ، تناهى الى سمعه ان نمرا قد تحفز للثورة ضد الحكومة . فما عتّم اسماعيل أن شد الرحال الى شندي حيث تهدد نمرا « وضرب عليه جزية قدرها الف أوقية ذهبا والف جمل أصهب والف ناقة منتجة والف بقرة والف شاة والف عبد والف جارية » (١) . ولما كانت امكانيات الملك نمر تضيق بهذا المقدار ، فقد حاول أن يوضح موقفه الاقتصادي ويبين استحالة دفع هذه الكميات . ولكن سرعان ما عاجله اسماعيل ــ ذلك الصلف المغرور ــ بضربة من غليونه الكبير على انفه ! يـا سبحان الله ! أيضرب ويهان عاهل الجعليين بهذه الصورة وسيفة صارم وحوله من بني عمه ليوث ضراغمـة تهش الى الطعان ؟ وفيما نعلم ان نمرا قد هم بجزوتين الباشا في تلك السـاعة الرهيبة ، ولكنه كظم غيظه ، وانتقم اخيرا لكرامته التي اهدرها ذلك الغر المأفون بحرق اسماعيل ومن معه في ديسمبر ١٨٢٣ .

---

(١) نعوم شقير ص ٥١٠ .

تلت هذا الحادث حملات الدفتردار الانتقامية البشعة التي تطرقنا اليها في الفصل الثالث ، وقلنا ان الدفتردار قد جاء من كردفان لا يلوي على شيء حتى قتل أهل المتمة وأحرق بعضهم ، ثم أحرق شندي والحلفاية ، وقتل أهل توتي وأحدث مجزرة مرعبة في العيلفون وفي واقعة النصوب بالبطانة حيث التقى نمر والمساعد بالدفتردار ، هزمهما الاخير ، ومات فيها المساعد ، وقتل فيها الكثير من الجعليين ، ورجع الدفتردار بالاسرى الى ام عروق — جنوبي مدني . وقد « جمعهم في زريبة من شوك وتركهم في الشمس لا يظلهم شيء وأجرى عليهم الماء بالجداول فمات أكثرهم من شدة الكرب ومنهم من افتداه أهله بمال جزيل ومن بقي جعل لهم داغا في أكفهم بين الابهام والسبابة وأرسلهم الى محمد علي باشا في مصر » .

من هذه المجازر يتضح ان الدفتردار اخذ البريء بجرم المذنب ، وقتل آلاف الابرياء . وكانت جملة من راحوا ضحايا طغيانه — فيما تقول بعض الروايات — خمسين ألف نسمة !

ان خروج نمر ومن معه عن طاعة الحكومة والتجائه الى الحبشة قد شجع المارقين عليها بأن يسلكوا نفس الاتجاه . ومن ثم أصبح نمر وابناؤه من بعده مصدر قلق للحكومة مدة من الزمان . وبظهور المهدي كان أول المستجيبين لدعوته ابناء نمر في القضارف وشرقي السودان لما لحق آباءهم من ضيم وتقتيل . وفي هذا الصدد يقول شقير عن الدفتردار انه : « قتل وسبى وأذل الاهلين وأوجعهم فوجدوا على الحكومة بسببه . وقد أورثوا الوجد ابناءهم من بعدهم فحفظوه حتى قام المهدي فقاموا معه يطالبون بالثأر . وقد رأيت الكثيرين ممن ثاروا على الحكومة فقالوا انما فعلنا ذلك لاسباب شتى أولها الاخذ بثأر آبائنا من فظائع الدفتردار » .

لم يقف الامر عند وحشية الدفتردار وجبروته ، بل كان خلفه عثمان بك (١٨٢٥) لعينا أيضا اذا اتسم عهده بالظلم والقسوة ، فهو الذي نكل بالناس في الجزيرة . يقول شقير : « وتوجه الى ودمدني فقتل عدة رجال بقنابل المدافع فعظم ذلك على الاهلين ونفرت قلوبهم من الحكومة واخذوا يهاجرون الاوطان » .

غني عن البيان ان هذه البربرية قد رسبت آلاما دفينة وحقدا وضغينة توارثها السودانيون جيلا بعد جيل .

(٢) الضرائب وسوء جبايتها :

لا ريب في ان الضرائب كانت مصيبة من مصائب التركية ، ولطالما شقي الاهلون بفداحتها شقاء بلغ أقصى مداه . وكانت جبايتها سيئة للغاية لم تراع فيها كرامة المواطن وآدميته . ذلك لان الذين كانوا يتوانون عن دفعها ، لسبب أو لآخر يشتمون بأقذع الالفاظ وتلهب ظهورهم بالسياط كالانعام . والواقع أن الضرائب كانت منذ

البداية غريبة على أفهام الناس فلم يتقبلوها الا مكرهين . وفيما بينت آنفا فان مقادير الضرائب كانت باهظة ، وقد وضحتها في الفصل الثالث . وتقدمت الاشارة ايضا الى الاعفاءات الضرائبية والتفرقة بين افراد المجتمع كالمشائخ : مشائخ الطرق الصوفية ، ومشائخ القبائل والاعيان كانوا معفيين من الضرائب . ووضحت الهدف من وراء ذلك وهو كسب ولائهم للحكومة ومساعدتها في جباية الضرائب !

الأدهى وامر في مسألة الضرائب الاضافات التي كان يفرضها الموظفون على المواطنين دون وجه حق ، ولمصلحتهم الخاصة لكي يثروا ، ويستعيضوا عما يلاقون من متاعب في السودان وحره وبعده عن أضواء القاهرة ومباهج المدن المصرية . جاء في كتاب « جغرافية وتاريخ السودان » لمؤلفه نعوم شقير : « وشر من ذلك كله مما لم يكن له مثيل في غير السودان ان هؤلاء المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية ، بل كانوا يفرضون على الاهلين « فرضا » غير رسمية يحصلونها مع الضرائب . وذلك ان أكثر الولاة الذين حكموا السودان كانوا يأتونه من مصر على غير عادتهم لبعد السودان عن بلادهم وكثرة حره ومشاقه فكانوا لا يهتمون في الغالب الا بالانتفاع من وظائفهم فيفرضون على المديرين اموالا باسم الهدايا فيضطر المديرون الى استرجاعها من مأموري المراكز الذين تحت ادارتهم أو من الباشبوزق المولجين بجمع الضرائب وهؤلاء يفرضونها على الاهالي اضعافا لاجل وفاء ما فرض عليهم وحفظ شيء لانفسهم . وكانوا يشددون على الاهلين في تحصيل هذا الفرض تشديدهم على تحصيل الضرائب وهم آمنون من القصاص للتواطؤ المشار اليه مع الولاة والمديرين . ولذلك اشتد نفور الاهالي من الحكام ، وتمكن الحقد والوجد في قلوبهم وصاروا يتمنون زوال هذه الحكومة التي سلطت عليهم بأية حكومة كانت » . من هنا تتضح البلايا التي كان السودانيون يعانون منها .

اما جباية الضرائب فحدث عنها ولا حرج اذ كانت نكراء قبيحة لا تليق بكرامة الانسان . يقول ونستون تشرشل : « في تلك المعركة التعسة التي تصاحب جباية الضرائب ، فان أعوان والي مصر كانوا يحصلون على الكثير بالخداع اذ اتخذوا احط انواع الغدر والخيانة ، ولم يرعوا حرمة أو قدسية لشيء في سبيل تحقيق مآربهم . واذا كان الشرف لم يقف حائلا دون تحقيق اغراضهم ، فان الرحمة لم تعرف طريقها الى قلوبهم ولم يحل شيء دون كسبهم الرخيص » (١) .

ان اطلاق ايدي جامعي الضرائب في الناس قد أبطرهم ، وأفسد أخلاقهم . قال شقير : « وضرب عثمان بك الضرائب على الاهلين وأرسل الجنود في تحصيلها فعاثوا وافسدوا وضيقوا على الرعية فكثر عدد المهاجرين من أهل البلاد وهاجر بعضهم الى

---

(١) ونستون تشرشل « حرب النهر » .

القضارف فأرسل خلفهم ابراهيم افندي فقتل منهم خلقا كثيرا » . والحق ان الجنود ليسوا مسؤولين عن الفساد والافساد وظلم العباد ، وانما المسؤول الاول هم كبار الحكام من درجة الحكمدار فما دونها . أولئك الذين يصح فيهم قول المعري :

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ‏ ‏ ‏ ‏ وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ان أنواع التعذيب التي عانى منها الناس اثناء جمع الضرائب كثيرة ومزرية مثال ذلك وضع القط في سراويل الرجل السيء الطالع وضرب القط ليمزق جسد المنكوب الذي عجز عن دفع ما عليه، فتسيل دماء الضحية . ولقد صور هذه الفظاعة وفوضوية الضرائب الشيخ محمد شريف في قصيدة هجا فيها المهدي ، منها قوله :

وما ابت السودان حكم حكومة ‏ ‏ ‏ ‏ الى ان أتى ضعف المطاليب من مصر
فكالثلث والثلثين للمير وحده ‏ ‏ ‏ ‏ وللشيخ والنظار اضعافه فادر
بضرب شديد ثم كف مؤلم ‏ ‏ ‏ ‏ ومن بعده الالقاء في الشمس والحر
وأوتاد ذي الأوتاد من بعض فعلهم ‏ ‏ ‏ ‏ واشنع من ذا كله عمل الهر

لست بحاجة الى التعليق على هذه الأفعال السادية البربرية التي يندى لها جبين الانسانية خجلا ! فلا غرو فقد وصل الناس درجة عالية من السخط حتى ذهبوا الى القول عندما اعلن المهدي دعوته : « عشرة رجال في تربة ولا ريال في طلبة » . وقد اضحت هذه العبارة شعار الثورة المهدية فيما يقول ونستون تشرشل في كتابه « حرب النهر » .

(٣) ابطال تجارة الرقيق :

ثمة سبب واضح أومأت اليه ايماء في ثنايا الموضوعات السابقة ، أعني بذلك محاربة الحكومة لتجارة الرقيق محاربة لا هوادة فيها وبصورة خاصة على عهد صموئيل بيكر كمدير للاستوائية وغردون حكمدار للسودان. ولقد تطرقت في الفصل الخامس الى الدوافع التي حدت بالحكومة لتمنع تجارة الرقيق ، وهي باختصار لنواحي الانسانية أي تحرير أولئك الابرياء من ربقة الاسترقاق . والتوسع وبسط سلطان الحكومة على مواطن الرق ــ تلك المواطن التي سيطر عليها النخاسون واقاموا فيها ما يشبه الحكومات والامارات . وفضلا عن ذلك حاول باشوات مصر الغاء الرق استجابة للضغط الاجنبي وعلى الخصوص ضغط بريطانيا على ولاة مصر لابطال تجارة الرقيق في مصر والسودان ــ ذلك الضغط الذي بلغ مداه حينما ابرمت معاهدة الرقيق عام ١٨٧٧ بين بريطانيا والخديوي اسماعيل .

أسلفت الاشارة الى أن الرق ظاهرة اجتماعية تغلغلت في صميم البيئة السودانية وألفها الناس منذ زمن بعيد موغل في البعد . وكانت مصدر كسب لكثير من أفراد المجتمع والاعيان ومن كانت تعتمد الحكومة على مساندتهم فمحاربة هؤلاء في أرزاقهم

ومصدر ثرائهم ــ وهو ثراء حرام ــ ألب على الحكومة بعض العناصر . جاء في كتاب « جغرافية وتاريخ السودان » لمؤلفه نعوم شقير : « ثم الذي زاد الطين بلة والطنبور نغمة فكان منه معظم الشر هو تشديد الحكومة في منع النخاسة والاسترقاق فان النخاسة كما علمت مهنة قديمة في السودان يتعاطاها الجم الغفير من أهلها بل من أعظم أهلها جاها ونفوذا . والاسترقاق وبيع الرقيق غير محرمين في شريعة أهل السودان فهم لا يرون فيها شرا يجب ابطاله بل يرون الشر كله في ابطالها خصوصا لان خدمة عرب السودان في البيت وخارج البيت كلها منوطة بالرقيق ولم يكن للعرب الا السيادة والتجارة » .

ان سياسة الضغط والارهاب التي توخاها غردون والاجانب الاوربيون الذين عينهم لابطال الرقيق قد أثارت ناحية حساسة للغاية وهي مسألة الدين . فهؤلاء الاجانب مسيحيون أو كفار في نظر مسلمي السودان . وهذا العسف من جانبهم قد نم على انه حرب مسيحية ضد الاسلام أو قل حرب صليبية ان جاز أن نسميها هكذا . يقول شقير : « كان الاهلون يدفعون قسما من الضرائب عبيدا فأصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقدرون على ادائها فاستبد بهم الجباة وساموهم خسفا على خسف وذلا على ذل. وعد الجهال مداخلة بكر وغردون وجسي وجيكر وغيرهم من النصارى في منع الرقيق ان النصارى تتعرض لدينهم فعظم الخطب وعمت الشكوى » (١) .

وعلى ذلك اتخذت المسألة طابعا آخر على جانب كبير من الحساسية .

كان تجار الرقيق ــ وفق ما يقول عبد الرحمن الرافعي بك ــ يمثلون في البلاد طبقة قوية من الاعيان والتجار ، فلما حرمت عليهم الحكومة ممارسة هذه التجارة التي كانت تدر عليهم الارباح الوفيرة انقلبوا عليها ، وانضموا الى الثائرين . فلا غرابة اذا كان منع الحكومة الاتجار بالرقيق من أسباب نجاح الثورة المهدية .

(٤) محاباة الحكومة للشايقة والميرغنية :

سبق أن أشرت في الفصل الثالث الى أن الحكومة قد جندت بعض ابناء الشايقية لتفيد من شدة مراسهم في حملاتها العسكرية . ثم قربتهم اليها بمنحهم أراضي العبدلات والجعليين بعد أن ثار هؤلاء على الحكم التركي المصري . بل ذهبت أبعد من ذلك فأعفتهم عن دفع الضرائب . كتب الشاطر بصيلي عن هذه الامتيازات التي أعطيت لبعض المواطنين دون آخرين فقال : « بالاضافة الى هذه الاعفاءات التي منحت لفريق من أهل المدن فان هذه الامتيازات قد شملت خلال حكمدارية غردون بعض القبائل والعشائر مما أزكى روح الحسد والتباغض بين القبائل . واكبر الظن

(١) نعوم شقير ص ٦٣٤

أن الشايقية هم المقصودون بهذا لانهم كانوا على رأس القائمة . وقد نقل نعوم شقير حقيقة عن المضوي حيث يقول : « ومن الامور التي ساءت الاهالي فزادتهم وجدا على الحكومة تمييز الشايقية الذين جندتهم عساكر وحوالات واعفتهم من الضرائب في حين انها اثقلت بها سائر الاهالي مع ان الجميع من مقام واحد وما من قبيلة معروفة في السودان تعترف بامتياز الشايقية عليها » .

وفيما يبدو ان تفضيل الحكومة لم يقتصر على المشائخ والشايقية فحسب ، بل شمل السادة الميرغنية أصحاب طائفة الميرغنية التي نشرها في السودان الشمالي والشرقي السيد محمد عثمان الميرغني . جاء هذا السيد الذي اشتهر بالتقوى الى السودان عام ١٨٣٥ من مكة واليه يرجع انتشار الاسلام بين المجموعات الوثنية في كردفان (١) .

بفضل تقريب الحكومة للختمية تميزت هذه الطريقة على كافة الطرق الصوفية في السودان . فتمتع أصحابها بمكانة مرموقة وجاه عريض في المجتمع . جاء في كتاب نعوم شقير أيضا ــ نقلا عن المضوي ــ قوله عن الحكام في السودان : فمالوا الى مخالطة الميرغنية للمشاكلة أولا ولانتساب الميرغنية الى مكة المشرفة ثانيا . وبسبب ذلك مال اليهم عساكر الشايقية عموما لتقربهم من رجال الحكومة ودخلوا في سلكهم حتى صار كل سر سواري يهدي اليهم مرتبه ومرتب رجاله شهرا في كل سنة فازدادت بذلك صولة خلفاء الميرغنية وصاروا يتطاولون على رؤساء الطرق الاخرى بالشتم والاهانة فحقدوا عليهم وعلى الحكومة التي كانت سببا في تعظيم شأنهم » .

اذا كان هذا هو موقف الحكومة من الميرغنية ، واذا كان هذا مسلك خلفا الميرغنية فمن تحصيل الحاصل ان نقرر انه ليس بمستبعد ان يبغض مشائخ الطرق الاخرى الحكومة لمسألة « الخيار والفقوس » او المحاباة التي توختها تجاههم . كما كرهتها المجموعات القبلية الاخرى لتفضيلها قبيلة الشايقية على غيرها .

(٥) ظلم الحكام للرعية :

من بين اسباب الثورة المهدية أيضا ظلم القائمين بالامر في السودان للمواطنين . وفي تقدير البعض أن هذا السبب يأتي على رأس قائمة الاسباب ذلك الظلم الذي وسم العهد التركي المصري ، بل أصبح طابعا مميزا له .

ان بعض المؤرخين المصريين المحدثين يحملون موظفي التركية هنا المسؤولية كاملة ــ مسئولية الظلم والعنت والارهاق التي عانى منها الشعب السوداني . يقول

(١) الدولة الاسلامية : تاريخها وحضاراتها : عبد الحميد العبادي ، محمد مصطفى زيادة وابراهيم احمد العدوي .

عبد الرحمن الرافعي بك : « يلزمنا أن نعترف بأن حكم السودان قبيل ظهور الثورة المهدية ، وحين ظهورها ، كانوا على جانب كبير من الظلم والجور ، لقد كانوا خليطا من الترك والشراكسة او من المصريين ، وكانوا كلهم سواء في ارهاق الاهلين . هذه حقيقة قد نشعر بالمرارة اذ نقررها ولكنها الحقيقة الواقعة التي لا يجوز أن نتجاهلها ، بل علينا أن نعترف بها ، وأن نستخلص العبرة منها ، فلو أن كل موظف مصري يشعر بأن عليه واجبا قوميا لمنصبه وبلاده ويؤدي هذا الواجب بأمانة واستقامة ، لكان ذلك من عوامل عظمة مصر وسعادتها ولو أن الموظفين الذين تولوا حكم السودان قبيل ظهور الثورة كانوا مثالا للعدل والاستقامة والرغبة في الاصلاح ، لسعد الشعب السوداني في عهدهم ولما وجدت دعوة المهدي من يستمع اليها من الاهلين » (١) . ليس من العدل أن نعمم ونقرر ان كل الحكام كانوا ظالمين فهناك من برئت ساحته من السوء والجور . ولكنهم قليلون ، بل نادرون والنادر لا يقاس عليه .

والحق ان الظلم مرتعه وخيم ، وان الظالم لن يفلت من العقاب عاجلا كان ذلك أو آجلا ، وهو لا محالة خاسر في النهاية ونادم ولات ساعة مندم !

وكما اشرت في فصل سابق فان بعض الحكام الذين جاءوا الى السودان كانوا من الصنف الذي رمى المسؤولون في مصر الى ابعاده من هناك لسبب او لآخر . فكيف يرجى من هذا الحاقد الموتور المغضوب عليه ان يكون عف اليد واللسان ؟ لم يكد هؤلاء الحكام يتقلدون مناصبهم حتى اخذوا يجمعون الاموال عن طريق الرشا والاختلاس والفساد وما الى ذلك من الامراض الاجتماعية التي تفشت بين المسؤولين وانتشرت في البلاد .

ثمة نقطة اشار اليها بعض المؤرخين وهي ان المسؤولين انفسهم في مصر كانوا ايضا على جانب من السوء في ذلك الوقت . فمن الطبيعي أن تنعكس سياستهم على انحاء الامبراطورية المصرية على رأي القائل :

اذا كان الرئيس كذا سقيما   فكيف صلاحنا بعد الرئيس ؟

وفي هذا يقول عبد الرحمن الرافعي : « ان حكام مصر في ذلك العصر لم يكونوا في الغالب مثال العدل والصلاح ورعاية مصالح المحكومين ، بل ان مظالمهم كانت كذلك من اسباب الثورة العرابية ، فكيف بهم اذا كانوا في أقاصي السودان حيث لا رقيب عليهم ولا حسيب ؟ فالاهلون اذن كانوا هدفا للظلم وسوء المعاملة ، يبتز منهم الحكام ما يقدرون عليه من المال ويرهقونهم بمختلف انواع الضرائب والمغارم .

(١) عبد الرحمن الرافعي بك « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » (١٩٤٨) ص ٨٧ — ٨٨ .

لا نملك إزاء هذا النقد الا أن نقول شهد شاهد من اهلها ! ولا نملك ازاء هذا الصدق في القول الا ان نعجب بهذا المؤرخ لان كثيرا ممن أعمتهم الاهواء يهاجمون المهدي ، ويصفون ثورة السودانيين بثورة الدراويش كناية عن فوضوية الغوغاء ! دون أن يضعوا أيديهم على مواطن الداء لمعرفة الاسباب الحقيقية التي دفعت اولئك المواطنين الشرفاء لتحطيم القيود وتنسم عبير الحرية العبق .

(٦) تعيين الأوربيين :

هذا سبب آخر مر بنا ايضا في ادارة الخديوي اسماعيل (الفصل الرابع) وهو تعيين الاوربيين في المناصب الحكومية الكبيرة الحساسة . ولعلنا نذكر ان اسماعيل باشا قد عين صموئيل بيكر حاكما على المديرية الاستوائية (١٨٦٩–١٨٧٣) ليضم البلاد في حوض النيل حتى البحيرات العظمى ، وليبطل تجارة الرقيق ، وينظم التجارة ، وينشط الزراعة ولينشيء المحاط أو النقط الحربية على النيل الابيض وما الى ذلك من الاهداف التي تقدم ذكرها . وقد خلفه شارلس جورج غردون مديرا على خط الاستواء (١٨٧٤ ــ ٧٦) ليتم ما بداه بيكر . ثم عين غردون حكمدارا على السودان في ما بين ١٨٧٧ و ١٨٧٨ م ، فاختار عددا من الاوربيين لتنفيذ مخططه الاداري .

ويهمنا في هذا المقام ان بيكر وغردون ومن عينهم غردون من الاوربيين في مناصب مديرين وغير مديرين ، كل اولئك قد ضغطوا تجار الرقيق ضغطا لا رحمة فيه بتة . اذ نكلوا بهم وأي تنكيل ! وصادروا ممتلكاتهم ، وحرروا عبيدهم واماءهم . بل اقام غردون ــ باعترافه ــ حكومة ارهابيــــة للقضاء على النخاسين ، فكانت عقوباته لهم تصل أحيانا الاعدام والتعذيب البشع . وفي هذا يقول ضرار شالح ضرار في كتابه « تاريخ السودان الحديث » ــ عن آرشر « الحرب في السودان ومصر » ان غردون عندما كان يعجز عن معاقبة تجار الرقيق بالقتل رميا بالرصاص فانه كان يضربهم بالسياط ، ويصادر جميع ممتلكاتهم ، وينزع عنهم ملابسهم حتى يسيروا كما كان آدم يمشي عريان لا يستره شيء » .

ومما لا مجال للشك فيه أن مثل هذه العقوبات القاسية التي شذ بعضها كما ترى قد كره ت الناس في هؤلاء الاجانب المسيحيين الذيــن اعتبرهم البعض كفارا يشنون حربا صليبية على السودانيين بحسبانهم مسلمين . ان فكـرة الاضطهاد الديني من النصرانية للاسلام ــ وفق ما يقول الدكتور محمد فؤاد شكري ــ قد رسخت في اذهان الناس بسبب تأييد العلماء والمشائـــخ السودانيين لها . يقول ميخائيل شاروبيم : « وكان شيوخهم وعلماؤهم يؤيدون لهم ذلك بالادلة المقبولة والشواهد المعقولة ، حتى أصبحت عندهم حقيقــة لا شك فيها ، نكانوا يخفون

ما بقلوبهم من نار التألم والحقد على أعمال الحكومة ويرقبون كل سانحة حتى ظهر محمد احمد المهدي وايقظ الفتنة الراقدة » . والواقع من الامر ان المواطنين قد كرهوا الحكم التركي المصري الذي جاء بهؤلاء الاجانب القساة .

ولقد ذكرت آنفا ان هــؤلاء الاجانب قد اتهموا بعــــدم الاخلاص لوالي مصر ــ مخدمهم ــ وباثارة السودانيين ضد الحكم المصري لشيء في انفسهم . ورد في كتاب « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » لمؤلفه عبد الرحمن الرافعي بك ما يلي : « ان هؤلاء الاجانب لم يكونوا صادقي النية نحو مصر بل كانوا يثيرون بأعمالهم ومظالمهم أيضا روح الكراهية في نفوس الشعب وقــد انتهزوا أوامر الحكومة بمنع تجارة الرقيق ، فحاربوا هذه التجارة بكل عنف وقسوة ، مع علمهم ان هذه الحرب تثير كراهية فريق كبير من الاهلين ، وتدفعهم الى مقاومة الحكومة » .

مهما يكن من امر فان توليه الحكومة بعض الاوربيين المناصب الكبيرة قد اثار السودانيين ضد الحكم القائم ، ودفع تجار الرقيق الى الاختفاء في مواطــن الرق القديمة وهي بحر الغزال ودارفور . مما ادى الى نشوب الثورات هنــاك كثورة سليمان الزبير وغيرها ، والى اشتراك تجار الرقيق في اشعال الثورة المهدية نكاية في الحكومة التي اذلتهم وضيقت عليهم الخناق .

(٧) احتكار تجارة العاج :

هناك سبب لا يغفل وهو احتكار الحكومة لتجارة العاج أوسن الفيل ــ هذه السلعة التي كانت مصدر دخل كبير للذين مارسوا التجارة منذ أقدم العصور . وقد اتخذ غردون باشا هذه الخطوة عندما جاء الى الخرطوم بعد أن تم اختيـاره مديرا لخط الاستواء .

أصدر غردون في ١٧ مارس ١٨٧٤ قرارا باحتكار العاج لحساب الحكومة . واية ذلك أن العاج كان ــ على نحو ما علمنا ــ القناع الذي أخفى تجار الرقيق خلفه ممارسة الرق وتجارة الرقيق . وبمقتضى هذا القرار ايضا لا يحق لاي تاجر ــ كائنا من كان ــ أن يذهب الى خط الاستواء الا بتذكرة من الحكمدار . كما منع ادخال الاسلحة النارية والبارود . ومن يخالف هــذه الأوامر يقع تحت طائلة القوانين العسكرية الرادعة . يقول الدكتور شكري عن هذا الأمر : «كان هذا القرار مــن العوامل التي ساعدت في النهاية على قيام الثورة المهدية بعد ذلك . والسبب في هذا انه لما صار محتما أن يحصل جميع التجار سواء من تجار الرقيق أم من غيرهم على

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » ص ١٣٨

تصريح (تذكرة) خاص يمكنهم من ارسال مراكبهم في النيل الأبيض الىمديرية خط الاستواء ، فقد ترتب على التشدد في تنفيذ هذا الاجراء ان تعطلت الملاحة في النهر الذي اغلق الان في وجه التجارة الحرة (المشروعة) . مما الحق الاذى بتجارة السودان عموما . زد على ذلك أن تعطيل نشاط التجار سواء كانوا من تجار الرقيق أم من اصحاب التجارة لم يلبث ان سبب تذمرهم مـن الحكومة .. التي صاروا يتحهزون كل فرصة لمقاومتها ، ويعملون لتقويض أركانها . وكان تجار الرقيق على وجه الخصوص هم الذين آزروا محمد احمد المهدي واشعلوا الثورة في السودان» (١)

ان الحكومة بلا ريب قد كسبت ماديا بتحويل ارباح العاج من جيوب التجار الى خزانتها . بيد انها خسرت كثيرا أدبيا أو معنويا بسخط أولئك التجار وحقدهم عليها . وكان من الطبيعي أن ينضموا لصفوف الثوار ضدها . كتب شايي لونج (أمركاني في خدمة الجيش المصري) في هذا الموضوع فقال : « ان أمر غردون باحتكار محصول العاج قد أثار تجار السودان على الحكومة ، هـؤلاء التجار كانوا سادة السودان الحقيقيين ، فكان هذا العمل المنطوي علـى الظلم هو النواة الأولى للثورة المهدية . وكانت ادارته فوضى . وبالجملة فقد تولى حكم السودان والأمن واليسار يسودانه ، ولما غادره سنة ١٨٧٩ كان ينوء تحت اعباء الديون ، والثورة تتمخض في احشائه » (٢) .

من هنا نعلم ان تلك الخطوة من جانب غردون لاحتكار تجارة العاج لم يحالفها التوفيق ، بل جرت على الحكومة الوبال .

(٨) العامل الديني

لا نزاع أن دعوة محمد احمد المهدي قد استندت على فكرة المهدي المنتظر . وهذه الدعوة مألوفة لدى العالم الاسلامي ، وبصورة خاصة لدى الشيعة الذين شايعوا عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه . فمنهم من آمن بعصمة الامام ، وانتظروا رجوعه ، والرجعة ، جزء لا يتجزأ من معتقداتهم .

ويرى بعض المؤرخين أن افكار الشيعة وتعاليمهم مثل الرجعة والعصمة (عصمة الامام) وما الى ذلك ، تعود الى ما اصاب الشيعة من مرارة بسببالهزائم والوان الاضطهاد التي قاسوها في ابان خلافة الامويين والعباسيين ، والى عجزهم عن استرداد الخلافة لابناء علي واحفاده ، واقامة دولة علوية . ومن هنا فهميتمنون

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » (١٩٦٣) ص ١٣٤

(٢) شايي لونج « مصر ومديرياتها المفقودة » ص ١٨٦ (نقلا عن « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » للرافعي) .

او يمنون انفسهم برجعة الامام او الائمة المستورين في وقت من الاوقات . وقـد وضع مدعو الشيعة ـ وكانوا في غاية الذكاء والفطنة ـ وضعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاحاديث ما يؤيدون به مذهبهم . كما وضعوا أقوالا نسبوهـا (زورا وبهتانا) الى ائمة الشيعة أمثال جعفر بن محمد الصادق . من ذلك ما قاله الناووسية وهم من فرق الامامية ان جعفر الصادق قال : « لو رأيتم رأسي يدهده عليكم (يدحرج) من الجبل فلا تصدقوا ، فاني صاحبكم صاحب السيف » (١) . وتفسير ذلك انني راجع اليكم !

اما السنيون (أهل السنة) فان فكرة المهدي المنتظر معروفة ايضا لديهم . بيد أن المهدي عندهم لا يمت الى العقائد بصلة وتظهر الفكرة بين ظهرانيهم فـي أيام المحن والكرب والبرحاء ، وآية ذلك انه في نظرهم المنقذ مما يعانون من بلايا ، وهو الذي يملأ الارض عدلا بعد أن ملئت جورا ، وهو هادي العالم الاسلاميبأسره الى صراط مستقيم . وظهور المهدي المنتظر عند البعض مرتبط بقرب نهاية هـذه الدنيا . ويعتقـد البعض ان السيد المسيح عليه السلام سيعود الى الارض عقب ظهور المهـدي .

ومن الاحاديث التي وردت في حتمية ظهور المهدي المنتظر ما روي عن بعض السنيين والشيعة قوله عليه الصلاة والسلام : « لو بقى للعالم يوم واحد لمده الله ليرسل رجلا من عترتي اسمه كاسمي واسم ابيه كاسم ابي يشيع العدل ويرفع الظلم ويتبعه المسلمون » . مـن هنا يتضح أن المهديـة في جوهرها دعوة دينيـة تستهدف الاصـلاح .

والسودان كجزء من العالم العربي الاسلامي ، قد وجدت فيه فكرة المهديـة واعتقد فيها اهله . فلما نادى محمد احمد بمهديتهصدقه كثير من الناسلتحرقهم شوقا الى المنقذ ، ولما تحلى به من الصدق ومكارم الاخلاق . فمنذ أيام الخلوةكان محمد احمد كثير الزهد والتقشف والتعبد . وكان يقوم الليل ويصوم النهـار . وكانت نفسه مفطورة على التشيع للدين والغيرة علـى الاسلام والمسلمين . ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر أبياتا مما قاله أستاذ المهدي الشيخ محمد شريف فـي قصيدته المشهورة عن المهدي :

وكم صام كم صلى كم قام كم تـلا   من الله لا زالت مدامعه تجـري
وكم بضوء الليـل كبـر للضحـى   وكم ختم القرآن في سنة الوتـر
لذلك سقى من منهل القوم شربة   بها كان محبوبا لدى الناس فيالبر

(١) الشهرستاني (الملل والنحل) ج ١ ص ١٤٨ (نقلا عـن « التاريـخ الاسلامي والحضارة الاسلامية) » للدكتور احمد شلبي ج ٢ ص ١٤٤ .

ويقول اسماعيل عبدالقادر الكردفاني في وصف المهدي : « أوسع الناس صدرا واصدقهم حجة والينهم خلقا واكرمهم عشرة لا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح متحلقا بأخلاق القرآن الكريم .... الى قوله « ذا حلم وعلم وصبر وشكر وعدل وزهد وتواضع وتقوى وحياء ومروءة وجود وشجاعة وصمت الا عن ذكر الله وتؤدة ووقار ورحمة بالمؤمنين » (١) .

ما من ريب أن هذه الاخلاق أشبه بأخلاق الانبياء ، فليس بمستغرب أن يلتف حوله الاهلون ، وكثير من السودانيين كانوا يتوقون لظهور المهدي المنتظر (صاحب الوقت) لينقذهم من تعاستهم وشقائهم ، وليقيم دولة اسلامية تعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومما يذكر في هذا الموضوع أن بعض المؤرخين المصريين المحدثين يقللون من وزن هذا العامل الديني ، ويظنون ان الناس ــ نسبة لجهلهم قد صدقوا الخرافات، فاندفعوا نحو المهدي . وفي هذا يقول عبدالرحمن الرافعي بك : «واضف الى ما تقدم سببا آخر وهو جهل الاهلين ، وسرعة تصديقهم للخرافات والاوهام .واعتقادهم من قبل بقرب ظهور المهدي المنتظر ، فأقبلوا على دعاوى محمد احمد يصدقونها، ويؤمنون بها ، دون تفكير ولا تحقيق .» (٢)

ومن جهة اخرى فان كثيرا من المواطنين قد صدقوا اقوال المهدي بأنه الموعود بالنصر على اعدائه كائنة ما كانت قواهم . ففي احد خطاباته التي نشرها في مطلع دعوته ورد قوله : « اخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مرارا بحضرة الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام وايدني الله تعالى بالملائكة المقربين وبالاولياء الاحياء والميتين من لدن آدم الى زماننا هذا وكذلك المؤمنون من الجن . وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام جيشي سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الاربعة والاقطاب والخضر عليه السلام وأعطاني سيف النصر من حضرته صلى الله عليه وسلم وأعلمت انه لا ينصر علي معه احد ولو كان الثقلين الانس والجن » (٣)

ان تصديق الكثيرين لمثل هذا القول كان له اثر على انتصارات المهدي ! وآية ذلك انه رفع الروح المعنوية الى اقصى مداها بين صفوف الانصار . ومن ثم كانوا ينقضون كالصواعق على أعدائهم دون ما وجل أو رهبة فهم موقنون بأحد أمرين ، وفي كل خير ، أما النصر أو الاستشهاد فدخول الجنة .

---

(١) الدكتور مكي شبيكة « السودان في قرن » ص ٢٣٤
(٢) عبد الرحمن الرافعي بك « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » ص ٨٩-٩٠
(٣) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ٦٤٥ – ٦٤٦

أسباب نجاح الثورة المهدية :

(١) مطامع الانجليز الاستعمارية

أسلفت الاشارة (في الفصل السادس) الى أن الانجليز كانوا يخططون منذ زمن الى السيطرة على وادي النيل . فهم بعد فتح قناة السويس (١٨٦٩) اخذوا يتلمظون لابتلاع مصر ، والاستحواذ على املاكها في السودان وغيره . ومن دلائل ذلك اقتراح الامير ادوارد ــ ولي عهد انجلترا ــ للخديوي اسماعيل بتعيين صمويل بيكر في السودان ليحارب تجارة الرقيق . فتم له ما أراد بقبول الخديوي وتعيين بيكر حاكما على خط الاستواء عام ١٨٦٦ . كما أن تعيين غردون مديرا على خط الاستواء أيضا (١٨٧٤) قد تم كذلك بايعاز من ادوارد ! وكانت الدلائل تشير الى أن سياسة غردون وأعوانه من الغربيين ، وقسوتهم في الضرب على ايدي تجار الرقيق هدفها العمل على اثارة السودانيين ضد الحكم التركي المصري .

شيء آخر هام هو ان الاحتلال الانجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ ، قد اضعف مصر سياسيا وعسكريا . وليس ادل على ذلك من أن الانجليز بعد القضاء على ثورة عرابي، قد سرحوا جيشه وجردوا مصر « (قوتها الحربية والبحرية) مما ترامى صداه في نواحي السودان ، فأغرى بها الثائرين . وقد حالت انجلترا دون كبح جماح الثورة المهدية ، وأكرهت الحكومة المصرية على اخلاء السودان بحجة عجزها عن اخماد الثورة ، على حين أنها كانت تستطيع لو تركت وشأنها ، أن تقضي على محمد أحمد وثورته » (١) .

على ان هذه مسألة فيها نظر كما يقال . وفي اعتقادي أن ثورة السودان كانت عملاقه كاسحة ، ومن المشكوك فيه كل الشك أن يقف جيش مصر آنذاك أمام سيلها العارم .

وفي تقدير بعض المؤرخين المصريين أن سياسة الانجليز بعد احتلال مصر قد استهدفت نشر الثورة في السودان . ويرجع ذلك الى أن وجود تحركات ثورية في هذا البلد تبيح للانجليز البقاء بمصر ! يقرر الرافعي أن الانجليز قد سعدوا بانتصار الثوار السودانيين على قوات الحكومة ، وان الانجليز كانوا ينظرون بارتياح بالغ الى المد الثوري السوداني العاتي . أضف الى ذلك أنهم لم يتركوا للمصريين حرية القضاء على الثورة بدليل أنهم أبعدوا عبدالقادر باشا حلمي عن حكمدارية السودان لما رأوا انتصاره على بعض الثوار في الجزيرة . ويمضي الرافعي ليختم حديثه فيقول :

---

(١) عبدالرحمن الرافعي بك « مصر والسودان في اوائل عهد الاحتلال » ص ٩١

« فالسياسة الانجليزية هي ولا شك من اهم الاسباب التي ساعدت على استفحال ثورة المهدي تحقيقا لمطامعها الاستعمارية » .

هذه هي وجهة النظر المصرية في الموضوع . ونحن وان كنا لا نملك من الوثائق او الادلة ما يبرهن على صحة هذا الراي المتعلق بارتياح الانجليز وسعادتهم بتقدم الثورة السودانية ، الا اننا لا نستبعد ذلك لاننا موقنون أن الانجليز كانوا قوما استعماريين بنوا لانفسهم امبراطورية لم يعرف التاريخ لها مثيلا — تلك التي لاتكاد تغيب عنها الشمس ! — ومما يقوي التهمة ضد الانجليز انهم استعادوا السودان فيما بعد باسم مصر ، ولكنهم اشتركوا في ادارته ، بل كان لهم نصيب الاسد في الحكم الثنائي !

(٢) اهمال الحكومة شأن الثورة :

عندما جهر محمد احمد بمهديته دعا بالطبع الى تأييدها ، فكتب الى رجال الدين والى محمد رءوف باشا حكمدار السودان بذلك . بيد ان رءوف باشا لم يول المسألة اهتماما ، بل استخف بها ظنا منه ان مثل هذا « الدرويش » لا يؤبه له ذلك لانه ربما تفوه بتمتمات وهو في حالة جذب . والجذب او الانجذاب ظاهرة معروفة بين الدراويش والصوفية عامة ، فهم يشطحون احيانا . وتحضرني بهذه المناسبة شطحات الصوفية الذين يذهب الامر ببعضهم الى القول بأن روح الله قد حلت فيه ، كقول أحدهم ولعله الحلاج : « ما في الجبهة الا الله » مشيرا الى جبته بمعنى انه هو الله سبحانه، وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ! وقول آخر واظنه محي الدين ابن عربي : نحن (الله سبحانه وتعالى وهو) روحان حللنا بدنا ، فاذا رأيتهرايتني واذا رايتني رأيته ! هذه هي نظرية الحلول . اذن حسب الحكمدار ان الحركة لا تعدو أن تكون كلمات يتفوه بها صوفي في غيبوبته !

بهذه السياسة أخطأ الحكمدار في تقدير الثورة المهدية وابعادها ، ومدى قوتها وخطورتها ، بل أخطأ في تقدير أثرها على السودانيين .

على ان رءوف باشا قد تنبه مؤخرا وارسل معاونه محمد بك ابا السعود الى المهدي في الجزيرة ابا ، فوجده مصرا اصرارا لا رجعة بعده على دعوته . فما هي الا ان علم الحكمدار بجلية الامر حتى ارسل الى الجزيرة ابا وابورا فيه قوة قوامها حوالي مائتين من الجنود ليحضروا المهدي بالتي هي احسن ، والا بالتي هي أوحش ان رفض أو حاول المقاومة . واردف هذه الخطوة ببرقية الى خديوي مصر في هذا الشأن . غير أن كل ذلك قد حدث بعد فوات الاوان . وحتى القوة التي انفذتالى المهدي كانت ضئيلة بالقياس الى انصاره المتحفزينالمتلئين حماسة وحمية . فما من عجب اذا سحق المهدي تلك القوة الحكومية . ومن ثم هاجر الى قدير ليتحصن فيها من عاديات الليالي أو من حكومة الخرطوم .

(٣) ثورة عرابي (١٨٨٢)

من المعوقات التي حالت دون التفرغ لقمع الثورة المهدية او الوقوف أمام تيارها الجارف بصلابة انشغال الحكومة المصرية بثورة عرابي التي بدأت في أوائل سنة ١٨٨١ ، واستمرت حتى انهزم عرابي على أيدي الانجليز في معركة التل الكبير في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ .

ومما يلاحظ أن ثمة توافقا زمنيا بين الثورة العرابية والثورة المهدية (١٨٨١) اذ ليس بين نشوبهما الا اشهر قليلة ؛ الشيء الذي جعل البعض يذهبون الىالقول بأن الانجليز هم الذين دبروا هاتين الثورتين ليكسبوا من وراء ذلك الكثير . غير ان هذا الراي لا أساس له من الصحة رغم ان الانجليز قد أفادوا من الثورة العرابية احتلال مصر ، ومن الثورة المهدية فصل السودان عن مصر ثم وضع أيديهم عليه مستقبلا .

وما حدث فأن العرابيين كانت بأيديهم مقاليد الامور في الحكومة المصرية آنذاك . وقد عارضوا ارسال امدادات الى السودان للقضاء على الثورة المهديةفي اطوارها الاولى ، ظنا منهم أن ارسال نجدة الى السودان سوف يضعف القوة العسكرية المصرية . وفي هذا قال عرابي : « ان القوة التي كانت موجودة في جهات السودان كانت تكفي لحفظ النظام فيها ، وانه لم يكن ثمة سبب يدعو الى تعزيزها بالالآي السوداني » . (١) والالآي السوداني هذا كتيبة في طرة سميت بالالاي السوداني ولعلها تألفت من السودانيين .

هذا الموقف من جانب العرابيين في معارضة ارسال كتائب عسكرية الى السودان لنجدة الحكومة هناك أعتبر من اخطائهم وعدم تقديرهم لاهمية السودان بالنسبة لمصر .

وفيما يبدو أن الحكومة المصرية كانت تعتزم ارسال النجدات الى السودان بعد الفراغ من ثورة عرابي . وبهزيمة عرابي استفحل أمر المهدية وانتشرت في البلاد من اقصاها الى اقصاها . وعلى حد تعبير شقير : « لم تنته ثورة عرابي حتى كانت الثورة المهدية قد عمت السودان كله واتسع الخرق على الراتق » .

نلحق بهذا الموقف تردد الحكومة هنا وارتباكها الى أن فات الا وان ، فمنيت بهزائم نكراء وتوالت عليها الضربات الفولاذية حتى اخنى عليها الذي أخنى على لبد !

---

(١) مذكرات عرابي ص ٢٢٣ (نقلا عن مصر والسودان في اوائل عهد الاحتلالالرافعي)

(٤) ضعف الحاميات العسكرية وقيادتها :

لعل من أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الثورة المهدية ضعف الجيش المصري في السودان ، وعدم اقتدار قادته على وضع التكتيكات العسكرية اللازمة لتحقيق الانتصار على الثوار في النهاية . فهذا الجيش قد بلغت عدته ٤٠ر٤٩٠ ، وكان موزعا على خمس عشرة حامية في المدائن المختلفة من دنقلا الى خط الإستواء ، ومن سنهيت وهرر في الشرق الى دارفور . معنى ذلك أن هذه القوات كانت مبعثرة في تلك الأصقاع بعيدة عن بعضها البعض . ومع ذلك فان هذه القوات كانت تفتقر الى الخبرة بفنون القتال . وكما أشار شقير فان هذه الحاميات لم تكن محصنة قبل الثورة ، وحتى بعد تحصينها في ابان الثورة كان في كل حصن خطأ فني أو غلطة دفاعية . ولم يكن كل الاجناد من النظاميين، بل منهم الباشبوزق وكانوا غير متمرنين متمرسين بفنون القتال . وقد « تعودوا الترف والراحة في حين أن أهل السودان مطبوعون على الفروسية والشجاعة ومتعودون على الحرب والنزال . وقد صدقوا المهدي وأحبوا الموت معه في سبيل الله » .(١)

بالاضافة الى عدم تمرس عساكر التركية بالطعان والنزال في حومة الوغى قبل الثورة ، كانت قيادة ذلك الجيش على مستوى لا تحسد عليه من العجز والضعف . وفضلا عن ذلك كانت ادارة البلاد ايضا في يد خائره ، اعني بذلك محمد رءوف باشا حكمدار السودان الذي وصفه الرافعي بك بقوله : « ..... حاكم من أضعف الحكام وأقلهم كفاية وشجاعة ، وهو محمد رءوف باشا ، فان وجوده من اكبر العوامل في ظهور الثورة وانتصارها ، بل هو السبب المباشر لنجاحها الاول » .

لعل من الخير أن نقف على رأي عسكري وسياسي غربي عن الجيش المصري في السودان أثناء الثورة المهدية ، أعني بذلك ونستون تشرشل الذي قال : « ان سلطة الحكومة الطاغية يسندها جيش تافه يعيش بين أناس همجيين متعصبين قد جبلوا على الفروسية والحرب . وكان في امكان تلك القوات المصرية ان تعتمد (في نجاتها) على مقدرة قادتها ودقة نظمهم ومضاء سلاحهم غير أن الضباط المصريين في ذلك الوقت لم يشتهروا الا بعجزهم ورداء مسلكهم الخاص . أن جيش الخديوي بالدلتا حسب المقاييس الاوربية لا يزيد عن كونه رعاعا أو دهماء لسوء تدريبه وخوره . ومع ذلك فان الحثالة من جيش الدلتا كانت تفوق صفوة الجيش المصري بالسودان » (٢) .

---

(١) شقير ص ٦٣٦

(٢) ونستون تشرشل « حرب النهر » ص ١٦

قد يكون تشرشل متحيزا ضد المصريين ولكن المؤرخين المصريين بدورهم قد أدانوا قيادة الجيش المصري هنا ونعوا عليها عدم الكفاية . فلا عجب اذا دكت حصونه تحت جحافل الثوار الابرار من السودانيين الميامين .

تلك جملة أسباب الثورة المهدية أو جلها ، وأسباب نجاحها على الادارة التركية المصرية في السودان . وفي تعليق عن انتصار الثورة المهدية وسقوط التركية السابقة يقول تشرشل : « مثل الحكم التركي المصري في السودان كمثل بيت من الورق (كرتون !) ، فليس العجب أن يسقط ذلك البناء الذي كان بغير عمد ، بل العجب أن يقف شامخا طيلة ذلك الزمن » . (١)

---

(١) ونستون تشرشل « حرب النهر » ص ١٦

الفصل الثامن

محاولات حكومتي الخرطوم والقاهرة لقمع الثورة المهدية

اشتعلت الثورة المهدية على اثر الدعوة التي قام بها محمد احمد بن السيد عبدالله عام ١٨٨١ ، للاسباب التي تقدم ذكرها في الفصل السابع . ورويدا رويدا امتدت ألسنة اللهب حتى استعرت النار واشتد اوارها فقضت على الاخضر واليابس في حقل الحكومة التركية المصرية . وتبعا لذلك تحررت البلاد أخيرا من كابوس التسلط التركي المصري الذي جثم على صدرها مدة تفوق الستين عاما .

وقبل أن نخوض في الحديث عن المحاولات التي قامت بها حكومتا الخرطوم والقاهرة للقضاء على الثورة المهدية يجمل بنا ان نقف هنيهة لنلم المامة قصيرة بالوضع قبل الواقعة الاولى .

دعوة الحكمدار للمهدي :

تيقن محمد احمد انه المهدي المنتظر بعد أن درس علامات المهدية ،وقارنها بواقعه ومن ثم اخذت الرؤى تترى في منامه . فما عتم أن أفضى بها الى صفوته وخلصائه من تلاميذه (حيرانه) واصحابه كعبدالله التعايشي وغيره . حدث ذلك في يوليو ١٨٨٠ . ولم يمض على ذلك حول حتى خطا خطوة أكبر باعلان الدعوة جهارا نهارا على الملأ في مايو ١٨٨١ .

ورغم ان الشيخ محمد شريف قد نبه حكمدار السودان محمد رءوف باشا الى خطورة المهدي ودعوته ، وضرورة تلافيها قبل أن يستفحل أمرها ، الا ان الحكمدار على نحو ما علمنا في الفصل السابق ـ قد استهان بالدعوة . بل عزا تحذير الشيخ محمد شريف الى التنافس والجفوة التي حدثت بين الرجلين أو بين المهدي وشيخه . بيد ان الامور قد تطورت ببث منشورات المهدي التي حض فيها الناس على الايمان بمهديته ، وأن الدعوة في جوهرها ان هي الا أمر من سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم . هنا استشار رءوف باشا علماء الخرطوم ليفتوه في

أمر محمد أحمد . وسرعان ما كذبه هؤلاء ، وأشاروا بالقبض عليه . وما هي الا ان اقتنع رءوف برأي العلماء حتى بعث بمعاونه محمد بك ابا السعود العقاد في وابور ليأتيه بالمهدي ولكنه وجد اصرارا على اصرار من الثائر واصحابه ، فرجع أدراجه .

واقعة ابا (أغسطس ١٨٨١)

علم محمد رءوف باشا بجلية الموقف ، فبات القضاء على المهدي مسألة لا محيد عنها . ومن أجل ذلك أنفذ كتيبة صغيرة تألفت من مائتي جندي يقودها أبوالسعود لتلقي القبض على المهدي وتأتي به حيا او تقضي عليه ان حاول المقاومة بحجة ان مسلك المهدي قد اتسم بميسم التعصب الذي يتهدد سلام الجمهور . والحق انه لم يهدد سلامة الشعب ، وانما شكل خطرا على سلطان الحكومة في البلاد . ولكي يخلق الحوافز اللازمة للتغلب على المهدي ، وعد الحكمدار بترقية من يقبض على محمد احمد .

وفي احدى امسيات اغسطس ١٨٨١ ، او على وجه التحديد في الثامن عشر من ذلك الشهر رست باخرة الحملة في جزيرة ابا . وتحت جنح الليل البهيم سار العسكر في وحدتين كل منهما في طريق نحو الهدف المنشود اي القرية التي يقطنها المهدي ، يحدو كل ضابط الامل في ان يظفر بطلبته وبالتالي ينال الترقية والفخار . وعند وصول الفرقتين أطلقت كل منهما الرصاص في اتجاه الاخرى . ومن اجل ذلك سقط بعض جند الحكومة بأيدي جند الحكومة ! وفي وسط تلك الاستراتيجية الخاطئة ، وذلك الخلط العجيب انقض المهدي وانصاره كأسدالغاب على أعدائهم فمزقوهم شر ممزق . ولم يبق للقائد ـ ابي السعود ـ الذي كان قابعا في الباخرة الا ان ينفد بجلده ويعود الى الخرطوم وهو يجر أذيال الهزيمة .

اما رءوف باشا فقد سارع بابراق الخديوي في مصر يطلعه بخبر الثورة وما حل بالجند . وقد ابى الا ان يغمط المهدي حقه وينكر انتصاره ليداري ضعفه ويحافظ على منصبه ، فعلل هزيمة جنده بشفقتهم على المهدي وانصاره المساكين ورفضهم ضرب الانصار بالرصاص ! وقد امرته حكومته بأن يعمل جاهدا على الخلاص من الثائر وصحبه . وبالفعل اعتزم تجريد حملة اخرى الى ابا ، ولكن بعد فوات الاوان.

واقعة ابا كانت فاتحة خير للمهدي أو قل كانت أول الغيث ، وسيواصل بعدها انتصاراته المؤزرة على نحو ما سنرى .

ولقد احدث ذلك الانتصار ردود فعل وآثارا في مختلف الاوساط . وفي هذا يقول ونستون تشرشل : « سرى اثر هذا النجاح سريان الكهرباء في الماء اذ انتشرت الاخبار في ربوع السودان تشير الى أن رجالات المهدي الذين حاربوا بالهراوات قد غلبوا حاملي البنادق والرصاص ، وأن فقيها متواضعا قد هزم عسكر الحكومة .

وعلى ذلك فهذا هو المهدي المنتظر » . (١) ويمضي تشرشل فيقرر أن المهدي قد أفاد وأية افادة من انتصاره ، ولم يبق الا أن ينسحب الى مكان أمين لان الحكومة لن تتركه وشأنه . فارتأى المهدي وصاحبه عبدالله التعايشي الهجرة عن الجزيرة أبا . ومن ثم شد المهدي وأنصاره الرحال الى جبل قدير بكردفان .

محاولات الحكومة لقمع الثورة في غرب السودان :

غرب السودان كان مسرحا كبيرا مثل فيه المهدي دور البطولة في اسمى معانيها، وهو البؤرة التي شع منها نور الحرية على أرجاء البلاد .

وفي نشوة الظفر تحرك المهدي وانصاره تصحبهم نساؤهم وأطفالهم الى جبل قدير . ساروا وعتادهم الصبر وزادهم الايمان لا سيما بعد ان اخبرهم المهدي بان النبي عليه صلوات الله وسلامه قد اشار عليه بالهجرة في قوله : « ان سيد الوجود صلى الله عليه وسلم امرنا بالهجرة الى جبل ماسة بلصق جبل قدير » وكان لا بد للمهدي وانصاره من الهجرة لاسباب منها اولا خشية انتقام الحكومة بتدبير حملة لن يطيقها وهو في وضعه الراهن . ثانيا تيمنا بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وابتعاداً عن مواطن الخطر . ثالثا ليجمع انصارا من البقارة والنوبة الذين عرفوا بشدة مراسهم وحسن بلائهم وعدائهم للحكومة .

وقد اجتمعت حوله قبائل دغيم وكنانة والحسنات ويمموا جميعا شطر الغرب الى ان حطوا الرحال في جبل تقلى حيث أذن لهم الملك آدم بدخول منطقته على أساس اتفاق تم مسبقا بينه وبين المهدي عندما طاف الاخير بالابيض قبل ظهور المهدية . بل ان مك آدم قد أكرم مثوى المهدي واصحابه .

حملة محمد سعيد باشا (سبتمبر ١٨٨١)

تناهت أخبار المهدي وصحبه الى محمد سعيد باشا مدير كردفان ، فقام لتوه على رأس قوة كبيرة من الابيض نحو الجبال ليقضي على المهدي . وكان الاخير قد ارتحل الى مكان حصين يدعى « بطن أمك » كناية عن الامن والطمأنينة التي يشعر بها المرء داخل ذلك المكان الذي كان مكمنا للمتمردين . وما كاد محمد سعيد يلقي عصاه في حدود تقلى حتى أرعبه الاهلون باطلاق الرصاص في حندس الليل البهيم بين شعاب الجبال وقممها ، مما خلق دويا هائلا ورجع صدى مخيفا .وادعى القوم أن ذلك الرصاص قد انطلق من اسلحة المهدي ! وما أن علم محمد سعيد هذا حتى آثر الفرار والسلامة ، فرجع الى الابيض في ٢٥ ستمبر ١٨٨١ . على حين أن الانصار قد لحقوا مؤخرا تلك الحملة فأصابوا منها بعض الغنائم .

---

(١) ونستون تشرشل (حرب النهر) (١٩٦٤) ص ٣١

وهكذا فشلت تلك المحاولة التي قام بها محمد سعيد باشا لقمع الثورة المهدية.

استطرد المهدي بعد ذلك السير نحو قدير . وقد قابله الملك ناصر بالحفاوة والاكرام ، وتكاثر أنصاره من الجزيرة وكردفان وجبال النوبة استجابة للنداء الذي وجهه الى المواطنين في شتى انحاء البلاد للجهاد في سبيل الله ، والذي اشتمل على آيات كريمة واحاديث شريفة نذكر منها قوله عليه الصلاة والسلام : « من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبرا من الارض استوجب الجنة » .

حملة راشد بك (ديسمبر ١٨٨١)

نما الى علم راشد بك أيمن ــ مدير فشودة ــ خبر المهدي بجبال النوبة التابعة لمديرية فشودة . ولما كان جبل قدير يبعد عن فشودة بمسيرة خمسة أيام ، فقد قرر راشد بك ان يهاجم المهدي علما بأن الحكمدار رءوف باشا لم يسمح له بذلك . ولكنه صمم على أن ينال شرف القبض على المهدي وتفريق جمعه .

زحف راشد على رأس تجريدة قوامهما اربعمائة من الجنود المنظمة وحوالي الألف من رجال الشلك ومعهم زعيم قبيلتهم .

أزمع راشد بك أن يحيط الحملة بسياج صفيق من الكتمان ليأخذ الانصار بغتة وهم لا يشعرون . بيد أن أمرأة كنانية تدعى رابحة قد جهدت في أن تنقل الخبر الى المهدي ، فكشفت سر الحملة . فما كان من الانصار الذين بلغت عدتهم ثمانية آلاف من الرجال الا ان اعدوا للامر عدته .

دارت رحى معركة عنيفة في ٩ ديسمبر ١٨٨١ في غابة قرب جبل قدير حيث أخذ المهدي أعداءه على حين غرة ، فخر راشد ومعظمهم رجاله صرعى ، وأسرت بقيتهم ، وقليل من نفد بجلده ونجا من الموت أو الاسر .

كان لواقعة راشد أثر كبير في البلاد اذ طار صيت المهدي وجاءته وفود المبايعين تترى . وفي هذا يقول شقير : « انتشر خبرها في اقطار السودان الاربعة وشاع أن المهدي يحارب بسيف القدرة ويحول رصاص العساكر الى ماء فلا تضر بأنصاره ، وان النار خرجت من حراب الانصار وسيوفهم فأحرقت أجسام العساكر . وروى بعضهم أنهم رأوا بأعينهم اسم المهدي مكتوبا على ورق الشجر وبيض الطير في البرية » . كما غنم المهدي كمية لا يستهان بها من السلاح والذخائر .

على هذا النحو فشلت مجهودات الحكومة التركية لقمع الثورة المهدية للمرة الثالثة .

حكمدارية عبد القادر باشا (١٨٨٢ – ١٨٨٣)

انتصارات المهدي المتتالية كان لهـا صدى كبير في الاوساط الرسمية وغير الرسمية في البلاد . ولقد ذهل محمد رءوف ، وطفق يرسل في طلب المدد من مصر ، في وقت كانت حكومة القاهرة تواجه ثورة عرابي ، ولم تشأ أن تبعث بجنود الحكومة للسودان . وكما تشير بعض المراجع فان الحكومة المصرية القائمة آنذاك قد رمت الى كسب ثقة العرابيين الذيـن كانوا يرفضـون ارسال أي عساكر أو ضباط الى هذه البلاد لكيلا يضعف ذلك من قوة الجيش المصري . فالعرابيون كانوا يخشون نفوذ الانجليز على مصر ، فلا مناص لهم اذن من استبقاء الجيش كاملا غير منقوص.

ولقـد عزت الحكومـة المصرية آنذاك (وزارة البارودي) انتصارات المهدي وهزائم « الحكومة » هنا الى ضعف الحكمدار وسوء تدبيره . ولهذا عزلت رءوف باشا من منصبه ، فغادر الخرطوم في أوائل مارس ١٨٨٢ . وعينت عبد القادر باشا حلمي حكمدارا على السودان ، فتسلم مهام منصبه في مايو من العام نفسه .

واقعة الشلالي (مايو ١٨٨٢)

قام بتصريف أعباء الحكمدارية بعـد نزول رءوف باشا جيقلر الالماني (احد الأجانب الذين عينهم غردون في السابق) وهو مفتش عموم تلغرافات السودان .

ابرق جيقلر الحكومة المصرية يرجوها السماح له بانفـاذ حملة للقضاء على المهدي قبل أن يزداد منعة على منعة ، ويتعذر قمع ثورتـه ، فأذنت له . وسرعان ما جرد حملة قوامها « ثلاثة عشر بلوكا من الجنود النظامية و ١٥٠٠ رجل مـن الباشبوزق والخطرية مـن عساكر الخرطـوم وسنار والأبيض » . وعقد لواءها ليوسف باشا الشلالي . ويوسف باشا هذا كنزي من مواليد السودان ، عمـل بالتجارة في الجنوب . ويقال انه كان ذكيا مقداما ، وواثقا من أنه سيحقق ما فشل راشد بك أيمن في تحقيقه .

زحف الشلالي من فشودة نحو الغرب ، وكان المهدي ملما بخبر هذه الحملة من الأنصار الذين انضموا اليه مؤخرا من البلاد النيلية . فعمل على مراقبة حركات الحملة وسكناتها ، فبث عيونه لكيلا يباغت فيحدث ما لا تحمد عقباه .

ارتأى الشلالي أن يراجع المهدي بالحجة والمنطق أولا علـه يترك ذلك الأمر فبعث اليه برسالة استعان على كتابتها بالعلماء الذين رافقوه . وكـان رد المهدي مفعما بالتحدي والثقة خاصة وان عدد انصاره بلغ خمسة عشر الفا مـن المقاتلة . فلم يكن بد من ان يواصل الشلالي مسيرته حتى جبـل الجرادة حيث بنى جنده زريبة شغلوا بصنعها كل الليل ، ولم يذوقـوا نوما حتى مطلع الفجر اذ داهمهم

المهدي . فالتقى الجمعان في واقعة رهيبة تعتبر من اشد المعارك في حروب المهدية . وقد أحاط الانصار اعداءهم قتلا وأسرا ، فانجلت الموقعة عن انقراض جيش الشلالي اللهم الا القليل الذي تفرق بددا .

ومن تحصيل الحاصل أن نبين أن ذلك الانتصار الباهر كان ذا اثر عميق في نفوس المترددين والانصار على حد سواء . اذ تدفق علـى قدير سيل المبايعين . وارتفعت الروح المعنوية كأعظم ما يكون الارتفاع بين صفوف الانصار . واذا أضفنا الى الكسب الادبي الغنم المادي لتبين لنا كيف استطاع المهدي بعد ذلك ان يسير قدما نحو غايته .

يقول ونستون تشرشل عن تفوق المهدي الحربي : « كـان نصرا حاسما اذ سقط جنـوب كردفان تحت قدمي فقيه ابا . واستولى علـى كثير من الأسلحة والذخائر ، وسارعت الألوف من كل صوب وحدب تبغي الانضمام الى صفوفه . ولم يخامر احد الشك في انه رسول العناية الالهية الذي بعث لخلاصهم من جلاديهم. وقد ثارت القبائل العربية في كل انحاء السـودان ، واندلعت نيران الثورة في وقت واحد في كل من سنار ودارفور ، ثم انتشرت في الاصقاع النائيـة . ومن ثم لاقى الاداريون وجامعو الضرائب في المراكز الصغيرة حتفهـم . ولـم تبق الا الحاميات الكبيرة في المدن الرئيسية وسرعـان ما حوصرت هـذه ، واضطربت المواصلات ، وتحدى الجميع السلطات ولم يلق السمع والطاعة الا المهدي » (١) .

وعلى ذلك فان محاولة الحكومة لقمع الثورة المهدية قد منيت بالفشل .

المهدي يتحول للهجوم

تغير موقف المهدي بعد هزيمة الشلالي النكراء من الدفـاع الى الهجوم ولقد غنم المهدي الكثير جدا من الناحيتين المادية والادبية ، وبـات موقنا ان في وسعه ان ينهي عهد الاحتماء ويبدأ طور الاعتداء .

والآن، ورغم ان التسلسل التاريخي يقتضينا أن نلقي نظرة علىالثورة في الجزيرة الا انني افضل أن افرغ من غرب السودان ثم أعود الى الجزيرة والشرق .

حصار الأبيض (١٨٨٢)

اسلفت الاشارة الى ان جنوب كردفان قـد سقط في أيـدي الثوار ، وبعـد الانتصارات الباهرة التي حققت في واقعتي راشد والشلالي ، وبعد أن وضع الانصار

[1] W. S. Chur chill, The River War, [1964] P. 33.

ايديهم على كثير من الاسلحة والجبخانة وما الى ذلك من الغنائم ، واعتزم المهدي ان يغزو الأبيض عاصمة كردفان .

وفيما تشير المراجع فان للمهدي أنصارا ومريدين ذوي مال ومكانة مرموقة في الابيض أمثال الياس أم برير الجعلي — من كبار التجار — ومن الذين كاتبوا المهدي وحثوه * وأحبابه — كما يحلو له أن يسميهم — . وكانت عدتهم زهاء العشرين الفا ، اتجه بهم صوب الابيض في ٢٨ يوليو ١٨٨٢ ، ولم يتخلف منهم الا من أقعده المرض أو الهرم ، فتركهم في قدير ومعهم كل الأسلحة النارية التي غنمها على أساس أنها غير ضرورية ! ولما اقترب من الأبيض كتب خطابين : الى محمد سعيد باشا مدير كردفان وقادة الجيش ، والآخر الى سكان الأبيض يطلب اليهم جميعا التسليم ابتغاء السلام .

كان رد محمد سعيد باشا على خطاب المهدي شنق رسولي المهدي ! أما الموالون للمهدي من سكان المدينة فقد تسللوا اليه تحت جنح الظلام .

موقف الأبيض العسكري حسب رواية شقير أن بها من الجنود زهاء الستة آلاف من الجند . ولما كان هذا العدد غير كاف لحماية السور الذي شيد في بدء الحصار ، فقد عمل المسؤولون على حفر خندق داخل السور وصنعوا زريبة خلفه ربطوا عليه الابراج لمراقبة تحركات الثوار .

واقعة الأبيض (٨ سبتمبر ١٨٨٢)

رفض محمد سعيد باشا وعسكره في كبرياء وصلف التسليم للمهدي ، بل أعدم محمد سعيد رسولي المهدي كما تقدم . وعلى ذلك باتت الحرب أمرا لا معدي عنه . وفي هذا الاثناء بلغ عدد الانصار حوالي الخمسين الفا بعد ان انضم الى المهدي بعض قادة جيشه امثال المنة اسماعيل .

وفي فجر يوم ٨ سبتمبر حمل الانصار على حامية الابيض ، وليس في ايديهم الا السلاح الأبيض بعد سلاح الايمان . فما كان من جند الحامية الا ان امطروهم بوابل من نيران المدافع والصواريخ والبنادق . بيد أن الموت لم يفت في ساعدهم ، وفي هذا قال شقير رواية عن ضابط شهد الوقيعة : « امطروا عليهم من الرصاص ما كاد يحجب الشمس فحصدتهم النيران حصدا ولكنهم لم يزالوا يقتحمونها بجراة وثبات غير مبالين بالموت ، والعساكر توالي رميهم بكرات المدافع ورصاص البنادق حتى سد الدخان الفضاء » . ويسترسل الراوي فيحدثنا ان الانصار مضوا في غير ما وجل نحو غايتهم يوالون الهجوم الكرة بعد الكرة . وفي هذا اعتراف واضح ببسالة السوداني واقدامه .

ولقد انجلت المعركة ، واسفرت عن نتيجة مؤسفة للغاية بالنسبة للأنصار

* وحثوه على غزو الابيض . لذا خرج المهدي وأحبابه — كما يحلو ... انظر السطر الخامس من أعلا الصفحة .

اذ سقط فيها عشرة الف شهيدا من بينهم شقيقا المهدي محمد وعبدالله ، والقاضي احمد ود جبارة قاضي الاسلام والشيخ ادريس شاعره وكاتبه وغيرهم .

على هذه الصورة الفاجعة خسر المهدي المعركة ، فانسحب ريثما يستعيد قواه . وكما بدا فان هذه كانت اول وآخر معركة كبرى يخسرها المهدي . وبعد ايام قلائل قال لاصحابه : « أمرني سيد الوجود بمحاصرة مدينة الأبيض الى ان يسلم أهلها او يهلكوا جوعا » . فبدأ حصار الأبيض من معسكر شيده في موضع يسمى الجنزارة .

حصار بارة

بعث المهدي من معسكر الجنزارة بالمنة اسماعيل احد قادة المهدية والأمير رحمة ود منوفل بجنودهما لاستلام حامية بارة . فأخذا يحاصرانها . وفي هذا الاثناء وصل مدد من الخرطوم وهو عبارة عن عساكر من النظامية والباشبوزق بناء على طلب محمد سعيد باشا . وهذه تعتبر احدى محاولات الحكومة لقمع الثورة المهدية في غرب السودان .

وقد داهم الأمير رحمة هذه الكتيبة وقتل منها ما ينوف على الألف مقاتل ، وانضمت البقية الباقية من هذه النجدة الى حامية بارة .

ولأن المهدي قد آمن بضرورة السلاح الناري وخطورته بعد معركة الابيض فقد امر باحضار الاسلحة والجبخانة من قدير ، واعطى بعضه لمحاصري بارة فضغطوا الحامية ضغطا شديدا وحرموا على اهلها الخروج حتى أكل اناسها الحمير والكلاب والجلود! اخيرا كتب المسؤولون في الحامية الى المهدي ليرسل اليهم اميرا لاستلامها. فبعث اليهم الامير عبد الرحمن النجومي فاستلمها في ٥ يناير ١٨٨٣ .

بهذا الانتصار كسب المهدي كثيرا اذ ارتفعت الروح المعنوية بين صفوفه . وفضلا عن ذلك كان لبارة أهميتها الاستراتيجية لانها تتمتع بموقع هام .

عود الى الأبيض

اومأت الى أن المهدي قد أمر باحضار الاسلحة النارية من قدير بعد واقعة الأبيض التي لعبت فيها المدافع والصواريخ دورا كبيرا في حسمها لصالح اعدائه . وعلى اثر ذلك جند المهدي أسراه من الجهادية السود الذين يجيدون استعمال السلاح الناري ، جندهم تحت راية جديدة اميرها حمدان ابو عنجة . واستطاع هؤلاء ان يحجروا على من في حامية الابيض الخروج حتى نفدت المؤن وجميع انواع الاطعمة . « ودام الحصار على هذا الحال حتى مل العساكر واشتد بهم القحط فأكلوا ما عندهم من الخيل والحمير والكلاب والهررة والفيران ، ثم شرعوا في أكل الصمغ . وقد غلت الاسعار آنذاك غلاء فاحشا حتى بلغ ثمن أردب الذرة نحو ٣٠٠٠ ريال

والحمار ٥٠٠ ريال والفرخة ٤٠ ريالا والبيضة ريالا والفأر ريالين ورطل اللبن ريالين وراس السكر ٥٠ ريالا » (١) .

من البديهي ان يجر سوء التغذيـة في ركابـه الأمراض ، فانتشر فقـر الدم والدسنتاريا وغيرهما . لهذا مات من الجند كثيرون ، وتسلل بعضهم الى معسكر المهدي .

تحت الحاح الجوع ، وبعد أن أصاب المسؤولون يأس قاتـل بسبب تحطيم النجدة من الخرطوم وتسليم بارة ، كتب المسؤولون في حامية الابيض رسالة الى المهدي طلبوا اليه أن يعفو عما سلف ، وبينـوا استعدادهم للمبايعـة . واخيرا تم تسليم الابيض في صبيحة يوم ١٩ يناير ١٨٨٣ .

لست بحاجـة الى تبيين أن المهدي قد أفـاد كثيرا جدا بسقوط كردفان في يديه . فهو الى جانب الكسب الأدبي العظيم وهجرة الاعداد الغفيرة اليه ، قد حصل على كثير من الاموال والاسلحة النارية كما أضاف آلاف الجنود من السود والمصريين الى راية حمدان ابي عنجة وغيره .

حملة هكس باشا (١٨٨٣)

على اثر الهزيمة التي مني بها عرابي في التل الكبير (سبتمبر ١٨٨٢) حلت بالمصريين كارثة الاحتلال الانجليزي لبلادهم . ومع ذلك فقد ظلوا متمسكين بالسودان. هنا ابدت الحكومة البريطانية التي لم تشأ آنذاك ان تتدخـل في شؤون السودان موافقتها على تحقيق هذه الرغبة المصرية . وعلى ذلك اعدت حملة كبيرة مـن مصر قوامها عشرة ألف مقاتلا من فلول جيش عرابي المسرح لحرب المهدي الذي كان يحلو للانجليز والمصريين أن يطلقوا عليه « النبي الكاذب » ونحن لا نعجب اذا نعتوا البطل المغوار بذلك ، فهم جميعا كانوا موتورين من ناحيته .

ورد في سيرة هكس انه عمل بالجيش الهندي ، وشهد عدة وقائـع في الهند والحبشة . وفي عام ١٨٨٢ قدم الى مصر بعـد ان تقاعد ، فعين رئيس اركان حرب الجيش المصري ، واخيرا تولى قيادة الحملة التي نحن بصدد الحديث عنها .

ومنذ البداية عارض عبد القادر باشا حلمي حملة هكس . وكان عبد القادر قد رجع الى مصر او استدعته حكومته ، فخلفه علاء الدين باشا حكمدارا على السودان. كان منطق عبد القادر باشا أن تترك كردفان للمهدي « لتضيق به البـلاد تلقائيا » ويركز الجيش للمحافظة على النيل الابيض في فشودة .

(١) نعوم شقير ص ٦٩٨ .

شيء آخر هـو أن تعيين هكس رئيسا لأركـان حرب الجيش في السودان حسب اشتراطه ــ قـد انتقد في بعض الأوساط السياسية . وفي هـذا يقـول عبد الرحمن الرافعي : « كان هذا التعيين بعيدا عن الحكمة ، لان ثورة المهدي كان لها طابع ديني . فلم يكن من أصالة الرأي تعيين قائد أجنبي مسيحي يتولى قيادة الجيش المعد لاخمادها ، لأن مجرد هذا التعيين يثير روح التعصب في نفوس الثوار ، ويزيد من عدد أنصارهم وأشياعهم » (١) .

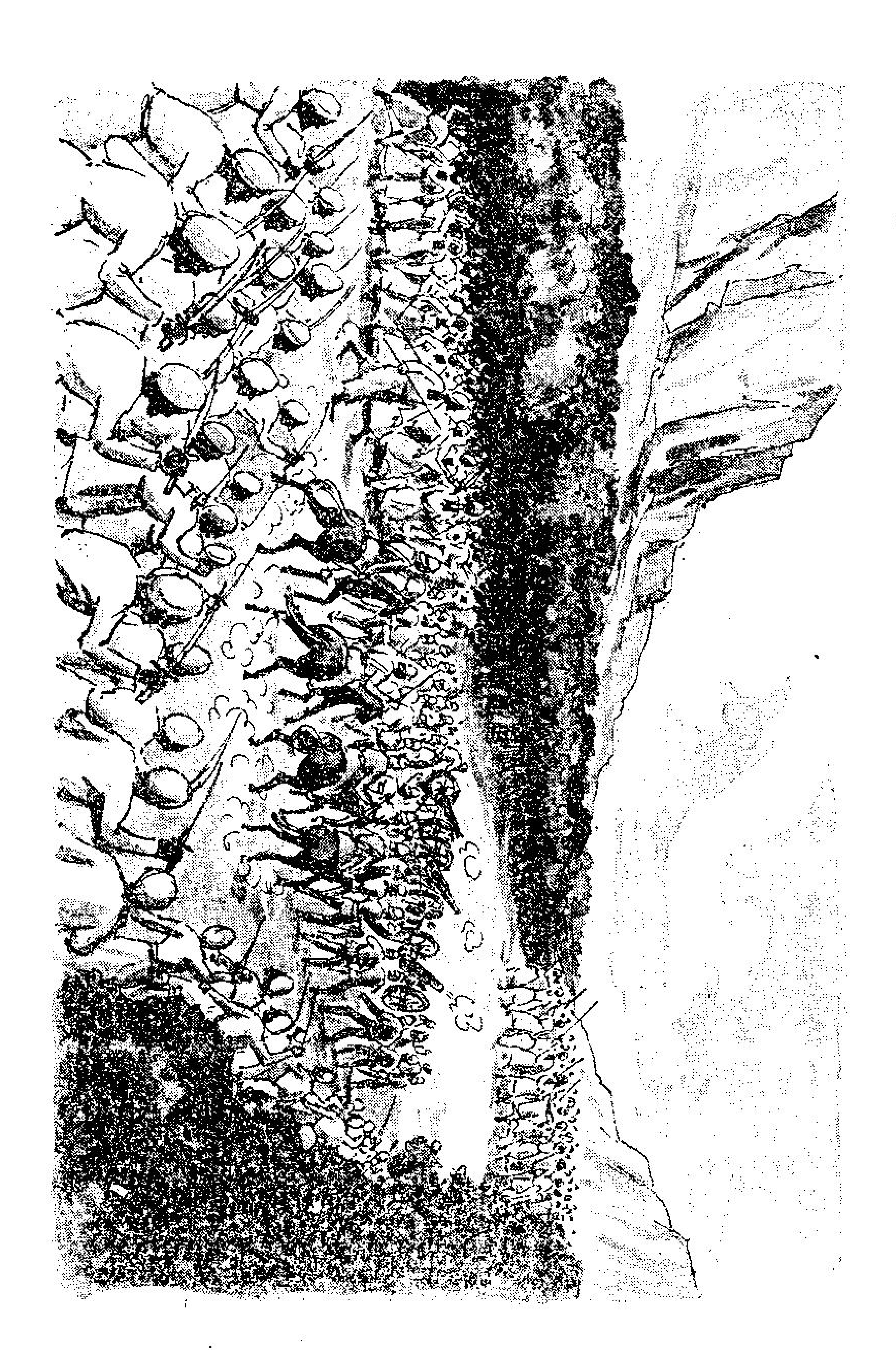
مهما يكن من شيء فقد وصل هكس الخرطوم في ٧ مارس ١٨٨٣ ، فاعتزم ان يقوم بعمليات حربية ضد ثوار الجزيرة في منطقـة الجبلين . وسنناقش هـذا في الحديث عن ثورات الجزيرة .

شرع هكس في اعداد العـدة لمهمته الكبيرة . فجهز علاء الدين باشا حكمدار السودان المؤن ودواب الحمل من خيل وجمال واتن . وبلغ تعـداد الحملة حوالي ثلاثة عشر الفا من المقاتلة . وقد صحب علاء الدين الحملـة قمندانا ثانيا ، وليقوم بتدبير الشؤون الادارية .

بدات الحملة سيرها من الدويم في ٢٤ سبتمبر ١٨٨٣ نحو الأبيض . وفي شات ــ غربي الدويم ــ تركت حامية صغيرة لحفظ الاتصال بالنيل . وكان قادة الحملة يظنون ــ خطأ ــ أن الاهالي سيقدمون لهم المؤن ، ولكنهم وجدوا القرى خالية مـن السكان . ومنذ الوهلة الاولى دب الخلاف بين القائدين الكبيريـن . وبمرور الزمن استحكم هذا الخلاف . وكانت مشاكل الماء تزداد حدة مع الأيام . وما انفك الانصار بقيادة أبي قرجة يناوشون اعداءهـم ، ويمنعون الأهلين مـن الانضمام اليهم أو مساعدتهم في اية صورة من الصور ، ويطمرون الآبار في طريقهم . وحتى المواطنون الذين حملوا رسائل من هكس للخرطوم قد اتجهوا بها الى المهدي !

كانت الروح المعنوية منحطة بين صفوف عسكر هكس لأنهم كانـوا يشعرون بأنهم مساقون لملاقاة حتفهم او للتخلص منهم لأنهم اصلا جند عرابي الذين سرحوا بعد واقعة التل الكبير . وقد هرب من الحملة قبل وصولها الرهد خادم مراسل الديلي نيوز وهو صف ضابط الماني ذهب الى المهدي في الابيض واخبره بأن الحملة ترتعد فرائصها فرقا أو خوفا من لقاء الانصار ، وقـد تملكها اليأس . فاستبشر المهدي خيرا وتفاءل بأن النصر سيكون حليفه (٢) . وكان المهدي قـد بادر جيش هكس بمنشوراته التي طلب اليهم فيها التسليم حقنا للدماء . ونسبة للقنوط الذي تملك وجدان الكثيرين ، هربت منهم أعداد لا يستهان بها طلبا للنجاة .

(١) عبد الرحمن الرافعي بك «مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال» (١٩٤٨) ص ١٠٣
(٢) نعوم شقير ص ٧١٩



ووصف تشرشل حال هذا الجيش فقال : « لعله كان أسوأ جيش سار لحرب . ويكفي أن تنظر الى عبارة واحدة من خطابات الجنرال هكس حيث يقول مرضا في مكتوب بعث به الى السير وود : « لقد هجر واحد وخمسون جنديا من احدى البطاريات الحملة في الطريق رغم انهم كانوا في السلاسل . وأن هؤلاء الضباط والجنود الذين حاربوا في التل الكبير لنيل حرياتهم فهزموا ، قد أرسلوا لملاقاة مصيرهم المحتوم ، وليتغولوا على حريات الآخرين في السودان ؛ وكانوا يفتقرون الى الروح والنظام والتدريب » (١) .

ولقد صمم المهدي على مصادمة الحملة خارج الأبيض ، ومباغتتها في شيكان حيث دخل جيش هكس باشا واديا على جنبيه غابة كثيفة اختبأ فيها الانصار . وبقي ابو قرجة وراء الحملة والنجومي امامها . وبهذا أحاط الثوار أعداءهم من جميع الجهات وأوقعوهم بين كماشة يصعب الفكاك منها . واخيرا وفي ٥ نوفمبر ١٨٨٣ دارت رحى واقعة رهيبة للغاية ، سحق فيها المهدي هكس وعسكره . وعلى ذلك نقد تغلب المهدي واصحابه على قوات الخديوي .

واذا تساءلنا عن الأسباب التي أدت الى هزيمة هكس في شيكان فان الاجابة على ذلك هي ان الأنصار قد عمر قلوبهم الايمان واشربوا حب الاستشهاد وافعمت نفوسهم يقينا بعدالة قضيتهم وثقتهم في النصر أو الشهادة في سبيل الله والوطن . وطوبى للشهداء ! ولم يكن بين الانصار الا أبن كريهة وخواض غمرات .

على النقيض من حالة الانصار فقد كان جيش هكس يرتعد ذعرا وهلعا من المصير المظلم الذي ينتظره . وقد جيء ببعضهم وهم يرسفون في الاغلال ! وكما تقدم فان أولئك الجنود كانوا من فلول جيش سرح وحوكم قادته . وهكس نفسه لا يعرف طبائع عسكره ولغتهم ، بل هو مسيحي يختلف عنهم في دينهم . فكيف يطمئنون الى مثل هذه الشخصية الغريبة عليهم ؟ وفيما تقرر بعض المصادر ان بريطانيا لم تبارك الحملة ، بل ادعت أن هكس ذهب الى السودان لقيادة الجيش على مسؤوليته . وبعد الحملة طفق الانجليز يقولون ان المهدي هزم المصريين ولم يهزم البريطانيين . بالاضافة الى كل ذلك فان هكس ورجاله كانوا يحاربون في أرض لم يألفوا طقسها أو جغرافيتها عامة . ولا يفوتنا ان نذكر التنافر وعدم الانسجام بين القادة ونفور الأهلين من مساعدتهم .

بعد ملحمة شيكان اتضح بما لا يدع مجالا للشك أن المهدي بات له القدح المعلى أو سيد الموقف في غربي السودان . فليس بمستغرب ان يبادر سلاطين باشا

---

(١) ونستون تشرشل « حرب النهر » ص ٣٤ .

مدير دارفور بالتسليم في ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣ لمحمد خالد زقل الذي عينه المهدي عاملا على دارفور . ولم تمض أشهر حتى سقطت بحر الغزال في يد المهدي حينما استسلم مديرها لبتن الانجليزي لكرم الله الشيخ محمد في ٢٢ ابريل ١٨٨٤ . وعلى هذا دان كل الغرب وبحر الغزال للمهدي ، ووقعت في يديه غنائم وأسلاب تجل عن الحصر .

نتائج شيكان

لعله من الخير قبل التحدث عن نتائج شيكان ان نسجل رأيا يقرره بعض المؤرخين المصريين ، وقد اورده عبد الرحمن الرافعي بك وهو أن الساسة الانجليز مهدوا لحملة هكس لتلاقي حتفها لشيء في أنفسهم . وفي هذا يقول : « قوبلت أنباء واقعة شيكان في مصر بالحزن والجزع ، اما في انجلترا فقد قوبلت بالجمود بل بالغبطة ، لأن السياسة الانجليزية هي التي دبرت حملة هكس ، وهي عالمة أن مصيرها الى ما صارت اليه من الهلاك ، لكي تتخذ من هذا المصير ذريعة لتنصح الحكومة المصرية باخلاء السودان ، وبذلك ضحت بهكس وحملته ، كما ضحت بغردون من بعده تحقيقا لمطامعها في السودان » (١) .

من نتائج شيكان أن سمعة الحكومة التركية ، بل نفوذها قد مرغهما المهدي في الوحل . ومن أجل ذلك فان الذين كانوا في حيرة من امرهم تجاه المهدي والمترددين في اتباعه قد فقدوا الأمل في الحكومة فأيدوه طوعا أو كرها . ولم يقتصر تأييد المهدي على السودانيين وحدهم . بل جاءته الوفود تترى من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارته والتأكد من دعوته .

ومن جهة أخرى فان حكومة الخرطوم قد وقع عليها نبأ الهزيمة وقوع الصاعقة، فذهلت وارتعدت فرقا ، وما عتّمت أن سارعت بابراق القاهرة وجمعت جنودها من حاميات فشودة ، والكوة ، شات ، والدويم لتركز على تحصين الخرطوم وتقويتها .

وفيما يختص بحكومة القاهرة فقد وصلت الى نتيجة منطقية وهي أن حبل الأمن قد اضطرب وانفرط عقد النظام في السودان . واذا كان لا بد من اعادتهما فلا مناص من اعداد جيش لجب مدرب كأحسن ما يكون التدريب . وهذا يقتضي تكاليف باهظة وجهدا ووقتا . ومصر لا تقوى على اعداد هذا الجيش آنذاك . لما اصابها من ضعف مادي نتج عن ثورة عرابي والاحتلال الانجليزي . ولهذا فقد قر رأيها على اخلاء السودان .

اما المهدي فما زال مجاهدا لا يكل غازيا لا يمل اذ بعث برسائله في طول

(١) عبد الرحمن الرافعي بك « مصر والسودان » ص ١٠٩

البلاد وعرضها يخطرها بانتصاره ويدعوها لاعتناق مهديته . كما ارسل التجريدات التي أخضعت دارفور وبحر الغزال — فيما أسلفت — والي بربر ودنقلا واشار الى أنصاره في الجزيرة بحصار الخرطوم التي شرع في التحضير لغزوها .

خاتمة

مجمل القول أن المهدي قد استطاع بما أوتي من عبقرية حربية أن يسحق حملة هكس في واقعة شيكان الحاسمة ، كما انتصر في السابق على الشلالي وراشد . ولا نغلو اذا وصفنا المهدي — ذلك البطل المغوار — بالعبقرية الحربية ، وآية ذلك أن العبقرية قد تجلت في تكتيكاته الرائعة واستراتيجيته التي استبهم على أعدائه مأتاها . فهو قد استعمل حرب الدعاية بخطاباته ومنشوراته، أو الحرب السايكلوجية التي لا غناء عنها لكل قائد رشيد . وعمل جهد استطاعته ليخل بتوازن العدو نفسيا وماديا ليزلزل اقدامه في الوقت المناسب وبالوسيلة المثلى . وتلك لعمري آية العبقرية والقدرة حق القدرة التي يقول بها الخبراء الحربيون المحدثون في عصرنا هذا . فما من عجب اذا انتقل من ظفر الى ظفر ، وانعقد له النصر يتبعه النصر الى ان امتلك ناصية الغرب كله . شيء آخر هو أن المهدي لم يسيطر على الغرب بانتصاراته الحربية الباهرة وحدها ، بل اعتقد فيه الكثيرون على انه المهدي المنتظر الذي بعث ليملأ السودان عدلا بعد أن ملئ جورا ، وليحرره من ربقة الحكم التركي المصري الذي كرهوه ، وتيقنوا ان نصره من عند الله تعالى . والمهدي في الواقع لم يكن ميمون النقيبة في ساح القتال وكفى ، وانما تحلى بمكارم الأخلاق وقوة الشخصية ، التي مكنته من استمالة كل هذه المجموعات القبيلية وتوحيدها لتقف صفا واحدا في وجه العدا . فلا غرو فقد هفت نحوه القلوب وفزع اليه المواطنون . اولئك الذين ارادوا أن ينزعوا بأنفسهم عن معرة الهوان ، فانقادوا اليه واصبحوا أطوع اليه من بنانه ، فحرر بهم السودان . وذلك فضل يؤتيه من يشأ والله ذو الفضل العظيم .

ثورات الجزيرة (١٨٨٢ – ١٨٨٣)

الخطوات التي قامت بها الحكومة لقمع الثورة

ثورات الجزيرة في بداية عهدها كانت – وفق ما يقول الدكتور شبيكة – أشبه بحرب العصابات . بيد انها لم تلبث أن تطورت فشكلت خطورة على سلطان الحكومة في ذلك الأقليم .

حركة عامر المكاشفي (أبريل ١٨٨٢)

أسلفت الاشارة الى أن الجموع الغفيرة من ربوع البلاد قد شدت الرحال الى المهدي في غربي السودان – والى مثله تضرب أكباد الابل – بعد أن انعقد له النصر المبين ، وتم له الظفر على أعدائه . ومن بين هؤلاء المهاجرين عدد كبير من العلماء والفقهاء مثلا الفقيه أحمد المكاشفي . ولما كانت الهجرة الى المهدي محظورة ، وأن من يهاجر اليه تعاقب الحكومة أهله ، فقد ألقت القبض على أخيه عامر المكاشفي وزجت به في غيابات السجن . وفيما يظهر انه لاقى في سجنه عنتا وعسفا ، الأمر الذي جعله يحقد على الحكم القائم . فافتدى نفسه بمال ، بيد أنه أضمر الانتقام منها .

جمع عامر عرب رفاعة الهوى (عدتهم ٣٠٠٠) وقادهم للثورة باسم المهدي . فاستجابوا للدعوة ، وحملوا على سنار (٦ أبريل ١٨٨٢) وقتلوا عسكرها واستولوا على خزينتها . ولكن عامرا قد أصيب بجراح اقعدته عن مواصلة انتصاره ، فاسترجع المدير وعسكره الخزينة .

وبعد أيام كر عامر كرة أخرى فقطع خط التلغراف بين سنار والعاصمة ، وحاصر سنار . هنا أصدر جيقلر باشا أمرا الى صالح المك بالكوة لينقذ سنار . وبعد لأي فك حصارها (١٣ ابريل) وأعاد الاتصال التلغرافي بينها وبين الخرطوم . ومن ثم تقهقر عامر الى بركة تيقو ، ومنها هاجر الى المهدي بقدير . وعلى ذلك فان محاولات الحكومة لقمع حركة عامر قد كللت بالنجاح .

حركة الشريف احمد طه (مايو ١٨٨٢)

الشريف أحمد طه من مشائخ الطريقة السمانية بين رفاعة وابي حراز . ولانه تقبل الدعوة المهدية ، فقد أعلنها ثورة شعواء على الحكومة ، فانتصر في البداية على مائة من جند الحكومة الذين ارسلهم اليه جيقلر باشا في أواخر ابريل . فما كان من جيقلر الا ان ارسل قوة أكبر . وكان مصيرها ايضا الخذلان اذ دحرها الشريف في مايو ١٨٨٢ ، وغنم سلاحها .

على أن جيقلر قد قام بحملة كبرى اذ قاد كل ما في حوزته من عسكر ، وانضم اليهم جيش كبير من الشكرية بقيادة زعيمهم الشيخ عوض الكريم بك أبي سن . فداهموا حلة الشريف فانتصرت اسلحتهم النارية . وقد استشهد الشريف في حومة الوغى وسقط رجاله صرعى . فما ان انجلى الموقف حتى احرق جند الحكومة حلة الشريف ، وحزوا راسه ، فعلقه جيقلر في الخرطوم !

على هذا النحو وفقت الخرطوم في القضاء على حركات الثوار في الجزيرة .

عبد القادر باشا

وصل عبد القادر حلمي باشا الحكمدار الجديد الى الخرطوم في ١١ مايو ١٨٨٢، فوجد اهلها في ذعر وهلع شديدين لضعف حالة الخرطوم ووجود الثوار قربها . وسرعان ما شرع في تحصينها بخندق امتد من النيل الازرق الى النيل الابيض ، وشيد فيه الابراج ووضع عليها المدافع . ثم جند العسكر ودربهم على فنون القتال . مما طمأن الخرطوميين على حياتهم .

حركات ثورية اخرى

بنهاية حركة الشريف احمد طه انتهى ما سمي بحرب العصابات ، وهدات الجزيرة . ولكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة اذ قامت ثورات أخرى قادها رجال عاهدوا المهدي على الجهاد من هؤلاء ود الصليحابي الذي قاد عربان رفاعة الهوى وهزم بهم جنود الحكومة – اولئك الذين انفذهم عبد القادر باشا حلمي – في واقعة الجبلين في يوليو ١٨٨٢ .

احمد المكاشفي

من الثوار وكبار الدعاة الى المهدية احمد المكاشفي . بعث به المهدي بعد واقعة الشلالي لنشر الدعوة في الجزيرة . عرج وهو في طريقه الى الدويم على حامية شات ،

فقضى على من فيها (٨ أغسطس ١٨٨٢) مـن العساكر . ثـم واصل سيره نحو الشرق .

وفي الدويم حاول أحمد الكاشفي أن يأخذ حاميتها ، غير أن نيران المدافع قد حصدت ما ينوف على الألف من رجاله ، فتركها واستمر في مسيرته نحو سنار . ولكن بعض العربان قد تخلفوا عنه وحاصروا الدويم الى ان رفع عنها الحصار جيقلر الذي أرسله عبد القادر باشا لهذا الغرض .

حركة فضل الله ود كريف (ديسمبر ١٨٨٢) .

هذا فقيه من مشائخ الطريقة السمانية أيضا ثار باسم المهدي في غربي الجزيرة وقطع خط التلغراف بين الكوة والمسلمية . فأمر عبد القادر باشا بانفاذ حملة من الكوة استطاع رجال ود كريف أن يهزموها في واقعة أم سنيطة في منتصف ديسمبر ١٨٨٢ .

واقعة معتوق (٢ يناير ١٨٨٣)

أيقن عبد القادر باشا أن الحرب سجال بين قوات الحكومـة والثوار . وعلى ذلك فلا محيد له من أن يغير ميزان القوة أو يرجح بكفة الحكومـة . وهذا الأمر يقتضي أن ينهض بنفسه . ولهذا تحرك من العاصمة الى المسلمية ، وجمع قوة هزم بها فضل الله ودكريف في واقعة معتوق في غربي الجزيرة .

موقعة الداعي (فبراير ١٨٨٣)

تخلص عبد القادر باشا من ودكريف فيمم شطر مشرع الداعي بشرقي الجزيرة ليقضي علـى ثورة احمد المكاشفي . فالتقى الجمعان في ٢٤ فبرايـر ١٨٨٣ بذيالك المشرع فانتصر جند الحكومة على المكاشفي الذي انسحب من المعركة .

أمر عبد القـادر صالح بك المك بمطاردة أحمد المكاشفي . وفي جبل سقدي مويه دارت واقعة بين الفريقين (٢ مارس ١٨٨٣) لم يوفق فيهـا المكاشفي أيضا فتقهقر الى جهات الجبليين ليجتمع بود برجوب الثائر هنالك .

موقعة التبنة (مارس ١٨٨٣)

ثمة حركة اخرى شبت بقيادة الحاج أحمد عبد الغفار (من عرب كنانه) لحصار كركوج . فما غتم عبد القادر باشا حلمي أن قاد قوة التقت برجالات الحاج أحمد في موقعة التبنة ــ قرب الرصيرص ــ في ٢٦ مارس ١٨٨٣ . وقد انتصر فيها عبد القادر باشا أيضا .

من هذه الانتصارات التي حققها عبد القادر باشا حلمي ــ حكمدار السودان ــ

نخرج بنتيجة هي أن هذا الحكمدار قد استطاع ان يخمد ثـورات الجزيرة رغم أن حكومة القاهرة لم تستجب لرجائه بارسال النجدات . ومن أساليبه التي استعملها في مجابهة الثوار حرب الدعاية التي سبقه اليها المهدي . اذ أمر علماء الخرطوم بنشر الرسائل في تكذيب المهدي ودعوته . ورغم أن المؤرخين المصريين يطنبون في مدحه بحسبانه مقتـدرا وذا عبقرية حربية الا أنـني أرى ان المحك لتفوقه العسكري هو مصادمة المهدي وجها لوجه . أما انتصاره على تلك الفئات القليلة غير المسلحة أسلحة كافية في الجزيرة لا يعتد به أو يعتبر مقياسا لامتياز قيادته .

وقـد استدعي عبد القادر باشا لمصر ، ومرد ذلك فيما يقـال أن حسـاده وشوا به ، والصقوا فيه تهمة هي انه اعتزم أن يستقل بالسودان !

على أن عبد الرحمن الرافعي بك يقرر في كتابه « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » أن الانجليز هم الذين أوعزوا الى الخديوي توفيق باستدعائه . وفي هذا يقول : « خشيت الحكومة البريطانية اذا ترك عبد القادر باشا وشأنه في السودان أن يتغلب على الثورة المهدية ويخمدها ويثبت سلطة مصر في الاقطار السودانية ، وهذا يخالف أطماعها ، لانها انما تريد اكراه الحكومة المصرية على اخلاء السودان . بحجة عجزها عـن الاحتفاظ به . ثـم فتحه مـن جديـد لحسابها بالاشتراك مع مصر والاستئثار بحكمه » .

ومهما يكن من شيء فان عبد القادر حلمي قد غادر السودان في عام ١٨٨٣ ، وخلفه علاء الدين باشا حكمدارا لعموم السودان وملحقاته ، ولم يكن هذا الحكمدار الجديد في مستوى سلفه من حيث الكفاية والاقتدار .

الثورة في شرق السودان

الثورة في شرق السودان صورة أخرى من صور البطولة الرائعة التي قل ان يجود بمثلها الزمان في بلد من البلدان ، لان بطلها عثمان كان بحق اعجوبة الزمان ! فكما ان المهدي قد استبهم مأتاه على اعدائه في الغرب ، كذلك كان عثمان دقنه وصحبه اسد غاب حار في أمرهم العسكريون المصريون والانجليز على حد سواء ! ولم لا وقد هزم عثمان دقنه الجيش الانجليزي المصري ثم دحر فالنتين بيكر واضطره للفرار وقتل الكابتن مونكريف البريطاني واستعصى على الجنرال جراهام الانجليزي !

قصة الثورة في شرق السودان تقودنا بالضرورة الى ترجمة بطلها عثمان دقنه وسأكتفي بالقليل من ترجمته في هذا المقام . ومن احسن ذكرا لحياته ممن استقاها من عثمان دقنه نفسه ، أعني بذلك شقير الذي رآه في مصر بسجني رشيد ودمياط ، وسأله عن حياته وها هي اجابته : « ان اصل أجدادي من اكراد ديار بكر اتوا سواكن مع السلطان سليم الفاتح فاستوطنوها واختلطوا بالهدندوة بالزواج فكان منهم قبيلتنا المعروفة بالدقناب . وقد ولدت في سواكن ونشأت فيها واشتغلت بالتجارة مع السودان والحجاز بالبضائع والرقيق الى ان قام المهدي فنصرته » (١) . فهو اذن نتاج مزيج من الدم الكردي بالدم السوداني (الهدندوي) ، ومن قبيلة الدقناب العريقة التي يقول عنها ضرار صالح ضرار « فهم الذين حاربوا قدماء المصريين والبطالسة والرومان والعرب والأيوبيين ، واخيرا الفتح التركي المصري في القرن التاسع عشر . وهكذا كتبوا تاريخهم بدمائهم التي بذلوها في الدفاع عن اوطانهم منذ فجر التاريخ » (٢) .

يقرر شقير ان عثمان دقنه كان يتمتع بعيش رغيد الى ان جففت منابع الرق واغلقت منافذه فكسدت تجارته وشعر بوطأة الحاجة . وفضلا عن ذلك فان الحكومة قد سجنته هو وأخوه في جده للاتجار بالرقيق . فساء الظن بالحكومة وامتلأ قلبه حقدا عليها . ويقول شقير ايضا : « وكان من المتعصبين في الدين على طريقة المجاذيب فحسب مداخلة الحكومة ببيع الرقيق تعرضا في دينه . فلما سمع بظهور محمد احمد في أبا اخذ يستنشىء اخباره ويستعد للمهاجرة اليه حتى فتحت الأبيض فهاجر اليه وبايعه واظهر له الغيرة المرة على الاسلام والمسلمين وتصديقه لمهديته والاستعداد لنصرته » (٣) .

---

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » (١٩٦٧) ص ٧٤٥ .
(٢) ضرار صالح ضرار « تاريخ السودان الحديث » (١٩٦٦) ص ١٤٦ .
(٣) نعوم شقير ص ٧٤٥ .

ونحن بالطبع لا نتفق مع شقير في ان دقنه قد ثار على الحكومة لمجرد انها سجنته لأن دقنه كان مواطنا غيورا على بلاده حريصا على تحررها . فسيان عنده سجن أم لم يسجن .

هذا جانب من حياة بطل الشرق . ولما كان عثمان دقنه الرجل الصالح للمهمة الصالحة فقد وقع اختيار المهدي عليه ليكون أميرا عاما على جميع بلاد البجة . وزوده برسائل الى مشائخ الشرق من هدندوة وبشاريين وأمرار وحلنقه وغيرهم ، يناشدهم فيها اشعال الثورة ضد الترك لنصرة الحق والجهاد في سبيل الله . وكان من ابرز الذين بايعوه ثم نصروه الشيخ الطاهر المجذوب (بقباب في ضواحي سواكن) كبير المجاذيب في تلك المناطق .

موقعة سنكات (اغسطس ١٨٨٣)

كانت سنكات حامية ذات موقع استراتيجي هام لانها تقع على الطريق بين سواكن وبربر ، ومن يضع يده عليها يسيطر الى حد كبير على ذلك الطريق .

قدم عثمان دقنه رسالة من المهدي الى محمد بك توفيق محافظ سواكن الذي تولى الدفاع عن حامية سنكات آنذاك . وفي تلك الرسالة دعوة لتقبل المهدية . ومع الرسالة اخطار من دقنه لرجال الحامية بالتسليم أو تحكيم السيف بينهما فحاول توفيق بك ان يحتال بطلب مهلة ريثما يرفع الأمر الى رؤسائه ، ولكنه في واقع الأمر اراد ان يكسب الوقت ليحصن الحامية . فما عتم عثمان دقنه أن اكتشف خدعته ، فداهمه برجالات الهدندوة البواسل في ٥ اغسطس ١٨٨٣ ، وهم لا يحملون غير السلاح الأبيض التقليدي . ورغم وابل الرصاص الذي انهمر عليهم الا انهم دخلوا الحامية بقوة سواعدهم . بيد انهم اضطروا الى الانسحاب الى اركويت لاصابة عثمان بجراح عميقة كان لا بد من تضميدها .

موقعة قباب (سبتمبر ١٨٨٣)

فيما يبدو ان انسحاب عثمان دقنه قد ابطر محمد بك توفيق (محافظ سواكن) واغراه بمزيد من الانتصار ، فبعث بحملة للقضاء على دقنه في أركويت . ولأن خبرها قد ترامى الى دقنه وهو يعاني من جراحه ، فقد انفد قوة بقيادة اخيه محمد موسى. فالتقى الجمعان في خور قباب (١١ سبتمبر ١٨٨٣) فحدثت خسائر في الارواح في كلا الفريقين . واخيرا اضطرت الحملة الى التقهقر الى سواكن .

اما عثمان دقنه فقد أشار الى أصحابه بقطع خط التلغراف بين كسلا وسواكن ففعلوا . ومما لا مجال للشك فيه أن في هذا الاجراء ما فيه من استراتيجية واعية .

واقعة أبنت (اكتوبر ١٨٨٣)

انفذ عثمان دقنه قوة لضرب حصار على سنكات ، فزحفت نحو غايتها في ٢٥ اكتوبر . وفي ذات الوقت ، ارسل توفيق بك مددا لسنكات ، فقابلها انصار دقنه في مكان يسمى أبنت . وفي مدى ساعة واحدة قضى الإنصار على كل عسكر الحكومة قضاء مبرما .

واقعة التيب الأولى (نوفمبر ١٨٨٣)

ضرب انصار دقنه حصارا على طوكر ، فقاد محمود باشا طاهر قمندان السودان الشرقي حملة لانقاذ طوكر . وقد اصطحب معه الكابتن مونكريف ـ قنصل انجلترا في جده ـ ليستأنس بآرائه ويفيد من تكتيكاته . غير ان الانصار قد وقفوا لهم بالمرصاد في آبار التيب (شمال طوكر) واوقعوا بهم في ٥ نوفمبر ١٨٨٣ ، وقتلوا معظم عساكرهم ومن بينهم مونكريف الذي سعى الى حتفه بظلفه ، ولم تنفعه خططه الحربية فيها . ولم تنفع أولئك كثرتهم مع أسلحتهم الفتاكة !

ولقد فر محمود باشا بالبقية الباقية من جنده وكان نصيبه أن فصل من منصبه لخوره وسوء تدبيره .

ومن عجائب الصدف أن هذه المعركة التي اطلقوا عليها معركة التيب الاولى ، قد حدثت في نفس اليوم الذي سحق فيه المهدي هكس وحملته ! فكانت نصرا مبينا ، وما النصر الا من عند الله . وبعدئذ حاصر عثمان دقنه سواكن . وبذلك باتت أهم القواعد العسكرية في شرق السودان (سواكن ، طوكر ، وسنكات) محاصرة بالانصار ، الذين ضيقوا عليها الخناق .

واقعة تماي (التمينيب) الأولى (ديسمبر ١٨٨٣)

شفي عثمان دقنه وعوفي من جرحه ، فعوفي المجد والكرم . ومن ثم استأنف جهاده ضد الترك . وما فتىء يغير على سواكن حتى التقت به قوة سواكن يقودها كاظم افندي في ٢ ديسمبر ١٨٨٣ ، فسحقها ولم يبق منها على قيد الحياة الا القليل.

حملة بيكر الى سواكن

واقعة التيب الثانية (فبراير ١٨٨٤)

اطبق دقنه بيده الفولاذية على قواعد الحكومة الثلاث في شرق السودان (سواكن ، طوكر ، سنكات) فضاقت واستحكمت حلقات الحصار . فما كان من الحكومتين الانجليزية والمصرية التين استشعرتا خطر سقوط هذه القواعد في يد

دقنه ، الا ان اقرتا ارسال حملة الى سواكن . ولقد جابهت الحكومة بذلك مشكلة الحصول على مقاتلين ، وآية ذلك ان الجيش القديم قد سحقه المهدي في شيكان ، والجيش الجديد لم يدرب بعد !

ومهما يكن من امر فقد جمعت حملة ، واعطيت قيادتها للسير فالنتين بيكر باشا (شقيق صموئيل بيكر) . وقد اسلفت الاشارة في فصل سابق الى أن الزبير باشا قد جهز لهذه الحملة أورطة من السود ذهب بها الى السويس بهدف الزحف بها على دقنه . وفيما نذكر أن الزبير طلب أن يقود الحملة وحده ، فرفضت الحكومة طلبه فاعتذر ورجع الى القاهرة .

اصطحب بيكر نفرا من رجالات الجيش الانجليزي والمصري وخول سلطة على شرق السودان للقضاء على دقنه واعادة الأمن هناك . يقول شقير « وقد اعطي السلطة الملكية والعسكرية على جميع بلاد السودان الشرقي وعهد اليه في استرجاع الأمن والسلام الى ربوعه على ان يبدأ اولا بالوسائل السلمية فلا يرجع الى القوة الا اذا لم ينجح السلم » .

حاول بيكر الوسائل السلمية حسب التعليمات التي أعطيت له ، ولكنه وجد اصرار على اصرار من دقنه . فأيقن ان استعمال القوة امر لا معدي عنه . فاتجه صوب طوكر التي نفدت ذخائرها ومرض جنودها واوشكت على أن تستسلم .

وفي ٤ فبراير ١٨٨٤ ، وفي واقعة التيب التقى الجمعان . وكان الرعب والهلع يفعمان قلوب عسكر بيكر رغم ان عدتهم (٣٦٥٦) كانت تفوق جيش دقنه . وفي هذا يقول نعوم شقير عن الاعداء « لم يحسنوا رمي الرصاص فاخترق الدراويش صفوفهم واختلطوا بهم فازدادوا هلعا وخوفا حتى طرح البعض سلاحهم في الارض وركعوا وبسطوا ايديهم نحو السماء طالبين الرحمة واختبأ البعض الآخر بين دواب الحملة فانقض الدراويش عليهم كالنسور يقتلونهم يمينا وشمالا حتى لم يبق من الجيش سوى ١٢٠٠ رجل فانهزموا الى ترنكتات فعاد بهم باكر الى سواكن » (١) .

وهكذا انتصر عثمان دقنه ورجاله على السير فالنتين بيكر باشا ذي الدربة والخبرة العسكرية الرفيعة بالنسبة لذلك الوقت !

سقوط سنكات (فبراير ١٨٨٤)

تم تحصين سواكن كأحسن ما يكون التحصين ولكن دون جدوى ، وآية ذلك ان الثوار قد ضربوا عليها حصارا محكما الى أن انتهى ما بها من مؤن وغذاءات

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » (١٩٦٧) ص ٧٥٣ .

فاضطر الجنود الى اكل البغال والحمير والكلاب والقطط وشرعوا في اكل الجلود ومضغ اوراق الشجر تسكينا لآلام الجوع . فما كان من توفيق بك الا ان جمع الجنود والرجال والنساء والاطفال وسار بهم نحو سواكن في حالة لا يحسدون عليها من الضعف والهزال من جراء الجوع وسوء التغذية . وما كادوا يقطعون مسافة قصيرة حتى داهمهم الانصار (٨ فبراير ١٨٨٤) وافنوهم ، ولم ينج من الفناء الا بعض النساء والرجال الذين يعدون على اصابع اليد .

حملة جراهام

انكسار شوكة فالنتين بيكر في واقعة التيب الثانية كان له صدى بعيد المدى في الدوائر السياسية البريطانية والمصرية . ومن اجل ذلك صمم البريطانيون على استعادة هيبتهم التي مرغها السودانيون في شخص ضباطهم الذين لقوا حتفهم (هكس ومونكريف) ، والذين اندحروا وهم فالنتين بيكر ومن معه من الضباط الانجليز ولهذا سيروا حملة من مصر قوامها ٤٠٠٠ جندي للسودان بقيادة الجنرال جراهام يصحبه بعض الضباط الانجليز لحماية سواكن وطوكر وللقضاء على دقنه .

ومما يذكر أن بريطانيا في الوقت الذي تحفزت وأرسلت جراهام ليقضي على دقنه وجيشه ، بعثت بغردون الى السودان ليصفي الادارة المصرية باخلاء السودان من الاداريين والموظفين وغيرهم بارجاع هؤلاء الى مصر وترك السودان ليحكمه اهله على نظام الدويلات والمشيخات التي كانت سائدة قبل الفتح التركي المصري ! الامر الذي يدعو الى التشكك في نوايا الساسة البريطانيين !

سقوط طوكر (فبراير ١٨٨٤)

أفاد الثوار من الأسلحة التي غنموها من بيكر وضغطوا بها حامية طوكر التي كانت تفتقر الى الذخيرة . ولم تكد تسمع بهزيمة سنكات حتى خارت حامية طوكر والقت سلاحها في ٢٤ فبراير ١٨٨٤ فاستلمها الثوار .

واقعة التيب الثالثة (فبراير ١٨٨٤)

علم جراهام من جواسيسه بخبر سقوط طوكر ، فنقل الخبر الى حكومته ، فما عتمت أن أمرته بالزحف على الانصار .

بدأ جراهام زحفه من ميناء ترنكتات . ومن جهة أخرى تأهب له عثمان دقنه والانصار في آبار التيب . وقد حاول جراهام في البداية أن يستميل دقنه الى جانب السلم بمعنى أن يستسلم بعد أن أبلى دقنه بلاء حسنا ، وتنقل من ظفر الى ظفر ! الشاهد ان جراهام طلب شيئا مستحيلا ! وعلى ذلك التقى الخصوم في موقعة التيب

الثالثة (٢٩ فبراير ١٨٨٤) وحمي الوطيس ، وكانت معركة رهيبة بالنسبة للفريقين وبصفة خاصة للانصار استشهد منهم فيها قرابة الالفين .

واقعة تماي الثانية (مارس ١٨٨٤)

اعتقد جراهام ان ما حدث لدقنه وجيشه في واقعة التيب الثالثة سيثنيه عن مواصلة الجهاد . فبعث اليه برسالة ينصحه بالتسليم ، فلم يكترث لها عثمان دقنه . ثم اردفها بأخرى فكان رده ان يستعد جراهام للمعركة المقبلة ليلاقي حتفه ان شاء الله . واخيرا التحم الجيشان (١٣ مارس ١٨٨٤) وكانت معركة حامية ايضا سقطت فيها من الجانبين وبخاصة الانصار اعداد هائلة ومن ثم رجع جراهام الى سواكن واعتصم دقنه بالجبال .

اخيرا امرت الحكومة البريطانية جراهام بالرجوع الى مصر . فذهب في ابريل ١٨٨٤ ، ثم لحقه جيشه فيما بعد .

الجدير بالذكر ان الانجليز قد احتلوا سواكن في فبراير ١٨٨٤ على اثر موافقة الحكومة المصرية على اخلاء السودان . مما يقوي اتهام انجلترا بأنها كانت تريد ان ترث مصر في حكم السودان مستقبلا بعد ان تتخلى الاخيرة عن هذا البلد !

اما دقنه فقد رجع الى حصار سواكن والاستخفاف بقوة الحكومة . وتشير بعض المراجع الى ان هدف الانجليز من حملة جراهام هو انهم ارادوا ان يطمئنوا على مركزهم في سواكن ليس الا !

وصفوة القول فان عثمان دقنه قد برهن على بطولة نادرة ومهارة حربية فائقة اعيت منازليه من جند الحكومتين المصرية والبريطانية على السواء ! ويحق لنا معشر السودانيين ان نباهي الأمم بمثل هذه الاشراقات التي تجلت في سيرة المهدي وعثمان دقنه وغيرهما من ابطالنا الأفذاذ . ولا اراني بحاجة لأقول ان دقنه قد رفع راية المهدية خفاقة في شرق السودان . ولم يترك للانجليز فرصة غزو هذا البلد من تلك الناحية الشرقية . ولقد اثنى ونستون تشرشل ـ وهو عسكري اساسا ـ على قوة دقنه وبراعته في فن التقهقر والانسحاب في الوقت المناسب ، ونعته ايضا بالخلود . فاية بسالة كانت بسالته ؟ اي اقدام كان اقدامه ؟!

الثورة في دارفور (١٨٨٤)

سلاطين باشا

ارتبط تاريخ دارفور في الحقبة الاخيرة من التركية بشخصية سلاطين باشا النمساوي الذي كان احد الاجانب الذين عينهم غردون في ابان حكمداريته على السودان . وترجع معرفة سلاطين بالسودان الى عام ١٨٧٤ حينما جاء سائحا وهو في ميعة الصبا (في التاسعة عشر) فذهب الى جبال النوبة لدراسة حياة الأهلين هناك . ومن ثم قدم الى غردون بالخرطوم طلبا للعمل معه في خط الاستواء سنة ١٨٧٤ . ولكنه قبل أن يتسلم عملا ناشده اهله بالرجوع الى وطنه . فغادر السودان في أواخر سنة ١٨٧٥ . ولما تقلد غردون منصب حكمدار السودان طلب الى سلاطين الرجوع للعمل معه. فوصل الخرطوم في ديسمبر ١٨٧٨ . وقد عينه غردون مفتشا على مالية السودان ، فانيط به الطواف بالمديريات ليقف على أسباب شكاوى المواطنين من ثقل الضرائب . وفي تقرير له بين أن الفساد والرشا قد تفشت في البلاد ، وان اصلاح الاوضاع لن يتم الا بتغيير العاملين في هذا الحقل .

بعد ذلك عين غردون سلاطين مديرا على داره . ولما كانت ثورات الفور تقوم من وقت الى آخر منذ فتح دارفور وضمها الى بقية السودان (١٨٧٤) فقد اشترك سلاطين مع ميسيد اليا — مدير دارفور الايطالي — واميلياني مدير كوبي في العمليات العسكرية ضد هرون (الرشيد) حفيد السلطان محمد الفضل الذي ثار ضد الحكومة عام ١٨٧٩ .

وقد عزل محمد رءوف باشا — حكمدار السودان — ميسيداليا مدير دارفور وعين مكانه سلاطين باشا . فوصل الفاشر في ٢٠ ابريل ١٨٨١ . بيد انه لم ينعم فيها باستقرار وآية ذلك أن ابناء الفور لم يرضخوا للأمر الواقع بسيطرة الحكومة على بلادهم وضياع سلطان آبائهم . فشقوا عصا الطاعة عليها . من هؤلاء هرون الرشيد. وعلى عهد سلاطين ثار عبدالله دود بانجه ، واعتصم بجبل مره . كما أن قبائل البقارة في جنوبي دارفور كانت تعصي الحكومة من وقت لآخر وترفض دفع الضرائب .

ومما زاد الطين بلة بالنسبة لسلاطين ان الثورة المهدية قد امتد لهبها الى دارفور . وكان أول من اشعلها الشيخ مادبو زعيم الرزيقات الذي عينه المهدي اميرا على دارفور بعد واقعة الشلالي . وقد استولى على حامية شكا في ١٨٨٢ . وتقدم لينتصر على سلاطين في واقعة أم وريقات قرب داره في اكتوبر ١٨٨٢ .

ثمة معضلة اخرى عانى منها سلاطين الا وهي تواطؤ بعض كبار موظفي الحكومة

مع المهدي امثال محمد خالد زقل ، وسخط جند الحكومة في دارفور على وضعهم وهو ان يكون حاكمهم مسيحيا . وقد أوشكوا على التمرد والبطش بسلاطين على اثر سقوط الأبيض في ١٩ يناير ١٨٨٣ . ولعل الجنود المصريين (من بين الساخطين) كانوا موتورين من وقوع مصر في قبضة الغربيين المسيحيين . ولكيلا يحدث ما لا تحمد عقباه من تذمر الجنود وتمردهم ، اعتنق سلاطين الاسلام لا اقتناعا بمثله ، ولكن ليحافظ على مركزه بينهم ويضمن وقوفهم بجانبه الى النهاية ! وفيما يظهر ان الحيلة قد انطلت عليهم اذ سعدوا باسلامه ، وعادوا لما كانوا عليه من الطاعة والانقياد.

على ان هذا الاجراء لم يجد الا مع العساكر ، اما اهل دارفور فما انفكوا في عصيانهم متمردين . ومن ثم باتت آمال سلاطين معقودة على حملة هكس . فاعتزم ان يتخلص من زقل الذي كان في اتصال مع المهدي (سرا) ، بارساله الى الاخير في الابيض . فقال له فيما قال « اني مرسلك الى الأبيض لمنع المهدي من ارسال جيش الى دارفور أو تحريض اهلها على الثورة . فاذا غلبه هكس واسترد منه البلاد فانا شفيعك عند الحكومة والا فالبلاد من نفسها تسلم للمهدي . وخير له أن يأخذها عامرة من أن يأخذها خربة . وفي الوقت نفسه اعطيك كتابا الى هكس ليعلم بحالنا ويعجل في انقاذنا » (١) . غير أن زقل قد انضم الى المهدي بعد أن وقف على قوة الانصار .

وعلى الرغم من انتصار سلاطين على مادبو في واقعتي كرشو والبوبرة ، ورغم انه عقد صلحا مع مشائخ الرزيقات ، الا أن الطامة الكبرى قد حدثت حين سحقت حملة هكس بشيكان في ٥ نوفمبر ١٨٨٣ . كان صدى هزيمة هكس هائلا في دارفور. وفي تلك الظروف زحف محمد خالد زقل (عينه المهدي عاملا على دارفور) نحو دارفور ، واستولى على أم شنقه .

اخيرا وصل سلاطين الى نتيجة وهي انه لا بد مما ليس منه ، فما عتم ان سلم الى زقل في دارة يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣ . وقد وقفت حامية الفاشر اياما في وجه زقل . بيد انها اضطرت تحت وطأة العطش الى الاستسلام فدخلها الانصار في ١٤ يناير ١٨٨٤ .

اما مصير سلاطين باشا فان محمد خالد زقل قد ارسله الى المهدي ، فلحق به في الرهد وبايعه ، فأطلق عليه المهدي اسم عبد القادر سلاطين وفي سبتمبر ١٨٨٤ سلم ايضا عبدالله دود بانجه (بنقه) الى زقل .

وهكذا سقطت دارفور اخيرا في أيدي المهدي وانصاره .

(١) نعوم شقير ص ٧٣٠ .

أما (عبد القادر) سلاطين فقد ظل ملازما باب الخليفة عبدالله منذ عام ١٨٨٤ الى أن أتيحت له الفرصة فاغتنمها وهرب الى مصر بمساعدة بعض الساخطين على حكم الخليفة . ومن الطرائف التي تروى عن سلاطين ان الانصار عندما كانوا يفاخرون احيانا بشجاعتهم وصولاتهم وجولاتهم في المعارك كعادة العرب السابقين ، كان سلاطين يقول « أنا المصيبة المعلقة بالسبيبة (الشعرة) تنقطع السبيبة وتجيكم المصيبة » . ! ولم يفطن أحد آنذاك الى ما رمى اليه سلاطين . وبالفعل انقطعت الشعرة التي كانت تربطه بدولة المهدية ، فهرب من أم درمان في فبراير ١٨٩٥ ، واستحث الحكومة المصرية على استعادة السودان . وجاءت اخيرا المصيبة – فيما قال – وتم استرجاع السودان !

وبعد هروب سلاطين أطلق عليه الخليفة والانصار (شويطين) ولقد برهن سلاطين اخيرا على انه ليس « شويطين » فحسب ، بل كان شيطانا رجيما لانه كشف مناحي الضعف في حكومة الخليفة عبدالله للراي العام الانجليزي في كتابه المشهور « النار والسيف في السودان » . كتب ونستون تشرشل عن سلاطين وكتابه هذا فقال « اشتهر سلاطين في مديريته وفي ما وراء حدودها بأنه كان جنديا باسلا مقتدرا . ولقد كتب قصة عذابه ومغامراته ، فطبقت شهرتها الآفاق . ولقد تبين لمن اطلعوا على هذه القصة انه كان ذا احساس وشرف » (١) . ونحن نختلف مع تشرشل فيما ذهب اليه عن احساس سلاطين وشرفه وآية ذلك انه اختلق كثيرا من الاكاذيب والافك عن الخليفة عبدالله رغم ان الخليفة كان قد قربه الى مجلسه واطعمه معه في مائدة واحدة . وكان جزاء الخليفة كجزاء سنمار لأن سلاطين كان ألد أعداء الخليفة وأول من طارده بعد واقعة ام درمان ! فأي احساس هذا ، وأي شرف ؟.

ولقد أثر كتاب « النار والسيف في السودان » الذي ترجم الى عديد اللغات الأوربية ، والذي لا يخلو من مبالغة وتحيز واضح ضد الخليفة ، أثر تأثيرا بالغا في الانجليز حتى انهم اعانوا حكام مصر على استعادة السودان عام ١٨٩٨ ، فرجع سلاطين مع جيش كتشنر مساعدا لمدير قلم المخابرات . وبعد أن تمت عملية الفتح كوفيء سلاطين على خدماته بمنصب المفتش العام على السودان بأسره .

(١) ونستون تشرشل « حرب النهر » (١٩٦٤) ص ٥٣ .

تسليم بحر الغزال (١٨٨٤)

اوكل غردون – حكمدار السودان – ادارة بحر الغزال وقيادة جيشها الى لبتن بك احد البحارة الانجليز – عام ١٨٧٩ . وظل بها حتى نشوب الثورة المهدية . وقد امتد شرر الثورة المهدية الى تلك الجهات رغم أن معظم الاهلين هناك كانوا وثنيين!

واذا تساءلنا عن الأسباب التي حدت بزعماء الدينكا (الجانقية والجور) للخروج على سلطان الحكومة رغم وثنية بعضهم ، فان الاجابة على ذلك هي أن هؤلاء قد استهدفوا الخلاص من ربقة الحكم التركي المصري ، ومن سوء معاملة بعض الموظفين والباشبوزق ، ولكي تؤول اليهم السلطة في نهاية المطاف . وفضلا عن ذلك فان الثورة وحمل السلاح بالنسبة للقوم فيها اثارة واشباع لميلهم الطبيعي للحرب في ذلك الوقت . ومن اجل ذلك فان زعماء الجانقية والجور الذين هاجروا للمهدي وبايعوه في قدير عندما سمعوا بانتصاراته ، لم يكن دافعهم دينيا .

بدأت الثورة بعصيان الجانقية قرب بحر العرب عام ١٨٨٢ ؛ فانفذ لبتن قوة لقمع حركتهم . وكانت الحرب بين الفريقين سجالا . وقد ساند الجانقية التجار والمتسببون من الدناقلة ، ومن اشهر هؤلاء كرم الله محمد احمد – احد التجار الدناقلة . وكرم الله هذا قد هاجر الى المهدي في الأبيض وحارب معه في واقعة شيكان ، وبعدها بعث به المهدي على جيش لفتح بحر الغزال .

اعتزم لبتن ان يقاوم كرم الله ، غير ان عساكره وموظفيه لم يؤيدوه في ذلك . وقد بذل جهدا كبيرا لاقناعهم بضرورة الحرب ، ولكنهم لم يستجيبوا لنصحه ، فما كان منه الا ان استسلم لكرم الله في ٢٢ أبريل ١٨٨٤ . ومما يذكر أن لبتن عندما عرض عليه كرم الله الاسلام ، اعتنقه فسمي – حسب اشارة المهدي – عبدالله .

على هذا النحو اخضعت بحر الغزال ، وسقطت في ايدي الانصار . بيد انها لم تدم لهم ، وآية ذلك ان قبائلها قد شقت عصا الطاعة للانصار وثارت ضدهم ، مما اجبر الأمير كرم الله على تركها والتوجه الى جنوبي دارفور . ومن ثم رجعت سيادة زعماء القبائل على مناطقهم الى ان زحف عليها البلجيك فيما بين ١٨٩٢ و ١٨٩٣ . وبعد ذلك خضعت لمارشان الفرنسي الذي سنتحدث عنه في موضعه في الفصل الاخير من هذا الكتاب .

الثورة في خط الاستواء

من الشخصيات البارزة في تاريخ المديرية الاستوائية في الاطوار الاخيرة للحكم التركي المصري الدكتور شنيتزر ، وهو الماني اعتنق الاسلام ، وسمى نفسه محمد أمين . عينه غردون مديراً على خط الاستواء عام ١٨٧٨ . وتلك المديرية بدورها قد امتدت اليها الثورة المهدية . ومما زاد من احتمال وقوع الاستوائية في قبضة الانصار سقوط بحر الغزال في يد كرم الله .

انتوى كرم الله أن يستولي على مديرية خط الاستواء . فبعث برسالة الى امين باشا (مايو ١٨٨٤) يطلب اليه أن يستسلم . ولكن أمين قد رفض الاستسلام ، فحاصر كرم الله أمادي في نوفمبر ١٨٨٤ . ثم استولى عليها في مارس ١٨٨٥ . هنا نقل أمين باشا العاصمة من اللادو الى ودلاي . ورغم ضغط الانصار الشديد ، وتقهقر امين بك ، إلا أن كرم الله اضطر اضطرارا الى ترك الاستوائية نسبة لبعض القلاقل التي حدثت في بحر الغزال ، ولتمرد عسكر الجهادية . ولهذا نجت الاستوائية موقتا من غزو الانصار .

ولأن أمين باشا كان واثقا أن الانصار سيعيدون الكرة ، فقد ناشد الحكومة المصرية لانقاذه . بيد أن نوبار باشا رئيس الوزارة المصرية كتب اليه (مايو ١٨٨٥) بنبأ اخلاء السودان ، وترك له الخيار بين الجلاء عن المديرية عن طريق زنجبار أو البقاء بغير مدد . فاختار أمين باشا وجنده البقاء .

على أن الانجليز ــ فيما تقول بعض الروايات ــ لم يرضوا عن ولاء امين باشا للحكومة المصرية ، فعزموا على ابعاده لكي تخلو لهم تلك المناطق . فأعدوا حملة انقاذ ، قادها الرحالة ستانلي عن طريق زنجبار وبحيرة البرت نيانزا . فالتقىبأمين باشا في ابريل ١٨٨٨ ، ولكن الضباط عامة والسودانيين على الخصوص قد رفضوا اخلاء المديرية .

أما الانصار فانهم لم يلبثوا ان عادوا الى ضغطهم ، فاستولوا على الرجاف في عام ١٨٨٨ . هنا شرع ستانلي في تنفيذ المخطط الانجليزي ، فأجلى امين باشا وجل من معه الى سواحل زنجبار .

وهكذا انتهى النفوذ المصري في تلك الاصقاع . وفيما يبدو ان مديرية خط الاستواء قد خلت للأنصار . غير ان المستعمرين الأوربيين لم يتركوهم يعيشون في سلام . وسنقف في سياسة الخليفة عبدالله الخارجية على مناوشات البلجيك للأنصار في الاستوائية ــ تلك المناوشات التي انتهت باستيلاء البلجيك على الرجاف في عام ١٨٩٧ .

الفصل التاسع

بعثة غردون الى السودان

(١٨٨٤ ــ ١٨٨٥)

استهدفت الحكومتان البريطانية والمصرية من بعثة غردون الى السودان في ١٨٨٤ ــ ١٨٨٥ اخلاء هذا البلد من الحاميات والتجار المصريين بعد ان اتضح بما لا يدع مجالا للشك ان الثورة المهدية ، وبصورة خاصة بعد واقعة شيكان في نوفمبر ١٨٨٣ ، قد شكلت خطورة وأية خطورة على حكومة التركية السابقة . ولقد أشار اصبع الاتهام المصرية الى الحكومة البريطانية بأنها انما ارادت من ذلك الاخلاء أن تزحزح المصريين وتنفرد بالسودان لتبسط سلطانها عليه ! أما الخديوي توفيق فقد اكره على التخلي عن السودان ، وآية ذلك انه استجاب لطلب الانجليز الذين كانوا يسيطرون على مصر منذ أن احتلوها عام ١٨٨٢ . وهو بلا مراء قد خشي أن يلاقي المصير الأسود الذي لاقاه ابوه من قبل . وفضلا عن ذلك فقد تخوف الخديوي من ان يمتد المد الثوري من السودان الى بلاده .

والواقع من الامر ان انتصارات عثمان دقنه في الشرق وهزيمة هكس في شيكان ــ وفق ما يقرر ثيوبولد ــ قد دلت على أن الحكومة المصرية قد فقدت جل ما في جعبتها من جيوش نظامية في السودان ، ولم يبق في حوزتها الا أربعة وعشرون الفا من الجنود الموزعين على الحاميات المتباعدة . وعلى هؤلاء وحدهم وقع عبء حماية أملاك الخديوي التي امتدت من وادي حلفا الى ما يقارب خط الاستواء ومن مصوع الى دارفور (١) . وعلى ذلك فقد قرر المسؤولين على ان الوضع هنا قد اقتضى سحب البقية الباقية من الجنود والموظفين وغيرهم .

ولعله من المفيد ان نقسم هذا الموضوع الى قسمين : أولا نبين كيف ولماذا فرض الانجليز على المصريين التخلي عن السودان . ثانيا نعالج مهمة غردون .

اخلاء السودان

صرح جلادستون ــ رئيس الوزارة البربطانية عقب الاحتلال الانجليزي لمصر بأن تلك الخطوة الكبيرة التي قامت بها بريطانيا في مصر ان هي الا اجراء موقوت أوجبته

(1) A. B, Theobald , The Mahdiya, (1959) P. 67.

ضرورة المحافظة على الأمن وعلى سلطة الخديوي توفيق التي تهددها العرابيون ولا يلبث ان ينتهي بزوال اسبابه . وقد خططت الدبلوماسية البريطانية آنذاك لتجنب اي عمل يفهم منه تدخل بريطاني في شئون مصر الداخلية او الخارجية . ومع ذلك فان قنصل بريطانيا العام (مالت ثم بيرنج) كان يعمل خلف الستار ، وتحرك أصابعه السياسة المصرية .

اذا كانت هذه سياسة الانجليز في تلك المرحلة ازاء مصر وعلاقاتها الخارجية او املاكها ، فمن الطبيعي الا يتدخلوا في شئون السودان . وفي هذا الصدد قال جلادستون في أوائل نوفمبر ١٨٨٢ : « ليس من واجبنا ان نعيد النظام في السودان » ويمضي هذا السياسي ليقرر : « ولا يمكن بأية حال من الأحوال ان نعترف بأن السودان داخل في نطاق مسئوليتنا » (١) . ومرد هذا الموقف من حكومة الأحرار الى انها كانت من ناحية المبدأ لا تقر التوسع الاستعماري ، بل كانت سياسة جلادستون في بعض جوانبها تحاول أن تنقض أو تبطل مشاريع دزرائيلي الاستعماري . وهي وان تدخلت في مصر الا انها لم تبغ التدخل في شئون السودان او تساعد في القضاء على الثورة المهدية لكيلا تدخل في التزامات أخرى .

على ان هذا الازورار من جانب الحكومة البريطانية لم يمنعها من أن تبدي شيئا من الاهتمام بشئون السودان . وضح هذا الاتجاه بعد شهر واحد من احتلال مصر حينما بعث لورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا بالكولونيل ستيوارت الى الخرطوم ليكتب تقريرا عن الاحوال هنا بعد نشوب الثورة المهدية . وكانت نتيجة ذلك تقرير ستيوارت المشهور في فبراير ١٨٨٣ . الذي أشار فيه الى أن ضعف الادارة التركية المصرية هنا لا يمكنها من ان تحافظ على كافة أقاليم السودان . كما وصى بضرورة ادخال اصلاحات ادارية في هذا البلد .

اذا كان هذا موقف بريطانيا من قضية السودان فما الذي جعلها تكشف القناع اخيرا وتتدخل بوضوح لا مماراة فيه . و « تنصح » أو على الأصح تأمر الخديوي وحكومته بالتخلي عن السودان ؟ الواقع أن سياسة حكومة الأحرار كانت تتأرجح بين ولاءين متضاربين : هما مثالية المبادىء التحررية التي نادى بها حزب الاحرار في جانب ، وواقع الحال وهو استنزاف خيرات المستعمرات لمصلحة بريطانيا في الجانب الآخر .

فقبل هزيمة هكس في شيكان كان الساسة البريطانيون يقولون في احاديثهم عن السودان بعدم التدخل فيه لانهم اعتبروا ذلك من شئون مصر الداخلية . غير ان بيرنج الذي لم يعلم بسحق حملة هكس قد ارسل برقية في ١٩ نوفمبر ١٨٨٣، وفيها

(1) M. F. Shukry, Gordon At Kahrtoum (195.), P. 26.

يتساءل عما يجيب به الحكومة المصرية ان طلبت اليه مساعدة بريطانيا اذا ما كسب المهدي المعركة . ووضح ان مصر لا تقوى على انفاذ حملة أخرى لحرب المهدي . وفي ذات الوقت لو تركت الامور تجري في اعنتها ، ولم يمد الخديوي بجنود بريطانيين او هنود أو أتراك لضاع السودان من يديه . وفي البرقية قال بيرنج : « اذا اتضح ان جيش هكس قد حلت به الهزيمة فعلى الحكومة المصرية أن تنزل عند حكم الواقع وتنسحب من السودان الى اي مكان على النيل يتأكد لديها انها تستطيع الدفاع منه عن الحدود المصرية » . فما هي الا أن عرفت مضمون البرقية حتى استبعدت الحكومة البريطانية مسألة ارسال عساكر بريطانيين او هنود ، وأومأت الى تخوفها من انفاذ جنود اتراك . ثم اشارت الى اخلاء بعض مناطق السودان . هذه الاشارة كانت بداية التدخل الانجليزي في أمور السودان .

اخيرا وقع الحدث الكبير الذي وضع حدا لسلبية بريطانيا تجاه السودان الا وهو هزيمة هكس في واقعة شيكان (٥ نوفمبر ١٨٨٣) . ارسل بيرنج هذا الخبر الى جرانفيل وبين له اشفاق المستشارين العسكريين من ان تخور عزيمة الخرطوم اذا ما ضغطها الانصار وبخاصة بعد ان سيطر الثوار في الشرق على طريق بربر سواكن . والجدير بالذكر أن هزيمة هكس قد ترتبت عليها آثار هامة للغاية . منها أولا انتشار الثورة المهدية في معظم بقاع السودان . ثانيا تقرير الحكومة الانجليزية اخلاء السودان من المصريين . ثالثا بقاء الانجليز بمصر ، وترك فكرة الانسحاب السريع حسب تصريحات جلادستون (رئيس الوزارة) السابقة .

ومن جهة الحكومة المصرية فانها لم ترض بتة بموضوع التخلي عن السودان ، فلما تيقنت من اندحار هكس قر رايها على أن تسحب حاميات دارفور ، بحر الغزال وخط الاستواء الى الخرطوم ، وأن تفتح طريق بربر سواكن . وقد طلب شريف باشا رئيس الوزارة المصرية الى بريطانيا انفاذ حملة من عساكر عثمانيين لمحاربة المهدي ما داموا معارضين ارسال انجليز لقمع الثورة المهدية . ولا ننس حملة فالنتين بيكر التي ارسلها الخديوي الى شرقي السودان للقضاء على عثمان دقنه . وفضلا عن ذلك تقدمت الحكومة المصرية باقتراح فحواه ارسال الزبير رحمة الى السودان كل هذا ان دل انما يدل على اصرار المصريين على استمرار سيطرتهم على هذا البلد ، أو على اقل تقدير على المناطق التي ما زالوا مسيطرين عليها ولكن دون جدوى .

فحكومة بريطانيا قد رفضت استخدام الزبير « لأسباب سياسية وأخرى متعلقة بتجارة الرقيق » ذلك لان الزبير في نظر بريطانيا أكبر نخاس في افريقيا ، ولا يمكن بأية حال أن يقبله الراي العام البريطاني عامة وجمعيات مكافحة الرق بصفة خاصة. وزيادة على ذلك بنت الحكومة البريطانية موافقتها على استخدام جنود أتراك عثمانيين شريطة أن تتكفل الحكومة العثمانية بدفع نفقاتهم لكيلا تزيد مشاكل مصر المالية . كما

اشترطت بريطانيا الا تخرج أعمال هؤلاء الجند عن نطاق الرقعة السودانية الى مصر ، ولعل في هذه الاشارة الخاصة باستخدام جنود عثمانيين على حساب السلطان تعجيزا من جانب الانجليز للمصريين لأن السلطان معروف سلفا بأنه سوف لا يثقل كاهله بالانفاق على حملة دون أن يضمن فائدة مادية محسوسة .

وفي ١٣ ديسمبر ١٨٨٣ أبرقت الحكومة البريطانية الى بيرنج لينقل الى الحكومة المصرية رغبتها في « ضرورة الوصول في أقرب وقت الى قرار بشأن التخلي عن البلاد الواقعة جنوب وادي حلفا ، وأكدت هذه البرقية رغبة بريطانيا في أن يستتب الأمن والنظام في مصر ، والدفاع عن مصر ضد أية اعتداءات خارجية عليها ، ثم حماية موانيها على البحر الأحمر » (١) .

والآن ما موقف الحكومة المصرية من هذه السياسة البريطانية ؟ لقد اعترض شريف باشا رئيس الوزارة المصرية اعتراضا شديدا على سياسة التخلي عن السودان واخلائه . فما منطقه في هذه الوقفة ؟ أيقن شريف ان التخلي عن السودان سيلحق بمصر اضرارا سياسية في المحيط الدولي . واضرارا اقتصادية بعيدة المدى . كما أن فيه تنكرا واضحا واهمالا لشأن القبائل السودانية التي أخلصت في ولائها للحكومة المصرية ، ويعتقد انه ليس من العدالة في شيء أن تترك لمصيرها . وفضلا عن ذلك فان الدعوة المهدية قد يمتد لهيبها الى مصر . ولشريف باشا قولة مشهورة في هذا الشأن وهي : « اذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » . ففي تقديره أن اخلاء شرق السودان ودنقلا يجعل مهمة الدفاع عن مصر عسيرة . وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد فؤاد شكري : اعتقد شريف أن سياسة الاخلاء (او التخلي عن السودان) انما تنطوي على اخطار كبيرة على استقلال البلاد ، لأن التخلي عن السودان يعرض الحدود المصرية لهجوم الدراويش عليها ، وسوف يتطلب الدفاع عن هذه الحدود أن يزيد البريطانيون عدد جنود الاحتلال في مصر . وطالما بقيت حدود مصر معرضة لهذا الهجوم – ولا أمل بعد التخلي عن السودان في القضاء على قوة المهدية فان الاحتلال البريطاني سوف يبقى ويتأجل حينئذ جلاء البريطانيين من مصر الى موعد لا سبيل الى تعيينه » (٢) .

ليس هذا وحده ، بل حاول شريف ان يعالج الموضوع من ناحية قانونية فهو يحتج بأن المرسوم الذي تم بمقتضاه تعيين الخديوي لا يخوله التخلي عن اراضيه دون أن يحصل سلفا على موافقة تركيا . غير ان كل هذه الحجج الدامغة لم تفده نتيلا . .

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » ص ٣٠٢
(٢) نفس المرجع .

من الواضح البين أن شريف باشا قد رفض في اباء وشمم أن يتنازل عن أملاك بلاده وفقا « لنصائح » الانجليز . فما عتم جرانفيل ان أماط اللثام عن حقيقة السياسة البريطانية بارسال برقيته المشهورة في ٤ يناير ١٨٨٤ الى سير افلن بيرنج وفيها يقول : « يجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسؤولية الملقاة على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها ان تصر على اتباع السياسة التي تراها ، ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير او مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة . وان حكومة جلالة الملكة لواثقة من انه اذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء فهناك من المصريين سواء من شغلوا منصب الوزارة ، أو شغلوا مناصب اقل درجة ، من هم على استعداد لتنفيذ الأوامر التي قد يصدرها لهم الخديوي بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة » (١) .

هذه التطورات دفعت شريف باشا الى تقديم استقالة وزارته في ٧ يناير ١٨٨٤ فقبلت . وباتت هذه الاستقالة رمزا لمعارضة المصريين لانتزاع السودان من أيديهم وعلى التدخل الانجليزي في شئون بلادهم .

ومن فضول القول أن يقال ان التخلي عن السودان واخلاءه كان اجراء مسيئا وخسارة فادحة للمصريين الذين كانوا يؤمنون ايمانا لا يتطرق اليه الشك بأن السودان جزء لا يتجزأ من مصر . وان مصالح مصر الحيوية تقضي بأن يستمر تابعا لهم . وهم الذين بذلوا كل غال ومرتخص لتدعيم سلطانهم عليه . وفي هذا يقول الرافعي بك : « وفي الحق ان اخلاء السودان كان أمرا منكرا ، خطيرا في ذاته وعواقبه . فهو أشد ضربة أصيبت بها مصر بعد الاحتلال الانجليزي ، بل يكاد يعدل الاحتلال في خطورته ومضاره ، لأن الانسحاب من السودان معناه ضياع الامبراطورية العظيمة التي ضحت مصر في سبيل تأسيسها بعشرات الألوف من ابنائها وملايين الجنيهات من أموالها وجهود عشرات السنين من تاريخها . وبهذا القرار تخلت الحكومة من دولة مترامية الأطراف ، وتركتها لقمة سائغة للفوضى ثم للاستعمار الانجليزي » (٢) .

ومهما يكن من شيء فقد تسلمت مقاليد الحكم في مصر وزارة نوبار باشا ، وهو مسيحي من أصل ارمني في يناير ١٨٨٤ . ونوبار بالطبع قد تقبل سياسة اخلاء السودان والانصياع لاوامر الانجليز ونواهيهم !

واذا تساءلنا عن التغير الذي اعترى سياسة الانجليز فنبذوا سياسة عدم التدخل في السودان – تلك السلبية التي اتسمت بها سياستهم في الحقبة الفائتة –

(١) الكتاب الازرق سنة ١٨٨٤ جاص ١٧٦ نقلا عن « مصر والسودان » للرافعي بك ص ٢٨ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي بك « مصر والسودان » ص ١١٣ .

وعرضوا على المصريين التخلي عن السودان ، فان من بين الاسباب احتمال دخول تركيا في ميدان الصراع على مصر واملاكها . فمن المعلوم ان مصر كانت ولاية عثمانية في السابق . وبمقتضى معاهدة لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ التي أبرمت بين تركيا والدول الأوربية الكبرى لتسوية المسألة المصرية على اثر النضال القائم بين محمد علي باشا والسلطان العثماني محمود الثاني ، منح محمد علي وأسرته الحكم الوراثي في مصر شريطة ان تظل مصر ولاية عثمانية . ونسبة لمطالبة شريف باشا باستخدام عساكر عثمانيين ، واقتراحه بأن يتخلى المصريون عن ساحل البحر الأحمر وموانئه لتركيا ، فان بريطانيا قد أصابها اشفاق من أن يهتبل السلطان الفرصة ويستعيد نفوذه على مصر . ومما يذكر أن فرنسا الموتورة من ناحية بريطانيا للاحتلال الانجليزي لمصر ، كانت تساند السلطان في الخفاء وتزين له استعادة مجده على مصر واملاكها . ومن أجلّ ذلك فقد ارتأت بريطانيا أن ترك السودان لأهلـه آنذاك سوف لا يترك مجالا لتدخل الاتراك والفرنسيين تدخلا يزعزع مكانة الانجليز في مصر !

ثمة عامل آخر اقتصادي وهو – في تقدير البريطانيين – أن اصرار مصر على بقاء السودان في حوزتها قد يسبب تدهورا في موقفها المالي فترجع الامور القهقرى ، وبذا تذهب جهود انجلترا في اصلاح اقتصاديات مصر سدى . وفوق ذلك فان بريطانيا ، فيما يبدو ، قد استمرأت بسط سيطرتها على مصر ، فاستغلت نشوب الثورة المهدية ، وخطورة دعوة المهدي وتخطيطه لنشرها في كافة البلاد الاسلامية طوعا او كرها . وعلى ذلك فقد قررت البقاء في مصر لكي تحميها من ثورة السودانيين !

بعثـة غُردون الى السودان

قبل أن يتنحى شريف باشا ووزارته عن مسرح السياسة المصرية تقدم سير افلن بيرنج الى الحكومة البريطانية باقتراح مفـاده أن تعين ضابطا بريطانيا يقـوم بإجلاء الحاميات المصرية من السودان . وفي هذا الاثناء كانت حكومة جلالـة الملكة – وفق ما يقول ونستون تشرشل – تفكر في شيء من القلق والهواجس في الكيفية التي يتم بها جلاء الجند المصريين ووصولهم الى مصر بسلام آمنين .

ولأن البريطانيين لم يثقوا آنذاك في مقدرة المصريين على تنفيـذ عملية الاخلاء فقد قر رأيهم على ان يبعثوا بالجنرال شارلس جورج غردون . وسرعان ما أبرقوا الى القاهرة بقولهـم : « هل يصلح الجنرال شارلس غردون للمهمـة أو للحكومة المصرية ؟.. وإذا كان الجواب بالايجاب فبأية صلاحيات أو علـى اي أساس يتولى المهمة ؟ » ولقد ردت الحكومة المصرية عن طريق بيرنج بأنها ترى ان مـن الأمثل الا توكل هذه المهمة في ذلك الوقت لمسيحي ، وآية ذلك أن طبيعة الثورة المهدية فـي السودان دينية لحد ما . ومن ثم اتجهت أنظار الساسة المصريين الى شخص طالما أساءوا اليه الا وهو الزبير باشا رحمه ليقوم بالاخلاء وبينوا أنه الرجل الاصلح لانجاز المهمة . بيد ان الوزارة البريطانية قد سخرت من مجرد فكرة اختيار الزبير ورفضته رفضا باتا . وعلى ذلك بات لزاما عليها أن تقدم بديلا . وكان البديل غردون (١) .

على ان بيرنج لم يقبل غردون بحجة أن الأخير عنيد لا يعمل في الأغلب حسب تعليمات رؤسائه وان كان مخلصا أمينا . وقد وقع اختيار بيرنج على عبد القادر باشا حلمي ليقوم بمشروع الاخلاء ، غير انهما اختلفا لان عبد القادر قـد أخبر أن التخلي عن السودان سيعلن على الملأ . وفي رواية اخرى رفض عبد القادر المشروع لأنه كان موقنا أن هذا الاجراء بغير جند سيكون مصيره الفشل الذريع .

ومن جهة اخرى فان الصحافة الانجليزية بقيادة صحيفة بول مول جازيت قد عكست رغبة الملكـة فكتوريا والراي العـام البريطاني وطالبت بارسال غردون الى السودان بكارت بلانش (صلاحيات كاملة) ليفعل ما يـراه معقولا . هكذا اقترح محرر جريدة بول مول الذي انتقد سياسة الاخلاء لصعوبتها التي وضحها له غردون في مقابلة تمت بينهما في ٨ يناير ١٨٨٤ .

---

(1) Wintson S. Churchil, The River War, P 41

ذكر غردون لهذا المحرر أيضا أن اخلاء السودان سيمهد لانتشار الثورة المهدية في سرعة خارقة ، وهو يرى ان الثورة « سوف يتطاير منها شرر عبر البحر الأحمر لتشتعل في الجزيرة العربية ، وشمالا في صعيد مصر . وانه ليس باستطاعة النقط الحربية أن تحبس تيارها المندفع » (١) ويمضي غردون في حديثه ليوضح صعوبة الاخلاء لكثرة الجند وتباعد الحاميات ومنها ما هو بدارفور والاستوائية ، أضف الى ذلك المدنيين من رجال ونساء وأطفال . وفي هذا يقول : « اذا كان في حيز الامكان والاستطاعة ترحيل حاميات الخرطوم وشمال السودان فماذا يحدث للجند المرابطين في دارفور وغندكرو ؟ أيضحي بهم لأنهم أخلصوا الطاعة واظهروا الولاء ؟ وكيف يمكن الحصول على عدد الجمال لترحيل العدد الضخم من الملكيين والعسكريين ؟ وهل تخلق مواقع تحمى ظهورهم ؟ وهل في الامكان حماية النساء والاطفال من النهب والقتل وهم يقطعون المئات من الاميال قبل أن يصلوا الى مكان أمين يطمئنون فيه الى سلامة انفسهم ؟ هنالك طريقان عمليان أما التسليم في التو والساعة للمهدي واما الدفاع عن الخرطوم وهذا الاخير ما يجب اتباعه » (٢) وعلى الرغم من هذا النقد الواضح الذي ابداه لمشروع الاخلاء ، قرر غردون أن يتخلى عن العقد الذي ابرمه مع ملك بلجيكا ليخدم في الكنغو ، وقبل مهمة الاخلاء استجابة لضغط الملكة فكتوريا والرأي العام والحكومة البريطانية .

ومن ناحية المصريين فان تعيين غردون لهذه المأمورية قد أثار الشكوك في بعض النفوس وانتقده البعض وفي هذا الصدد يقول الرافعي بك : « لا شك أن اختيار غردون باشا لهذه المهمة أمر تكتنفه الأسرار والمتناقضات ، لانه لم يكن من قبل يرى اخلاء السودان ، بل كان يعده عملا جنونيا يتكلف أكثر مما يقتضيه البقاء فيه والاحتفاظ به وقد نشر بهذا المعنى مقالة في جريدة البول مول جازيت الانجليزية (عدد ١٠ يناير ١٨٨٤) جهر فيه بهذا الرأي » (٣) . ويمضي الرافعي بك في نقده ليوضح أن غردون بعد أيام معدودة أو على وجه التحديد في ١٨ يناير جاءت اليه الاشارة من الحكومة البريطانية فوافق على القيام بالبعثة !

والان يجمل بنا أن نقف قليلا عند الاسباب التي حدت بالملكة فكتوريا والشعب البريطاني في صحافته ليلحوا على اختيار غردون لمهمة اخلاء السودان . يقرر دكتور هولت ان غردون عند الصحفيين والشعب البريطاني الذين يذكرون انتصاراته العسكرية الباهرة في الصين وخدماته السابقة في هذا البلد بطل حارب تجارة الرقيق وشرورها في السودان ويعتقدون أن اسمه سيفعل فعل السحرة في النفوس . ولأنهم

---

(١) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ٢٥٦
(٢) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » (١٩٦٤) ص ٢٥٦ — ٢٥٧
(٣) عبد الرحمن الرافعي بك « مصر والسودان » (١٩٤٨) ص ١١٥

كانوا يجهلون الاثر الديني وقوة المهدي العسكرية ومهارته السياسية ، فقد حسبوا أن غردون بما له من المام باحوال السودان وما سيجده من ولاء واخلاص ، سيكون أقيم من جيش عرمرم ، ولكن هذا الرأي لم يكن صحيحا لا في تقييمه لقدرات غردون ولا في نظرته الى موقف الشعب السوداني » . (١)

الواقع ان غردون كانت تلفه معوقات وضحها هولت أيضا منها اولا انه كان يجهل اللغة العربية جهلا تاما حتى انه ما كان يدري ما يحدث أو يجري حوله في الخرطوم ! ثانيا كان له خيال خصب موغل في الخصوبة . فما من عجب اذا كان يمطر رؤساءه وموظفيه على السواء بآراء متناقضة متضاربة . وكان كثير التحيز لبعض الاشياء . ويقول ونستون تشرشل عن غردون : « ان مزاجه متقلب الأطوار ، وانفعالاته النفسية عنيفة ، وبواعثه فجائية مزعزعة . وعلى هذا فعدوه اللدود في الصباح ينقلب الى حليف قبل حلول الظلام ، وصديق اليوم الحميم يصبح بغيضا الى نفسه فلا غرو فالمشاريع تتزاحم في عقله الخصيب وتتدافع بالمناكب في دوامة من الفوضى التامة. تارة يقبل عليها بحماس دافق ، وطورا ينبذها في ترفع وانفه»(١) ويعزو تشرشل هذا المزاج العجيب الى اختلال اعصاب غردون .

نعود الى تحليل دكتور هولت وتعليقه على غردون وآراء الانجليز عنه . يقرر هولت، أن فكرة البريطانيين عن غردون وما سيلقاه من اكبار واجلال في السودان مبالغ فيها ، وهي تعتمد على حب غردون للعدل والانصاف وكراهيته للضغط والارهاب . والحق ان اثر غردون على السودانيين كان محدودا . وقد اعتراه شيء من التغيير غير قليل . ففي سنة ١٨٧٩ كان المأمول في حكمدار مسيحي أن يخلص الناس من مساوىء سلفه التركي . اما في عام ١٨٨٤ ، فان الحاكم من دم السودانيين ولحمهم . وفوق ذلك فهو مهدي له رسالة هي انقاذهم مما يعانون من مرائر . وحينما كان غردون في نظر البريطانيين محرر الارقاء ، كان في راى الشماليين الذين مارسوا تجارة الرقيق كابوسا مرعبا ينضب على يديه معين ثرائهم . وفي كلمة فان للمهدي في نظر مواطنيه القدح المعلى اذا فاق غردون في كل شيء . (٣)

تقدمت الاشارة الى أن عبد القادر باشا حلمي قد رفض مشروع الاخلاء ، فاقترحت الحكومة البريطانية مرة اخرى غردون . فما كان من بيرنج الا ان قبله للقيام بالمهمة . على أن الاخير اشترط أن يفهم غردون أن مأموريته تنحصر في عملية الاخلاء ، وانه يتعين عليه ان ينفذ ما يصدر اليه من تعليمات المعتمد البريطاني في مصر .

---

(١) ب.م. هولت « الدولة المهدية في السودان »
(٢) ونستون . س . تشرشل « حرب النهر » (١٩٦٤) ص ١٨
(٣) ب.م. هولت « الدولة المهدية في السودان »

ما كاد غردون يقبل مأمورية تنفيذ الجلاء عن السودان حتى صدر بيان من مجلس الوزراء البريطاني في نفس اليوم (١٨ يناير ١٨٧٤) يقرر أنه أوكل للجنرال غردون مهمة الذهاب الى السودان . وأنـــه سيكون في الخرطوم ممثلا للحكومة الانجليزية وفي ذات اليوم أيضا كتب جرانفيل لغردون التعليمات التي ينبغي عليه ان ينفذها وهي « السفر بلا أبطاء الى مصر ، وأن يضع تقريرا عن حالة السودان الحربية وعن الوسائل التي يحسن اتباعها لسلامة الحاميات المصرية والجاليات الأوربية ، وعن خير الوسائل للجلاء عن السودان ، مع الاحتفاظ بثغوره الحربية ، وادارتها تـحت السيادة المصرية ، وأن يتلقى التعليمات في هذا الصدد من وكيل انجلترا السياسي (السير أفلن بيرنج) ، وأن يتولى أيضا القيام بالمهام الأخرى التي ترغب الحكومة المصرية في اسنادها اليه، ويكون ذلك بواسطة السير افلنج بارنج (اللورد كرومر) » (١)

وفيما يبدو ان مهمة غردون قد اكتنفها منـذ البداية شيء مـن الغموض ، فجرانفيل وضع لغردون التعليمات في صيغة يفهم منها أن المأمورية تقريرية استشارية ليس الا . وهذا ما فهمه جلادستون من اقتراح جرانفيل ولكن واقع الحال يبين أن المأمورية تنفيذية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ! فالتعليمات التـي وضحت لغردون تقرر أنه ينبغي عليه أن يذهب الى سواكن ليكتب تقريرا ضافيا عن الحالة العسكرية في السودان ، وعن الوسائل المثلى لسحب حاميات المصرية منه ، وبماذا ينصح اذا قامت تجارة الرقيق مرة اخرى . وفوق ذلك أية مهمة يطلبها الخديوي منه . ونحن نعلم أن الخديوي لا يريد من غردون شيئا غير تنفيذ السياسة التـي أرغمته بريطانيا على قبولها وهي اخلاء السودان .

ليس هذا وحده ، بل تم لقاء بين غردون وبعض وزراء الحكومة الانجليزية في ١٨ يناير ١٨٨٤ بوزارة الحربية في لندن من هؤلاء جرانفيل وزير الخارجية ، ووزير الحربية ووزير البحرية وغيرهم . وفي ذلـك الاجتماع سئل غردون عما اذا كان مستعدا للذهاب الى السودان لاخلائه وقد اعلم غردون أن قيام حكومة في السودان بعد الجلاء ليس من اختصاصه . وعلى ذلك فقد تحولت المأمورية من استشارية الى تنفيذية .

لماذا لم يضع جرانفيل في وثيقة تعيين غردون مسألة التنفيذ ؟ يجيب على هذا السؤال الدكتور شكري فيقرر ان الابهام في موضوع التنفيـــذ مرده الى اصرار جلادستون رئيس الوزراء على ان تكون المهمة استشارية تقريرية بحتة ، « ولذلك فقد أراد جرانفيل متأثرا بموقف جلادستون هذا ان يجنب الحكومة البريطانية تحمل

(١) عبد الرحمن الرافعي بك « مصر والسودان في اوائل عهد الاستقلال » ص ١١٦

أية مسؤولية عن بعثة غردون الى السودان » (١) .

والان ماذا فهم غردون من بعثته هذه ؟ لم يخامر غردون أدنى شك بعد اجتماع يوم ١٨ يناير في أن مأموريته أصبحت استشارية تنفيذية . وعلى هذا الأساس غادر بلاده نحو مصر . وكأني به وقد أخذ خيالـه الخصب يسرح ، ففي الطريق صرف النظر عن المسألة التقريرية وعول على ما ستسنده اليه الحكومة المصرية من مهام . « ورأي أن القيام بسحب القوات المصرية وتأسيس حكومـات سودانية يقضي ان يصدر أمر من الخديوي بتعيينه حاكما عاما كما كان من قبل وأن يصدر منشور من الخديوي ينادي فيه بأنه تعطف ومنح الاستقلال لسلاطين السودان وأن غردون يمثله ويمثل الحكومة البريطانية في هذا الصدد وانه سوف يخلي البلاد من الجنود . وانه عين حاكما عاما ليطلع بهذه الأعباء . واقترح غردون نفسه ان يصدر بيانا يناشد فيه السودانيين بأنهم وقد منحوا الاستقلال الا يتعرضوا للحاميات المنسحبة» . (٢) وقد بعث بهذه المقترحات وهو في طريقه الى مصر .

ورغم أن جلادستون قد اكتشف أن ثمة اختلافا بين ما أقره في السابق وبين المقترحات التي تحيل مهمة غردون الى تنفيذية ، الا انه وافق عليها لعاملين : اولا تجاوب الشعب البريطاني وحماسه الدافق لارسال غردون الى السودان . وثانيا أيقن ان الحكومة المصرية هي التي ستتولى كل ما يتعلق بأمور الاخلاء وبالتالي تخلي طرف الحكومة البريطانية من المسؤولية . « وهكـــذا ينساق جلادستون في منطق خاطيء كهذا » . والواقع أن ذلك التضارب بين فهمي الرجلين جلادستون وغردون المهمة كانا من أسباب فشلها .

غردون في القاهرة :

عرج غردون الى القاهرة لمقابلة المسؤولين فوصلها في ٢٤ يناير ١٨٨٤ . وبعد يومين من تاريخ وصوله قابل غردون الخديوي توفيق . فأصدر له فرمانا عينـه بموجبه حاكما عاما مفوضا على السودان . ثم أصدر الخديوي فرمانا آخر لغردون هذا نصه « أن الغرض من ارسالكم الى السودان ارجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار الى مصر وذلك مع حفظ النظام في البلاد باعادتها الى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري . ولنا مزيد الثقة أنكم تتخذون أفضل الطرق لاتمام هذه المهمة بسلام طبق رغبتنا والسلام » .

من هذا الأمر يبدو جليا أن مهمة غردون هو اخلاء السودان بأسره . وفضلا

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » ص ٣٢٠
(٢) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ٢٦٢ — ٢٦٣

عن ذلك يتعين عليه أن يقيم حكومة تصير بديلا للحكم التركي المصري . وفيما نرى أن تعليمات غردون السابقة قد ادخلت عليها اضافة في مصر . وثمة حقيقة اشار اليها الدكتور محمد فؤاد شكري وهي انه كان من البين أن غردون سوف يجد مساعدة حكومته شريطة الا يورطها في عمليات عسكرية في السودان ، والا يبقى فيه اكثر مما تستلزم مهمته .

اخطاء غردون

لم يكد غردون يغادر القاهرة في ٢٦ يناير ١٨٨٤ (يصحبه مستشاره الكلونيل ستيوارت) حتى بدات أخطاؤه تظهر للعيان . وهي التي قادت في النهاية الى تفشيل بعثته . وقد ناقش الدكتور محمد فؤاد شكري هذه الاخطاء وهي كثر ، فأجاد في تبيينها ، وسنجتزيء هنا بالظاهر منها .

فبادىء ذي بدء لم يأخذ غردون معه جيشا يستعين به على عملية الاخلاء رغم انها مسالة شاقة للغاية . ومرد هذا الخطأ الى ان غردون لم يدرك جوهر الثورة السودانية ولا مدى قوتها الا مؤخرا وبعد فوات الآوان . كما ان اعتقاده بأنه سيكون ذا اثر كبير في السودان لماضيه مبالغ فيه . ولعله كان على راي ابناء وطنه الذين ظنوا أن غردون سيفعل فعل السحر في السودان وانه وحده سيكون أقيم من جيش بكامل عدده » ! ولقد تنبه سلاطين باشا الى اخطاء غردون الجسيم فقال « مجرد أن غردون جاء الى الخرطوم من غير ان تأتي معه قوة تسنده ، نهض دليلا عند هؤلاء الناس على أنه يعتمد على نفوذه الشخصي في تأدية مهمته . بينما كان واضحا كل الوضوح للذين فهموا الموقف أن النفوذ الشخصي في هذه المرحلة ليس الا نقطة في محيط » (١) . والواقع أن غردون ليس وحده الذي لم يدرك حقيقة الحال في السودان بل ان حكومة القاهرة بدورها قد أخفقت في ادراك الموقف هنا رغم اشتعال الثورة في كثير من البقاع وسقوط بعض الحاميات .

ومن اخطاء غردون ايضا الثقةالكاملة في انه سيهدىء الاحوال فيالسودان وينهي الثورة المهدية أو كما يحلو له أن يسميها ادعاءات المهدي في « مدى شهر واحد » ! وما من شك ان الثقة في النفس فضيلة ، ولكن الافراط في الثقة قد يؤدي الى غفلة أو الى نسيان الحيطة لاتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة مصاعب الحياة .

ولعل من ابرز اخطاء غردون استهانته بأمر الثورة المهدية وخطورتها ولقد تبين ذلك في التقرير الذي ارسله الى بيرنج من اسوان وهو لا يزال في الطريق الى

---

(١) سلاطين « النار والسيف في السودان » (نقلا عن مصر والسودان للدكتور محمد فؤاد شكري) .

السودان وفيه يعترف بجدية الثورة المهدية ولكنه ينفي خطورتها في ماضيها البعيد وحاضرها . ويعزو تطورها في المقام الاول الى ضعف الحكومة المصرية . وفيما ظهر أن غردون كان يلقي الكلام على عواهنه ، والا كيف يصدر حكمه ويشجب الثورة وهو لم يصل السودان ويقف على حقيقة الموقف بعد ؟ .

ظهر لغردون بعض خطئه عندما علم وهو في بربر بانحدار فالنتين بيكر على أيدي ثوار الشرق بقيادة البطل عثمان دقنه في واقعة التيب الثانية (٤ فبراير ١٨٨٤) التي تقدم ذكرها في الفصل السابق . كان غردون يؤمل في هزيمة عثمان دقنة لان ذلك سيضعف من قوة المهدي ويقلل حماسه . ويصد الثوار عن الزحف على النيل . فكانت صدمة بحق جعلت غردون يعلن على رؤوس الاشهاد انفصال السودان عن مصر انفصالا تاما ، وتعيين موظفين سودانيين في جميع الوظائف العامة ولتشكيل قوات عسكرية محلية . لا يفوتنا أن نذكر أن غردون قد بعث بخطاب من كورسكو الى حسين باشا خليفه مدير بربر معنون باسم محمد أحمد يعينه فيه سلطانا على كردفان ويشير الى حسين خليفة أن يرسل كسوة شرف هدية للمهدي . فصدع الاخير بالأمر . بيد ان هذه الخطوة قد دللت بما لا يدع مجالا للشك خطأ غردون في فهم طبيعة الثورة المهدية .

وفي بربر ارتكب غردون خطأ كبيرا كان له ما بعده على مستقبل مهمته وهو انه أفضى (٣ فبراير ١٨٨٤) الى العمد والاعيان « بأن الجناب العالي قد ترك السودان الى أهله وانه قادم الى السودان بقصد ارجاع العساكر الى مصر ليس الا » ولكي يدلل على صحة ما يقول أراهم أمر الخديوي (الفرمان السري) له باخلاء السودان . ثم أردف ذلك بقررات وتغييرات جذرية منها انه فصل الاداريين المصريين واحل محلهم مجلسا من السودانيين ليحكم بالشورى ، واعلن تعيين المهدي سلطانا على كردفان ، وان مديرية بربر لم تعد تابعة لمصر ، وما الى ذلك من القرارات التي عقدت السنة الناس بالدهشة والتساؤل عن هذا الاجراء العجيب الذي لم يوافق عليه ستيوارت كما لم يوافق على بعض تصرفات اخرى بدرت من غردون وبرهنت على خطأ راي الأخير فيها . ومن أجل ذلك اعتبر بعض البريطانيين ستيوارت أعقل واصلح للمهمة من غردون .

فلا عجب اذا وصف ستيوارت هذه الخطوة بانها « قفزة في الظلام » . وقال عنها الاب اهرو الدر بأنها « الخطأ الذي سدد به غردون الى نفسه ضربة الموت وقضي به على مهمته » . وقال السير ريجينالد ونجت (حاكم عام السودان ١٨٩٩ — ١٩١٦) بأنه « المنشور ذو الأثر المميت الذي اضاع السودان » .

وفيما يقال ان غردون قد اعترف في وقت لاحق بخطل رايه ، وحاول أن يبرر ذلك بأنه لم يكن على بينة مما يحويه ذلك المنشور ، ويعود ذلك الى جهله التام باللغة

العربية ! وهذا عذر اقبح من الذنب لانه لو كان واعيا لما وقع في مثل هذا المأزق بهذه البساطة . ويقول السير هنري غردون — شقيق الجنرال غردون — ان غردون اعتبر اصدار منشور التخلي عن السودان عملا خاطئا « ولكنه فعل هذا على أمل ان تساعد اذاعة الخبر على تيسير عملية سحب الحاميات » .

ان خطورة هذا الاجراء تكمن في أن المهدي قد الم بخبر القرار ، فشرع يدعو المترددين والذين ما زالوا يقفون مع الحكومة ، ونشطت هذه الدعوة حتى كسب كثيرا من المؤيدين بعد أن أيقن الناس أن لا فائدة البتة من التردد وعدم الانضمام الى صفوف الثائر وانصاره لان العاقبة ستكون وخيمة عليهم بعد اجلاء الحكام . وبدا كأن غردون قد جاء ليزيد من عظمة المهدي ويقلل من هيبة الحكومة ونفوذها !

وتجدر الاشارة الى خطأ آخر وقع فيه غردون اثناء اقامته في بربر وهو ان الحكومة سوف لا تتمسك بمعاهدة الرقيق (١٨٧٧) وعلى ذلك فان الأوامر التي كانت تحرم الرق وتجارة الرقيق قد الغيت ! فاعجب ان شئت لرجل أقام حكما ارهابيا — باعترافه — في السودان لمحاربة الرق وتجارة الرقيق ، فحكم بالاعدام على بعض تجار الرقيق وجلد آخرين وارتكب اعمالا شنيعة قبيحة ضد النخاسين مثال ذلك اكراه بعضهم على السير وهم عراة كما ولدتهم امهاتهم دون مراعاة لحرمة الانسان . بعد كل هذا العسف يأتي ويلغي بجرة قلم كل ما حقق في هذا الميدان !

على ان قرار السماح بممارسة تجارة الرقيق من جانب غردون قد قوبل باحتجاج صارخ وغضب في بلاده لهذه الانتكاسة . ولكن منطق غردون هو ان لا جدوى من الاستمرار في الضغط على تجار الرقيق ما دام السودان سيخلى . وما يهمنا في هذا المقام أن هذا القرار قد زاد الناس تأكيدا على تأكيد بأن اخلاء السودان سيحدث لا مراء . كما انعش تجار الرقيق الذين هبوا مع الثوار في وجه الحكومة .

تلك اذن اخطاء غردون التي قادت في النهاية الى فشله في اداء مهمته .

غردون في الخرطوم

بوصول غردون الخرطوم في ١٨ فبراير ١٨٨٤ أخذ يزاول مهام منصبه الجديد فجمع دفاتر الضرائب والسياط وآلات الضرب التي طالما الهبت ظهور الابرياء ، واحرقها . وأطلق سراح السجناء الا الذين سفكوا دماء . ثم بدأ عملية الاخلاء بارسال فوج من العساكر المصرية وعائلات الذين ماتوا في شيكان والمفصولين من الموظفين وبعض التجار في مصر . وقد بلغ عدد الذين غادروا السودان في فبراير حوالي الألف نسمة . هذه نسبة ليس بها من بأس لو استمر الانسحاب بانتظام . ولكن بعض العوامل قد تدخلت فعرقلت سيرها . من ذلك أولا أن بعض سكان الخرطوم لم يرغبوا في ترك المدينة . ثانيا اعتقد الكثيرون ان غردون — حسب

تصريحاته — ممثل لبريطانيا ، وأن بعض الكتائب الانجليزية في طريقها الى انقاذ الخرطوم ، بل الى ضم السودان الى انجلترا . واستدلوا على ذلك بأن غردون انما ارسل الجنود المصريين وأبقى العساكر السودانيين لهذا الغرض . كما أن غردون قد انشغل باقامة حكومة منظمة تحل محل الحكم القائم .

كان غردون قد وزع منشورا على سكان الخرطوم وضواحيها وضح فيه فصل السودان عن مصر ، وتعيين المهدي سلطانا على كردفان ، والغاء أوامر تجارة الرقيق ومتأخرات الضرائب حتى عام ١٨٨٣ ، وضرائب سنتين في المستقبل ، وأنه سيعمل على اقامة حكومة وطنية من السودانيين . ويرى البعض ان تعيين المهدي سلطانا على كردفان واعلان اخلاء السودان اعتراف بالعجز امام المهدي وصحبه الثوار .

ومن ناحية اخرى فان نفوذ المهدي ما فتىء يزداد مع الأيام ، مما جعل غردون يشعر بأنه اذا استمر في سياسته السليمة قد يرد هو ومن معه موارد التهلكة على أيدي الثوار . فما عتم ان تحول الى موقف الدفاع والمقاومة وبعث في طلب العون العسكري من مصر ، فلم تستجب له الحكومة . ثم طلب تعيين الزبير حاكما عاما على السودان لماضيه وعصبيته ، ولأنه أنسب من يقاوم المهدي ، غير ان الحكومة البريطانية قد رفضت تعيين الزبير بحجة أن الزبير باشا من أكبر النخاسين في افريقيا وان ارجاعه الى السودان قد يعيد تجارة الرقيق .

علق على موضوع تعيين الزبير الرافعي بك فذكر ان السبب في رفض الانجليز للزبير لم يكن تجارة الرقيق ، وانما « السبب الحقيقي هو سعي الحكومة الانجليزية في تقليص ظل السلطة المصرية عن السودان . ولذلك عارضت أيضا في تعيين الزبير باشا حاكما له ، ولم يكن ثمة شك في أن مصلحة مصر كانت تقضي بتعيينه حاكما عاما للسودان ، وكان بلا جدال اقدر من غردون على مقاومة المهدي » (١) . ومما يذكر أن الخديوي وبيرنج ونوبار باشا كانوا جميعا موافقين على تعيين الزبير حاكما على السودان . ولكن جمعية مكافحة الرق هي التي وقفت بصلابة في سبيل ارساله ولم يسع حكومة جلادستون الا أن تبعث الى غردون (٥ مارس ١٨٨٤) برفضها للزبير . ومن ثم بدأ الخلاف بين الحكومة الانجليزية ومبعوثها — غردون — فكلما ارسل غردون اقتراحا اعتبرته حكومته غير عملي ورفضته ، أو على حد تعبير ونستون تشرشل استعملت ضده حق الفيتو !

حصار الخرطوم

لم يملك غردون ازاء موقف حكومته تجاه الزبير وتعيينه حاكما عاما على

---

(١) الرافعي بك « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » ص ١١٩

السودان بحسبانه « الفرصة الوحيدة » (هكذا قرر غردون) لانقاذ الموقف في السودان ، وازاء رفض مقترحاته العديدة التي كان يبعث بها الى رؤسائه ، الا ان يحصن الخرطوم وآية ذلك أن الثوار كانوا يتربصون بها الدوائر آنذاك ويتحفزون لحصرها . من هؤلاء افراد القبائل المجاوره للخرطوم الذين لم يتجراوا في الاطوار الاولى من الثورة على مناصبة الحكومة العداء تفاديا لشرها . وبالتالي الهزائم النكراء التي حاقت بالحكومة ، وبضياع هيبتها ، وفوق ذلك بمجزد اعلان غردون سياسة التخلي واخلاء السودان ، ثارت هذه القبائل بقيادة الشيخ العبيد بن محمد بدر والشيخ المضوي عبد الرحمن شيخي الطريقة القادريـــة في الجزيرة لتضرب حصارا حول الخرطوم من جهتي الجنوب والشرق .

كانت اولى وقائع حصار الخرطوم معركة الحلفاية حينما زحف عليها الشيخ العبيد ود بدر بجيش لا قبل لها به (ينوف على الثلاثين الفا) بقيادة ابنيه والشيخ المضوي . فما هو الا ان التحم هذا الجيش بالشايقية في ١٣ مارس ١٨٨٤ حتى هزمهم وسيطر على الحلفاية .

ومن نتائج ضياع الحلفاية ان قطع الثوار الخط التلغرافي الذي يربط الخرطوم بمدينة بربر . وعلى هذا النحو تم عزل الخرطوم عن الخارج . ومن ثم بدا غردون يعتمد في اتصاله بمصر على الرسل . وما من شك ان هذه الوسيلة سلحفائية فضلا عن كونها غير مضمونة لان الرسل كانوا عرضة للموت ومصادرة ما معهم اذا القى عليهم الثوار القبض .

ثم تلت ذلك واقعة الشرق (شرق النيل) في ١٦ مارس ١٨٨٤ ، ومما دفع اليها أن غردون قد اغضبه هذا الانتصار الذي احرزه الانصار فعقد العزم على ابعادهم عن الحلفاية . وانفذ لهم قوة التقت بهم في منتصف الطريق بين الخرطوم والحلفاية . وكان النصر حليف الانصار . وقد اتهم قائد الكتيبة ووكيله بالتواطؤ مع الانصار .

ان اهمية واقعة الشرق تكمن في انها زادت هؤلاء الثوار ثقة على ثقة، فحاصروا بعدها الخرطوم وام درمان في آن واحد . حاصر الخرطوم من جهة الشمال (في قبة خوجلي) أبراهيم بن الشيخ العبيد والشيخ مضوي ، وحصرها من الجنوب ناحية النيل الازرق العباس بن الشيخ العبيد . وضرب عليها عبدالقادر قاضي الكلاكلة حصارا من ناحية النيل الابيض .

وفي ٢٢ مارس ١٨٨٤ تسلم غردون خطابا من المهدي ومعه الهدية التي ارسلها له حسين خليفة بأمر غردون ومعها جبة الانصار المرقعة هدية لغردون ليسلم ويسلم ومعها خطاب طويل وهاك طرفا من بعض فقراته : « فان رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسلام وانبت الى الله ورسوله واخترت الاخرة تتخذك وليا وتكون من

أخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله بعد هذه الايات فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى : لو ان اهل الكتاب أمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولا دخلناهم جنة النعيم .... » وورد أيضا فيه : واعلم اني المهدي المنتظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا مال الدنيا ولا زخرفتها وانما انا عبدالله دال الى الله والى ما عنده فمن كان سعيدا اجابني واتبعني ومن كان شقيا اعرض عن دلالتي فازاله الله عن موضعه وعذبه عذاب الابد . وقد أيدني الله تعالى بالانبياء والمرسلين والملائكة والمقربين وجميع الاولياء والصالحين لاحياء دينه وقد بشرني النبي صلى الله عليه وسلم أن جميع من يلقاني بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك اخوانك وسلم تسلم » .(١)

بعد هذا الحديث المستفيض الذي حواه خطاب المهدي الطويل انجلى الموقف لغردون ، ولكل ذي عينين . وايقن غردون أن الدعوة المهدية لها ابعاد ومرام لم تخطر له على بال . فذهبت آماله في اخلاء السودان ادراج الرياح .

ترامى الى سمع بيرنج خبر قطع خط التلغراف بين الخرطوم وبربر فما عتم ان افضى الى حكومته بذلك وطلب اليها أن تأمر جراهام بمواصلة عملياته العسكرية في الشرق لفتح طريق سواكن بربر وبعد ذلك يزحف الى الخرطوم لانقاذ غردون . وقد صرح جلادستون بأن حكومته بعثت غردون في مهمة استشارية تقريرية محض ، واوكلت اليه الحكومة المصرية مهمة اخلاء السودان « فاذا اعترضته عقبات وهو يؤدي المهمة التنفيذية فالمسؤولية لا تقع على عاتق حكومة جلالة الملكة » (٢) ثم بين وزير الحربية البريطانية ـ اللورد هارنتجتون ـ احتمال الهلاك الذي يتعرض له الجيش الانجليزي اذا ما زحف من سواكن الى بربر فضلا عن عدم ملاءمة طقس السودان الحار في ذلك الفصل بالنسبة للجنود الانجليز .

والواقع من الامر ان الحكومة البريطانية كانت تجهل حقيقة الموقف في السودان وترى ان الامور لم تصل الحد الذي يلزم باستخدام القوات العسكرية لقلة الحقائق عندها . فأشارت في ٢٣ ابريل بأخبار غردون بأنها ترفض مده بقوات عثمانية أو غيرها لان الاعمال الحربية ليست من صميم مهمته . وفوق ذلك فانها تجا في سياسة السلم التي هدفت اليها بعثته . وكانت اقوال بعض افراد حكومة جلادستون حتى يوليو ١٨٨٤ هي ان الجنرال غردون خالف الاوامر والتعليمات الصادرة اليه ، وان الحكومة لذلك صارت لا تتحمل اية مسؤولية تجاهه . فهو

(١) نعوم شقير ص ٧٨٠
(٢) شبيكة « السودان عبر القرون » ص ٢٧٩

قد أرسل في مأمورية لا تتعدى سحب الحاميات واخلاء السودان ؛ ولكنه آثر البقاء لتنفيذ سياسية من عندياته أو من صنعه هو نفسه . ولذلك فلا وجه لان يتحمل البريطانيون انفاق الاموال الطائلة والتضحيات بأرواحهم لانقاذ جندي مهما كان ممتازا من تبعات عصيانة المتعمد للأوامر التي اعطيت له » (١) فهي اذن ترى انـه خالف الاوامر والخطط التي رسمت له . وهذا يذكرنا برأي بيرنج قبل تعيين غردون عندما رفضه بحجة انه لا يأتمر بأمر رؤسائه . ومن اجل ذلك رأت الحكومة في تلك الايام أنها في حل من أمر غردون .

أما من ناحية الانصار فقد زحف أبو قرجه الذي لقبـه المهدي بأمير البرين والبحرين ومعه ود البصير بجيش . فمر بالجزيرة فاستسلمت حامية فداسى في ٢٧ ابريل ١٨٨٤ واخيرا القى عصاه في الجريف غرب وكتب الى غردون ليسلـم عاصمة البلاد . ولكن الاخير لم يرد عليه فتقدم أبو قرجة حتى برى حيث بنـى طابية حصر منها الخرطوم .

ومما زاد الطين بلة بالنسبة لغردون سقوط بربر على يد الشيخ محمد الخـير أستاذ المهدي الاسبق في ١٩ مايو ١٨٨٤ ، وأسر مديرها حسين باشا خليفة، وتغنيم ما في خزانة المديرية من اموال كثيرة . ان سقوط بربر كان قاصمة الظهر لغردون . وهو بمثابة نذير او ارهاصات بدنو النهاية الفاجعة بالنسبة للحكومة وأية ذلك ان الخرطوم قد باتت معزولة عن العالم يحيط بها الثوار من كل جهة ومـع ذلك فان غردون لم يقنط كل القنوط من الخلاص اذ عمل جاهدا لرفع الروح المعنوية بين جنده واهل الخرطوم . وما هو الا أن فاض النيـل (كان غردون يتحـرق شوقا للفيضان للافادة من الوابورات في العمليات العسكرية) حتى أخذ يهاجم الثوار .

استطاع عساكر غردون أن يضغطوا أبا قرجة من النيل بوابوراتهم ومن البـر بمشاتهم فأخرجوه من طابيته في واقعة بري (٢٧ يوليو ١٨٨٤) ثم زحزحوه من الجريف التي تقهقر اليها في ١٢ اغسطس من العام نفسه . كما أنهم اخرجوا الشيخ العبيد من الحلفاية واضطروه الى التراجع الى أم ضبان في اواسط اغسطس ١٨٨٤ . وفضلا عن ذلك وفقت بواخره في جلب كميات من الغلال من الجزيرة وزعهـا على أهل الخرطوم .

هذه الانتصارات رغم انها لم تكن حاسمة ، الا أنها أزكت الروح بعض الشيء، وكان لها وقع حسن في نفوس أهل العاصمة . وزادت غردون اصرارا على اصرار للمضي قدما في مقاومته . بيد أن فرحة غردون ومعشر الخرطوميين لم تدم اذ زحف الامير عبدالرحمن النجومي من كردفان بجيش عرمرم في نفس شهـر اغسطس ، وحصر الخرطوم وبنى طوابي ليتحصن بها تجاه طوابي خندق المدينة .

أتبع النجومي الطريقة المعهودة وهي الكتابة لغردون للاقناع والاقتناع بالتسليم حقنا لدماء المسلمين . فبعث الى غردون بخطاب أورده نعوم شقير .

وهذا فحواه :

« اعلم أني ود النجومي امير أمراء المهدية الملقب بسيف الله المسلول وفاتـح كردفان والداير وقد جئتك بجيوشي لا طاقة لك بها ومدافـع لا قدرة لك علـى احتمالها فسلم تسلم لا تسفك دماء العساكر والاهلين بعنادك والسلام » .

وكان رد غردون مفعما بالتحدي وها هو نصه : « قد اطلعت على خطابك وانا لست بمبال بك ولا بسيدك المهدي ولسوف يحل بـك ما حل بابي قرجـة في بري والجريف وبأبن عمك العبيد بالحلفاية فخل عنك شقشقة اللسـان وكثرة الهذيان وجرب نفسك والسلام » . والحق أن غردون هو الذي كان يهذي ويخشى المصير الاسود الذي كان ينتظره .

ولقد عانى غردون من القلق والتمزق حتى عافت نفسه الطعام ، وصـار شعوره بالحاجة الملجئة الى جنود بريطانيين يزداد مع الايام بل مع الساعات . فلم يلبث أن بعث بوكيله ستيوارت باشا في باخرة الى مصر او ليتحدث الى بيرنـج من دنقلا . لينقل الاخير صورة صادقة عن خطورة الحال في الخرطوم وضرورة انقاذ غردون بحملة عسكرية انجليزية .

اخذ ستيوارت معه حوالي الاربعين رجلا مـن بينهم قنصلا انجلترا وفرنسا في الخرطوم وبعض الموظفين والتجار الشوام والاغريق واليهود . ولسوء حظ غردون فقد تحطمت الباخرة على صخرة في شلالات ود قمر بأرض المناصير وفي قريـة هبة وقع ستيوارت ومن معه في قبضة الشيخ سليمان نعمان ودقمر ، فقضى عليهم (١٨ سبتمبر ١٨٨٤) في ثأر أبيه الذي قتل في الدبة وقد أخذ ما مع ستيوارت من وثائق وفيها يومية غردون فأرسلها الى المهدي .

كان لذلك الحدث بالمناصير أهمية كبيرة وهي أن المهدي قد استنتج احتمال ارسال حملة انجليزية لانقاذ غردون . فما عتم أن تحرك من الابيض نحو الخرطوم ليتوج انتصاراته باستلامها قبـل ان تتعقد الامـور بمجيء قوات بريطانيـة الى السودان .

حملة الانقـاذ :

الم الشعب البريطاني بنبأ الحصار العنيف الذي ضربه الانصار على الخرطوم وبالاخطار التي تهددت حياة الجنرال غردون . وقف البريطانيون على هذه الحقائق من الكتاب الازرق الذي نشرته الحكومة وفيه بعض رسائل غردون في مايو ١٨٨٤

فما هو الا أن علم الشعب والصحافة البريطانية والملكة فكتوريا بجلية الموقف حتى أخذوا يضغطون على حكومتهم لتسير حملة لانقاذ غردون . وقد ظهرت ضرورة الحملة بعد أن تأكد خبر سقوط بربر في ٢٦ مايو ١٨٨٤ .

ازاء تلك الضغوط على الصعيد الشعبي والرسمي ، وخوفا من أن يسحب البرلمان ثقته انحنت حكومة جلادستون للعاصفة ووافقت على انفاذ حملة انقاذ يقودها السير جارنت ولسلي الذي انتصر على عرابي في واقعة التل الكبير ، وقد استغرقت الاستعدادات للتحرك من انجلترا والتعريج على مصر قرابة الشهرين . ولم يصل وادي حلفا الا في ٥ اكتوبر ومن ثمة اتجه صوب دنقلا ليلتقي بضابط بريطاني آخر تقدمه هو السير هيربرت ستيوارت ومعه كابتن كتشنر الذي سبق الحملة الى دنقلا ليطلع على الاحوال بحسبانه تابع لقلم المخابرات وليحافظ على ولاء الاهلين للحكومة هنالك ، وهو الذي كتب الى غردون بخبر حملة الانقاذ في ٢١ سبتمبر .

كان قوام هذه الحملة تسعة آلاف من العساكر الانجليز زيادة على الجيش المصري الذي اتفق على أن يعمل في خط الاتصال بين شلال حلفا وشلال حنك . وكانت وسائل مواصلات الحملة قوارب صنعت خصيصا لاجتياز الشلالات مع وابورات الحكومة المصرية . وللنقل في البر اشترى ولسلي أربعة الف جمل واستأجر ضعفها من الجمال وعددا كبيرا من البغال والحمير .

تجمعت كل فلول الجيش في كورتي (١٣ ديسمبر) وفيها قسم القائد جيشه الى قسمين : الاول يسير بطريق النيل لتأديب المناصير الذين قضوا على الكلونيل ستيوارت ، ومن هناك الى بربر لفتحها والثاني (جيش الصحراء) يزحف عبر الصحراء الى المتمة ويقوده هيربرت ستيوارت لينقذ غردون . ففي ٣٠ ديسمبر تحرك الجنرال ستيوارت بفريق من الجيش ومعه الكابتن كتشنر (تابع لقلم المخابرات) ومعهما الذخائر والمؤن التي تركوها في آبار الجكدول تحت رعاية كتشنر. وبعد أن جمع كل جيش الصحراء في آبار الجكدول زحف الجيش بقضه وقضيضه في ١٤ يناير نحو المتمة .

من جهة أخرى كان الشيخ محمد الخير يبث عيونه في مناطق دنقلا ويبعث بأخبار الحملة الى المهدي والمهدي أيضا كانت له عيون . فلما أيقن بخبر الجيش ارسل سرية بقيادة موسى ودحلو من رجالات دغيم وكنانة ، وانفذ محمد الخير بسرية أخرى يقودها أبن اخيه عبدالماجد محمد خوجلي . وكانت استراتيجية المهدي أن تجتمع السريتان لتصدا الانجليز من ورود النيل . غير أن موسى ودحلو تعجل وزحف نحو الاعداء ، وسيطر على آبار ابي طليح في (منتصف الطريق بين المتمة

والجكدول) ليحرم اعداءه من الماء . وفي فجر يوم ١٧ يناير هاجم الجنرال ستيوارت الانصار وفتح عليهم نيران المدافع والبنادق ورغم شجاعة السودانيين المعهودة ، الا أن الاسلحة الحديثة في ذلك الوقت حصدت منهم الكثير فكسب ستيوارت المعركة.

وفي معركة اخرى عند القبة في شمال المتمة التقى الانصار بقيادة النور عنقرة بالانجليز (١٩ يناير) ، فأصاب الانصار مقتلا من ستيوارت قائد جيش الصحراء وتسلم القيادة بعده تشارلس ولسون . واستلم أيضا باخرتين أرسلهما غردون لاستقبال الحملة وبدلا من أن يبحروا من القبة تأخر ولسون اياما ولم يبارح القبة الا في ٢٤ يناير ، فأضاع بذلك الوقت .

واخيرا وفي صبيحة يوم ٢٨ يناير اقتربت باخرة ولسون من الخرطوم فلم ير العلم المصري يرفرف على سراي الحكمدار . وفي الحلفاية نما الى علمه هلاك غردون ، ولم يلبث ان انهال الرصاص عليه من الحلفاية ثم توتى ، وقرب المقرن علم الخبر اليقين وهو نهاية غردون قبل يومين من وصوله . فرجع محزونا كاسف البال لينقل الى قومه نبأ مقتل غردون الذي تكبدوا في سبيل انقاذه كل تلك المشاق.

سقوط الخرطوم :

أسلفت الاشارة الى ان النجومي قد حاصر الخرطوم . ثم قدم القائد الاول وصاحب الدعوة محمد المهدي من كردفان ، والقى عصاه في ابي سعد (حوالي ميلين جنوب أم درمان) في ٢٣ اكتوبر ١٨٨٤ على رأس جيش ينوف على الستين الفا . ولقد ارتعد أهل الخرطوم ، واصيبوا بهلع وقلق شديدين ، وظلوا يندبون حظهم العاثر الذي اوقعهم في ذلك المأزق المميت .

بدأ المهدي ـ كدابه ـ بمخاطبة خصومه باللين والحسنى اولا فكتب الى غردون. فرد عليه الاخير بقرب مجيء الانجليز . كما كتب المهدي الى فرج الله بك قمندان طابية أم درمان ، فلم يرد عليه . وفي هذا الوقت اشتد الجوع على كل من الخرطوم وام درمان ، مما اضطر غردون الى ارسال العجزة من الرجال والنساء والارقاء الى المهدي . وضاقت الارض بما رحبت بغردون ، وعاش في كآبة دائمة . وفي هذا يقول تشرشل : « تكاتفت كل عوامل القلق التي من شأنها ان تزهق روح بشر . فالنساء كن يصرخن جزعات للطعام . والاهالي يكيلون لغردون اللوم والتقريع . ويقولون انهم تركوا ليلاقوا حتفهم ، وان العون لن يأتي . اما الحملة فهي اسطورة ـ انها كذبة الجنرال الذي تخلت عنه حكومته » (1) .

ويقول أيضا « ان تعاسة أهل المدينة قد مست سويداء قلبه النبيل وان العزلة قد أفعمت قلبه غما وكآبة . ومع ذلك فقد تماسك لعاملين : شرفه كرجل

وعقيدته كمسيحي » وبدنو الشتاء ازدادت آلام المحصورين ، وتضاءلت ثقتهم في قائدهم ووعوده بالانقاذ .

كتب المهدي للمرة الثانية خطابا لغردون يطلب اليه ان يترك الخرطوم ويعود الى اهله معززا مكرما ، ولكن عنجهية غردون أبت عليه الا ان يبقى متحديا المهدي رغم الشقاء الذي كان يكابده . وقد جاء في احد خطابات المهدي قوله : « وانت ان قبلت نصحنا فيها ونعمت والا ان اردت ان تجتمع على الانكليز فبدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام » . ثم كتب المهدي الى غردون للمرة الثالثة ، ولكن دون جدوى ، رغم ان الجوع قد اشتد بأهل الخرطوم حتى أكلوا الكلاب والحمير والخيل والبغال ، وبلغ ثمن ربع الذرة بمائة ريال ! فلا غرو فقد عض الجوع الناس بانيابه، والهب الغلاء ظهورهم بسياطه الكاوية وامتص عصارة قلوبهم ودمائهم فليس بمستغرب اذا تحول الكثيرون الى حطام آدمي ! هذا بالطبع ما رمى اليه المهدي وهوالتضييق على الخرطوم حتى يضطرها الجوع الى التسليم .

ولقد تضافرت عوامل شتى ادت في النهاية الىسقوط الخرطوم منها اولا ـ وفق ما يقرر الدكتور شكري ـ خسارة معظم الوابورات التي اعتمد عليها غردون في تموين العاصمة واستيلاء الانصار على بعضها . ثانيا سقوط بربر في ٢٦ مايو ١٨٨٤ . ثالثا ارسال ستيوارت ثم قتله في أرض المناصير . واخيرا ضعف الحامية بسبب الجوع وسوء التغذية وانهيار الروح المعنوية ، وارتفاع الروح المعنوية في جانب الثوار . وبخاصة عندما سقطتحامية ام درمان في ٥ يناير ١٨٨٥ . وكانتام درمان « كالروح » بالنسبة للخرطوم فيما قال المهدي . كل اولئك لم يثن غردون عن عناده اذ تمسك بموقفه وصمم الا يغادر السودان حتى يجلو منه آخر من يريد ان يغادر هذه البلاد وحتى يؤسس فيها حكومة وطنية . فقال في جرناله : « أعلن في ايجابية اولا واخيرا انني لن أترك السودان حتى اعطي الفرصة لآخر من يريد ان يبارحه ، والى أن أقيم فيه حكومة تريحني من هذا العبء » (١)

أخيرا حانت الساعة المرتقبة لمداهمة الخرطوم لسببين : اولها ان المهدي قد علم ان بواخر الانجليز قد أبحرت من القبة في فجر يوم ٢٤ يناير ميممة شطر الخرطوم . ثانيا هرب احد ضباط الباشبوزق ويدعى السنجق عمر بك ود الفقيه ابراهيم الملقب بغرة العينين ، واخبر المهدي بوجود ثغرة في خندق الخرطوم من ناحية النيل الابيض يستطيع الجيش أن يغزو من خلالها المدينة في سهولة ويسر . كما افشى بعض الاسرار الحربية الهامة المتعلقة بخط النار وترتيب العساكر ونقاط الضعف عامة وسوء حال المدينة . الامر الذي شجع المهدي على مهاجمتها .

(١) هيك ، جرنال غردون ، ٣٠٧ (نقلا عن الدولة المهدية في السودان) لهولت .

عبر المهدي النيل في مساء يوم ٢٥ يناير ١٨٨٥ ، ونزل قرب معسكر النجومي في شجرة ماحو بك ، وجمع قواده وعلى راسهم النجومي وابو قرجة ورسم لهم الخطة لفتح العاصمة . وقبل طلوع الفجر (بساعة) داهم الانصار الخرطوم ودخل رجالات النجومي خلال ثغرة الخندق وقضوا على الاورطة الاولى ، ولم يلبثرجال الباشبوزق الذين تلوا هذه الاورطة ان هربوا الى المدينة أو نجوا الى الصحراء . (١) وقد مرت الخرطوم بتجربة قاسية للغاية ووقت رهيب مات فيه كثير من الناس، وتعرض البعض للاسر وضياع الاموال .

ماذا ننتظر من الثوار غير القضاء على اعدائهم الذين رفضوا فيصلف الاستسلام وكلهم امل في أن يصل الانجليز لسحق المهدي وانصاره ؟ ان قائد الثورة قد ناشد اهل الخرطوم لينضموا اليه او يسلموا . ولكنهم ركبوا رؤوسهم ولم يستجيبوا لنداءاته المتكررة فاذا حاقت بهم مجزرة بشرية وغنمت أموالهم ووقعوا في الاسر فالذنب ذنبهم وهمالمسؤولون عما حدث . أو على راي المثل العربي « على نفسها جنت براقش » .

يذكر شقير أن اول من اخترق خط النار ودخل الخرطوم محمد توباوي شيخ بنى جرار الذي أخذ مجموعة من رجاله واقتحم سراي الحكمدار ، فوجد غردون واقفا عند راس السلم بثيابه العسكرية فطعنه طعنة نجلاء ، ثم قطع الثوار راسه واخذوه الى المهدي . وفي رواية أخرى أوردها ضرار صالح ضرار في كتابه « تاريخ السودان الحديث » أن رجلين من ابناء البجة هما الذان طعنا غردون .

من تحصيل الحاصل أن نقول ان المهدي قد هلل وكبر وسعد واية سعادة بذلك الفتح المبين ! بيد أن اغتيال غردون لم يرضه لانه كان يعتزم أن يفتدي به عرابي باشا . هكذا قرر سلاطين . وقد نفى بعض المؤرخين هذه المسألة بحجة انها تفتقر الىالبرهان اذ لم يثبتها المهدي في واحد من خطاباته ، ولم يقل بها احد من الانصار .

مهما يكن من شيء فقد أسدل الستار على تلك المسرحية التي اعتبرها البريطانيون مأساة فاجعة لضياع غردون . واخيرا توج المهدي ثورته الظافرة بانتزاع العاصمة من براثن الاجانب ، وبالتالي تسلم زمام الامور في البلاد .

عود الى حملة الانقاذ :

وقفنا عند حقيقة عن حملة الانقاذ وهي أن تشارلس ولسون قد رجع بعد اذ تيقن من سقوط الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥ . وبعد أن لاقى مالاقى من مشاكل

(١) نعوم شقير .

في الطريق بسبب غرق احدى بواخره قرب شلال السبلوقة ، ومناوشات الانصار التي كادت تودي بحياته ، وصل القبة في ٤ فبراير ١٨٨٥ . وكان الجنرال ولسلي الذي اتخذ كورتي قاعدة له ، قد أعلم بنبأ هلاك غردون ، فوقع عليه الخبر وقوع الصاعقة . فابرق الى حكومته بذلك وظل ينتظر قرارا آخر .

ولقد انحى كثيرا من الانجليز باللائمة على ولسون لتأخره في القبة حتى قضى الثوار على غردون . بل حملوه مسؤولية سقوط الخرطوم . ولكنه دافع عن نفسه في كتاب نشره ، وسانده البعض . وفي رأي تشرشل أن ولسون ، حتى ولو وصل في وقت مبكر ، لما استطاع أن يجنب الخرطوم السقوط . ويقول في هذا : « ان الخرطوم كانت منذ وقت طويل تحت رحمة العرب . ولكنهم في الواقع قد املوا ان يرغموها على الاستسلام بالتجويع ، وتجنبوا مهاجمتها لكيلا يكلفهم ذلك كثيرا كما حدث في تجربتهم بالابيض . ولقد سجل غردون في جرناله أن المدينة قدصارت عاجزة عن حماية نفسها منذ اواسط ديسمبر . وعلى ذلك فان وصول عشرين جنديا بريطانيا مع نفر من الضباط لا يمكن بأية حال أن يغير من الوضع ، بل يزيد من الخسارة » .(١)

أثار سقوط الخرطوم ومقتل غردون موجة عارمة من السخط والاسى بين الانجليز . وقد ثارت ثائرة الملكة فكتوريا والشعب البريطاني على حكومة حزب الاحرار . وارتفعت الاصوات مطالبة بأخذ الثأر ورد اعتبار الجيش البريطاني في السودان . ولم يسع الحكومة البريطانية ازاء هذا الضغط الشعبي الا أن تستجيب لمطلب الامة . فلم يكن الا القليل حتى أبرقت الى الجنرال ولسلى في ٧ فبراير ١٨٨٥ قائلة : « ان غاية الحكومة الآن سحق المهدي واخماد ثورته وانها تعتمد عليه في جميع التدابير العسكرية التي توصله الى هذه الغاية » . من هذا علم ولسلى ان الحكومة قد تركت له حرية التصرف لتحقيق هدفها المنشود .

وتنفيذا لهذه السياسة خطط ولسلي استراتيجيته على ان يفتح بربر ليجعل منها قاعدة للانقضاض على المهدي . وطلب من حكومته أن تنفذ كتائب عسكرية الى سواكن للقضاء على عثمان دقنه ، ولمد خط سكة حديد من سواكن الى بربر . وفي فصل الخريف يضم قوة سواكن لجنده ويزحف على الخرطوم .

وهناك الجنرال بلر الذي ارسله ولسلى من كورتي (٩ يناير) ليقود جيش الصحراء بعد اصابة ستيوارت وفي الجكدول سمع بسقوط الخرطوم ، فواصل سيره الى القبة حيث اجتمع جيش الصحراء .

ومن ناحية اخرى فقد اشار المهدي الى النجومي بملاحقة الانجليز في القبة

(١) ونستون تشرشل « حرب النهر »ص ٦٧

فزحف نحوهم في ٨ فبراير . ولما كان بالمتمة عدد لا يستهان به من الانصار ومعهم اسلحة نارية ، وان النجومي يستحث الخطا نحو الانجليز ، فقد تقهقر الجنرال بلر الى ابي طليح ثم الى الجكدول خوفا من جيش النجومي . وما برح يتقهقر والانصار يناوشونه حتى وصل كورتي بعد أن فقد بعض ضباطه وعسكره ، وتجرع جيشه المرائر وصنوف الشقاء بسبب قلة المؤن وموت الجمال وحرارة الشمس المحرقة .

اما جيش النيل فعلى الرغم من انه حقق انتصارا على جيش الانصار الذي يقوده عبد الماجد أبو لكيلك من الميرفاب ، ، وموسى ابو حجل الرباطابي وسليمان ودقمر المنصوري ، الا انه فقد قائده الجنرال ايرل في معركة جبل كربكان في ١٠ فبراير ١٨٨٥ . وقد صدرت تعليمات من ولسلى الى جيش النيل ليرجع الى كورتي لان ولسلى قد قرر أن يؤجل الزحف نحو الخرطوم ريثما تأتيه امدادات ، ويتحسن الطقس بحلول الخريف .

على أن حكومة جلادستون قد تخلت عن مشروعها الرامي الى سحق المهدي وصرحت بأنها ستجلو عن السودان نسبة لانشغالها بالنزاع الروسي البريطاني حول افغانستان . فما عتمت أن أمرت جندها بالجلاء عن دنقلا في ١١ مايو ١٨٨٥ ، وبانسحاب الجنرال جراهام من شرقي السودان . ولا يفوتنا ايراد حقيقة هامة وهي ان الجنرال جراهام قد دخل فيحرب أخرى مع عثمان دقنة والتقى به في معركة توفريك في ٢٢ مارس ١٨٨٥ . ورغم أن السودانيين قد استشهد منهم كثيرون ، الا أن البريطانيين فقدوا فيها أيضا عددا من عساكرهم ، مما اقلق الشعب البريطاني وحكومته . فقررت اخيرا الجلاء عن هذه البلاد التي استعصت عليهم .

ولعل مما جعل الحكومة الانجليزية تصرف النظر عن محاربة المهدي انها وصلت الى نتيجة منطقية وهي أن من العسير الانتصار على المهدي وقد ايده السودان بأسره الا بعد جهد جهيد ووقت طويل يكلفها مالا تطيق من أموال . كما أنها لم تر فائدة محسوسة تدفعها للقيام بمغامرة في ذلك الميدان . وفضلا عن ذلك فان روسيا التي كانت تسعى الى المياه الدافئة اخذتتهدد الهند جوهرة التاج البريطاني بزحفها على افغانستان وهزيمة ملكها في واقعة بندجي .

على هذا النحو انتهت قصة حملة الانقاذ التي طالما شغلت الشعب البريطاني ، وكلفت الخزانة نفقات كثيرة وضاع فيها رجال من خيرة الجنود الانجليز ، لقوا حتفهم على أيدي الثوار الابطال من السودانيين .

خاتمة :

في ختام هذا الموضوع يجمل بنا ان نحدد مسؤولية فشل بعثة غردون . هذه البعثة التي تناولها بعض الكتاب بالاستقصاء ، وبينوا ان المسؤول الاول هو غردون

بتصرفاته الغريبة . ولعل التضارب البين في فهم جلادستون لبعثة غردون وفهم الاخير قد لعب دوراً في تفشيل تلك البعثة . ومن السياسيين من القى التبعة على حكومة جلادستون التي أكرهت اكراها تحت الحاح الرأي العام البريطاني والملكة فكتوريا على اختيار غردون . وكانت في اول الامر تعارض التدخل العسكري في السودان في عناد أشتهر به جلادستون . وفي تحليل لشخصية جلادستون يقول ثيوبولد : « ان نقاط الضعف فيه وهي ضيق الخيال وعدم المرونة ، وشكوكه واسترابته في القرارات السريعة ، لم تكن ظاهرة فيه كصلابته وقوة تأثيره » .

وقد ذهب آخرون الى ادخال السير افلن بيرنج في زمرة المسؤولين عن فشل بعثة غردون لانه أبطأ في الوصول الى القرار الخاص باخلاء السودان بسبب انتظار الوزارة المصرية حتى تقتنع بسياسة الاخلاء . وكان من اللازم اللازب في راي هؤلاء الاسراع في تقرير التخلي ليستفاد من الزمن في عملية الاخلاء وفيما ارى أن هذه النقطة في نقد بيرنج ضعيفة بعض الشيء لأن موافقة الحكومة المصرية كانت ضرورة لازمة لان التخلي عن السودان مسألة كبيرة للغاية ، بل كارثة ساحقة على المصريين لانه ضياع لامبراطوريتهم . كما ان نفقات الاخلاء كانت على حساب الحكومة المصرية . واهم من هذا أن اولئك النقاد ادانوا بيرنج على الاضافة التي وضعها على تعليمات غردون التي حددتها الحكومة الانجليزية بحيث اقترنت مسألة الاخلاء بقيام حكومة وطنية سودانية .

جهد ما يقال في مسؤولية فشل بعثة غردون انها تنحصر بدرجات متفاوتة في غردون نفسه ، وحكومة جلادستون وبيرنج . ولنا أن نتساءل هل كان الوقت مناسبا للقيام بهذه البعثة ولنجاحها ؟ الواقع من الأمر ان الثورة المهدية آنذاك قد انتشرت في كثير من بقاع السودان . وكانت المهمة تحتاج الى نظر . على أن البعض يرون أن بريطانيا انما اهتمت بهذا المشروع لشيء في نفسها . من هؤلاء شايي لونج الضابط الامريكي في الجيش المصري الذي قال : « ان مهمة غردون الحقيقية هي بسط الفوضى والخلل في السودان ، وان يسهل على انجلترا الاستحواذ عليه بعد انفصاله عن مصر » . ويؤيد هذا الراي ابراهيم فوزي (ياور غردون) حيث قال : « ان مأمورية غردون منحصرة في هذه السطور وهي ان حكومة جلالة الملكة كان غرضها أن يمهد السبيل لوقوع تلك البلاد في مخالب الفوضى ، وبعبارة اخرى أن يقضي على نفوذ مصر في تلك الارجاء » (١) ومهما يكن من شيء فان بعثة غردون قد منيت بالفشل الذريع . وقضى الله أن يعود حكم السودان الى اهله في نهاية المطاف .

---

(١) السودان بين يدي غردون وكتشنر لابراهيم باشا فوزي ج ١ ص ٢٩٥ (نقلا عن مصر والسودان للرافعي بك) .



سياسة الخليفة عبدالله الداخلية ((أ))

الخطوات التي اتخذها الخليفة عبدالله لتدعيم حكمه ما بين ١٨٨٥ – ١٨٨٩

قضى المهدي نحبه في ٢٢ يونيو ١٨٨٥ ، فتقلد عبدالله بن السيد محمد منصب الخلافة . ولقد واجه عديد المشاكل التي لا يقوى على حلها الا من أوتي قوة زكانة خارقتين . فموت المهدي كان بمثابة الاشارة لبدء سلسلة طويلة لكل انواع التمرد والعصيان من عسكري وسياسي وديني . ولم يحدث تمزق داخلي فحسب ، بل تعرضت حدود البلاد الى المخاطر ومطامع المستعمرين . ولو كان الخليفة حاكما عاديا لانهار تحت وطأة الكوارث التي تنوء بحملها كواهل الأفذاذ من الرجال . « وقد خرج الخليفة مظفرا من جل المعارك التي خاضها ضد اعدائه . ولا مرية ان المظهر العظيم الذي برز به السودان في الحقبة من ١٨٨٥ – ١٨٩٨ م يعود الى ذلك الحاكم المقتدر رغم كل المعوقات والتناقضات ، اذ تحدى اي خطر وتغلب على كل عقبة كأداء » (١) .

يقرر تشرشل ان الخليفة عبدالله في غضون الثلاث عشرة سنة التي امضاها في الحكم قد جهد في تطبيق الوسائل التي سبقه اليها الحكام الشرقيون لدعم سيادتهم اذ كان ديدنه في السياسة الحفاظ على الذات ، ومن بين الوسائل البارعة التي استخدمها الخليفة في سياسته انه اولا قضى على كل منافسيه الخطيرين ، او جعل منهم شخصيات لا يؤبه لها . ثانيا : توخى الخليفة سياسة التركيز العسكري فقبض ناصية القوة الضاربة في البلاد ليحمي نفسه . وثالثا : حافظ على توازن القوى بين ابناء العرب وابناء البلد لمصلحة قبيلته (٢) .

وفي حديث عن سياسة الخليفة عبدالله يقول ثيوبولد : ان سياسة الخليفة عبدالله كانت نضالا من اجل البقاء . وقد صمم منذ البداية ان يقيم سلطة لا يتطاول اليها اي احد ، كائنا من كان ، ثم يبقي على هذه السلطة لكيلا تتعرض للزوال . وما

« 1 » Winston S. Churhill, The River War, p. 73

« 2 » I bid, p. 73—74

من احد ينقد هذين الهدفين لانهما طبيعيان ، وكانا في الواقع الوسيلتين الوحيدتين اللتين يمكن ان يحكم بهما السودان . على ان من الممكن ان تنقد الطرق التي اتبعها . وحتى هنا لا بد من ان يأخذ المرء في اعتباره (اثناء نقده) اختلاف المقاييس واختلاف الزمان والمكان .

والحق ان بعض الباحثين اليوم يقع في خطأ عندما يقيّمون سياسة الخليفة فيسمونه بالعسف والجبروت . ومما لا مجال للشك فيه ان عهد الخليفة لم يخل من عنف وضغط شديدين في بعض الأحيان . بيد اننا اذا احضرنا في أخلادنا الأوضاع في ذلك الوقت ، وما أحاط الخليفة من فتن ومؤامرات تجلت في العصيان والتمرد عليه وعلى حكمه ، لظهر لنا جليا ان الخليفة كان معذورا فيما ذهب اليه من اجراءات . ولا يسع أي حاكم أن يصنع أقل مما صنع الخليفة اذا كان حريصا على استتباب الأمن في ربوع بلاده ، والبقاء على دست الحكم فيها .

استيلاء الخليفة عبدالله على السلطة :

عندما انتقل المهدي الى دار الخلود ، تطاولت الرقاب الى منصب الخلافة الرفيع . فانحصر التنافس بين الطامحين الى الرئاسة في عبدالله التعايشي والاشراف **من آل محمد المهدي . وكان من البين ـ منذ البداية ـ ان عبدالله سيفوز بالسلطة ، وآية ذلك ان المهدي قد عينه مذ كان في قدير خليفته الأول ، فأجلس عبدالله بن محمد في كرسي أبي بكر الصديق وأجلس علي ود حلو في كرسي عمر الفاروق ، وأجلس محمد شريف حامد في كرسي علي الكرار وجعل كرسي عثمان ذي النورين شاغرا** ليجلس فيه محمد المهدي السنوسي (١) .

وقد استطاع عبدالله بفطنته ودهائه ان يقنع معشر الانصار ان الاشراف انما كانوا يسعون للسلطة على أساس الوراثة ليس الا ! فكسب علية القوم أمثال قاضي الاسلام وبعض الامراء والاعيان ، فبايعوه . وها هي صيغة المبايعة : « بايعنا الله ورسوله ومهديه وبايعناك على طاعتك والانقياد الى حكمك » . وبعد الفراغ من مبايعة أهل العاصمة ، بعث الخليفة بخطاباته الى الاقاليم في مختلف أنحاء السودان لتكتمل صورة البيعة . فتم له ما أراد .

على هذا النحو نال الخليفة عبدالله مرامه ، وتفوق على كل منافسيه الذين بايعوه أخيرا ، وفي حلوقهم مرارة الهزيمة . وفي هذا يقول شقير : « ولولا الدهاء والحزم اللذان فطر عليهما هذا الرجل ومساعدة الاقدار له لانفلت الأمر من يده وعمت الفوضى السودان » . ولست أدري ان جاز لنا ان نشبه موقف الاشراف من

---

(١) جهاد في سبيل الله ص ٢١٨ .

عبدالله بشعور أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام من خلافة أبي بكر الصديق مع الفارق بين هؤلاء وأولئك !

الخطوات التي اتخذها الخليفة لتدعيم حكمه :

١/ الاستيلاء على بقية الحاميات المصرية :

كتب للمهدي النصر المبين على جند الحكومة التركية المصرية في السودان ، ودانت له البلاد . غير أن ثمة حاميات ظلت باقية لم تستسلم بعد ، ونعني بذلك حاميات كسلا ، سنار ، والمديرية الاستوائية

بدأ حصار الانصار لحامية كسلا على عهد المهدي عام (١٨٨٤) . وقد نفذت موادها الغذائية ، وما زال جندها صابرين حتى اقتاتوا بالجلود القديمة ! ولأنهم صاروا يموتون كل يوم في اعداد كبيرة ، فقد استسلمت الحامية في يوليو ١٨٨٥ .

كذلك حاصر الانصار سنار في أيام المهدي ايضا في نوفمبر ١٨٨٤ م . وبعد ان استمرت الحرب سجالا بين الفريقين ، سلمت حامية سنار في اغسطس ١٨٨٥ م .

وفيما يتعلق بمديرية خط الاستواء ، فقد اسلفت الاشارة (في الفصل الثامن) الى ان كرم الله الشيخ محمد قد استولى على امادي سنة ١٨٨٥ م . ثم سقطت الرجاف في أيدي الأنصار عام ١٨٨٨ م. ولما نفذت حملة الرحالة البريطاني ستانلي سياسة بريطانيا التي رمت الى اجلاء أمين باشا مدير الاستوائية ، وبالتالي انهاء النفوذ المصري في خط الاستواء (١٨٨٨ م) آلت الاستوائية الى سيطرة الخليفة عبدالله . وللاستزادة قليلا عن هذا الموضوع يمكن الرجوع الى موضوع الثورة في خط الاستواء في الفصل الثامن من هذا الكتاب .

٢/ الخليفة والفتن القبلية :

لعل من أصعب المشاكل الداخلية التي جابهها الخليفة عبدالله في ابان حكمه عصيان بعض القبائل في غربي السودان والبلاد النيلية على حد سواء . هذه الحركات الثورية بدأ بعضها على عهد المهدي ونعني بذلك عدم موالاة الشكرية للمهدي الى أن سقطت الخرطوم ، وغدر زعيم الكبابيش بالمهدية ، وعصيان بعض جبال النوبة .

وأكبر الظن ان موقف القبائل الثائرة ضد الخليفة ان هو الا صورة من صور القبلية التي امتدت جذورها الى اغوار بعيدة في المجتمع السوداني الأسبق . فالشعور بالقومية الذي كان ثمرة طيبة من ثمار الثورة المهدية لم يلبث أن أصابه الوهن . فانتكست بعض القبائل ورجعت القهقرى تنشد استقلالها الماضي وانطلاقها على

ما فيه من نقائص ! ومن القبائل ما نفست على الخليفة عبدالله ان يكون الحاكم بأمره في طول البلاد وعرضها رغم صغر قبيلته ــ التعايشة ــ بالقياس الى بعض القبائل التي كانت ذات شأن ومنعة في السودان . فليس بمستغرب اذن ان تجهر القبائل التالية بعصيانها ضد خليفة المهدي :

أ) عصيان الشكرية (١٨٨٦ م)

ليس من شك ان قبيلة الشكرية ــ فيما علمنا ــ قد برزت كاحدى القبائل الكبيرة التي لعبت دورا هاما في تاريخ التركية السابقة . فزعيمها الشيخ عوض الكريم باشا ابو سن لم يتقبل المهدية الا مؤخرا . ولم يبايع المهدي الا بعد ان سقطت الخرطوم في يناير ١٨٨٥ . ومع ذلك فقد عفا المهدي عما سلف عندما استسلم الشيخ عوض الكريم .

اما الخليفة عبدالله فانه لم يكتف بمبايعة زعيم الشكرية واستسلامه ، فأشار عليه ان يكتب لبقية زعماء العشيرة ليجيئوا الى العاصمة . غير انهم لم ينصاعوا للأمر . فما كان من الخليفة الا ان زج بالشيخ عوض الكريم في غياهب السجن الى ان توفاه الله في ديسمبر ١٨٨٦ . ومن ثم انفذ حملة لتأديب اولئك العصاة المارقين على سلطانه من الشكرية . وفي هذا يقول نعوم شقير : « جرد على الشكرية فقتل وسبى وغنم حتى استجاروا بالحبشة والانكليز » . ومن ذلك قول شاعرهم الحاردلو اخي عوض الكريم باشا :

ناسا قباح من الغرب يو جونا   جابوا التصفية ومن البيوت مرقونا
اولاد ناس عزاز متل الكلاب سوونا   يا يابا النقس يا الانجليز الفونا (١)

ومن هنا نعلم ان الشكرية ، وقد صور شاعرهم ما كان يعتمل في صدورهم من حرقة وغل ، قد كرهوا حكم الخليفة لدرجة كانوا يتمنون ان يسعفهم «النقس» وهو ملك الحبشة ، او يغيثهم الانجليز !

ومهما يكن من امر نقد وضع الخليفة حدا لعصيان الشكرية بهذه الاجراءات القاسية .

ب) ثورة الرزيقات (١٨٦٦ ــ ١٨٨٧ م)

سبق القول الى ان مادبو زعيم قبيلة الرزيقات كان احد امراء المهدية في الغرب ، وانه حارب سلاطين مدير دارفور . والواقع ان كراهية هذه القبيلة للحكم

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان ص ١١٣٦ » .

التركي المصري ساعدت كثيرا على الاطاحة بذلك الحكم . ولما سقطت دارة ثم الفاشر في ايدي الانصار عين المهدي محمد خالد زقل مديرا لدارفور ، فذهب مادبو الى باديته في شكا . وقد تولى عمالة شكا آنذاك محمد كرقساوي . وعندما استدعى الخليفة عبد الله محمد خالد زقل أوكل أمر دارفور الى الامير يوسف ابراهيم سلطان دارفور السابق . هنا تمرد مادبو وسولت له نفسه أن يزحزح الانصار ويستولي على البلاد الواقعة بين دارفور وبحر الغزال .

ترامى خبر مخطط مادبو الى سمع الخليفة عبدالله . فما عتم ان طلب الى مادبو الحضور كالعادة لتجديد البيعة . ثم امره بالمجيء لزيارة قبر المهدي او لحضور العيد الكبير معه ! ولكن محاولات الخليفة باءت جميعها بالفشل . والواقع ان الموقف في الغرب بالنسبة للخليفة حساس وآية ذلك ان الخليفة قد ازمع أن يبقى الغرب في حالة هدوء ليتخذ منه ملجأ اذا دعت الضرورة .

وقد أعد مادبو جيشا من رجالات الرزيقات ، واعلن عصيانه للحكومة ، فأهدر الخليفة دمه وسلط على الرزيقات محمد كرقساوي حاكم شكا واخاه كرم الله عامل الخليفة على بحر الغزال . واخيرا اقتنص الأمير يوسف مادبو في نوفمبر ١٨٨٦ عندما كان الأخير ميمما شطر جبل مرة . فأرسل ابنا كرقساوي مادبو الى الخليفة . وفي الأبيض أعدم حمدان ابو عنجة مادبو (فبراير ١٨٨٧) لعداوة قديمة بينهما ترجع الى ما قبل المهدية ، وارسل راسه الى الخليفة !

وهكذا تخلص الخليفة من ثورة الرزيقات وزعيمهم .

ج) عصيان الكبابيش (مايو ١٨٨٧ م)

لم يتقبل الكبابيش المهدية بتة . ويعود ذلك الى ان مصالحهم الاقتصادية كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصر لأنهم كانوا يبيعون لها ابلهم ، ويستوردون منها بعض مطالب حياتهم . وخطورة قبيلة الكبابيش تكمن في الموقع الذي تسرح فيه ، وسهولة اتصالها بمصر ، ونقل اخبار المهدية للانجليز والمصريين .

بدات المشاكل بين المهدي والكبابيش عندما ترامى الى سمع الأول ان التوم ود سالم زعيم القبيلة قد خان المهدية ، وكان على صلة بغردون ، بل تبادل معه الهدايا . فما هي الا أن ايقن المهدي من ذلك حتى ارسل اليه الأمير ابا قرجة في توكبة من الفرسان قبضت عليه . فأمر المهدي بجز وتينه . حدث ذلك بعد تسليم الأبيض . فلا غرابة اذا كان الكبابيش موتورين من ناحية المهدية .

وعندما خلف صالح فضل الله ود سالم اخاه الذي أعدمه المهدي على زعامة العشيرة ، ظل في عزلة سلبية ومعارضة لحكم الخليفة عبد الله في اطواره الاولى . وفي مطلع سنة ١٨٨٧ م ، بدأ عدوانه ضد المهديين باغارة شنها على قافلة من الجمال

كانت مرسلة الى الأمير عبد الرحمن النجومي في دنقلا . ولما كان واثقا من أن الخليفة لن يتركه وشانه ، فقد سارع الى الاتصال بالحكومة المصرية ، فزودته بمائتي بندقية وكمية من الذخيرة وبمبلغ من المال . وقد صحب القافلة التي حملت هذه الأشياء من حلفا عبر الصحراء الى ديار الكبابيش كارل نيوفيلد وهو شاب ألماني مغامر وتاجر وجاسوس ، كان يأمل في فتح تجارة الصمغ مع كردفان ، ويتجسس في ذات الوقت على حكومة الخليفة لصالح العسكريين الانجليز بمصر . (1) وقد اغار رجالات النجومي على تلك القافلة وغنموها وقتلوا رجالها ما خلا كارل نيوفيلد الذي أرسلوه الى أم درمان .

من البديهي ان يغضب الخليفة عبد الله لخيانة زعيم الكبابيش وتآمره مع الاعداء . وكدأبه ، طلب الى الشيخ صالح الهجرة الى ام درمان. ولما لم ينصع للأمر أهدر دمه ، وسلط عليه النجومي من دنقلا ليمنع سيره نحو الشمال ، وأمر عثمان آدم عامله في كردفان ليمنع القبائل الاخرى من البيع والشراء مع الكبابيش ، بل يمنعهم من امدادهم بالحبوب ليحاربهم اقتصاديا ويقتلهم جوعا ! وأخيرا قبضت قوة من الانصار على الشيخ صالح وقطعت راسه وأرسلته الى ام درمان (١٧ مايو ١٨٨٧) ليعلق على المشنقة كيما يرعب من تحدثه نفسه بالثورة على سلطان الخليفة عبد الله ! ثم نكل الخليفة بعرب الكبابيش ، وغنم ابلهم وأموالهم .

وهكذا قضي الخليفة عبد الله على عصيان قبيلة الكبابيش الكبيرة وأزال بذلك الخطر الذي كان يتهدده من ناحية الشمال .

د) عصيان قبائل أخرى :

ثمة زعماء آخرون عصوا أمر الخليفة ولا يسعنا المقام لذكرهم ، وقد قمعت حركاتهم جميعا . ونجتزىء هنا بالاشارة الى تمرد قبائل جهينة الغرب (١٨٨٧) أولئك الذين يسمون رفاعة الهوى على الضفة الغربية للنيل الازرق ، وعلى رأسهم المرضي أبو روف شيخ بني حسان . تحدى هؤلاء الخليفة واستعدوا للحرب ، وقتل زعيمهم عساكر الخليفة ليستقل بحكم منطقته .

وقد أنفذ اليهم الخليفة حملة بقيادة عبدالله ود ابراهيم والزاكي طمل التقت بهم في قوز الاهيلج حيث قتل المرضي أبو روف وكبار رجالات جيشه وأسرت بقية المحاربين ، وغنم الانصار الكثير من ابل القوم وغنمهم في اكتوبر ١٨٨٧ م .

بهذا الاجراء تخلص الخليفة من حركة تلك القبائل الثائرة .

---

(1) ب ثيوبولد « المهدية » ص ١٤٦

هـ) عصيان البطاحين (نوفمبر ١٨٨٨)

يبدو ان البطاحين قد اضطروا ، تحت وطأة الجوع سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ — ١٨٨٩) اذ انتظمت المجاعة البلاد ، للنهب في منطقتهم التي تقع في شرقي النيل الازرق بين رفاعة والحلفاية . ولما أرسل الخليفة رسله لاحضارهم الى العاصمة قتلهم البطاحين . فما هي الا أن الم الخليفة بهذا الخبر ، حتى انفذ اليهم حملة قتلت كثيرا من زعمائهم وأسرت آخرين ، فساقتهم الى ام درمان حيث شنق بعضهم وجزت رؤوس البعض ، وقطعت الايدي اليمنى وأيدي وأرجل آخرين من خلاف !

بتلك العقوبة القاسية انهى الخليفة تمرد البطاحين .

سياسة الخليفة تجاه القبائل :

ان الزعازع والثورات القبلية التي عرفنا جعلت الخليفة يوقن بخطورة الزعامات القبلية ، فاضطر اضطرارا الى اتباع سياسة تجاه الغرب كي يلجم تلك القبائل الجموحة المتمردة . وكما يقرر دكتور هولت فان هذه السياسة تتلخص في ثلاث نقاط :

أولا : الغاء مناصب زعماء العشائر الوراثي التقليدي . وثانيا : ترحيل القبائل المشكوك في ولائها للمهدية الى ام درمان لتراقب عن كثب . ثالثا : استغلال التنافس بين زعماء القبائل استغلالا سيئا لاضعافها ثم اخضاعها . وما من ريب أن في النقطة الثالثة انتكاسة أو رجوعا الى ما كانت تصنعه الادارة التركية المصرية المبادة ، وهي سياسة استعمارية بغيضة لا تتفق واخلاقيات أو مثل الدعوة المهدية .

موقف الخليفة من الثورات الاقليمية :

قضي الخليفة عبد الله — فيما علمنا — على كل الثورات القبلية التي تهددت سلطانه ومع ذلك لم يخل له الجو كما يتبادر الى الذهن . ذلك لأن حركات أخرى مناوئة لحكمه قد قامت أيضا . ومن هذه ما نشب في وقت مبكر ، واتخذ سمة الاقليمية وانحصر في غربي السودان :

أ) ثورات جبال النوبة (١٨٨٥ — ١٨٨٧) :

ثار النوبة ضد المهدية على عهد محمد المهدي قبل فتح الخرطوم . ولقد بعث اليهم المهدي بحمدان ابي عنجة على راس جيش عرمرم في أواخر فبراير ١٨٨٥ ليعيدهم الى الخضوع . فاستمر في الضغط عليهم حتى وفاة المهدي .

وقد واصل الخليفة عبد الله نفس السياسة تجاه النوبة . فطفق أبو عنجة يطاردهم في جبال تقلى (الدوري ، كداية ، تكم والكجاكجة) حتى هزمهم الواحد

تلو الآخر وقتل زعماءهم وغنم ماشيتهم وغلالهم . كما غزا ابو عنجة عرب الحوازمة الذين حرضوا النوبة للتكتل ضده ، واستولى على ابقارهم وخيولهم ورقيقهم . ثم جرد حملة داهمت جبل قدير . وبحلول عام ١٨٨٧ استطاع ابو عنجة أن يعيد الجبال الى الخضوع والطاعة لحكم الخليفة عبد الله .

ب) ثورة الأمير يوسف (١٨٨٨) :

بدات ثورة الامير يوسف بن ابراهيم سلطان دارفور السابق ، أول ما بدات ، عندما طلب اليه محمد خالد زقل – مدير دارفور – أن يقوم بمهام الحكم ريثما يعود من العاصمة . وكان زقل قد خرج بجيشه متجها نحو ام درمان عام ١٨٨٦ حسب امر الخليفة . وفيما يبدو أن الأمير يوسف قد استمرأ حكم بلاده ، ولعله تذكر مجد ابائه وعزهم . واعتزم أن يستعيد ذلك المجد الضائع . ولهذا اخذ يضيق ذرعا بادارة كرم الله لدارة في جنوبي الفاشر . وصمم على اخراجه منها بالتي هي احسن ، والا بالتي هي اوحش . فشكا كرم الله الى الخليفة فثبته على دارة . فما كان من الامير يوسف الا أن ارسل عسكره فأخرجوا كرم الله من دارة . بالإضافة الى هذا التحدي من جانب الامير يوسف ، علم الخليفة أن الفور قد جعلوا يوسف سلطانا عليهم ، وجاهروا بشرب الخمر و « سف التمباك » وانهم فعلوا البدع وارتكبوا المنكرات ! هنا استدعى الخليفة الأمير يوسف ، واستعمل شيئا من دهائه وهو أنه طلب اليه ان يجيء الى التبرك بزيارة قبر المهدي ، وتجديد العهد ثم يرجع الى بلاده . ولكن الحيلة لم تنطل على الأخير ، فأخذ يتعلل ببعض الاسباب . ولما لم تجد الخطة امر الخليفة عثمان آدم أن يسير الى الفور بجيش جرار ، ففل وصحبه كرم الله وقد انتصر على الأمير يوسف ودخل الفاشر .

على ان الامير يوسف قد فر الى جبل مرة فطارده الانصار حتى ظفروا به في وادي عزوم ، وقتلوه في يناير ١٨٨٨ ، وارسلوا راسه الى الخليفة . ومن ثم استعاد الخليفة عبدالله سلطانه على دارفور .

ج) ثورات اقليمية أخرى :

هناك ثورات اقليمية اخرى نشطت في مطلع عام ١٨٩٥ ضد المهدية بقيادة ادريس القمراوي بدار قمر (في غربي دارفور) فطارده محمود ود احمد بجيش من الفاشر ، واضطره الى اللجوء الى دار تامه وهي سلطنة صغيرة تقع في شمالي الفاشر . وقد اعد سلطان دار تامه جيشا لحرب محمود ود أحمد . ولكن محمودا استطاع أن يقمع تلك الحركة في فبراير ١٨٩٥ م .

وعلى هذا النحو أسكت الخليفة أصوات كل الذين شنوا تلك الثورات الاقليمية .

الثورات الدينية :

ما كاد الخليفة يفرغ من ثورات القبائل حتى قامت في وجهه ثورات الدعاة الدينيين . ولعل هذه الثورات لون آخر من ألوان الانفجارات التي حدثت هنا وهناك بسبب بغض الكثيرين لحكم الخليفة عبدالله وعشيرته .

ا) النبي عيسى (١٨٨٧) :

من أولى الحركات الدينية التي خلقت اثارة بين الناس عامة والانصار بصورة خاصة دعوة تكروري يسمى آدم محمد البرقاوي ادعى النبوة في القضارف ، وقال انه نبي الله عيسى ! ولعل هذه الدعوة العريضة راجعة الى حقيقة هي ان المهدي قد اشار الى ان السيد المسيح عليه السلام سيظهر في وقت ما بعده . أو كما يعتقد العامة عندنا في السودان ان « صاحب الوكت » وهو عيسى عليه السلام سيظهر في يوم من الأيام .

خطورة هذا المتنبي هي أن بعض الانصار ، بل امراء جيش القلابات الذين كانوا يتأهبون لغزو الحبشة قد آمنوا « برسالته » ان كانت له رسالة ! مما خلق بلبلة في الجيش كادت تثير فتنة في صفوف المجاهدين . واخيرا تدارك الأمير حمدان أبو عنجة – قائد الجيش لحرب الحبشة – الموقف ورفع الأمر الى الخليفة عبدالله فأشار عليه باعدام البرقاوي ، ومن تبعه (بغير احسان) من الجنود الا من تاب واناب واستغفر لذنبه . ولأن المؤمنين بالنبي الكاذب لم يرعووا عن غيهم وضلالهم ، فقد نفذ فيهم ابو عنجة حكم الاعدام في ديسمبر ١٨٨٧ . وعلى ذلك انتهى امر ذلك المتنبي العجيب !

ب) ثورة أبي الخيرات وأبي جميزة (١٨٨٩)

أوردت آنفا ان الأمير يوسف قد قمعت ثورته حينما هزمه الانصار وجزوا راسه وارسلوه هدية الى الخليفة عبدالله في يناير ١٨٨٨ م وعلى الرغم من ذلك فان روح الفور الانفصالي الثائر آنذاك لم يمت . وفيما بدا ان الفور كانوا مصممين على الاستقلال ببلادهم واستعادة سلطانهم الذي زال منذ امد . فما من عجب اذا تعاونوا مع قوى ثائرة اخرى في محاولة لدك صرح المهدية في غرب السودان .

تلك القوى التي تلاحمت مع الفور هي السلطنات الصغيرة في غربي السودان وهي سلطنتا دار تامه ودار مساليت وغيرهما . وكما يشير دكتور هولت في كتابه « الدولة المهدية في السودان » فان تلك السلطنات قد شعرت ، وبصورة خاصة بعد قتل الأمير يوسف ، بأن خطرا محدقا يتهدد استقلالها . وآية ذلك انها ايقنت

بأن المهدية ما زالت قوة توسعية ضاربة . وأغلب الظن ان الفور وتلك السلطنات ــ وفقا للدكتور هولت ايضا ــ ما كانت لتبقى تحت ضربات الانصار لولا أن تداركها أحد الثوار ضد المهدية ، وجمع اشتاتها في صعيد واحد ضد حكومة الخليفة عبدالله .

ذلك القائد هو الفقيه أبو جميزة الذي ثار في دار تامه وادعى انه خليفة محمد المهدي السنوسي الذي كانت له مكانة في نفوس اهالي غربي السودان ، أعلن أبو جميزة على الملأ انه سيحتل كرسي الخليفة الثالث ــ خليفة ذي النورين حسب تعيين المهدي لخلفائه الاربعة . ويرى البعض أنه كان يرمي من وراء ذلك الى كسب الذين كانوا يعارضون حكم الخليفة وعلى رأسهم الأشراف . كما صرح بأنه سيفتح طريق الحج التي سدها الخليفة ، والتي سبب اغلاقها في وجه بعض أهالي الغرب كراهية للخليفة عبدالله .

ولقد أحيط أبو جميزة بهالة من الغموض ، فاسمه واصله وموطنه لم تكن معروفة لدى الناس ، ولعله من قبيلة قرآن . لقب بأبي جميزة لأنه كان يعقد اجتماعاته تحت شجرة جميز . وتذهب السذاجة ببعض اتباعه الى الاعتقاد بأنه خرج من تلك الجميزة !! ونسبة لأعمال السحر والشعوذة التي عرضها أبو جميزة على البسطاء والسذج ، فقد التفت حوله جموع هائلة من البرقو والمساليت ، ومن الذين منعوا من السير الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، الى جانب الفور بقيادة أبي الخيرات ، واستطاع أن يهزم بهم الأنصار في سبتمبر ١٨٨٨ م .

وقد أرسل الأمير عثمان آدم ــ حاكم كردفان ــ قوة كبيرة لحرب أبي جميزة ، غير أن الأخير هزمها ، واضطر الانصار للتقهقر لكبكابية . فانهارت روحهم المعنوية . بيد أن ابا جميزة لم يسرع في زحفه لأن جنوده ــ فيما يقال ــ قد رفضوا أن يحاربوا في مناطق بعيدة عن ديارهم ، وبدأوا يفقدون حماسهم ، ومنهم من قفل راجعا الى بلاده . وبعد ذلك أصيب ابو جميزة بالجدري فمات . ومن ثم تسلم القيادة أخوه اساغة . فما عتم أن زحف نحو الفاشر ، والتقى بجيش المهدية خارج المدينة . ولأن الانصار قد وصلتهم الامدادات ، فقد كتب لهم النصر في فبراير ١٨٨٩ ، اذ قتل اساغة وفر أبو الخيرات الى جبل مرة ليقتل فيه بعد عامين . وأخيرا آل أمر دارفور الى عثمان آدم .

جـ) ثوار آخرون :

لم يتعظ مدعو النبوة أو المهدية بما حل بثورتي « النبي عيسى » وأبي جميزة من كوارث . بل قام ثوار « دينيون » آخرون منهم رجل ظهر في جبال النوبة عام ١٨٩٣ م وسمى نفسه « مزيل المحن » دعا الثورة على الانصار . وقد طارت الشائعات بأخباره الى مصر بأنه قد يقضي على دولة المهدية في السودان . وأخيرا اتضح أن المسألة لا تعدو أن تكون محض اشاعة .

وهناك مهدي يسمى أحمد بن عبد الله قام في دار تامه بقرية الجميزة ، فالتف حوله بعض الانصار والبرقو والمساليت . وقد صرح بشيء من التهريف وهو انه « نزل من السماء وان ابا جميزة تلميذه ولكنه قام بالدعوة بلا اذنه فلم يفلح » ! وقد طارده محمود أحمد بقوة قضت عليه (١٨٩٥) وفرقت جمعه .

وأخيرا في هذه السلسلة ــ سلسلة المتنبئين يأتي رجل آخر أطلق على نفسه « نبي الله عيسى » ظهر في دار تامه أيضا في اكتوبر ١٨٩٥ . وفيما نرى أن دار تامه كانت متسنما ــ ان صح التعبير ــ لاخراج الانبياء الزائفين ! أو قل كانت وكرا للثوار على دولة المهدية . غير أنه لم يلبث ان قضى الانصار على نبوته الكاذبة في مهدها .

بتلك الصلابة والمواقف الجبارة قمع الخليفة عبد الله كل الثورات التي قامت باسم الدين ضده كما أخمد قبلها الثورات القبلية والاقليمية .

النزاع بين الخليفة والأشراف :

(٣) القضاء على فتنة الاشراف :

قبل أن نتحدث عن الفتنة أو النزاع الذي حدث بين الخليفة عبد الله والأشراف حري بنا ان نقول كلمة مقتضبة عن الاشراف ، من هم وما اصلهم ! ثمة تفسير عجيب استرعى انتباهي لتشرشل أورده في كتابه « حرب النهر » حيث يقول : « أن المهدي قد حل محل محمد كنبي وعلى ذلك فقد صار أهله تلقائيا أشرافا » ! ومن تحصيل الحاصل أن نقرر ان هذا الرأي واحد من تخرصات الأجانب وانموذج من فهمهم الخاطىء المشوه لديننا وتاريخنا القومي . ولا أراني بحاجة لأبين ان المهدي ــ فيما يقال ــ ينتمي الى الأشراف آل النبي صلوات الله عليه وسلامه . وهو ــ حسب قول المهدي نفسه : حسني من سلالة الحسن بن علي رضوان الله عليهما . وبالتالي فان أهله اما حسنيون أو حسينيون أو كما قال ، والله أعلم .

والآن فان أس النزاع بين الخليفة عبد الله والاشراف يعود في المقام الأول الى التنافس على الحكم . وقد بذرت بذور الخلاف ، أول ما بذرت ، يوم قدم المهدي عبدالله التعايشي على الاشراف بقدير حيث عينه خليفته الأول ، وأجلسه « على كرسي أبي بكر الصديق » وبتعبير آخر جعله بمثابة أبي بكر من الرسول صلى الله عليه وسلم . وكذلك مهد المهدي لعبد الله أسباب الرفعة بعد فتح الأبيض حينما قتل (اذا صح ما جاء في رواية شقير) رجلين من أعظم انصاره هما المنة اسماعيل وعجيل ود الجنقاوي من زعماء الرزيقات لمنافسة حدثت بينهما وبين عبد الله ! وفي اعتقادي أن هذه الرواية ليست صحيحة ، وانني استبعد كل البعد أن يكون سبب قتل هذين الرجلين مجرد منافستهما لعبد الله لأن المهدي ــ على ما علمنا في

ترجمته ـ كان متدينا للغاية ، وهو ادرى من غيره بقوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق » . وعلى هذا فأكبر ظني انهما ارتكبا جرما استحقا عليه القصاص .

ولأن الطعن والتعريض بالتعايشي قد برز بشكل واضح أصدر المهدي منشورا (يناير ١٨٨٣) حذر فيه أنصاره من التعرض له ، بل وضح فيه أن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم قد اشار الى عبد الله . ومع ذلك لم يقبل الاشراف ان يسود عليهم عبد الله وأهله البقارة .

ولقد ساء الاشراف أن يسند المهدي قيادة الجيش لعبدالله ويخوله صلاحيات يستطيع بموجبها ان يتصرف في عديد المسائل الادارية وغيرها . كل اولئك كانت عوامل أفاد منها عبدالله ليستحوذ على السلطة في البلاد بعد وفاة المهدي . وبما ان الأشراف كانوا منذ الوهلة الأولى موتورين غيورين من عبـــد الله ، كان بدهيا الا يتعاونوا معه في أمور الحكم بالصورة المنتظرة . ومن أجل ذلك ابعدهم عن الوظائف الحكومية الكبيرة .

وقف في صفوف الاشراف كثير من ابناء النيل الذين سموا في ذلك الـوقت بأولاد البلد ، وأطلق على البقارة وغيرهم من أهل الغرب أولاد العرب . وفيما يرى المؤرخون أن الجفوة بين سكان النيل وأهل الغرب تمتد جذورها الى ما قبل الثورة المهدية . وفحوى ذلك ان النيليين ـ كما يروى ـ كانـوا يباهون على أبناء الغرب بما حققوه من تمدين ! والحق ان اولاد البلد قد تمتعوا بالاستقرار وما فيـه من سكينة وسلام ، بل نعم بعضهم بعيش رغيد ، على حين درج كثير من اولئك على شظف العيش وخشونة الحياة البدوية المترحلة .

ثمة عامل آخر بلور الخلاف أيضا بين الفريقين وهو أن المهدي في ابان الفترة التي أمضاها في قدير قد قسم جيشه الى وحدات او رايات على أسس قبليةمراعيا في ذلك جمع القبائل المتقاربة تحت لواء أو راية واحـــدة . وهي الراية السوداء (الزرقاء) التي التف حولها أهل الغرب ومعهم الجهادية وأولادالريف تحت امرة الخليفة عبدالله ، والراية الخضراء التي جمعت قبائل دغيم وكنانة والنيل الابيض تحـت امرة الخليفـة الثانـي علي ود حلو . وأخيرا الرايـة الحمراء ـ رايـة النيلـين والجزيرة ويقودها الخليفة محمد شريف ابن عم المهدي . وفي هذا يقول شقير : « وقد ميز الخليفة عبدالله بالأمبابة (سن فيل صغير ينفخ فيه للخروج للحرب) التي يبوق بها لجمع الجيش كله . وجعله رئيسا عاما على الادارة والجند وقدمـه على الخليفتين الآخرين لانه كان أقوى منهما في الجند وأقدر على الادارة التملق لا سيما وانه هو الذي قواه على دعواه » .

وفيما أسلفت ان الأشراف قد نفسـوا على عبد الله تلك المكانة المرموقة . وفوق

ذلك كله فان جند كل راية كانوا يدينون بالولاء والطاعة لقائدهم . ولهذا كان مـن الطبيعي ان يظل الخليفة محمد شريف (وكان شابا يقود جيشا) مصدر خطر محدق بالخليفة عبدالله . يقول أوهر والدر : « كان الخليفة شريف والاشراف عامة حانقين لبقائهم بمنأى عن السلطة . ولم يعد في وسعهم أن يخففوا تذمرهم لوقت طويل . واصبح كل خليفة يجتهد في اظهار استقلاله عن الآخر . فكل منهما يجول في ام درمان راكبا في ابهة وعظمة كأنه ملك متوج » (١) .

ولا يفوتنا أيراد مسألة وهي أن مجيء البقارة وغيرهم من أهل الغرب في اعداد هائلة عام (١٨٨٧) قد سبب للنيليين بعض المضايقات ومن اولئـك النازحين من سلب، ونهب وهو في طريقه الى ام درمان . يقرر تشرشل أن الخليفة قد خلق من هؤلاء طبقة ارتبطت به ارتباطا وثيقا « وهم كالخليفة عرباء الأهل ، ولكنهم كالخليفة ايضا شرس وبواسل اقوياء . وكانت حياتهم موقوفة على ولائهم له » .

لما كان الخليفة موقنا من ان الاشراف وأولاد البلد بصورةعامة لا يكنون لهودا ولن يخلصوا له في يوم من الأيام ، فقد بدأ يتخلص من زعمائهم الذين نالوا مناصب رفيعة في الحكومة ، ومن هؤلاء الأمير محمد عبد القادر عم المهدي الذي كان عاملا على كردفان . كما أمر النجومي بالزحف على دنقلا (١٨٨٥) لملاقاة الانجليز هناك ، وبعث معه بمساعد قيدوم (تعايشي) ليكون رقيبا عليه .

وقد جرد الخليفة عبدالله الخليفتين : محمد شريف وعلي ودحلو من الاسلحة والرايات وطبول الحرب بحجة «ان الدين واحد والجيش واحد » ثم عزل الشيخ محمد الخير من عمالة بربر . وأخيرا سلط حمدان ابا عنجة على محمد خالد زقل ـ احد الاشراف ومدير دارفور ـ الذي كان في طريقه نحو ام ادرمان على رأس جيش . لحق حمدان أبو عنجة بزقل في بارة عام ١٨٦٦ وجرده من جيشه وثروته وزج به في السجن لفترة خشية أن يتهدد زقل سلطة الخليفة أو يشجع الاشراف على الثورة .

على هذا النحو أضعف الخليفة عبد الله قوة الاشراف . وبعد هزيمة النجومي في توشكي (٣ اغسطس ١٨٨٩) وتزايد خطر الانجليز والمصريين في الجبهة الشمالية طفق الخليفة يسترضي الأشراف باسناد الوظائف الحكومية الى بعضهم . ونـامت الفتنة فترة ريثما تحد من بوقظها فتطل براسها من جديد .

السبب المباشر :

ان الشرارة التي اشعلت نار الفتنة بين الفريقين وشاية متـؤومـة صورت

« 1 » Ohrwalder, Ten years, Copitiriy in The Mahdi's Comp, P. 163.

للخليفة عبد الله ، وكذلك للخليفة محمد شريف ان كلا منهما يتربص بالآخر الدوائر ، وينتظر فرصة مواتية ليقضي على الآخر . ولسنا ندري على التحقيق صحة اقوال الوشاة . ولكن المتتبع لهذه القضية لا يستبعد احتمال مثل هذه الامور وفي القلوب ما فيها من احن وغيرة وتنافس . فكلا الرجلين كان طموحا يرنو ببصره الى المجد والخلود .

ومهما يكن من شيء فقد ثارت ثائرة الخليفتين وأصبح كل منهما متيقظا جدا لكيلا يؤخذ بغتة وهو لا يشعر . فأهاب الخليفة محمد شريف بأهله الاشراف والدناقلة ليشدوا الرحال الى ام درمان . فلبى النداء قرابة الألف رجل بسلاحهم . اما الخليفة عبد الله فقد كان يتحسس خطراتهم ويلم بخطوط هذه التحركات منذ زمن لان جهاز مخابراته كان جيدا بالنسبة لعصره . وهو بدوره قد أعد للامرعدته.

اخيرا ، وفي ٢٣ نوفمبر ١٨٩١ تجمهر الاشراف ومن تبعهم من أولاد البلد في قبة المهدي وما جاورها من منازل . وامتشق كل رجل اما حساما أو حمل بندقية . وسرعان ما أمر خليفة المهدي بأن يطوقهم الملازمون حملة السلاح الناري . ثم وقف يعقوب بجيشه على أهبة الاستعداد رهن الاشارة .. فلا غرو فقد تأزم الموقف وكادت النار تشتعل لولا أن التزم الخليفة جانب الحكمة . وجنح بنفسه الى السلم اذ أمر جنده بأن يكونوا في موقف الدفاع . ويعود ذلك الى أسباب منها أن الخليفة قد خشي أن ينهب عرب الغرب العاصمة في زحمة الاحداث ، وينفضوا من حوله ويرجعوا الى ديارهم . ولهذا بعث بالخليفة على ود حلو وبعض علية القوم ليقوموا بدور الوسيط . وبعد محاولات جادة مخلصة في هذا الشأن ، ترك الخليفة عبد الله للاشراف حرية وضع الشروط التي يريدونها . فتم الصلح في صبيحة يوم ٢٥ نوفمبر ١٨٩١ .

وها هي شروط الصلح كما أوردها نعوم شقير :

(١) ان يعفو التعايشي جميع المشتركين في الثورة . (٢) ان يجعل لمحمد شريف مقاما يليق به ويخلي له كرسيا في مجلسه (٣) أن يرد اليه راياته ليجمع تحتها المتطوعة (٤) أن يخصص له راتبا شهريا قدره ألف ريال . (٥) ان يسلم الاشراف سلاحهم ويطيعوا التعايشي طاعة عمياء » .

وهكذا تم الاتفاق بين الفريقين ، بيد أن الصفاء لم يدم طويلا بسبب الوشايات التي رمت الى اثارة الفتنة من جديد . ويشير بعض المؤرخين الى ان الخليفة لم يف بعهده اذ ألقى القبض على الذين اضرموا نار الثورة من الأشراف والدناقلة وعلى راسهم احمد ود سليمان أمين بيت المال السابق وصالح ود سوار الدهب من كبار الدناقلة وغيرهما ، ونفاهم الى فشودة حيث قتلوا . هنا استشاط الخليفة شريف

غيظا ، وامتنع عن صلاة الجماعة دليل التمرد . فما كان من الخليفة الا أن كون مجلسا برئاسة قاضي الاسلام أحمد علي ، فقضي (٢ مارس ١٨٩٢) بزجه في غياهب السجن ثم سجن الخليفة زعماء الاشراف والدناقلة . وكذلك أبناء المهدي وهم الفاضل ومحمد البشري . ولم يلن الخليفة قبضته حتى بدأت القوات الانجليزية المصرية تزحف نحو السودان لاستعادته .

والواقع أن الخليفة قد غير اخيرا ما بنفسه نحو الاشراف وأولاد البلد عامة ليفيد منهم في ملاقاة العدا . ورغم أن الاشراف وكثيرا من أولاد البلد قد وقفوا مع الخليفة صفا واحدا ضد الجيش الانجليزي المصري المغير على البلاد ، الا أن ما علق بالنفوس لم تمحه الأيام .

وعلى هذا النحو خرج الخليفة مظفرا من صراعه ضد الاشراف .

خاتمة :

حمادى مما يقال في سياسة الخليفة عبد الله الداخلية وفي الخطوات التي اتخذها لتدعيم حكمه ما بين (١٨٨٥ — ١٨٨٩) أن الخليفة كان ذكيا حازما بعيد النظر حريصا غاية الحرص على الا يمس سلطانه اي سوء . ومن هنا يبدو شغفه المفرط للقضاء التام على كل من تحدثه نفسه — كائنة ما كانت مكانته — بالخروج على المهدية . ولقد مر بنا أنه سحق ثورات كل القبائل الكبيرة المتمردة ، وتخلص من الثورات الاقليمية والدينية ، ومن فتنة الاشراف بكل عسف وجبروت . وفي هذا يقول ثيوبولد « ان الخليفة لم يبق في طول البلاد وعرضها على عدو واحد يحمل السلاح ضده اللهم الا البريطانيين في سواكن وامين باشا على رقعة ضيقة في الاستوائية . كما لم يترك فرصة لتمرد أو عصيان . واضحت كلمة الخليفة قانونا ، بل تكفي مجرد اشارة منه لتكبيل الرجال بالاغلال أو تلقي بهم في غيابات السجون . أو ترفعهم — في الجانب الآخر — الى دنيا المجد والرفعة . ولعله من المفيد في ختام هذا الفصل أن نورد راي نعوم شقير عن سياسة الخليفة الداخلية التي اجملها في ثلاث نقاط حيث يقول :

« تولى التعايشي الخلافة وهو لا يصدق انه يتولاها ، وكان يغار عليها حتى من خياله ويحرص عليها حرصه على نفسه . وقد ساسها بثلاثة أمور : الأول المحافظة على شعائر المهدية والثاني مراقبته المنكرين حقه في الملك والمزاحمين له والبطش بهم . والثالث حصر المناصب العالية في أهله التعايشة وتفريق كلمة سائر القبائل واذلالهم »

وما من ريب أن الامر الثالث يذكرنا بسياسة فرق تسد وهي سياسة استعمارية بغيضة . والمحقق أن الخليفة عبد الله قد بلغ غايته ووصل قمة مجده عام ١٨٨٩ بعد أن راح ضحية سياسته كثير من أرواح انصاره واعدائه على حد سواء ، وعلى

حساب تقدم السودان اقتصاديا واجتماعيا . ونحن نعلم ان هذا البلد كان فقيرا في ابان فترة الخليفة ، وكانت مواصلاته متخلفة . فلو وجد الخليفة متسعا من الوقت وتهيأت له أسباب الامن والسكينة ، لوجه طاقاته التي استنزفتها الحروب الى الانشاء والتعمير . شيء آخر هو أن الخليفة قد انتصر في هذه الحقبة القصيرة على اعدائه لا مراء ، ولكن رد الفعل في نفوس الكثيرين كان عنيفا للغاية اذ أثار كوامن الحقد ونوازع الانتقام ، فحطم بذلك وحدة البلاد . فما من عجب اذا نقض البعض عهد الخليفة وخلعوا بيعته ، وتعاونوا في النهاية مع اعدائه واعداء الوطن !

الفصل الحادي عشر

سياسة الخليفة عبدالله الداخلية (ب)

وضع المهدي أسس الدولة المهدية منذ أن حل بقدير . ولقد استوحى مبادىء الشريعة الاسلامية الغراء في أنظمة الحكم المختلفة ، ومن ذلك مبدأ الشورى اتباعا لما ورد في القرآن الكريم « وأمرهم شورى بينهم » وتيمنا بسيد المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام . ولئن كان المهدي المرجع الأول والاخير في ادارة البلاد ، فقد تقيد بالشورى وتجنب الانفراد بالسلطة والطغيان . ويرى البعض ان حكومة المهدية ثيوقراطية . واذا كانت الثيوقراطية تعني تطبيق الدين في شؤون الدولة ، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان بالنسبة لحكومة المهدي . اما اذا كانت الثيوقراطية هي « الحكومة التي يدعي فيها الحاكمون صفة الالهية » (١) ، فان حكومة المهدي بريئة من ذلك لأن القرآن الكريم بلا ريب يبطل الكهانة والوساطة بين الانسان وربه . والدعوة المهدية جاءت لاحياء ما اندرس من الكتاب والسنة ، والحكم بما ورد فيهما . فلا يقبل عقلا أن يحيد المهدي عن صراطهما المستقيم .

أما الخليفة عبد الله فقد جهد جهد طاقته في أن يسير على درب المهدي وأن يتقمص شخصيته . بيد أنه فشل في أن يستثير حمية الرجال الدينية كالمهدي من قبله ، اذ افتقر الى تلك القوة الروحية الخفية التي أشربت النفوس حبها والانجذاب نحوها . واغلب الظن أن الخليفة عمد الى الاستعاضة عما فقده في الجانب الروحي الى مركزة الحكم في يديه واقامة أوتقراطية (حكومة الفرد المستبد) في هذا البلد .

وفي حديث عن الخليفة يقول ثيوبولد : « كان الخليفة مركز السلطات ومصدر القوة في ادارة السودان . وكان حكمه فرديا لأبعد الحدود ممركزا دكتاتوريا اذ حاول جاهدا أن يسيطر على أعمال الدولة ، ويراقب كل صغيرة وكبيرة فيها » (٢) ويقرر أيضا : « ان حكومة الخليفة ليست حكومة بالمفهوم الحديث بمعنى انه ليس فيها دستور أو برلمان ، أو وزارة او مصالح ، أو أحزاب سياسية وانتخابات . كما لم توجد بها صحافة أو رأي عام مستنير » .

ولقد اختار الخليفة اخاه يعقوبا ليشد به أزره ويشركه في أمره ، فكان بمنزلة هرون من موسى ــ ان جاز لنا التعبير ــ اذ ترك ليعقوب الكثير من امور الدولة ،

---

(١) عباس محمود العقاد « عبقرية الصديق » ص ١٧٥ .

(٢) أ.ب ثيوبولد « المهدية » ص ١٨٥ .

حتى تبوأ المكان الأسنى الذي كان يقوم به الخليفة من المهدي . فأصبح يعقوب المشرف على الجيش وقائد الراية الزرقاء ، ومستشار الخليفة ، ووزير الداخلية ، ومحافظ ام درمان والمشرف على بيت المال ! وهو في واقع الأمر وزير كلّ وزارة ! وقد أشتهر يعقوب بالذكاء والدهاء وسداد الرأي حتى لقب « جراب الراي » كما تحلى بمكارم الاخلاق كالكرم وسعة الصدر والرزانة ، فلا غرو فقد أحبه الناس لكرمه . والنّاس مولعون دائما بالكرماء الاريحيين ، قال المتنبي:

وقيدت نفسي في ذراك محبـة   ومن وجد الاحسان قيد تقيـدا

وقد أمر الخليفة أهل الغرب بالرحيل الى أم درمان ليقوى مركزه ، ولأنـه يثق فيهم . فبنى لهم سورا (السور) يحميهم من أي اعتداء عليهم . وكما أسلفت في فصل سابق فان كثيرا منهم — حتى بعض التعايشة آل الخليفة — قد رغبوا عن المجيء الى أم درمان لأنهم كرهوا أن يتركوا بيئتهم ومراتع تهيا مهم ونشأتهم ، ولكن الخليفة أجبرهم على الهجرة الى العاصمة . وفي طريقهم نحو البقعة كانـوا ينهبون اقواتهم ، مما زاد من بغض النيليين لهم .

وبعد سنة ١٨٩٢ م وطن أولاد البلد انفسهم على تقبل اولاد العرب ووجودهم بين ظهرانيهم . ومن اجل ذلك لان الخليفة . وبعد ان كانت سياسته عنيفة قاسية على منافسيه والذين كانوا يكرهون حكمه ، اتبع سياسة فيها شيء من اللين غير قليل . الأمر الذي جعل البعض يميلون اليه . يذكرنا هذا بقوله تعالى : « ولـو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

وفي معرض الحديث عن الوسائل التي دعم بها الخليفة عبد الله حكمه (الفصل العاشر) تطرقت الى بعض جوانب سياسة الخليفة الداخلية ، ومن ذلك موقفه تجاه الفتن وثورات القبائل والثورات الدينية والاقليمية . وفي اعتقادي لم يبق بعدئذ الا أن نقف على أجهزة الادارةالمختلفة التي سير بها الخليفة دولاب الاعمال في حكومته.

الجهاز الاداري الذي أقامه الخليفة :

أفادت الدولة المهدية فوائد جمة من بعض نظم الحكم التي كانت سائدة في العهد البائد رغم أن الحكام المهديين والرعية على السواء قد شجبوا كل مـا يمت الى ذلك العهد المباد بصلة . فمثلا ظل تقسيم السودان الى مديريات — الى حد — على النهج التركي المصري . وعين على كل مديرية أو اقليم رجل من آل الخليفة او من خلصائه يدير شؤونه . وهو مسؤول للخليفة ، وهو الذي يقود جيش المديرية، والحاكم المدني . ومن هنا تبدو السمة العسكرية التي وسمت حكومة الخليفة .

كان لكل عامل أو حاكم من حكام الأقاليم جهاز اداري يتألف من قاض وموظفين وامين خزانة ، وكتبة وجباة ضرائب . وفي المدن الكبيرة توجد حاميات ثابتة للذود عن الوضع القائم .

يقرر ثيوبولد في كتابه « المهدية » ان السودان في عام ١٨٩٥ م كان مقسما الى مديريات أو عمالات على النحو التالي :

١ — دنقلا والعامل عليها يونس الدكيم
٢ — بربر وعليها الزاكي عثمان
٣ — السودان الأوسط تحت ادارة الخليفة نفسه ، ويقوم بالاشراف عليه يعقوب نيابة عن الخليفة .
٤ — شمال شرق السودان : عاملة عثمان دقنة
٥ — جنوب شرق السودان ويديره أحمد فضيل
٦ — غرب السودان تحت ادارة محمود أحمد
٧ — الرجاف والعامل عليه عربي دفع الله

ولا ننسى أن ثمة ادارات قامت في بعض البلاد المتاخمة للحدود مثـال ذلك في صواردة في الشمال والقلابات والقضارف في الشرق . وهي تهتم في المقام الأول بامور الدفاع خشية ان يتسرب الأعداء وينتهكوا حرمة البلد او يتهددوا سلامته .

طفق الخليفة يدعو المديرين او العمال الى العاصمة ليقدموا تقارير عن احوال عمالاتهم وسير العمل فيها ، وليتلقوا منه التعليمات اللازمة . وعلى الرغم من ان جل العمال والقادة وأصحاب المناصب الكبيرة أصبحوا تدريجيا من التعايشة ، الا ان الخليفة كان حازما معهم ، فلم يترك لهم الحبل على الغارب كما يظن البعض . وكان المهملون أو الذين يحيدون عن الجادة منهـم يعاقبون بالعزل أو السجن أو الاثنين معا . وهناك رقباء أطلق عليهم « الأمناء » منوط بهم التجوال في المديريات للوقوف على مجريات الأحوال فيها . فاذا عثروا على اخطاء رفعوها الى الخليفة ، فيوقع على المخطىء العقاب الرادع .

الجيش

من الدعائم القوية التي اعتمد عليها نفـوذ الخليفة عبدالله الجيش . يقرر تشرشل ان سلطان المهديين قد ولد بالحرب ، واستمر بالحرب ، وسقط بالحرب ! بدأ بسقوط الخرطوم وانتهى في معركة كرري . ولقد عنيَ الخليفة بالجيش عناية بلغت اقصى مداها لأنه يعلم علم اليقين أن من العسير ان لم يكـن مستحيلا أن يحكم هذا البلد الكبير دون قوات ضاربة ، كما ان حماية السودان من اعدائه المتربصين به تقتضي اعداد جيش قوي وتسليح البلاد بما يحقق لها الأمن . ومن جهة أخرى فان الجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة المهدية تحتم وجود جيش عظيم لتحقيق أهداف الثورة المهدية الكبرى .

وصف ثيوبولد جيش الخليفة عبدالله فقال : « ان نواة هذا الجيش هم الجهادية ، وهم الجنود النظامية حملة السلاح الناري . وقد تألفت منهم حامية ثابتة في ام درمان بلغ تعدادها اثني عشر الفا من العساكر . وهناك اعداد صغيرة من الجهادية في حاميات الأقاليم . وكان أغلب الجهادية من السود وفيهم بعض العرب ، وهم اما بقايا الجيش التركي المصري السابق أو تم تعيينهم مؤخرا من ابناء الجنوب . والجهادية كانوا عسكر التركية غير النظاميين ، فأصبحوا جند الخليفة النظاميين ! انضم هؤلاء أول ما انضموا الى جيش المهدية بعد سقوط الابيض عام ١٨٨٣ اذ عين المهدي حمدان أبا عنجة أميرا عليهم فناوش بهم حملة هكس باشا . وقد عرف معظمهم بالملازمين او « الملازمية » ـ حرس الخليفة الخاص ـ الذين هيأ لهم ثكنات في حي خاص هو حي الملازمين الحالي بأم درمان . ولكي يضمن الخليفة جانب هذه القوة الخطيرة فقد جعل قائدها ابنه الأكبر عثمان شيخ الدين ، وميزها على غيرها من الجند باعطائها رواتب شهرية منتظمة ، وكميات من الذرة ، وعددا من الملابس بمعدل مرتين في العام .

ثمة جنود غير نظاميين في العاصمة أيضا بلغ تعدادهم ثلاثين الفا من المقاتلة ، ويرجعون في أصلهم الى قبائل الغرب ، ويحاربون بالسيوف والرماح تحت امرة يعقوب اخ الخليفة صاحب الراية الزرقاء (السوداء) . ومن أمثال هؤلاء عساكر في حاميات الاقاليم . وفي ام درمان أيضا كتيبة تحت امرة علي ود حلو صاحب الراية الخضراء وعددها ثمانماية الف محارب من قبائل دغيم وكنانة بالنيل الأبيض . وفضلا عن ذلك فهناك الخيالة والهجانة أو المحاربون على ظهور الابل وهم الاحتياطي ـ يكونون على أهبة الاستعداد ورهن الاشارة حتى اذا ما طلبوا لبوا النداء في وقت الحاجة . وفوق كل ذلك فقد درج الخليفة على أمر بعض مشايخ القبائل ليوافوه باعداد من الرجال في حالات الحروب .

ولأن الجنود غير النظاميين لم تضمن لهم أرزاقهم فقد كان معظمهم ينتشر في ارض ما بين النيلين جنوبي الخرطوم في فصل الخريف لزراعة ما يشبع حاجتهم للطعام .

وقد قسم جيش المهدية الى وحدات ، فكل عشرين رجلا كانوا تحت مقدم ، وكل مائة محارب تحت قيادة « رأس مائة » وكل مجموعة من رؤوس المائة كانت تحت امرة امير ، ولها علمها الخاص . ومنذ مارس ١٨٨٦ امر الخليفة عبدالله الخليفتين محمد شريف وعلي ود حلو بتسليم طبولهما الحربية وراياتهما ، كما أمرهما من قبل بتسليم عساكرهما الجهادية وما معهم من الاسلحة النارية الى اخيه يعقوب ليكونوا جميعا تحت الراية الزرقاء « بحجة أن الدين واحد والجيش واحد » .

ولعله من سوء التدبير ما كان يلاقيه جيش الخليفة من نقص في المؤن ، بل ان الجوع كثيرا ما عض بأنيابه الحادة الانصار المحاربين وهم زاحفون نحو لقاء أعدائهم . كانت حكومة ام درمان ترجي المواطنين اللذين تمر الحملات بديارهم أن يمدوا « جند الله » بما يحتاجون اليه من أطعمة ! وما من ريب ان هذه سياسة خرقاء طالما قاسى من جرائها الكثيرون . وفي هذا يقول ثيوبولد : « ان النهب الذي وقع على الاهلين يعود الى عدم اعطاء العساكر رواتب ومؤن منتظمة ، مما جعل جيوش الخليفة مصدر رعب للسكان الآمنين في مناطق توجب على الجيوش حمايتها » . ان الفوضى التي حدثت اثناء تحركات الجنود وعمليات السلب قد رسبت الكثير من البغض والكراهية في نفوس أولاد البلد تجو حكومة الخليفة عبدالله . وفيما يبدو أن بعض أولاد العرب استطابوا التعدي على حدود غيرهم حتى أصبح هذا اشبه بجبلة أو عادة عندهم ، الشيء الذي جعل الخليفة عبدالله يحتد معهم . بيد أن هذه الشدة جاءت بعد فوات الأوان .

اما عن أسلحة وذخيرة الجيش فقد انشئت ورشة للاسلحة على بقايا الترسانة القديمة بالخرطوم . وقامت صناعة السلاح الابيض من سيوف ورماح وفؤوس وسكاكين في مدينة ام درمان . غير أن الحصول على الاسلحة النارية والذخائر بكميات كافية أضحت مشكلة استعصى حلها مع الزمن . فالبنادق التي غنمت من العهد البائد لم تعد صالحة للاستعمال ، ولم يكن في الامكان استبدالها ، وورشة البارود التي أسست في شمالي الخرطوم لم تنتج الا نوعا رديئا سرعان ما فسد . وكانت مشكلة المشاكل المواد الخام لصناعة الرصاص لأن مصادرها كانت مصر والبلاد العربية . ومصر بالطبع كانت حريصة كل الحرص على الا تتسرب أسلحة الى السودان . اما الجزيرة العربية فقد انقطع الاستيراد منها بعد سقوط طوكر في أيدي الانجليز والمصريين عام ١٨٩١ م .

أشار ثيوبولد الى أن جيش الخليفة قد افتقر الى النظم التي تتميز بها الجيوش في نهاية القرن التاسع عشر . ولم تبق له الا ميزات منها معرفته بطبيعة البلاد ، القدرة على تحمل المشاق ، والشجاعة والكثرة العددية .

كان الزي العسكري الجبة المرقعة ذات الالوان المختلفة التي برهنت على سوئها في النهاية لانها كانت « سوادة » بلغة التدريب العسكري أو هدفا مريحا للاعداء كانوا يصوبون نحوه رصاصهم فيحصدون به الأرواح حصدا ! ولا شك ان من التكتيك اللازم في الحروب محاولة اخفاء الجندي بالوقاية اللونية لكيلا يتعرض للخطر . وللجيش موسيقاه والموسيقى بلا ريب تشجع الجنود ، وتثير الحماسة وتفعل فعل السحر في النفوس فلا غرو نقد اهتموا بها . ومن آلات الجيش الموسيقية الطبول وقرون الوعول (الظباء) « والقرع » المحشي بالحصى (كشكوش) .

اجمال القول في جيش الخليفة عبدالله انه كان الوسيلة التي اخضع بها كل العصاة الثائرين على حكمه ، وسيطر بها على البلاد من اقصاها الى اقصاها . وفي هذا يقول تشرشل : « سيطر الجيش في العاصمة على قوات الاقاليم التي أخضعت بدورها الأهلين ، فتمت مركزة السلطة بتركيز القوى العسكرية » . غير أن هذا الجيش ـ في مجموعه ـ لم يستطع ان ينمو مع الزمن وآية ذلك أنه كان يفتقر الى اشياء ضرورية لكل جيش يعتد به من ذلك دفع الرواتب لكل العاملين في ذلك الحقل ، الغذاءات والمعدات الكافية ، التدريب المنظم ، المواصلات ، العناية الطبية ، وفوق ذلك الاسلحة والذخائر . فلا غرو لم يستطع ان يصد جحافل الفاتحين في حملة استعادة السودان على الرغم من شجاعة السودانيين التي يعجز القلم عن وصفها ، والتي شهد بها الاعداء في معركة كرري وغيرها .

القضاء

اعتمد القضاء في ابان فترة المهدي على الشريعة الاسلامية أو على كتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام . ولما تولى الخليفة عبدالله أمور السودانيين سار على نهج المهدي من حيث اتباع الشريعة . بيد انه أدخل مصدرا آخر للتشريع هو منشورات المهدي . ولأن المهدي قد ادرك بثاقب بصره أن منشوراته ربما يحدث فيها تحريف او انتحال ، فقد قرر ان يعرض ما جاء به من قول أو تقرير على الكتاب والسنة ، فما وافق هذين فليأخذوا به وما خالف فليتركوه .

ورد في كتاب « السودان عبر القرون » لمؤلفة الدكتور مكي شبيكة أن المهدي قد وضح فصل السلطات : السلطة البوليسية والقضائية والتنفيذية . أما التشريعية فمصدرها معروف وهو الشريعة الاسلامية ، قرر المهدي ذلك في قوله للخليفة عبدالله : « انت لك السيف ، وليعقوب الجيش ، وللقاضي الكتب » معنى ذلك انت لك السلطة التنفيذية واجراء القصاص بالسيف أو بغيره ، وليعقوب الجيش ، والجيش هنا كناية عن السلطة البوليسية . وللقاضي الحكم بما أنزل الله . ومن تحصيل الحاصل أن نقول ان هذا التقسيم جيد للغاية او مثالي لأن فصل السلطات في كل دولة ضرورة لازمة لكيلا تتغول السلطة التنفيذية على القضاء ، ولتسير العدالة في مجراها . شيء آخر أوصى به المهدي وهو المساواة أمام القانون بمعنى آخر اشار بأن يكون القاضي موضوعيا في أحكامه بعيدا عن الهوى ، وان يكون الخصوم عنده سواسية كأسنان المشط ، لأن المهدي يذكر جيدا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « قاض في الجنة وقاضيان في النار » .

أعتبر الخليفة القضايا التي حدثت أيام المهدي ملغية فكأن مجيئه قد جب عما قبله ! وركز القضاء في أيدي قاض الاسلام واعوانه علما بأن المهدي قد عين « النواب » للنظر في القضايا الشرعية ، « والامناء » للفصل في القضايا السياسية

ففصلهم الخليفة . وقاضي الاسلام بمثابة قاضي القضاة أو رئيس القضاء عندنا اليوم . وهو الذي يترأس المحكمة العليا التي انشئت في العاصمة والتي تنظر في القضايا الكبرى ، وتؤيد أو تغير الاحكام الواردة من العمالات . ورغم هذه الصلاحيات ، الا ان المحكمة العليا ترجع في النهاية الى الخليفة لاجازة أحكامها .

درج القضاة على الاجتماع في الجامع للنظر في عديد القضايا اللهم الا في حالة جرائم القتل والجرائم الكبرى فان قاضي الاسلام هو الذي يتولى أمرها ، ثم يرفع أحكامه فيها الى الخليفة . وثمة محاكم صغيرة في الأسواق أقيمت خصيصا لمعالجة الجرائم الصغيرة والمخالفات التي تحدث في أوساط الباعة والمشترين . ولعل هذه صورة طبق الاصل من نظام الحسبة والمحتسب في النظام الاسلامي السابق .

واذا كان منصب قاضي الاسلام رفيعا تتطاول اليه الرقاب ، فقد كان في عهد الخليفة من الخطورة بمكان لمن يتقلده . وكان أول من تولاه أحمد ود جبارة الذي اختاره المهدي بقدير ، فمات في واقعة الابيض . ثم تلاه ود حلاب فمات أيضا في حصار الابيض . فجاء بعده القاضي احمد علي الذي رضي عنه الخليفة ، ولم يلبث أن زج به في السجن لاتهامه بالرشوة ، والخلاف بينه وبين يعقوب ، فمات في سجنه . وقد خلفه سليمان الحجاز (من تجار بربر) ولكنه لم يمكث فيه كثيرا . وأخيرا تولاه الحسين الزهراء ـ من نوابغ خريجي الازهر ومن قرية ام عضام بالمسلمية .

يبدو ان الحسين الزهراء لم يخش في الحق لومة لائم ، فحكم بما ورد في الشرع ، وقضى بمسائل لم تعجب الخليفة ، فكان مصيره السجن حيث منع من الطعام والماء الى ان توفاه الله عام ١٨٩٥ ! ومن ثم انكمش العلماء من العمل برئاسة القضاء لكيلا يلاقوا نفس المصير . فأسند الى اشخاص لم يتميزوا بمؤهلات القضاة ، مثلا أم بدة البقاري .

هكذا كانت حال القضاء في عهد الخليفة عبدالله : تغول سافر من جانب السلطة التنفيذية على السلطة القضائية ، مما افقد الاخيرة الكثير من استقلالها ومكانتها .

اقتصاديات دولة المهدية :

مما لا مجال للشك فيه ان اقتصاد السودان في حقبة المهدية كان متخلفا ، ومن ثم فان الدخل القومي كان ضئيلا للغاية بالنسبة للدخول القومية في البلاد المتمدنة التي قطعت شوطا بعيدا في مضمار الصناعة والتجارة . وباستثناء الأرض وشيء من العمل فان مصادر الثروة الاخرى ـ راس المال والخبرة الفنية ـ لم تكن موفورة بالقدر الذي يسمح بانماء ذي بال .

الزراعة :

ان التخلف الذي أصاب اقتصاديات السودان في ابان حكم الخليفة يعود الى أسباب منها اولا ان ذلك الاقتصاد الزراعي الرعوي قصر في المقام الاول على الري الطبيعي او على ما يجود به الغيث في فصل الخريف وعلى نسبة ضئيلة من التجارة ، فاذا شحت الأمطار يحدث القلق والهلع ويضار القطر بأسره .

ولا يفوتنا ان نذكر ما المعت اليه آنفا أن مما أضر بالنمو الزراعي قلة الأيدي العاملة في حقول الزرع بسبب رحيل أهل الغرب الى ام درمان ثم الى غيرها ، وتجنيد الكثيرين من الشباب والكهول في الجيش والعمل اما بقمع الثورات والفتن او بالغزو والفتوح . وشملت عملية التجنيد اولاد العرب واولاد البلد على السواء . وعلى حين أن بعض الديار قد خلت من ساكنيها في غربي السودان ، مما يذكر بقول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   انيس ولم يسمر ببطن مكة سامر

قل عدد العاملين الزراعيين في البلاد النيلية . وفضلا عن ذلك فوضوية بعض العسكر الذين كانوا يرخون العنان لخيولهم وحيواناتهم الاخرى في المزارع فتأكل ما طاب لها الأكل ، وبالتالي تدمر ما تعهده الفلاحون بالرعاية والسقيا وأملوا فيه الخير . وكانت النتيجة المنطقية ان أصيب الانتاج الزراعي في الصميم .

على ان الخليفة عبدالله قد اهتم بالزراعة اهتماما بالغا على اثر الكارثة التي منيت بها البلاد اثناء مجاعة سنة (١٣٠٦ هـ — ١٨٨٩ م) اذ وعى الدرس القاسي . وقد بذل مجهودا كبيرا في تشجيع الزراعة لكيلا تتكرر المأساة الفاجعة . وتشير المصادر الى ان السودان قد استعاد رخاءه الماضي في أواخر حكم الخليفة . فانخفض سعر الحبوب وارتفع تبعا لذلك مستوى الغذاء بين الناس .

التجارة :

اما عن التجارة فقد أعتراها في البداية ركود وانكمش حجمها بالقياس الى وضعها في السابق . ومرد ذلك الى سياسة الخليفة الخارجية العدائية تجاه كل من مصر واثيوبيا والانجليز في سواكن — ذلك الثغر الذي كان منفذا يعج بالحياة والحركة الاقتصادية في عمليات التصدير والاستيراد من والى السودان منذ عهد بعيد . وفيما يذكر بعض المؤرخين ان الخليفة لم يشأ ان ينمي التجارة الخارجية خوفا من تسلل الجواسيس مع التجار . بيد انه اضطر الى تغيير هذه السياسة لسببين : اولا أيقن ان منتوجات السودان التي ظلت مطلوبة منذ أقدم العصور في مصر — كالعاج ، وريش النعام ، والصمغ وغيرها — اذا لم تجد سوقا خارجيا

ستكون عديمة الفائدة . ثانيا رأي الخليفة ان في العشور التي تفرض على البضائع الواردة الى السودان في شكل جمارك ، مصدر دخل لدولته . فما من عجب اذا فتح ابواب التجارة الى أسوان ، سواكن ، مصوع ، الحبشة ، ووادي ، وفرض العشور على السلع الواردة .

ولقد حاول المسؤولون في بيت المال السيطرة على التجارة فجمعت الحكومة الصمغ والعاج وريش النعام والسنا مكة ، وباعتها في دلالة عامة للتجار . بمعنى آخر كانت الحكومة تحتكر السلع الهامة لكيلا يتلاعب التجار أو يتحكموا في مقدرات البلاد وأرزاق العباد . ولعمر الحق هذه سياسة رشيدة لجأت اليها الحكومة لتحقق ربحا لنفسها أولا ، ولتحمي المنتجين . وبعد ذلك سمح للتجار بتصدير هذه السلع الى مصر ، واستيراد الملابس القطنية والعطور والصابون وغيرها من الخردوات .

ومما يذكر عن احتكار الحكومة أيضا لموارد البلاد ، فان المهدي قد أمر باخلاء جميع الدكاكين والوكالات والقصيريات والعصاصير والطواحين والبنوك التي كانت بالبحر للايجار . كما أمر بتأميم المشارع في قوله : « ولذلك استحسن لدينا ان تكون مصلحة المشارع لبيت مال المسلمين » (١) . واذا كانت الحكومة المصرية قد منعت منعا باتا تصدير الحديد او المعادن او حتى الاواني المعدنية الى السودان لكيلا تحولها الحكومة هنا الى اسلحة تستغل في مهاجمة المصريين مستقبلا ، فان الخليفة عبدالله قد كال لها الصاع صاعين بحظر تصدير الارقاء الذكور الى مصر أو غيرها ليمنع المدد عن الجيش المصري . وكانت أوامر الخليفة حاسمة وهي أن يباع الأرقاء الذكور الى بيت المال وحده ! ونتج عن فتح باب التجارة مع البلاد المجاورة ان نشطت التجارة ، ففي الحقبة ما بين ١٨٩٢ — ١٨٩٨ — فيما أورد شقير — بلغت قيمة الصادرات عن طريق اسوان وسواكن حوالي ٤٧٧،٨٩٦ جنيها ، وقيمة الواردات حوالي ٣٩٦،٤٥١ جنيها !

من هذا يتضح أن الميزان التجاري كان في مصلحة السودان ، وان التجارة الخارجية على قلتها قد انعشت اقتصاد البلاد المتخلف .

الصناعة :

على حين أن الخليفة عبدالله قد شجع الزراعة وفتح باب التجارة الخارجية ، لم يفطن الى أهمية الاقتصاد الصناعي أو تنمية الصناعات المحلية بالصورة التي تمكنها من احتلال مركز معقول في الاقتصاد الوطني .

ولقد عني الخليفة أول ما عني بصناعة الاسلحة والذخيرة لتأمين سلطانه في الداخل ولحماية البلاد التي تربص بها الاستعماريون الأوربيون الدوائر . كما انه

---

(١) منشورات المهدية : تحقيق الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم ص ٢٦٦ — ٢٦٨

افاد من ترسانة الخرطوم التي ورثها عن العهد البائد في اصلاح الوابورات وعمل على انماء صناعة المراكب للمواصلات والنقـل . وكما تقـدم آنفا قامت صناعة السلاح الابيض في ام درمان . وبالاضافة الى ذلك انشئت صناعة الصابون في بيت المال بهدف الاكتفاء الذاتي في هذا المجال ، وليفيد خزينة الدولة من أرباحها .

النظام المالي :

تمركز النظام المالي حول بيت المال ، وهو عبارة عن خزينة للأموال ، مخازن لحفظ الغلال والغنائم وما الى ذلك ، ومحل دلالـة للسلع التي احتكرتها الحكومة كالعاج وريش النعام والصمغ وغيرها . وكـان أمين بيت المال مـن أهم موظفي الحكومة . وثمة بيوت اموال في العمالات لكل واحد امينه ، وكما توالى على منصب قاض للاسلام عدة شخصيـات ، كذلك مر على بيت المال عدد من الامناء كان أولهم احمد ود سليمان الذي شغل المنصب منذ أيام المهدي . ولكن الخليفة كان حاقدا عليه فأمره بتقديم حسابات دقيقـة للسنين الماضية . فلما فشل في هـذا اتهمه بالاختلاس وسجنه .

خلف أحمد سليمان على امانة بيت المال ابراهيم ود عدلان ، وكان ابرز رجل تولى هـذا المنصب الخطير لانه أجاد ادارة بيت المال ونقله الى شاطىء النيـل ليقلل مصاريف النقل . وقسم بيت المال الى عدة اقسام او جهـات اختصاص كبيت المال العام (دخله من فائض بيوت أموال الاقاليم) وينفق منه على آل المهدي والخلفاء واعداد الجيوش للغزوات . وبيت مال الملازمية (اعتمد على أرباح تجارة العاج) ويصرف منه على الملازمين حرس الخليفة . وبيت مـال ورشة الحربية مختص بالصرف على صنع الاسلحة والذخائر . واخيرا بيت مال الخمس (مـن ارباح تجارة الريش والصمغ) لنفقات الخليفة واقربائه . ورغم ان ابراهيم ود عدلان قد نال رضى الخليفة في بـادىء الأمر ، الا انه تجاسر علـى الخليفة فأرسله الى المشنقة ! وعين بعده النور الجريفاوي من تجار الخرطوم السابقين .

ولقد اعتمد دخل الدولة على الزكاة ــ وهي المصدر الرئيسي ــ العشور على البضائع والضرائب الاخرى على السواقي والجنائن ، والغنائم والغرامات في المحاكم . وكل هذه الضرائب كانت تؤخذ اما نقدا أو عينا . وقد تلجأ الحكومة الى أخذ قروض اجبارية من الاثرياء .

مما يجدر ذكره أن ضرائب المهدية كانت على الجملة عادلة خفيفة على كاهل دافعي الضرائب بالمقارنة للوضع التركي وهي تشابه في كثير من الوجوه النظـام الاسلامي السابق . وقد أعجب سير أفلن بيرنج (لورد كرومر فيما بعد) بضرائب المهدية . فحاول ان يقتبس من النظام الضرائبي لدولة المهدية ليطبقه المسؤولون في السودان اثناء الحكم الثنائي .

بدأ سك العملة في الدولة المهدية على عهد المهدي اذ ضرب جنيها من الذهب وريالا ونصف ريال من الفضة . وفيما ذكرت آنفا في حديثي عن العملة في التركية السابقة (الفصل الثالث) فان السودانيين آنذاك كانوا يتداولون عملات أوربيـة عديدة من الذهب والفضة ، وكذلك العملة العثمانية والمصرية . وبذهاب الحكم التركي المصري اختفى بعض هذه العملات من البلد ، وظل بعضها متداولا بـين الايدي مثال ذلك الجنيه الاسباني والريال التركي او المجيدي . أما الخليفة فقد ضرب ريالا واجزاءه (أبو عشرين ، أبو عشرة ، أبو خمسة قروش) مـن الفضة والنحاس عندما كان ابراهيم ود عدلان أمينا لبيت المال . ولما جاء النور الجريفاوي لامانة بيت المال دهور قيمة ذلك الريال بانقاص كمية الفضة فيه ، وما برح يقلل الفضة فيه حتى صار وزنه كله نحاسا مطليا بفضة . فارتفعت الاسعار تبعا لذلك . ومما زاد الأمور تعقيدا أن بعض المحتالين قد صنعوا نقودا زائفـة ، فقطع الخليفة أيديهم وارجلهم من خلاف ، كما أوقف العمل بالعملات الأجنبية .

البريد :

سار البريد في الدولة المهدية حسب الوضع السابق في التركية اذ كان منظما يحمل على الخيول السريعة، وله محاط لاراحة الخيل او تغييرها بأخرى مرتاحة . وهذه صورة أخرى من صور النظم في الدولة الاسلامية السابقة اذ كان في الطرق المتفرعة من مراكز الخلافة محطات ومنازل فيها أفرس ونجائب . فيستبدل عمال البريد بدوابهم دوابا مستريحة في كل محطة أو منزلة . (1)

وكما كان خلفاء الدولة الاسلامية يولون البريد اهتماما بالغا للغاية (مثلا أبو جعفر المنصور الذي أعتبر صاحب البريد أحد اركان الدولة الاسلامية) كذلك اهتم الخليفة عبد الله بأمر البريد فاختار مجموعة ممن يثق فيهم كـل الثقة من امنائه ليحملوا البريد من الخليفة الى عماله ويعودوا بأخبار العمالات . كتب في هـذا الصدد أحد الاساتذة السودانيين (عبدالله محمد احمد) فقال : « نظم الخليفة البريد بين جميع أطراف السودان حتى ان بريده كان يصل الفاشر في ثمانية عشر يوما من ام درمان . وكانت ترد اليه أخبار الدولة يوميا مـن كل صقع ، وينظر فيها بنفسه ، ويحرك قواته في سرعـة ، مما مكنه من القضاء على كل ثورة في حينها » .

على أن الغريب في موضوع البريد أن الخليفة عبد الله ــ فيما يشير نعوم شقير ــ قد قصر البريد على نفسه ، فلم يترك للمواطنين الفرصة للافادة من خدمات

(1) « الدولة الاسلامية تاريخها وحضارتها » : عبد الحميد العبادي ، محمد مصطفى زيادة وابراهيم أحمد العدوى .

هذا الجهاز الحيوي ! فاذا صحت هذه الرواية فان الخليفة قد حرم الناس من حق الاتصال عن طريق التخاطب ــ ولعل الباعث على ذلك غيرة الخليفة على حكمه أو خشيته من أن يتناقل الساخطون عليه الخطط التي من شأنها أن تطيح بسلطانه ، أو ينقلون الأخبار عن عيوب ادارته ، وما الى ذلك من ألوان الاشفاق والهواجس . وربما يعود هذا الموقف الى استهانة الخليفة بمطالب الرعية في هذا الجانب من حياتها الاجتماعية .

التعليم :

لم يقم في الدولة المهدية نظام تعليمي بالمفهوم الحديث ، فالمدارس التي فتحت في عواصم المديريات على عهد الخديوي اسماعيل ، قد اغلقت على اثر نجاح الثورة المهدية وتسلم المهدي ثم الخليفة السلطة في البلاد . وكل ما هنالك فان الخلاوي ظلت تمارس نشاطها السابق فيما يتعلق بتدريس القرآن الكريم وقليل من الفقه .وفي هذا يقول نعوم شقير ان الخليفة لم يشجع العلم ، بل جمع العلماء في ام درمان « وأذلهم ولم يسمح لهم بتعليم كتاب الا القرآن ومنعهم تعليم تفسيره ، فساد الجهل » . ذلك أمر يؤسف له حقا ، وما كان ينبغي له ، بل ما كان يجمل بمثله أن يقف هذا الموقف ويغلق على المواطنين منافذ النور ويحبس عقولهم في قمقم .

ومن الاشياء القيمة التي ورثتها الدولة المهدية عن التركية السابقة بعض الموظفين من كتبة ومحاسبين ، اولئك الذين استعانت بهم على تسجيل الحسابات وتنظيمها تنظيما كفل سير العمل دون ما ربكة . ذلك لأنهم كانوا يحذقون تلك الأعمال بما ألموا من معرفة بمسك الدفاتر والمحاسبة وبتجاربهم الطويلة الماضية . فليس بمستغرب اذا سارت الحسابات سيرا حميدا في تلك الحقبة .

مدينة ام درمان :

اختط المهدي ام درمان وجعلها حاضرة البلاد حينما نقل الديم من أبي سعد الى مكانها الحالي في أواخر فبراير ١٨٨٥ ، وبنى بها الجامع . ومن ثم شيدت المنازل للمهدي وخلفائه فبقية الانصار .

وقد اتسعت مدينة ام درمان على عهد الخليفة حتى اصبحت من أكبر المدن في أفريقيا . يذكر شقير أن المهدي عندما انتقل من الخرطوم الى ام درمان أجتمع فيها آنذاك نحو مليون نسمة ! وعلى حسب تقدير سلاطين فان عدد سكانها كان يربو على الاربعمائة الف نسمة . وهذا بالطبع يزيد على تعداد أهلها اليوم . وقد نزح الى العاصمة خليط من القبائل والاجناس السودانية . وتغيرت معالم المدينة

وهناك المحطة النيلية في الموردة الحالية التي كانت تعج بالبضائع الصادرة والواردة . وتلتقي في هذه العاصمة طرق القوافل من جميع نواحي القطر ، فترى الدواب من جمال وحمير محملة بالبضائع اما داخلة أو خارجة من البقعة المباركة .

خاتمة :

في ختام هذا الموضوع نكرر ما سبقت اليه الاشارة عن اقتصاد الدولة المهدية انه كان زراعيا رعويا متخلفا . فالصناعة تحتل مركزا ضعيفا للغاية فيه ، وبالتالي لا تزيد معطياتها في مجال الدخل القومي عن النزر اليسير . ولم يكن ذلك الاقتصاد في جملته مبرمجا بحيث يكفل المستوى الذي يحقق للمواطنين الاستقرار النفسي والرخاء .

ومن الناحية الادارية فان الخليفة عبد الله كان مركز كل السلطات . وقد جهد في أن يسيطر على كل شيء ، فحبه للسلطة يفوق الوصف ! وكان أخوه يعقوب وأمين بيت المال وقاضي الاسلام والعمال يرفعون اليه تقاريرهم بانتظام . ويقال ان الخليفة كان يعمل من الفجر الى أن يحل المساء ، فهو اذن دؤوب يقظ . ويقرر أهروالدر أن الخليفة «كان ذا نشاط فائض، يصرف مسؤولياته بنفسه، ويتقلى تقارير حتى عن التوافه من الامور ، وتحفه الأعمال من كل جانب » . واذا بلغ الراي المشورة فقد كان يستعين بمجلس من القضاة وقادة الجيش . على أن اعضاء هذا المجلس قد أصطفاهم الخليفة نفسه ، وله أن يأخذ بآرائهم ومقترحاتهم أو يتركها كما يشاء . وقد بين بعض المؤرخين ان من أبرز عيوب الخليفة الخيلاء ، والاسترابة أو الشك، فالصفة الاولى جعلته لا يطيق المعارضة أو النقد بتة ! وهو سريع التأثر بالمدح والاطراء قابل للمداهنة . وقد أجمل نعوم شقير رأيه عن سياسة الخليفة في قوله :

« كان التعايشي من الدهاة المحنكين الساهرين على حفظ ملكهم وتقويته وجعله وراثيا في نسله . ولكن جهله بمبادىء اتقاء الأمم وطبع الاستبداد الذي فطر عليه شوها ادارته وافسدا تدبيره ونفرا أهل البلاد منه ومهدا السبيل للسردار أحسن تمهيد » .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع الخليفة عبد الله بمقدرته وقوة شخصيته أن يقيم حكومة استمرت ثلاث عشرة سنة رغم الحروب والمجاعة والثورات القبلية والاقليمية والدينية . وكما قال ثيوبولد في كتابه « المهدية » : « اذا ما أخذنا في الاعتبار الوسائل التي كان يستعين بها ، فان ما حققه الخليفة من نجاح لبرهان على أنه اداري من الطراز الأول » .

ومنازلها من خيام وعشش الى بيوت من الطين . وبنى الخليفة الجامع من الطوب الاحمر . وكان للمدينة سوق كبير مقسم الى أصحاب الحرف .

الفصل الثاني عشر

تدهور نفوذ الخليفة عبدالله فيما بين ١٨٨٩ ـ ١٨٩٨

بلغت الدولة المهدية ابان حكم الخليفة عبد الله قمة مجدها عام ١٨٨٩ . وفيما يقول ابن خلدون فان الدولة عمرا كالشخص تمر فيه بمراحل النمو والنشوء ثم يستولي عليها الهرم « فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع » (١) ومن ثم تبدأ في الانحدار الى أن تتلاشى . هذه سنة الحياة ، وهكذا كانت الحال بالنسبة لدولة المهدية ، فبعد سنة ١٨٨٩ أخذت تضمحل ، واعتورتها المشاكل والكوارث الى ان انتهت باستعادة السودان عام ١٨٩٨ . . ولنتتبع تدهور نفوذ الخليفة عبدالله الذي قاد في النهاية الى النتيجة الفاجعة وهي ضياع استقلال السودانيين الذين نعموا به على اثر انتصار الثورة المهدية وتكبيلهم بقيود الاستعمار الانجليزي المصري الذي تمثل في الحكم الثنائي .

١ / وفاة المهدي

يرى بعض المؤرخين السودانيين أن الضربة الاولى التي منيت بها الدولة المهدية هي وفاة المهدي ـ صاحب الدعوة الذي خطط لها وضحى من أجلها بتعريض نفسه لحرب لا هوادة فيها من جانب الحكومة التركية المصرية . فهو بلا مراء روح الثورة وعقلها المدبر ورائدها الى طريق الخير والرشاد . وكان المأمول ان يمتد به العمر حتى يتم ما بداه من تشريع في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ولكن مشيئة الله تعالى اقتضت ان ينتقل الى دار البقاء قبل ان يتم البناء الذي شرع في تشييده .

ولو ترك مهدي الله من يحمل المشعل بعده لينير الطريق للناس لهان الخطب الجلل ، ولكن المهدي قد فارق الحياة وفي السودان ـ على الاجمال ـ صنفان من الناس : صنف آمن بالدعوة المهدية قلبا وقالبا أو قل ايمان العجائز . وكان على أهبة الاستعداد للدفاع عن مبادئها والذود عن حوزتها . بيد أن هؤلاء كانوا يفتقرون الى نور المعرفة وليس بينهم مثقفون الا القليل النادر ـ والنادر لا يقاس عليه . هؤلاء هم أولاد العرب الذين نزحوا من غرب السودان ومعهم قلة من أبناء النيل . أما النوع الآخر فهم أولاد البلد وفيهم العلماء والمثقفون ثقافة اسلامية استقوها من

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٧١)

الازهر الشريف في العهد التركي البائد . غير أنهم لم يؤمنوا بالمهدية ، ولم يتقبلوها الا كرها أو خوفا على أرواحهم .

ولعلنا نذكر ان المهدية قد ابطلت المذاهب السنية وأحرقت كتبها ومنعت تدريسها منعا باتا . كما منعت الطرق الصوفية التي درج الناس على اتباعها منذ القدم . وعلى عهد الخليفة حظرت حلقات الذكر ، بل جهد الخليفة في أن يصرف الناس عن الاعتقاد في كرامات الاولياء ومشايخ الطرق ليتجه الناس بأرواحهم وأفئدتهم الى تعاليم المهدي وراتبه وتعاليم خليفته لكيلا ينهض أي منافس ـ كائنا من كان ـ ليتهدد سلطانه . فما من عجب اذا فقد الخليفة عبدالله مساندة هذه النخبة التي أقصاها من المناصب الرفيعة في حكومته .

وعلى ذلك افتقرت الدعوة المهدية الى صفوة من المثقفين تسير بها قدما الى غايتها . وهذه بلا ريب كانت من عوامل الضعف التي كانت تلف تلك الدولة .

وباستقراء التاريخ نجد ان الثورات الاجتماعية في العالم قد دعمتها الطلائع المثقفة التي آمنت بها ، والتي أشربت حب مثلها وفلسفاتها . ولولا ذلك السند الأدبي والروحي ، لماتت تلك الثورات في مهدها . والثورة المهدية ، وان استمرت عدة سنين ، الا انها كانت تحمل في احشائها عناصر فنائها لموت صاحب الدعوة واقصاء المثقفين من حظيرتها . اولئك الذين لو استغل الخليفة خبراتهم وطاقاتهم واخلصوا له النوايا ، لمدوا في عمر الدولة أعواما أكثر .

٢/ الثورات الداخلية :

أوردت آنفا ان الفتن الداخلية قد تباينت اشكالها ، فمنها الثورات القبلية كعصيان الشكرية (١٨٨٦) . وثورة الرزيقات (١٨٨٦) وثورة الكبابيش (١٨٨٧) وتمرد رفاعة الهوى (١٨٨٧) وعصيان البطاحين سنة (١٨٨٨) . وهناك الثورات الاقليمية والدينية ، وكذلك ثورة الاشراف عام ١٨٩١ . وان تلك الثورات قد قمعت جميعا بقوة الحديد والنار .

على ان انتصارات الخليفة في تلك الميادين قد جرت على البلاد الويلات ، وتسببت في خسائر عديدة في الارواح والاموال ، وفتت في ساعد الامة . وفوق ذلك كله أخذت الكثير من زمن الخليفة عبدالله واهل الحل والعقد في دولته . فصرفت انظارهم عن أعمال الاصلاح وتطوير البلاد في الميادين الاقتصادية والاجتماعية . ومن الجلي أن المجهودات والطاقات والأموال الكثيرة التي انفقت في القضاء على تلكم الثورات والفتن ، لو استغلت لمصلحة السودان ، لعادت بالخير العميم على المواطنين . وما حدث فان الثورات الداخلية قد هزت كيان دولة الخليفة باستنزافها الكثير جدا من الطاقات والموارد .

ثمة مسألة لا تغفل وهي ان الخليفة عبدالله ، لكي يحصن نفسه ضد اي خطر من شأنه ان يزعزع سلطانه ، أمر قبائل الغرب، وبصورة خاصة أهله التعايشة بالرحيل الى ام درمان ليشد بهم أزره ويشركهم في امره ، ولكي يحموه من عاديات الليالي أو من اعتداءات أولاد البلد ! والجدير بالذكر ان بعض تلك القبائل هجرت ديارها وترحلت الى العاصمة وهي مكرهة لم تشأ ان تفارق موطنها وبيئتها التي شبت فيها . وتحضرني بهذه المناسبة حقيقة ذكرها دكتور هولت في كتابه « الدولة المهدية في السودان » وهي أن التعايشة ــ عصبة الخليفة ــ قد رفضوا في باديء الأمر الهجرة الى ام درمان ولم يرحلوا اليها الا تحت تهديد الخليفة ووعيده بغزوهم وتشتيت شملهم ! ومن التعايشة من هربوا من ام درمان عام ١٨٨٩ الى بواديهم في الغرب . وفي هذا يقول دكتور هولت : « مخطىء من يظن أن التعايشة قد نزحوا الى ام درمان عن طيب خاطر كما ينزح المتجولون في الصحاري الى موطن جديد حيث يجدون فيه اللبن والعسل، أو ان بقاءهم بالعاصمة مبعثه الرغبة الأكيدة » (١).

لم يكتف الخليفة بحشد قبائل الغرب في العاصمة بهدف حمايته ، بل زاد عدد حرسه الخاص او الملازمين زيادة ملحوظة (من خمسمائة الى عشرة آلاف) وسلحهم بالاسلحة النارية . على حين أمر سكان ام درمان بأن يكتفوا بالسلاح الابيض من سيوف ورماح ! وليس من شك في أن تلك الاجراءات من جانب الخليفة كانت خاطئة واي خطأ ! فاكراه أهل الغرب للحضور للعاصمة فيه ما فيه من شل لقدرات وطاقات كان من الممكن ان تحول لمصلحة البلاد الاقتصادية . وبتلك السياسة العجيبة عطل موارد ثرة كانت تدر على البلاد الخير الوفير من زراعة وثروة حيوانية وما الى ذلك .

ومن ناحية أخرى فان مجيء هاتيك القبائل معناه اعتمادها على انتاج البلاد النيلية من ذرة ومواد غذائية أخرى . بل معناه ان اولئك الناس سيعيشون ــ في الغالب ــ عالة على الحكومة ويكلفونها ما تطيق وما لا تطيق .

شيء آخر هو ان زيادة الملازمين قد اقتضت زيادة نفقات الحكومة ، مما انهك ميزانيتها ، وبالتالي أدى (مع عوامل أخرى) الى تدهور الدولة من الناحية المالية .

٢/ مجاعة سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٨ ــ ١٨٩٠)

من نكبات الدهر الفاجعة التي لم يشهد السودان على مدار تاريخه الطويل مثيلا لها ، مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ المشهورة التي حاقت بالبلاد في ابان حكم الخليفة ، والتي أهلكت الزرع والضرع ومات من جرائها كثير من المواطنين .

(١) ب.م. هولت « الدولة المهدية في السودان » ص (١٤٢) .

وتعود أسباب تلك الكارثة الساحقة الماحقة ــ مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ ــ الى أن السودانيين كانوا على الجملة يعتمدون في معيشتهم على المحاصيل التي ينتجونها من زراعتهم المطرية ، وقليل منهم كان يعتمد على السواقي لرفع الماء لأن ماء الساقية لا يروي الا رقعة ضيقة على ضفتي النيل . وبظهور المهدية ، واشتغال الشباب وبعض الكهول بالجهاد ، وتغيبهم لفترات طويلة في حومة القتال ، قلت الأيدي العاملة في الحقول وبالتالي تضاءلت كميات المحاصيل المنتجة بالنسبة لما كانت عليه الحال قبل الثورة.

ولقد حل خريف ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) وولى ، فلم ينهمر من المطر ما يكفي لنمو الزرع . وكأني بالسماء وقد تلبدت بسحاب جهام وبرق خلب ! وكذلك كان الفيضان شحيحا لم يكن كسابق العهد به ، فخيب الآمال . وفي العام التالي (١٨٨٩ ــ ١٨٩٠ م) اجتاحت البلاد أسراب مدمرة من الجراد ، فالتهمت في نهم مريع معظم ما زرع . الأمر الذي أفعم القلوب يأسا ، وجعل البعض يظنون أن لعنة قد حلت بالبلاد . ومما زاد الطين بلة اكراه الخليفة عبدالله لقبائل الغرب لتجيء الى ام درمان لتقيه من الشرور . فاستهلك القوم ما في المناطق النيلية من غلات ، وما ادخر لوقت الحاجة . والحق ان المواطنين قد مروا بتجربة قاسية مريرة للغاية ومصيبة لم تعرفها بلادنا عبر تاريخها . فالمجاعة قد انتظمت البلاد بأسرها (اللهم الا منطقة فشودة) فأهلكت أضعاف أضعاف من قضوا نحبهم في الحروب وغيرها .

أورد بعض المؤرخين أخبار مجاعة (١٣٠٦ هـ) فذكر الأب جوزيف أهروالدر في كتابه « عشر سنوات في الأسر بمعسكر المهدي » كيف أقحط الناس وقاسوا من الجوع حتى اضطروا لأكل الجلود القديمة وعظام الحيوانات الميتة وبقايا الجيف ! وانهم كانوا يموتون بالعشرات في الطرقات والبيوت بام درمان وغيرها .

اما نعوم شقير فقد رجع الى رسائل قادة الجيش في الأقاليم واستقى منها الكثير من الحقائق عن تلك المجاعة . فذكر أن النجومي قد صور للخليفة سوء الحالة وما آلت اليه الأمور في دنقلا في خطاب بتاريخ ١٥ أكتوبر ١٨٨٨ ورد فيه :

« ومما ينبغي الاخبار عنه من أحوال دنقلة هو الضيق الحاصل فيها هذه السنة بخلاف عادتها وذلك لأن انتاج الحبوب قليل لعدم فيضان البحر فيها فكثير من الأماكن التي كانت تنتج الحبوب عندهم كالجزائر الكبار ما عمها النيل ولا زرعت. والزراعة فيها قليلة وأهلها يشكون الضيق والتعب من عدم العيوش » (١) .

ذكر نعوم شقير أيضا ان الزاكي طمل سار من القلابات حيث كان يرابط بجيشه الى القضارف عساه يحصل على شيء مما يؤكل . ومن ثم كتب الى الخليفة

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ١١٤٠ .

عبدالله في ١٨ شعبان ١٣٠٦ هـ قائلا : « والحال سيدي ان الجيش بعد ما حررنا في طلوعه لأرض العدو قد تزايد به الضرر من جهة المعايش وعم ذلك الكافـة صغيرا وكبيرا ومجاهدا وعائلة حتى صاروا يأكلون الجيف ويلتقطون الحبوب مـن الأرض في الطرق والمزابل ومحلات الرماد وهم الآن بحالة لو رآها سيدي لرثى لهـم ... ونفرق الغالب منهـم في الجهات في التماس المعايش وبعضهم يلتقطـون القشوش والأشجار من الأودية مسافة ٣ أيام أو اربعة . لذلك قد أخرنا السرية عن التوجه الى الحبشة ونحن كذلـك غير متيسر توجهنا اليهـا الآن لأن الجيش قد اشتغل بنفسه » (١) .

تحدث شقير كذلك عن الموقف في بعض قرى الجزيرة اثناء المجاعة فبين أن بعض الناس اغلقوا بيوتهم وماتوا بسبب القحط والجوع . وفي المتمة ربط أحد كبار البلد اطفاله لكيلا يخرجوا من البيوت ويتسولوا . صنع ذلك خشية السبة عليه والمعابة . وثمة قصص فظيعة تقشعر لسماعها الأبدان ، فهي صورة مقززة عن المأساة المريعة في تلك السنوات العجاف .

وما يهمنا من مجاعة سنة (١٣٠٦ هـ) في هذا المقام هو الأثر الذي أحدثته في نفوس المواطنين عن سياسة الخليفة عبدالله . فالمجاعة ، وان كانت قضاء وقدرا ، وليس للخليفة فيها يد او دور كبير (على الأقل من ناحية عوامل الطبيعة من مطر وفيضـان وجراد) الا أن الكثيرين وبخاصة الحانقين عليه قد اغتنموا الفرصة وحملوه مسؤولية ما حدث للأهلين من تعاسة وبلاء . ونشروا دعايتهـم ضده وضد حكمه البغيض الى نفوسهم . الأمر الذي زاد مـن كراهية أولاد البلـد وبصورة خاصة الأشراف للوضع السياسي القائم ، وبالتالي أدى الى تدهور نفوذ الخليفة عبدالله . ولا يفوتنا في ختام هذا الحديث ايراد حقيقة وهي أن المجاعة حدثت في نفس العام الذي هزم فيه النجومي (١٨٨٩) وكما يقولون : المصائب لا تأتي فرادى !

٤/ سياسة الخليفة الخارجية وحروبه :

وفق الخليفة عبدالله في أن يتقلد منصب المهدي الديني والسياسي . ومن اجل ذلك فلا محيد له من أن يسير على الخطوط التـي رسمها صاحب الدعوة ومنهـا الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمة الحق . فجدد الدعوة للحكام المسلمين وللكفرة على حد سواء . وحينما نشير الى تجديد الدعـوة هنا لنذكر أن المهدي قد اعتزم أن ينشر فلسفة ثورته أو تعاليم مهديته على الصعيد العالمي . فكتب فيما كتب الى أهل مصر جميعا ، والى توفيق خديوي مصر ، والسنوسي في شمـال أفريقيا وحياتو ابن سعيد بن محمد بلو سلطان سوكوتو . كما بعث عمالا الى الشام ومراكش في

(١) نعوم شقير ص ١١٤٠ .

مايو ١٨٨٥ م ومن هنا نتبين شمول الدعوة المهديـة ونوايا المهدي لنشر مهديته في البلاد وبخاصة في الدول العربية . ولما قضى المهدي نحبـه ترسم الخليفة خطاه ، فأرسل بدوره كتبا الى الحكام والملوك خارج السودان في المدة ما بين ١٨٨٦ ــ ١٨٨٨ م يدعوهم الى تقبل المهدية وينذرهم بالويلات وعظائم الأمور ان لم يستجيبوا لداعي الحق في نظره .

وفيما سجل شقير فان الخليفة عبدالله قد أخطر أهل الحجاز (يوليو ١٨٨٦) بالمهدية ، بل عين حذيفة بن سعد كبير الاحامدة عاملا على الحجاز . ثـم كتب الى قريش وأهل المدينة ونجد والى المصريين يبين لهم ضرورة قبول الدعوة المهدية .

و في ذات العام (١٨٨٦) بعث برسائله الى سلطان وداي محمد يوسف والي حياتو بن سعيد بسوكوتو ، والى رابح الزبير الذي فتح مملكة برنو واسس فيهـا ملكا لم يزحزحه منه الا المستعمرون الفرنسيون عام ١٩٠٠ م اذ قتلوه واستولوا على أملاكه .

كذلك أرسل الخليفة عبدالله سنة ١٨٨٧ م ثلاثة خطابات الى توفيق خديوي مصر ، والى فكتوريا ملكة بريطانيا والى عبد الحميد سلطان تركيا لنفس الاغراض التي تقدم ذكرها .

أخيرا في هذه السلسلة من الرسائل كتب الخليفة عدة خطابات (١٨٨٨ م) الى يوحنا ملك الحبشة ، والى محمد السنوسي بشمـال افريقيـا ليعتنق الدعوة المهدية ، ويلومه على تقاعسه عن نصرة المهدية علما بأن المهدي قـد كرمه بالخلافة الثالثة . وقد تقدمت الاشارة الى أن المهدي قد اعتبر كرسي عثمان بن عفان رضي الله عنه خاليا ليحتله محمد المهدي السنوسي .

في كل هذه الخطابات دعـا الخليفة عبدالله الملوك والحكام للانخراط في سلك المهدية ، وتوعد وحذر من مغبة المخالفة . ذلك لأنه ــ وفقا لنعوم شقير ــ قد علم من المهدي أن المهدية « ستعم الدنيا وتخضع لسطوتها الأمم طوعا او كرها » .

على أن كـل تلك الرسائل قد قوبلت بالاهتمام التام واللامبالاة مـن الذين ارسلت اليهم . الأمر الذي أغضب الخليفة ودفعه لاتباع سياسة صارمة تجاه كل من الحبشة ومصر ، فقيض الله له دحر الاحباش ، ولكنه مني بالهزيمة على أيدي الانجليز والمصريين .

وبنظرة سريعة الى سياسة الخليفة عبدالله الخارجية ككل يتبين لنا انها كانت على الجملة عدوانية مع الدول المجاورة ، وبصورة أخص مع الحبشة ومصر . ولعله قد أنف من توخي الدبلماسية ومحاولة كسب ود جاراته مـن الدول لأن رسالة المهدية توجب أحد أمرين لا ثالث لهما : اما الخضوع لها أو تحكيم السيف . واذا كان

الاسلام على شموله لم ينشر بحد السيف ، فما أحرى المهديون باتباع سياسة الاقناع والاقتناع ! وعلى هذا فقد اختار الخليفة طريقا شائكا قاد في النهاية الى خراب محقق للدولة المهدية .

والآن دعنا نتتبع في ايجاز هذه الحروب الخارجية :

الجبهة الشرقية :

الحرب السودانية الحبشية (١٨٨٧ ــ ١٨٨٩ م)

حقق الخليفة عبدالله في الحرب السودانية الحبشية أعظم انتصاراته قاطبة . واغلب الظن أن تفوقه الحربي على « الحبشان » هو الذي حفزه ليسارع بالزحف على مصر .

يقول ثيوبولد عن تلك الحرب ان الخليفة والأحباش ما كان أغناهم عنها ، وكان في الامكان تجنبها ببساطة . واذا بحث المرء عن سبب وجيه مقنـع لتلك الحرب العوان ، فلن يجد اجابة شافية كافية اذ لم يوجد نزاع على الارض لأن الحدود بين البلدين كانت واضحة المعالم ومخططة على أسس جغرافية وعنصرية . ولم يكن ثمة صراع على مصالح تجارية تسوغ الحرب بيد أن الجامعة بين الاثنين أو وجه الشبه بين خليفة السودان ويوحنا الحبشة أن كلا منهما كان ميالا للحرب ومدلاتياها . ومن هنا فان كلا منهما كانت تتملكه رغبة متعالية وعجرفة طاغية ليظهر عظمته على الآخر ، فاندفعا في حلبة صراع متهور » (١) .

اسباب الحرب غير المباشرة :

اذا تساءلنا عن أسباب الحرب السودانية الحبشية غير المباشرة فان مشاكل الحدود ــ على نقيض ما قرر ثيوبولد ــ تأتي في المقام الاول. ولعلنا نذكر ما أسلفت الاشارة اليه من أن مشاكل الحدود السودانية الحبشية كانت تشغل أذهان الحكام في التركية السابقة . وأن غردون قد حاول في مطلع حكمه كحمدار على السودان ان يحلها دون جدوى . ومن ثم فان المهدي والخليفة من بعده قد ورثا تركة الحدود المثقلة . فكانت بعض المناوشات تحدث من وقت لآخر بين طرفي البلدين المتجاورين. بل كانت المناطق المتاخمة للحبشة مهددة بالغزو الاثيوبي .

ثانيا كانت الحبشة ملجأ للثوار والساخطين على الحكم والهاربين من دفع الضرائب في التركية والمهدية على السواء . وقد اوردت في الفصول السابقة اشارات

(١) أ.ب. ثيوبولد « المهدية » ص ١٥٠ .

عديدة لهروب بعض السودانيين وبعض افراد القبائل الثائرة الى الحدود الحبشية . ومن قبيـل ذلك نذكر أن بعض زعماء الشكرية قد استجاروا علـى عهد الخليفة عبدالله بالحبشة خوفا على أرواحهم من بطشه .

ثالثا أعان الاحباش الحكومة المصرية في تخليص الحاميات المصرية القريبة من بلادهم والتي كانت مهددة من جانب الانصار. ويرجع ذلك الى أن السلطات الانجليزية المصرية قد أبرمت اتفاقية مع الملك يوحنا في يونيو ١٨٨٤ م بمقتضاها ارجعت منطقة ارتريا الحالية التي انتزعها المصريون في أيام امتدادهم الى ملك الحبشة شريطة أن يعينهم على اجلاء حاميات الحدود . ولذلك جهز يوحنا جيشا في اغسطس ١٨٨٤ م اجتمع بقوات صالح بك ادريس وهو تكروري كان موظفا مـن قبل الادارة التركية على القلابات مركز التكارير ، وكان يناهض المهدية . وقد هزم الجيشان الانصار في ضواحي القلابات . وتم جلاء حامية القلابات في فبراير ١٨٨٥ م . وبعدئذ انسحب الاحباش فاحتل محمد ود أرباب قائد الانصار القلابات في مارس ١٨٨٥ م .

رابعا فان يوحنا ملك الحبشة لم يستجب لدعـوة المهدي (١٨٨٥) باعتناق الاسلام وتقبل المهدية ، ولا لنداء الخليفة الذي كتب له ايضا (مارس ١٨٨٧ م) في هذا الشأن . وقد جاء في خطاب الخليفة الذي بعث به الى يوحنا ما يلـي : « فان شهدت أن لا الـه الا الله وأن محمدا رسول الله نطقا بلسانك واعتقادا في جنانك وأجبت دعوتي وألقيت زمام أمرك طوع اشارتي فقد دخلت في حرم الاسلام والقيت الرشد والفوز والاكرام وصرت أخا لنا ومنا والينا عليك ما علينا وتتصل بيننا المحبة في الله وتصدق المودة لك وتكون في أمن وأمان وخيرات حسان . وان أعرضت عن قبول الاسلام واجابة الملك العلام فانما عليك اثمك ويحيط بك مكرك وحينئذ فليكن بعلمك أن تعدي الحدود عاقبته وخيمـة وضرورته جسيمة . ونحن قـد كنا معك ملاحظين اشارة سيد المرسلين : اتركوا الحبشة ما تركوكم . ومن ثـم فلم نصرح لجيوش المسلمين بغزو جهتك حتى حصل منك التعدي البليغ على ضعفاء المسلمين الذين بالقرب من بلدك المرة بعد المـرة والكرة بعد الكـرة بالقتل والأسر والنهب والضر » (١) .

من هذا الخطاب نقف على حقيقة وهي أن مشاكل الحدود واعتداءات الأحباش على حدود بلادنا قديمة .

تلك جملة الأسباب غير المباشرة او معظمها فما هو السبب المباشر ؟

السبب المباشر :

يقرر ونستون تشرشل في كتابه « حرب النهر » أن أحد الدراويش قد نهب

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ١٠٦٢ .

في عام ١٨٨٥ م احدى الكنائس الحبشية . فما كان من راس عدار ـ حاكم مقاطعة الأمهرة ـ الا أن طالب بتسليم ذلك الرجل ليلقى الجزاء وفاقا او القصاص على فعلته التي ارتكبها ، والتي تنافي تعاليم الدين السمحة . ولكن السودانيين قد رفضوا هذا الطلب . هنا زحف الاحباش على القلابات (يناير ١٨٨٧) بجيش عرمرم قوامه حوالي الثلاثين الف محارب على حين أن قوة الامير ود ارباب لم تزد على الستة الف مقاتلا . وكانت النتيجة أن كسب الاحباش المعركة . فعاثوا في القلابات فسادا ووحشية مثال ذلك أنهم قتلوا الجرحى ومثلوا بالموتى وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا المدينة واضرموا فيها النيران (1) .

هذه الاخبار أزعجت الخليفة عبدالله ايما ازعاج . ومع ذلك فقد تصرف بحكمة بالغة اذ فتح باب المفاوضات مع يوحنا بشأن الاسرى من النساء والاطفال لافتدائهم . ثم انفذ حملة بقيادة يونس الدكيم لايقاف الاحباش عند حدهم . وفي ذات الوقت كتب الى الامير حمدان أبي عنجة ليحضر من جبال النوبة كيما يتجه الى الجبهة الشرقية .

احتل يونس الدكيم القلابات ، وبعدئذ اتبع سياسة استفزازية ضد الأحباش ، وقام أحد ضباطه وهو عربي دفعالله باغارات على الحبشة . كما قبض يونس قافلة من التجار الاحباش ، فصادر اموالهم وبضائعهم ، وارسلهم مصفدين في الاغلال الى ام درمان . وفي ذلك الوقت كتب الخليفة الى يوحنا يدعوه الى الخضوع للمهدية ، ويتهمه بشن الاغارات على المسلمين في الحدود ، وبأنه آوى صالح ادريس وغيره من المناهضين للمهدية . وينذره بالحرب اذا لم يعد كل الاسرى المسلمين ، ويسلم اللاجئين اذا رغبوا في ذلك ، ويتجنب أي اعتداء في المستقبل .

لم يرد يوحنا على الخليفة ، بل أمر بتجهيز حملة ضد الانصار . ولان اخبار الحملة المزمع اعدادها قد وصلت الخليفة ، فقد أمر ابا عنجة بأن يحث الخطى نحو القلابات ، وان يرجع يونس الدكيم الى العاصمة . وقبل ان نسترسل في الحديث عن اعمال أبي عنجة من حق هذا القائد علينا ان نسجل كلمة مقتضبة عنه في هذا المجال .

حمدان ابو عنجة :

الامير حمدان أبو عنجة هو ـ فيما يقول الاستاذ بشير محمد سعيد ـ « من تبيض لذكره وجوهنا وتسود وجوه آخرين » وهو من يشهد تاريخنا القومي الحديث بأنه كان من أبطالنا الصناديد الذين يحق لنا أن نباهي بهم الأمم . كيف لا وقد دك الحصون ومزق أعداء السودان (آنذاك) شر ممزق .

(1) Winston S. Churchill, The River War, (1964) p. 77.

ورد في ترجمة أبي عنجة أنه ولد رقيقا (مولى) بيد انه نشأ وكأنه فرد من عائلة عبدالله التعايشي ، ثم أعتق . ولقد قضى شطرا كبيرا من حياته في ساحات الحروب بين قعقعة السيوف ، وصهيل الخيل ، ودوي الرصاص اذ حارب في صفوف سليمان الزبير ضد جيسي في جنوب السودان . وبظهور المهدي آمن أبو عنجة (مع عبدالله) بمهديته ، وانضم الى انصاره ، فبرز في حومة الوغى ضد الشلالي وتجريدته عام ١٨٨٢ . ومن الاسلحة النارية التي غنمت بعد هزيمة الشلالي سلح أبو عنجة جنده السود (بعضهم من عسكر التركية) الذين حاصر بهم الابيض مع المحاصرين . وبعد سقوط الابيض (١٨٨٣م) صعد ابو عنجة الى رتبة أمير على الجهادية ـ حملة الاسلحة النارية في كل جيش المهدي .

بتلك القوة النارية الضاربة استطاع ابو عنجة أن يزعزع الثقة في جيش هكس بغابة شيكان ، بل أشاع فيه الرعب والاضطراب . وهيأ الجو كأحسن ما يكون التهيؤ لحاملي السلاح الابيض ليقضوا على حملة هكس قضاء مبرما . ومن ثم أصبح أبو عنجة من كبار أمراء الجيش لبسالته ، وعبقريته الحربية وايمانه الذي لا تخامره الريب بالمهدية ومبادئها .

ولعلنا نذكر في حصار الخرطوم أن المهدي قد بعث بأبي عنجة على رأس سرية من الانصار لمهاجمة طابية ام درمان ، فحاصرها وقطع خط التلغراف بينها وبين الخرطوم الى ان استسلمت في ٥ يناير ١٨٨٥ م .

سبق القول أيضا الى أن المهدي أرسل ابا عنجة في فبراير ١٨٨٥ لارجاع جبال النوبة التي ثارت ضد المهدية فما برح يضغطها الى أن توفي المهدي . وفي ابان حكم الخليفة واصل أبو عنجة مطاردة زعماء النوبة . وما هي الا أن حل عام ١٨٨٧ م حتى أخضع أبو عنجة كل جبال النوبة واعادها الى سلطان الخليفة عبدالله .

لا يفوتنا ايراد حقيقة عن حمدان الا وهي جراته في ملاقاة محمد خالد زقل قريب المهدي ومدير دارفور عندما كان الاخير على راس جيش في طريقه نحو ام درمان عام ١٨٨٦ م . وفيما ذكرت أن أبا عنجة الذي كان بالابيض قد لحق (باشارة من الخليفة) جيش زقل في بارة والقى القبض عليه ، وجرده من سلاحه ، وصادر أمواله . وبهذا أنجى الخليفة من خطر أحد كبار الاشراف .

واخيرا توج أبو عنجة انتصاراته الحربية بهزيمة الاحباش ودخول عاصمتهم « غندر » دون مقاومة سنة ١٨٨٨ . وبينما كان حمدان يعد العدة لمعركة اخرى مع يوحنا وافاه الأجل المحتوم في ٢٩ يناير ١٨٨٩ فذهب مبكيا على بطولته التي قل أن تجود بمثلها الأيام .

بعد هذا السجل الحافل بانتصارات الأمير أبي عنجة نعود الى حرب الحبشة لنقف على الدور الذي قام به أبو عنجة بشيء من التفصيل .

عود الى الحرب الحبشية :

صدع أبو عنجة بأمر الخليفة وقاد جيشا عرمرما خرج بـه من ام درمان ، فدخل القلابات في ديسمبر ١٨٨٧ . وقد عين الخليفة أبا عنجة عاملا على القلابات لتصريف المسؤوليات الادارية والعسكرية . ولأن يوحنا لم يرد على خطابات الخليفة التي أشار عليه فيها باعتناق الاسلام وقبول المهدية ، شن أبو عنجة هجومه الأول في ٩ يناير ١٨٨٨ . والتقى بجيش الاحباش الذي كان قوامه حوالي المائتي الف محارب . ورغم كثرة عددهم الا ان عسكر الاحباش لم يثبتوا امام بطولة الانصار الميامين . وفي هذا قال أبو عنجة في خطاب الى الخليفة وصف فيه المعركة :

« شرعنا في ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم مع الزحف عليهم . فما كانت لهم ساعة الا وقد زلزل الله اقدامهم والحق الرعب في قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين مرتكبين عار الفرار ذاهلين عن كل ما لهم من ذراري ونساء وخيول وبغال وحمير وخدم وحشم ونحو ذلك » (١) .

على اثر هذه المعركة الحامية دخل أبو عنجة ورجاله المغاوير غندر (عاصمة الحبشة القديمة) دخول الفاتحين الظافرين . ويذكر أبو عنجة في نفس خطابه للخليفة قوله : « هذا ولما خلت الدار من الكفار وانتنت رائحة الديم من جيف اعداء الله ورمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين قندر ام مدائنهم يوم السبت في ٧ جمادى الاولى . وقبل وصولنا اليها قابلنا أهل الديار المذكورة اعلاه راغبين الامان ورافعين الرايات البيض وفي أيدي البعض الاغصان الخضراء .... الى قوله : فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يمينا وشمالا فأعجبنا ما شاهدناه من القصور الشامخات وأحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ما عدا الكنائس التي احرقناها بالديار المذكورة عند مرورنا بها وهي تزيد على ٢٠٠ كنيسة » (١) .

وقد جهز ابو عنجة حملة صيفية على الحبشة في يونيو ١٨٨٨ انتصر فيها أيضا . ولأن الاحباش المحاربين قد فروا من وجهه ولم يجد من يحاربه ، عاد أبو عنجة ورجالاته المنتصرون الى القلابات في أغسطس من العام نفسه ومنها الى امدرمان ليستمتع بالاحتفالات الرائعة التي أقيمت على شرفه تكريما له على انتصاراته الباهرة وبطولته النادرة .

في ذلك الوقت تعرض يوحنا لخطر الطليان الذين احتلوا مصوع عام ١٨٨٥ ، وهددوا بلاده فرأى انه من الأصوب أن ينهي خصومته مع السودانيين ليجابه عدوا واحدا وهم الايطاليون . فكتب الى أبي عنجة خطابا في يناير ١٨٨٩ يطلب اليه ان

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ١٠٧١ .

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان » ص ١٠٧٢ .

يعمل للصلح بين البلدين جاء في بعض فقراته « والواقع ان الأفرنج اعداء لنا ولكم فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل اخربوا دياركم واذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك . فالرأي الصواب ان نتفق عليهم ونحاربهم ونغلبهم ويتردد التجار من أهل بلادنا بالمتاجر الى بلادكم وكذلك تجار بلادكم تتردد الى غندر لأجل المعايش والمكاسب لأهلكم ولأهلنا . فاذا صار كذلك فهو غاية المنفعة لنا ولكم انتم ونحن في الاصول السابقة أولاد جد واحد فاذا قاتلنا بعضنا بعضا فماذا نستفيد ؟ » (١) .

علق الدكتور مكي شبيكة على خطاب يوحنا هذا بأنه دعوة او مناشدة لتلاحم القوى الافريقية ضد اعدائها من الغربيين المستعمرين ، فقال : « بسط يوحنا بهذا سياسة افريقيا للافريقيين ونادى بحلف افريقي من الدولتين المستقلتين استقلالا كاملا في افريقيا لمناوأة الفرنجة » (٢) .

وفي تعليقه هذا يقرر شبيكة ان المهدية قد رمت الى الجامعة الاسلامية .

كان رد أبي عنجة على يوحنا جافا ومسيئا للغاية فهو يضع الاسلام شرطا أساسيا للتفاهم ، وهو صدى لسياسة الخليفة لا مراء فيه يقول :

« واما طلبك الصلح منا وانت باق على كفرك فبعيد بعد المشرقين ودليل على ضعف عقلك وفراغ ذهنك فيا لك من سفيه ويا لك من جاهل أتريد منا صلحا ومؤاخاة ولم تدخل في الدين الحق وكتاب الله ناه عن ذلك . فان رمت الصلح فقل مخلصا من قلبك أشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

أما الخليفة فقد اشترط الاسلام دينا ليوحنا كمنطلق لأي تفاهم أو تعاون معه ضد الافرنج . ففهم يوحنا من هذا الشرط رفض الخليفة عبدالله . فما عتم أن قاد جيشه بنفسه وزحف به نحو القلابات ليلاقي جيش الانصار الذي تولى قيادته الزاكي طمل بعد وفاة أبي عنجة . وفي ٩ مارس ١٨٨٩ التقى الجمعان في القلابات ، ودارت رحى معركة لم يسبق لشدتها مثيل على الانصار . وكاد الحبشان ان ينتصروا ، ولكن يوحنا أصيب بجراح عميقة أودت بحياته بعد ساعات قلائل . فانهارت الروح المعنوية في صفوف عسكره . فما هو الا أن سرى الخبر ، حتى انسحب الاحباش من ساحة المعركة . هنا تقدم السودانيون وتعقبوا اعداءهم حتى غنموا تاج الملك وسيفه، ووجدوا جثته فجزوا رأسه وأرسلوه الى الخليفة في امدرمان.

(١) نعوم شقير ص ١٠٧٤ .

(٢) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ٣٤٠ .

(٣) نعوم شقير (ص ١٠٧٦) .

سعد الخليفة وأية سعادة بهذا النصر المؤزر . غير ان ذلك الانتصار كان غاليا اذ سقط فيه كثير من جهادية أبي عنجة الافذاذ . ومن ثم لم يستطع الخليفة أن يكون له جيشا قويا كذلك الذي كسر شوكة الحبشة . كما ان ذلك الانتصار كان وبالا على السودانيين والاحباش على حد سواء . وآية ذلك ان يوحنا كان قويا . وقد خلق موته فراغا ، اضطربت من جرائه الاحوال في اثيوبيا . فاغتنم الايطاليون فرصة الضعف والفوضى التي اعترت كيان ذلك البلد فانتزعوا من اثيوبيا ارتريا عام ١٨٩٠ ، واحالوها الى مستعمرة ايطالية .

وهكذا وضعت ايطاليا الاستعمارية يدها على ارض افريقية متاخمة للسودان . ولا نزاع في أن ايطاليا كانت أخطر بكثير على السودان من تلك المملكة الاقطاعية الحبشية التي كانت الدولة المهدية تقف تجاهها موقف الند للند . وكان عاقبة انتصار السودانيين على الاثيوبيين في القلابات (١٨٨٩) ضياع كسلا او سقوطها في أيدي الايطاليين عام ١٨٩٤ . « وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

الجبهة الشمالية

حملة النجومي الى مصر (١٨٨٩) :

تبلورت فكرة انفاذ حملة لفتح مصر منذ ايام المهدي عندما أشار الى الأمير عبد الرحمن النجومي الذي ذهب لمطاردة حملة الانقاذ (فبراير ١٨٨٥) ليبقى في التمة ريثما تعد العدة لتحقيق ذلك المشروع الكبير وهو الزحف على مصر . وفيما يذكر دكتور هولت في كتابه « الدولة المهدية في السودان » فان حالة جيش النجومي لم تكن على ما يرام لأسباب منها قلة المال الذي يدفع لرواتب الجند ، ولأن بعض الجنود قد هجروا الجيش الى ام درمان . وفضلا عن ذلك فان وباء الجدري قد انتشر بين الجنود . ولما تولى الخليفة عبدالله أمر الحكم في البلاد شغل بعديد المشاكل عن غزو مصر .

ولعله من المهم أن نذكر هنا نبذة مقتضبة عن اعمال الامير عبدالرحمن النجومي ثم نواصل الحديث عن حملته الى مصر .

عبد الرحمن النجومي :

ينحدر عبد الرحمن ود النجومي من أسرة اشتهرت بالتقوى ، وتنتمي الى قبيلة الجعليين العريقة . ولان هذه الاسرة كانت متدينة ، فقد أمضى عبدالرحمن شطرا من شبابه في حفظ القرآن الكريم وتجويده ، ثم تدريسه . بمعنى آخر كان فقيها (فكي) له خلوة يمارس فيها ذلك العمل الجليل . وبديه أن تجذبه أخبار فقيه أبا (محمد احمد) فشد اليه الرحال واصبح من تلاميذه (حيرانه) المخلصين المقربين .

ولان النجومي قد تميز بالشجاعة والاقدام فقد عينه المهدي اثناء حصار الابيض (١٨٨٢) أميرا ، بل اعتبره أميرا من أمراء الراية الصفراء . وأرسله على رأس جيش الى استلام بارة لأن حامية بارة رفضت أن تسلم للمنة اسماعيل الذي كان يحاصرها خوفا من بطشه . فاستلمها النجومي في ٥ يناير ١٨٨٣ . وفي واقعة شيكان (٥ نوفمبر ١٨٨٣) لعب النجومي دورا بارزا في القضاء على حملة هكس.

وبينما كان المهدي يعد العدة بعد واقعة شيكان للزحف على الخرطوم اذا بسكان جبل الداير بكردفان يثورون على المهدية ، ويقطعون طريق الابيض . فانفذ المهدي جيشا بقيادة عبدالرحمن النجومي وآخر يقوده حمدان ابو عنجة للعصاة . وبعد معارك عديدة ومطاردات استمرت زهاء الثلاثة اشهر استطاع هذان القائدان قمع ثورات ذلك الجبل الكبير .

ثم يأتي اعظم منجزات النجومي وهو فتح الخرطوم . ولقد سبق القول في حصار الخرطوم (الفصل التاسع) الى الاجراءات والخطابات التي ارسلها الى غردون ، واخيرا كيف قام الأمير عبد الرحمن النجومي ورجالاته بالدور البطولي بمداهمة الخرطوم قبيل فجر يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥ م وكيف سقطت العاصمة في ايديهم .

وكما ذكرت آنفا فان المهدي قد أمر النجومي بمطاردة حملة الانقاذ وطرد الانجليز من القبة . فخرج المهدي في جمع من خلفائه وامرائه من ديم ابي سعد الى كرري لوداع النجومي ورجالاته الذين تحركوا في ٨ فبراير ١٨٨٥ لتحقيق ذلك الغرض .

تلك جملة المنجزات التي اداها الأمير عبد الرحمن النجومي في ابان حكم المهدي فما هي اعماله في عهد الخليفة عبد الله ؟

صمدت حامية سنار التي ظل الانصار يحاصرونها منذ حياة المهدي طويلا . وبما أن قائد الانصار المحاصرين هناك (محمد عبدالكريم) قد ابطأ في فتحها ، فقد طلب الخليفة عبد الله الى النجومي ليزحف من المتمة نحو سنار فصدع بالأمر . والنجومي ، وان وصلها (٢١ اغسطس ١٨٨٥) بعد فتحها ، الا انه أمن سنار واوقف أعمال النهب والسلب التي كان يقوم بها الاجناد في تلك المدينة .

وقد أوكل الخليفة عبد الله عمالة دنقلا للنجومي ، فاستقر في العرضي منذ نوفمبر ١٨٨٦ م وبما أن الخليفة كان يخشى أولاد البلد عامة ولا يثق فيهم ، فقد كان مشفقا من ناحية النجومي لأن الأخير كان من أمهر القادة واحبهم الى النفوس . ومن أجل ذلك عين الخليفة مساعد قيدوم ـ وهو بقاري ـ وكيلا للنجومي ، وفي الواقع أرسل قيدوم ليكون رقيبا أو جاسوسا على النجومي . وما هي الا أن شرعا في العمل معا ، حتى ساءت العلاقة بينهما ، وتكررت مشاكسات قيدوم للنجومي.

ولما رفع الأمر للخليفة ساند قيدوم ونصره على أمير الأمراء وفاتح الخرطوم الذي أطلق عليه المهدي « سيف الله المسلول » !

ليس هذا وحده بل سخر الخليفة من النجومي واهانه أمام الملأ بحجة أنه لم يتقدم الى فتح مصر مما حز في نفس النجومي الابية التي تأبى الضيم ، وجعله يصمم على غزو مصر مهما كانت العاقبة ، ويقول لاصحابه : « لا خير في العيش بعد هذا فاذا لقيت العدو رميت بنفسي في نحره ومت موت الشهداء » . وكأني به وقد ردد بيت المعري :

فيا موت زر ان الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي ان دهرك هازل

وامعانا في ايلام النجومي عين الخليفة عبد الله احد اقاربه التعايشة وهو يونس الدكيم عاملا على دنقلا . وأمر النجومي أن يأتمر بأمره !

في ختام الحديث عن عبد الرحمن النجومي نأتي الى حملته لفتح مصر .

عود الى حملة النجومي الى مصر :

فرغ الخليفة عبد الله من مشاكله الداخلية والخارجية ، ولم يبق أمامه الا أن يحقق الأمل العريض الذي طالما داعب خيال المهدي وخيال الخليفة بعده الا وهو فتح مصر لنشر الدعوة المهدية ، وبالتالي اصلاح ما أفسده الحكام من أمور الدين والدنيا . فمهد لذلك بالكتابة الى مشايخ العبابدة واهالي الصعيد ليهبوا لنصرة جيش الانصار الزاحف نحو مصر . كما كتب للمواطنين بالمتمة وبربر ودنقلا ليخصصوا من كل ساقية رجلا قويا يخرج للجهاد مع النجومي . ومن ثم اذن للأمير عبد الرحمن النجومي بالزحف نحو مصر .

تحرك جيش النجومي في ٣ مايو ١٨٨٩ م ، وكان قوامه أربعة آلاف مقاتلا وسبعة آلاف من النساء والاطفال . وله طلائع قادها الأمير عبد الحليم مساعد فأحتلت صرص منذ يناير ١٨٨٨ . وقد اختار النجومي البر الغربي للنيل لكيلا يصطدم بالقوات الانجليزية المصرية . وقبل أن نستطرد السير مع الحملة يجدر بنا أن نقف وقفة قصيرة لنرى المعوقات التي كانت تحول دون سيرها الحثيث .

فبادىء ذي بدء كانت قلة المؤن أو عدمها في الشمال مشكلة المشاكل . فالشمال بالطبع كانت زراعته مقصورة على شاطىء النيل والجزائر . وحتى في هذه الرقاع الضيقة فان تجنيد الحكومة لبعض الأيدي العاملة قد عاق الانتاج . كما أن صعوبة المواصلات قد ساعدت على عدم وصول المؤن من العاصمة . ثم حلت مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ — ١٨٨٩ م) مما زاد من تعقيد الأمور ، فلا غرو فقد اضطر بعض الجنود للسرقة والنهب ليجدوا ما يقتاتون به لانهم منذ أن غادروا العرضي

لم يصرف لهم غذاء !

وقعت الواقعة الاولى في أرقين (٢ يوليو ١٨٨٩) وقد خسرت فيها حملة النجومي الكثير من الأرواح وجرح واسر فيها كثيرون . وفي مجلس عقده النجومي من الامراء أشار البعض بالتقهقر الى بلاد المحس ريثما تصلهم النجدة والمؤن . ولكن النجومي أصر على المضي قدما ، وأعلن انه لن يرجع الى الوراء الا محمولا على الاكتاف . وطيلة هذه المدة كان ودهاوس باشا يمخر بسفنه عباب الماء فيمنع الحملة من ورود النيل ، الامر الذي اضطرها للاستقاء خلسة تحت جنح الظلام .

بعث الخليفة وسلا الى النجومي ليقفوا على خبر الحملة . فكتب النجومي اليه خطابا وصف فيه الأهوال والبلايا التي عانوا منها . وفي بعض فقراته ورد قوله عن جنوده : « انه قد مسهم الضرر الشديد الذي ما عليه من مزيد واشتد بهم الحال وضاق الأمر جدا فان الجوع الحال بهم أضناهم وأذهب قواهم فورم اجسامهم وغير احوالهم لأنهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الأخضر المر ونواه وانقطع عنهم من مدة ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة . ولشدة الضرر جلسوا جميعا على الارض وكثيرون منهم ماتوا جوعا . وأما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا في الاعداء . والجهادية والعبيد والخدم لحقوا ايضا بالاعداء وارتدوا عن الدين ولم يبق منهم الا النادر » (١) . وبمناسبة الجنود الذين تسللوا من الحملة والتحقوا بالجيش الانجليزي المصري ، يجدر بنا أن نشير الى أن النجومي ، عندما أقر الخليفة مشروع غزو مصر ، قد جند عددا من رجال البطاحين الذين لم يخضعوا للمهدية . وكما تقدم فان الخليفة عبد الله قد شنق كثيرا من رجالهم ومثّل ببعضهم في أم درمان . فما من عجب اذا هجروا حملة النجومي عندما أشتد بهم الضيق . ولا يفوتنا أن نذكر أن النجومي قد كتب الى يونس الدكيم بدنقلا يشكو الحال ، ويوضح له ، الي جانب الجوع والظمأ ، أن معظم الخيول وحاملات الامتعة قد ماتت ، الأمر الذي جعله يترك بعض كميات الذخيرة والأسلحة وراء ظهره !

وفي ١٦ يوليو ١٨٨٩ بعث الجنرال قرنفيل باشا سردار الجيش المصري أو قائد الحامية الانجليزية بمصر ، بعث بخطاب الى النجومي ذكر له فيه انه موقن بالحال السيئة التي تقاسيها حملة الانصار . وبين له أن الخليفة يحسده ويريد أن يتخلص منه ولم يجد وسيلة لذلك الا بارسال النجومي على رأس جماعة من أولاد البلد والاعراب الذين لا يثق فيهم ، وان الخليفة أبقى ابن أخيه يونس بدنقلا لكيلا يتعرض للخطر . ويأمره بالتسليم حقنا للدماء ، ويعده بالا يمسه هو ورجاله أي مكروه .

---

(١) نعوم شقير « جغرافية وتاريخ السودان »

ولقد رد النجومي بخطاب ملىء بالايمان والثقة التامة ، وضح فيه أنه لا يخشى الا الله ولا يرهب الردى أو الجيوش الجرارة حتى لو انطبق الانس والجن عليه وعلى رجاله . ويكفي أن يتذكر قرنفيل حملة هكس وغردون وغيرهما ممن لاقوا حتفهم رغم عدتهم وعتادهم . وفي خلال الثلاثة والعشرين يوما التي قضاها الانصار داخل الحدود المصرية لم يتعامل معهم شخص واحد من المصريين تجاريا او خلاف ذلك لان السلطات الانجليزية قد منعت القرويين المصريين ، وهددت من يتعامل معهم بالقتل ، ووعدت بتعويض من يفقد شيئا من ممتلكاته .

اخيرا كانت النهاية في توشكي حيث وقعت الواقعة بين حملة النجومي والجيش الانجليزي المصري في (٣ أغسطس ١٨٨٩) وكانت معركة غير متكافئة ذلك لان النجومي كان يخوض المعمعة برجال أضناهم الجوع والظمأ وطول المسير ، ورجال تركوا بعض أسلحتهم خلفهم لأن الحيوانات التي تحمل السلاح قد ماتت أو اكلها الجنود ! على حين ان الجيش الانجليزي المصري كان في كامل عدده وعتاده . ولا ننسى أن الجيش البريطاني كان من أقوى الجيوش في العالم آنذاك . وكانت النتيجة ان انهزم النجومي وسقط شهيدا في حومة الوغى . كما استشهد حوالي الف ومائتي محارب ، وبلغ عدد من أسروا وضاعوا حوالي الاربعة الف نسمة .

على هذه الصورة المحزنة وهذه النهاية الفاجعة أسدل الستار على حملة الأمير عبد الرحمن النجومي .

نتائج حملة النجومي :

والآن فان لتلك الهزيمة المنكرة نتائج بعيدة المدى اذ كانت معركة توشكي بداية النهاية لدولة المهدية . وكما يقرر الدكتور مكي شبيكة : « بدأ الجيش المصري بعدها اتخاذ خطة الهجوم لا الدفاع الى ان تحركت حملة كتشنر في سنة ١٨٩٦ » . وعلى اثر تلك المعركة تقدم الجيش المصري حتى صواردة في جنوبي وادي حلفا . ولقد كانت خسارة معركة توشكي شؤما على الخليفة عبد الله اذ حمله بعض الموتورين من ناحيته والحاقدين عليه مسؤولية الهزيمة . فزعزعوا بذلك الثقة فيه ، كما انها كشفت بعض مواطن الضعف في هيكل الدولة المهدية . ومن ثم أخذ اعداؤها يضغطونها شيئا فشيئا حتى استسلمت في النهاية .

١ / واذا تساءلنا عن أسباب اخفاق النجومي في فتح مصر ، فان أول ما يتبادر الى الذهن هو عدم تكافؤ القوتين او الفارق بين جيش النجومي وجيش اعدائه من حيث العدة والعتاد والتكتيكات الحربية والاستراتيجية . ثانيا فان الجوع قد فعل فعله في الحملة وشلها منذ البداية . ومن عجب فان يونس الدكيم عامل دنقلا لم يسعف النجومي بما يفي بالحاجة من المؤمن وغيرها (وصل النجومي خمسمائة

محارب فقط في حين ان جل الجيش الانجليزي المصري كان يرابط في اسوان) علما بأنه كان يدري من خطاب النجومي اليه ، ومما جاء به الرسل بما آلت اليه الأمور !

٢ / هذا الموقف من جانب الخليفة عبدالله الذي « أمر النجومي بتسليم جميع الجهادية والاسلحة والذخائر الى يونس الدكيم » وابقاء القوة الضاربة أو الجيش القوى مع يونس بدنقلا بحجة المحافظة عليها ، ثم تباطؤ يونس في ارسال النجدة الكافية للنجومي ، جعل البعض يتهمون الخليفة عبد الله بأنه انما اراد أن يتخلص من النجومي ومن معه من أولاد البحر ليزيل من الوجود منافسا قد يشكل خطرا عليه ! وفي هذا يقول ونستون تشرشل : « من الصعوبة بمكان أن نبرىء الخليفة من مكيدة أو تدبير غامض في هذا الامر لانه اذكى بكثير من أن يعتقد أن مصر يمكن أن تفتح بخمسة آلاف من الجنود . فهو على علم أنه الى جانب المصريين هناك قوم من البيض أجانب أوشكوا أن ينقذوا الخرطوم . بل ان الخليفة قد صرح في عدة مناسبات بقوله : « لولا الانجليز لغزوت مصر » . ولانه كان يعرف الاحتلال البريطاني لمصر ، فقد ارسل الخليفة ذلك الجيش ليضيع في متاهات العدم . ومن الصعب أن نوفق بين ما امتاز به الخليفة من ذكاء وفطنة وذلك التصرف . على أن الثابت هو أن الخليفة قد اعتزم غزو مصر ، ولعله ظن أن النجومي ربما يحالفه التوفيق فينتصر بتلك القوة على ما عليها من ضعف . فاذا تم ذلك فان مرده الى الله سبحانه وتعالى أولا والى تدبير الخليفة . واذا حدث نقيض ذلك — وهنا مربض الفرس — أو السبب الحقيقي لتلك المغامرة — فان القبائل النيلية ستصاب بقاصمة الظهر » (١) .

٣ / ويذهب ثيوبولد الى القول بأن التهمة التي وجهت للخليفة عبد الله فيما يتعلق بحملة النجومي لا يسندها برهان قاطع . غاية ما هناك أن النجومي قد آمن قلبا وقالبا بالمهدية . ومن ثم فهو يعتقد أن الله تعالى كان في عونها ، وهو المتصرف بقدرته في شؤون الخلق . وان المعوقات والمصاعب ما هي الا امتحان للمؤمنين . وبالايمان والشجاعة فان كل شيء سيكون على ما يرام في النهاية لأن الله سيمن على جيوشه بنصر من عنده .... » (٢) ومع ذلك فان ثيوبولد يرى أن من المذهل حقا ان ينفذ الخليفة جيشا قوامه ستون الف محارب الى الحبشة ويسمح بتسيير خمسة الآف فقط لغزو مصر !

٤ / على اننا لو نظرنا للمسألة برمتها لعلنا لا نعدو الحق اذا قلنا ان الخليفة قد جانبه التوفيق أو خانه التقدير في تصوره وتقييمه لقوة الحملة وقوات أعدائه التي وصلت مرحلة بعيدة المدى من حيث التكتيك الحربي والتدريب المتأني على

---

(١) Winston S. Churchill, The River War, p. 84 .

(٢) A. B. TheObald, The Mahdiya .

فنون القتال في الأربع سنوات الاخيرة . فاستهان بأمر مصر وبمن فيها من انجليز ! فألقى بالنجومي وحملته ــ عن غير عمد ــ الى التهلكة . وليس معنى ذلك أننا نبرىء ساحته من الاخطاء . فهو ان عيب انما يعاب على التقصير في تجهيز الحملة وعلى سوء التدبير ، والثقة المفرطة في صلابة انصاره ، لا على خبث أو سوء دخلة أو روح شريرة تنطوي عليه نفسه ، والله أعلم بما في سريرته واطواء نفيسه .

٦ / الحروب الاخرى :

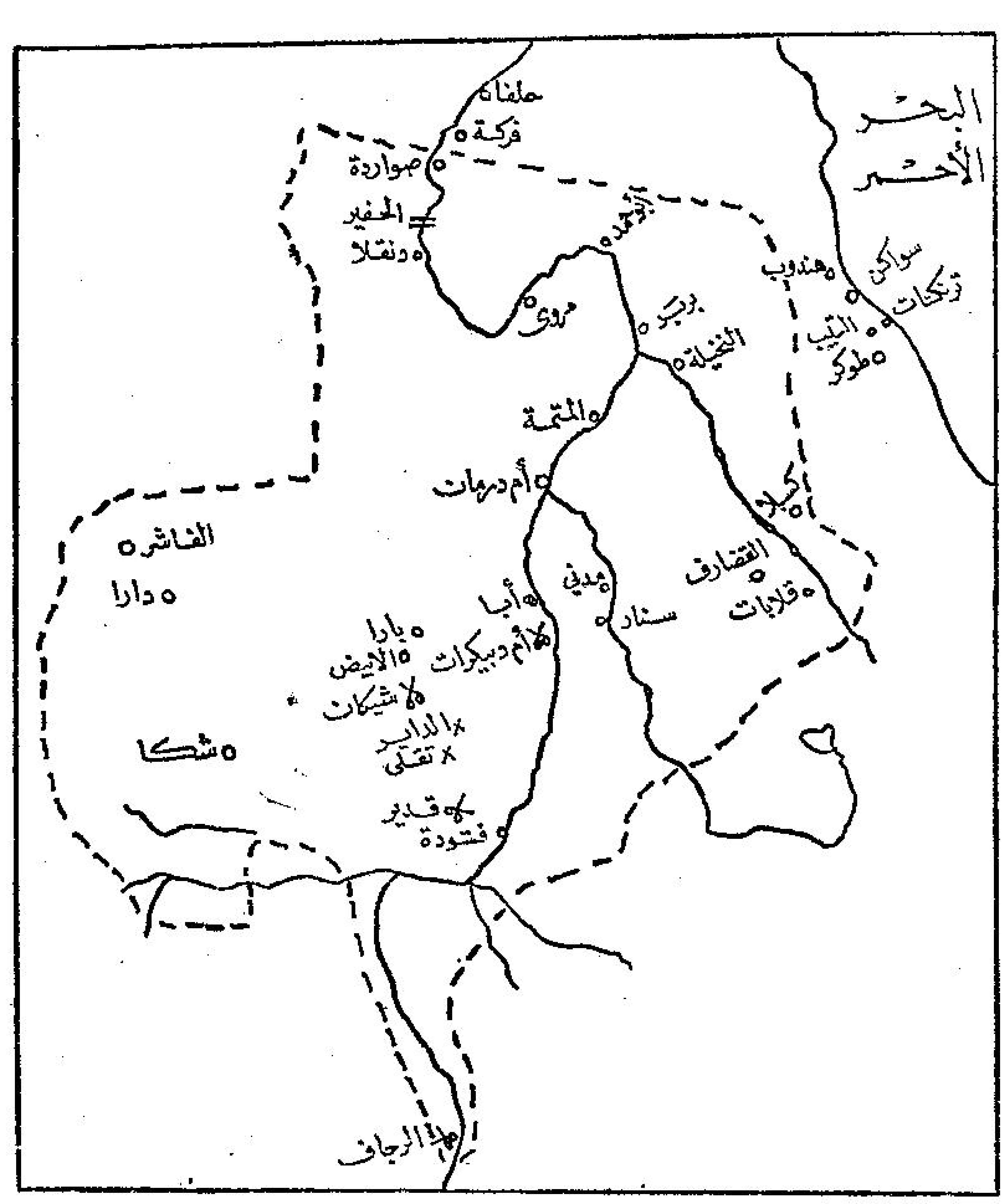
الحرب ضد الايطاليين

سبق القول (في هذا الفصل) الى ان ايطاليا الاستعمارية قد احتلت مصوع عام ١٨٨٥ ، وضمت بعدها ارتريا سنة ١٨٩٠ . ومن ثم تحلبت أشداق الايطاليين للمزيد من الاملاك ، فوجهوا انظارهم نحو كسلا ، الأمر الذي ازعج الانجليز في مصر لانهم كانوا يقرون حقوق مصر في السودان على الرغم من انمصرقد فقدتالسودان بعد نشوب الثورة المهدية . ومع ذلك فان مجريات الأحوال السياسية في أوربا قد حتمت على الانجليز أن يبرموا اتفاقا مع الايطاليين في هذا الشأن .

تم الاتفاق بين الايطاليين والبريطانيين عام ١٨٩١ ، وبموجبه تعترف ايطاليا ، بل تحترم حقوق خديوي مصر في السودان . وفي نظير ذلك تحتل ايطاليا كسلا اذا دعت الضرورة ، على ان تسلمها للحكومة المصرية اذا تسنت لها استعادة السودان في وقت لاحق .

هكذا عبد الطريق للايطاليين ، فما عتموا ان شرعوا في مد نفوذهم في اتجاه كسلا . ومن أجل ذلك زحف الانصار لصد الايطاليين حتى دخلوا اغردت في ارتريا . غير انهم هزموا في واقعة اغردت (ديسمبر ١٨٩٣ م) على أيدي الايطاليين . وكان هذا الانتصار حافزا للايطاليين تقدموا على اثره حتى أحتلوا كسلا في ١٧ يوليو ١٨٩٤ م بعد أن حصلوا على اذن من الحكومة المصريــة بفتح تلك المدينة . ورغم مناوشات الانصار للايطاليين ، الا أن كسلا ظلت في أيدي الاخيرين حتى سلموها للانجليز (٢٦ ديسمبر ١٨٩٧ م) الذين جاءوا على راس حملة استعادة السودان .

لم يكن ضياع كسلا الخسارة الوحيدة التي منيت بها حكومة المهدية في شرق السودان ذلك لان القوات الانجليزية استطاعت ان تأخذ طوكر من الامير عثماندقنة عام ١٨٩١ ، مما اضطر دقنة الى السير ليرابط على نهر عطبرة . وبذلك تنفست سواكن الصعداء من ضربات الامير دقنة المتتالية ، وبالتالي ضعف موقف الخليفة في الجبهة الشرقية .



الدولة المهدية عام ١٨٩٥

(من مرشد المدرس لتاريخ السودان)

الحرب ضد البلجيك

في الحقبة الاخيرة من حكم الخليفـــة عبد الله استهدف السودان الى اطماع الاوروبيين المستعمرين الجوعي الى امتلاك افريقيا . من هؤلاء البلجيك الذين سولت لهم انفسهم ابتلاع بعض اراضي المديريات الجنوبية . وهاك بعض ما كان يدور فـي الجنوب .

في عام ١٨٩٢ كان العامل على الرجاف من قبل الخليفة هو الأمير محمـد عثمان أبو قرجة وفي ابان عمالته سطا البلجيك في قحة متناهية على أطراف مديريتي بحر الغزال والاستوائية ، وانشأوا لهم نقطا حربية هناك . وكان مع ابي قرجة رقيب عليه من التعايشة بلغ الخليفة بأن ابا قرجة قد اغمض عينه عن اعتداءات البلجيك وتوغلهم في ارض الوطن ! فما عتم الخليفة (وهو غيور) بأن بعث بالأمير عربي دفع الله عاملا على بحر الجبل ليطهر البلاد من أرجاس المستعمرين الأنجاس المناكيد . فما هي الا ان وصل ، حتى ألقى القبض على أبي قرجة وزج به في السجن . ثم وجه نشاطه الحربي ضد البلجيك ، فانتصر عليهم في ثلاث معارك .

على أن البلجيك قد اسعفوا بامدادات كثيرة استطاعوا بها ان يتغلبوا علـى عربي دفع الله في واقعة الرجاف في ١٤ فبراير ١٨٩٧ . وعلى اثر الموقعة استولوا على الرجاف فلجأ اليهم بعض السجناء وعلى رأسهم ابو قرجة ومحمد خالد زقل . اما عربي دفع الله فقد انسحب الى بور وكتب بذلك الى الخليفة . وقبل أن يصل كتابه احتلت القوات الانجليزية المصريـــة أم درمان ، فتقهقر الى شكـا في غربي السودان .

الحرب ضد الفرنسيين :

الفرنسيون ، كغيرهم من المستعمرين الغربيين ، قد طمعوا في الاستحواذ على بعض أجزاء السودان وبصورة خـاصة المناطق الجنوبيـة . وفيما ورد آنفا فان الانصار قد تركوا بحر الغـزال سنة ١٨٨٦ ، فآل امـر الحكم فيها الى الاهالـي انفسهم . وتحقيقا لتلك الرغبة الاستعمارية التوسعية ، ابرم الفرنسيون اتفاقا مع حكومة الكنغو في يوليو ١٨٩٤ ، تتبع بموجبه بحر الغزال لاملاكهم . وسرعان ما أسسوا نقطا حربية في ديم الزبير ، بحر الغزال ، رمبيك ، اياك ومشروع الرق . واخيرا القوا عصاهم في فشودة بمديرية أعالي النيل عام ١٨٩٨ .

ولئن طمع الفرنسيون في ضم بعض البلاد السودانية ، فان الخليفة عبد الله كان شديد الغيرة على كل شبر من وطنه المفدى . فما هي الا أن تناهى الى سمعه خبر مجيء الفرنسيين الى فشودة ،حتى انفذ قوة بحرية صغيرة قادها سعيد صغير

الجعلي . وفي ٢ اغسطس ١٨٩٨ اشتبك سعيد مع الفرنسيين في معركة ضاريـة استشهد فيها بعض الانصار وجرح عدد منهـم . ولما قفلت السريـة راجعة الى العاصمة لتحصل على إمدادات وجدت مفاجأة مؤلمة وهي سقوط أم درمان في يد كتشنر في ٢ ديسمبر ١٨٩٨ .

تلي ذلك حادث فشودة المشهور عام ١٨٩٨ ، ولقد تحدثت عن ذلك الحادث في كتاب « تاريخ أوربا الحديث » . وفي الفصل الأخير من هـذا الكتاب بشيء من التفصيل . فليرجع اليهما القارىء ان شاء .

وعلى وجه الاجمال فان الحروب الخارجية والحروب على الحدود التي خاض غمارها الخليفة عبدالله قد كلفته خسائر فادحة للغاية في الارواح والاموال . وبالتالي انهكت قوى دولته ، وأدت في النهاية الى تدهور نفوذه .

خاتمـة :

لعل القارىء الكريم قد لاحظ ان في هذا الفصل محاولة لمعالجة موضوعين : اولهما تدهور نفوذ الخليفة عبدالله فيما بين ١٨٨٩ و ١٨٩٨ ، أو عوامل انهيار الدولة المهدية في السودان . وثانيهما سياسة الخليفة الخارجية . اما عن الأول فقد أوردت بعض العوامل وهي ان الخليفة قد ورث منذ البداية دولة لم يكتمل بناؤها او تتضح معالم تشريعها في المجالات المختلفة . ويعود ذلك الى وفاة صاحب الدعوة محمد احمد المهدي في وقت مبكر للغاية بالنسبة لعمر المهدية . ومـع ذلك شرع الخليفة عبدالله يعمل بعزم يفل الحديد للسير بالدولة قدما . بيـد ان الثورات القبلية والفتن الدينية ومشاكل الاشراف قد امتصت الكثير جدا من طاقاته وقدراته المادية والفكرية . وفضلا عن ذلك حلت مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ ــ ١٨٨٩ م ، وكانت كارثة ساحقة ماحقة على البلاد ، بل كانت ــ على نحو من الانحاء عاملا هز سلطة الخليفة لأن الكثيرين قد حملوه مسؤولية ما حل بالبلاد من جوع ومرض وتعاسة . ثم تأتي الحروب الخارجيـة ضد الحبشة ومصر والوقوف في وجـه المستعمرين الطامعين في بعض اراضي السودان من ايطاليين وبلجيك وفرنسيين . ومن تحصيل الحاصل أن نقرر أن الحروب في كل زمان ومكان نقمة على البشرية اذ تزهق فيها الأرواح وتستنزف الأموال ، وما الى ذلك من شرور الحرب . ولقد جهد الخليفة جهد طاقته للصمود أمام كل قوى الشر والعدوان التي كانت تحفه من كل صوب وحدب . ولكن الذي لا مرية فيه أن تلك البلايا قد أضعفت نفوذه وأي إضعاف ! وثمة عوامل لا تغفل الا وهي ضآلة اقتصاديات البلاد التي اصابها الضمور على عهد الخليفة بسبب تجنيـد كثير من الأيدي العاملة في مجـال الزراعة وايقاف تجارة السودان الخارجية مع مصر وبعض بـلاد البحر الاحمر ــ تلك التجارة التي كانت مستمرة منذ عهد سحيق بين هـذا البلد وجيرانه . ويشير البعض الى أن شؤم

الوشايات التي أصاخ لها الخليفة اذنه قد اودت بحياة كبار الانصار أو ابعدتهم من الصورة . ففقد الخليفة بفقدهم الكثير ، ومن هؤلاء بعض قادة الجيش والقضاة، الأمر الذي أضعف حكومته . كل اولئك كان من عوامل تدهور دولة الخليفة عبد الله . فما من عجب اذا انهارت تلك الدولة في نهاية المطاف .

أما عن سياسة الخليفة عبد الله الخارجية فقد كانت على الجملة مقصورة على ارسال الكتب الى البلاد التي تقدم ذكرها ثم تلت ذلك الحروب مع الحبشة ومصر لنشر الدعوة المهدية (بحد السيف) وللاسباب التي ذكرت آنفا . واذا كانت السياسة الخارجية لدولة ما هي التخطيط السليم لكسب ود الدول الاخرى بهدف التعاون المثمر في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، واذا كانت الدبلماسية الرشيدة هي التي تستهدف في المقام الأول المحافظة على حسن العلاقات مع البلاد الاجنبية للافادة منها أو لاتقاء شرها ، فان الخليفة عبد الله لم تكن لديه سياسة خارجية بهذا المفهوم ، وآية ذلك انه خسر جيرانه من الاحباش والمصريين بعدوانه عليهم وغزوهم في عقر ديارهم ، بل خسر الدول التي تهددها في كتبه . ولنا أن نتساءل : هل كان في مقدور الخليفة أن يسلك طريقا آخر ويترك اولئك الأقوام وشأنهم ، ويعيش في سلام ؟ كلا ! فطبيعة الثورة المهدية تحتم عليه ان يعلن الجهاد وينشر الدعوة المهدية في العالم الاسلامي بأسره ، بل في غيره ، والا يكون قد انتكس بالثورة أو تنكر لفلسفتها ومبادئها . وحينذاك لا يحق له أن يتربع على دست الخلافة !

الفصل الثالث عشر

استعادة السودان

مقدمة :

تخلى الساسة المصريون عن السودان مكرهين لا جرم (بضغط من بريطانيا) بعد أن استفحل أمر الثورة المهدية الظافرة ، كما مر بنا آنفا ، وآلت مقاليد الحكم في البلاد – على اثر سقوط الخرطوم في يناير ١٨٨٥ – الى أيدي ابنائها . بيد أن فكرة استرداد السودان لم تبرح مخيلة الحاكمين المصريين بتة . فهم لم يعترفوا في يوم من الأيام بحكومة المهدية ، وما السودان في نظرهم الا حق طبيعي لهم ، أو هو مديرية ضاعت في غفلة من الزمن ، ولا تستقيم حياتهم الا باسترجاعه . كيف لا والانصار على حدودهم الجنوبية كانوا يشكلون خطرا واي خطر عليهم ، مما يذكرنا بقولة شريف باشا رئيس الوزارة المصرية الأسبق : « اذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » . وفضلا عن ذلك فان النيل – شريان الحياة النابض للمصريين – بات في خطر نسبة لتكالب القوى الاستعمارية على امتلاك بعض اجزاء السودان . ومن جهة أخرى فالبريطانيون بدورهم كان لهم مخططهم الاستعماري في هذه البلاد . وكما تقدمت الاشارة في فصل سابق ، فانهم قد أمروا حكام مصر باخلاء السودان . ليس لعجز الأخيرين من الناحية المالية والحربية عن مصادمة المهدي فحسب ، بل لشيء في انفس الانجليز . وتفسير هذا الشيء في اعتقاد بعض المؤرخين هو العمل على زحزحة المصريين من السودان ليحلوا محلهم ، أو ليشاركوهم على الأقل في السيطرة عليه مستقبلا . ومصداق ذلك ما حدث بالفعل في بداية الحكم الثنائي اذ قامت ادارة انجليزية مصرية في هذا البلد . هذه العوامل وغيرها دفعت الانجليز والمصريين لاستعادة السودان ، فلنستعرض الاسباب بشيء من التفصيل .

سبق القول الى أن الانجليز قد احتلوا مصر عام ١٨٨٢ في ابان حكومة الأحرار الذين اعتزموا عدم البقاء طويلا في مصر لأن احتلالهم لها لا يستند على أساس قانوني ذلك لأنها كانت أصلا ولاية تركية .

على ان الوضع السياسي في السودان ، ومجريات الأحوال في التسعينات اذ اشتد الزحف الاستعماري على افريقيا ، وغير ذلك من العوامل قد اضطرت الانجليز الى تغيير سياستهم حيال مصر . فهم قد جهدوا في توطيد مركزهم في وادي

النيل ، ففي عام ١٨٩٠ ابرمت انجلترا مع المانيا اتفاقية ، بموجبها أقرت المانيا النفوذ البريطاني في اعالي النيل . كما نصت هذه الاتفاقية على أن « افريقيا الشرقية البريطانية تمتد الى حدود مصر والى حدود الكنغو البلجيكية » . وفي سنة ١٨٩٣ أعلنت بريطانيا حمايتها على يوغندة وضمت الى أملاكها اونيورو . ومن هنا يتضح ان انجلترا قد نفذت خططها الاستعمارية واستحوذت على بلاد خاضعة للمصريين !

ومنذ سنة ١٨٩٢ أصبح من المؤكد بقاء الانجليز في مصر لوقت طويل . ومن ثم وجه البريطانيون النظر الى السودان ، فرأوا ان من اللازم اللازب الا تقوم فيه حكومة قوية تناصب المصريين العداء فتهدد سلامتهم وتسيطر على مياه النيل فتعوق تطورهم الاقتصادي . كما تيقن الانجليز ايضا بخطورة وجود حكومة ضعيفة في السودان لان ذلك من شأنه أن يعرض هذا القطر الى الوقوع في براثن احدى الدول الاستعمارية المتحفزة للانقضاض عليه . وهذا انكى لأن هذه الدول الاوربية المتمدنة ــ بما لها من امكانيات مادية زاخرة ، وقدرات فنية عالية ــ قد تتحكم في مياه النيل بصورة تضر بمصالح مصر . ونحن نعلم أن مما يهم بريطانيا (بحكم موقفها كدولة حاكمة) ان تخرج مصر من ظلمات الافلاس الى نور النماء والازدهار الاقتصادي . وعلى ذلك فان استعادة السودان أضحت ضرورة لازمة بالنسبة لبريطانيا .

ان الذريعة التي اتكأت عليها بريطانيا ، والتي على اساسها اتخذت قرارها في ١٢ مارس ١٨٩٦ بأن يقوم الجيش المصري بعمليات عسكرية في جنوبي وادي حلفا ، هي هزيمة القوات الايطالية في واقعة عدوة (بالحبشة) على أيدي الاحباش في أول مارس ١٨٩٦ . طلب الايطاليون الى البريطانيين أن يقوموا بعمليات عسكرية في المناطق النيلية ليحولوا ضغط الانصار على كسلا الى الجبهة الشمالية حتى لا يقاسوا هزيمة أخرى تضاف الى قائمة فشلهم في مناجزة قوة افريقية . وقد اتضح فيما بعد أن القرار البريطاني لم يقتصر على مجرد عمليات حربية ، وانما شمل فتح كل مديرية دنقلا .

ولنا أن نتساءل عن الاسباب التي حدت بالانجليز ليستجيبوا هكذا للايطاليين ؟ بالرجوع الى خلفية الموضوع أو الموقف السياسي في العالم ، نجد ان انتصار الأحباش على الطليان ــ وفق ما يقرر تشرشل ــ كانت ضربة قاضية لكرامة الظليان ، وبالتالي لأوربا في افريقيا حيث التأخر عن ركب المدنية الغربية . وقد بات محتملا أن يشجع انتصار الاحباش الخليفة عبدالله فيهاجم كسلا ، او يهاجم المصريين في سواكن ، او القوات المصرية المرابطة في حدود مصر الجنوبية بوادي حلفا .

شيء آخر هو ان وزن ايطاليا في الميزان السياسي الدولي قد خف كثيرا . ومما عقد الموقف أن الاسلحة والذخائر التي استخدمتها الحبشة في هزيمة ايطاليا تسلمتها من فرنسا وروسيا . وهما بالطبع صديقتان يربط بينهما التحالف الثنائي (ديسمبر ١٨٩٣) ، وتكونان معسكرا يواجه الحلف الثلاثي بين المانيا، النمسا وايطاليا.

وبدهي أن يهتم الحلف الثلاثي بهذا الحدث التاريخي ذلك لان العضو الثالث فيه وهو ايطاليا قد اضعفت ، بل اهتز كيانها بتلك الهزيمة النكراء . وقد يستعيد الحلف الثلاثي توازن القوى اذا ابدت بريطانيا شيئا من الميل نحوه. ولعلنا نذكر أن بريطانيا ، بسبب سياسة « العزلة المجيدة » كانت تقف بمنأى عن المعسكرين المتنافسين . ولأنها لم توفق في حل المشاكل القائمة بينها وبين روسيا على الشرق الأدنى من جانب ، وفي خلافاتها مع فرنسا على مصر في الجانب الآخر ، فقد انتوت ان تكسب صداقة الحلف الثلاثي بتخفيف العبء على ايطاليا . فاذا علمنا ان وليم الثاني ــ امبراطور المانيا ــ قد أعرب عن أمله في ان تبدي انجلترا شعورا طيبا نحو معسكر الحلف الثلاثي بانقاذ ايطاليا من خطر الانصار في كسلا ، ما في ذلك من عجب

ولقد أوصى لورد كرومر بضرورة صد الانصار عن كسلا بأي ثمن ، فكتب الى سالسبري يقول : « من المهم الا يسمح للدراويش باسترداد مركزهم في كسلا . فا كان لا بد من اتخاذ التدابير في هذا الشأن ، فان الاسراع ضرورة ملحة » (١) .

على أن ثمة عاملا آخر دفع بريطانيا لتقرر الهجوم على السودان ، ولعله أه من كل ما تقدم وما تأخر من أسباب ، وهو مطامع فرنسا الاستعمارية في جنو السودان او على وجه التحديد في أعالي النيل .

اعتقد اننا نذكر أن فرنسا ظلت حانقة حاقدة على بريطانيا منذ الاحتلا الانجليزي لمصر ، فطفقت تعارض ذلك الاحتلال . وفي ذات الوقت رمت الى امتلا البلاد في افريقيا الوسطى ، وبسط نفوذها حتى حوض النيل وضم بحر الغزال وكان منطقها في تنفيذ هذا المخطط الاستعماري أن البلاد السودانية ــ بعد اخلاها حكامها المصريون ــ اصبحت ملكا مباحا يحق لمن يسبق غيره ان يستو عليها ! تحضرني بهذه المناسبة نظرية « الخلو او الملك المباح » التي استند ال محمد علي باشا عندما عزم على فتح السودان عام ١٨٢٠ . وفحواها ان الق السوداني لم يمتلكه احد فهو لا يعدو أن يكون ارضا خالية ، وعلى ذلك فهو لا ي ما يمنعه من السيطرة عليه !

لم تكن فرنسا سلبية تكتفي بمجرد معارضة بريطانيا لاحتلال مصر ، بل طر عدة أبواب بغية إقصاء البريطانيين من مصر . من ذلك محاولة الاستيلاء على بـ مناطق أعالي النيل ، ووضع يدها على منابع النيل لكي تحرج مركز بريطانيا في مـ ولكي تخلق اشكالا يتطلب معالجة على الصعيد الدولي . وفي ذلك الوقت كـ الفكرة السائدة ان « السيطرة على منابع النيل ، والتحكم في توزيع مياه ا يكفلان السيطرة على مصر ذاتها ، فاذا استطاع الفرنسيون الوصول الى حوض ا

Mekki Shibeika, British policy in The Sudan 1882 - 1902 p. 353.

من ممتلكاتهم في افريقيا الغربية الوسطى ، واستولوا على فشودة تسنى لهم ازعاج الاحتلال البريطاني وتهديده بقطع المياه عن مصر ، الى جانب كسب مزايا أخرى عديدة اهمها سبق البلجيكيين في الوصول الى النيل الأعلى الذي كان لهؤلاء أطماع معروفة في امتلاكه » (١) .

وكان في تقدير الحكومة الفرنسية أن امتداد نفوذها الى أعالي النيل سيقابل على الصعيد الشعبي او الراي العام الفرنسي بالرضا التام وينسى الفرنسيون خسارتهم في مصر . وفي هذا الصدد ذكرت في كتاب « تاريخ أوروبا الحديث » أن فرنسا بعد الاحتلال الانجليزي لمصر ، امتعضت وأي امتعاض لذلك التغول البريطاني على بلد كانت ترى انها أولى به من البريطانيين . بل اعتبرت ذلك الاحتلال وضياع مصر عارا وشنارا عليها . وأن كرامتها تحتم عليها ارجاع مصر مهما غلا الثمن .

وضع الفرنسيون الخطة لازعاج البريطانيين في مصر ، ولقد اختمرت الفكرة في اذهان الساسة ، فشرعوا في تنفيذها بانفاذ حملة مارشان في ٢٤ فبراير ١٨٩٦ الى فشودة ليرفع عليها العلم الفرنسي . وسنتحدث عن حادث فشودة في الفصل التالي ان شاء الله .

اما بريطانيا التي علمت بالمشروع الفرنسي فقد ظنت في البداية أن في وسع الخليفة عبدالله أن يقضي على الحملة الفرنسية اذا ما اعتدت على بلاده . غير انها لم تعد تثق في مقدرة الخليفة على الوقوف في وجه قوة فرنسية اذ عجز عن صد الدول الاستعمارية التي اخذت تقتطع بعض اطراف السودان مثلا ، توغل ليوبولد الثاني ملك البلجيك في بحر الغزال منذ أن أنشأ ولاية الكنغو الحرة (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥)، ولا غرابة في ذلك لان تلك الدول كانت تفوق حكومة الخليفة عدة وعتادا . ومن أجل ذلك التفتت بريطانيا الى ناحية أخرى وهي المفاوضات مع ليوبولد الثاني عساها أن تعقد معه اتفاقية تؤمن بها المصالح البريطانية والمصرية من تغول الفرنسيين . وفي ابريل ١٨٩٤ أبرم الجانبان الاتفاقية الانجليزية الكونغولية .

بمقتضى هذه الاتفاقية اعترف البلجيك بأن عالي النيل منطقة نفوذ بريطانية . فقد أجرت انجلترا لليوبولد (مدى حياته) المنطقة التي تقع على الشاطىء الأيسر للنيل الابيض من ماهاجي (على الشاطىء الغربي لبحيرة البرت) الى فشودة شمالا ، وتمتد غربا الى خط ٣٠ درجة شرقا . كما أجرت انجلترا أيضا لليوبولد وخلفائه من بعده منطقة من بحر الغزال تقع بين خطي ٣٠ ، ٢٥ درجة شرقا ، وخطي ١٠ ، ٤ درجة شمالا . وعلى هذا أصبح في مقدور البلجيك احتلال هاتيك البقاع !

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » ص ٤٤٣ .

وهكذا سد الطريق في وجه الفرنسيين للوصول الى بحر الغزال وأعالي النيل .

لم يكد مداد الاتفاقية الانجليزية ـ الكنغولية يجف ، حتى عرض الفرنسيون (لم يلموا بخبر الاتفاقية الانجليزية الكنغولية) على ليوبولد الثاني تسوية مجزية للمشاكل القائمة بين الطرفين على جبهة نهر الأوبانجي (فرع نهر الكنغو الغربي) بين ولاية الكونغو الحرة والاملاك الفرنسية شريطة ان تعطي فرنسا ممرا الى اعالي النيل! هنا أبرمت معاهدة أخرى بين الانجليز وليوبولد الثاني في ١٢ مايو ١٨٩٤ ، وفيها حددوا مناطق نفوذ الطرفين في أواسط وشرقي افريقيا .

هذه المعاهدة الجديدة بين البريطانيين وليوبولد الثاني ـ فيجوهرها ـ مماثلة للاتفاقية الانجليزية الكنغولية السابقة (١) . ولقد اوجدت المعاهدة ما سمي بحاجز لادو وهو الارض التي اجرت في اعالي النيل لولاية الكونغو الحرة كمنفذ الى النيل الأعلى بين ماهاجي على بحيرة البرت ولادو على أساس ايجار يستمر مدة حكم ليوبولد الثاني ـ رئيس ولاية الكونغو الحرة (٢) . ومما يذكر ان الانجليز عندما امضوا هذه المعاهدة الثانية ، احتفظوا لتركيا ومصر بحقوقهما في حوض النيل الاعلى.

على أن معاهدة ١٢ مايو ١٨٩٤ لم يكتب لها البقاء طويلا اذ احتج الفرنسيون عليها بعنف ونقدوها ، ونعوا على بريطانيا متاجرتها بقحة في حقوق العثمانيين والمصريين ، وطالبوا بالغاء ذلك الايجار . ونسبة لضغط فرنسا على ليوبولد الثاني فقد تخلى عن المكاسب التي حققها في تلك الاتفاقية . ومن أجل ذلك فتح الطريق امام الزحف الفرنسي نحو أعالي النيل . فما من عجب اذا سارعت بريطانيا بالشروع في استعادة السودان قبل فوات الأوان ، أو قبل أن تسبقها اليه فرنسا فيحدث ما لا تحمد عقباه .

يجب الا يعزب عن بالنا المشروع البريطاني الرامي الى السيطرة على البلاد الافريقية من رأس الرجاء الصالح الى الاسكندرية ، والسودان جزء كبير من هذه المساحة الضخمة . وفرنسا بدورها رغبت في السودان لأنها أرادت أن تمد حزاما عبر القارة الافريقية من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي . ولكي تضع هذا المشروع موضع التنفيذ كان لا بد لها من أن تستولي على أرض في جنوب السودان ، وعلى ذلك فان في هذا المخطط الفرنسي ما يعرقل مساعي انجلترا لربط الاسكندرية وراس الرجاء بمناطق نفوذ بريطانية .

ثمة جهة أخرى تهدد منها الفرنسيون السودان وهي اثيوبيا حيث وطد النفوذ الفرنسي بسبب اشفاق الاحباش وتخوفهم من خطر الايطاليين . فالأحباش

(١) ب.م هولت « الدولة المهدية في السودان » ص ٢٠٦ .
(٢) الدكتور محمد فؤاد شكر « مصر والسودان » ص ٤١٧ .

قد التجأوا الى الفرنسيين لتأمين بلادهم ضد الزحف الايطالي ، ويقال ان الاسلحة التي استعانت بها اثيوبيا على هزيمة الطليان في عدوة وصلت اليها من فرنسا وروسيا عن طريق الصومال الفرنسي . وما يهمنا هنا أن الأحباش قد طالبوا بحق امتلاك الضفة اليمنى للنيل الابيض بين خطي ١٤،٥ درجة شمالا . فساندهم الفرنسيون في ذلك بحماس بالغ ! كما خططت ثلاث بعثات اكتشاف فرنسية لتسير من الحبشة الى نهر سوباط وأعالي النيل (١) .

بالاضافة الى ذلك فان منليك ـ ملك الحبشة ـ قد سعى جاهدا الى عقد اتفاقية بينه وبين السودان لانه كان يتوقع حربا ضد الايطاليين . فأرسل رسولا حبشيا مسلما يدعى محمد الطيب الى الخليفة عبدالله (١٨٩٥) يحمل رسالة شفوية او مقترحات لاتفاق بين الدولتين الافريقيتين . غير ان الخليفة قد قابل هذا العرض ببرود ! ومع ذلك فان اليأس لم يتطرق الى قلب منليك اذ أوفد مبعوثا الى الخليفة في ١٥ ابريل ١٨٩٦ ينبئه فيه بخبر انتصاره على الايطاليين في عدوة ، ويجدد الدعوة الى ابرام اتفاقية بين الجانبين . ثم أردف هذا المسعى برسول آخر . وعلى الرغم من سقوط دنقلا في أيدي رجالات الجيش الغازي ، الا أن الخليفة لم يغير ما بنفسه تجاه الحبشة اذ اشترط الا يتعاون منليك مع أي أوربي ، كائنا من كان ، يعني بذلك الفرنسيين . فلم يقبل منليك هذا الشرط .

أخيرا جاءت بعثة من منليك الى الخليفة ، وقدمت اليه العلم الفرنسي ليرفعه على حدود بلاده معلنا بذلك الحماية الفرنسية ، فاحتفظ به الخليفة . ويقال انه كان على وشك أن يرفعه عندما كانت حملة كتشنر على الأبواب . من هنا نعلم أن الخطر الفرنسي ما زال ماثلا في ذلك الوقت . مما زاد من اشفاق الساسة البريطانيين والمصريين .

وهناك عوامل اخرى هي ان مصر قد فقدت السودان اثناء الاحتلال البريطاني ، ومع ذلك لم تعترف في يوم من الايام آنذاك باستقلال السودان . وكان لا بد لها من تأمين حدودها الجنوبية من أخطار الانصار . ولما تحسنت الأحوال الاقتصادية والعسكرية في مصر ، اصبحت بريطانيا ملزمة أدبيا على معاونة المصريين لاسترجاع ما ضاع منهم من املاك ، وللدفاع عن مصالحهم الحيوية بالوقوف أمام الطامعين المتربصين . وقد اعلن لورد كرومر أن الجيش والخزانة المصرية أضحت في وضع يمكن من انفاذ حملة لاسترداد السودان . وكان في الماضي القريب يعارض فكرة استرجاع دنقلا او السودان كله خشية ارهاق المصريين ماديا بنفقات الفتح .

وفي تلك الحقبة آلت مقاليد الحكم في بريطانيا بعد الأحرار الى المحافظين

(١) ب.م. هولت « الدولة المهدية في السودان » ص (٢٠٨) .

سنة ١٨٩٥ . ومن المعلوم أن المحافظين استعماريون . وقد أستهوتهم فكرة ضم السودان الى امبراطوريتهم الضخمة للافادة من خيراته واستنزاف موارده .

اضف الى ذلك ان البريطانيين كانوا يرون في السودان جزءا لا يتجزأ من مصر للعلاقة الطبيعية الأزلية بينهما . فالنيل ، مصدر الخيرات للمصريين ، ينساب في أرض السودان الطيبة ، ولا يهدأ لمصر بال الا اذا ضمنت سلامة ماء النيل من أي خطر أجنبي . ومما زاد من اشفاقها أن فرنسا في الغرب ، وايطاليا في الشرق كانتا تقتربان من السيطرة على السودان ، وان حكومة المهدية ظلت تناصبها العداء .

ولقد أصبح في مكنة القيادة المصرية معرفة أحوال الحكومة المهدية عن طريق الجواسيس الذين كانوا يجيئون الى السودان متنكرين في شكل تجار . ولما هرب أوهروالدر من ام درمان عام ١٨٩١ ، أمد المخابرات المصرية بمعلومات قيمة للغاية بالنسبة لها عن الأوضاع في هذا البلد . ثم نشر كتابه « عشر سنوات في أسر المهديين » فكان له صدى هائل وأثر عميق في نفوس البريطانيين . وبعد ذلك هرب أيضا سلاطين (شويطين كما سماه الخليفة عبدالله) سنة ١٨٩٥ . وكان يعرف الكثير عن الدولة المهدية بحكم خبراته السابقة كمدير لدارفور في التركية ، ولأن الخليفة وثق فيه وأدناه من مجلسه وعامله برقة لا يستأهلها ، لانه كتب فيما بعد عن الخليفة كتابة تنضح خسة ولؤما وسوء طوية . وقد أضيف سلاطين الى مصلحة المخابرات المصرية ، فأطلعها على أهم أسرار حكومة الخليفة . وفي كتابه « النار والسيف في السودان » ، وكتاب أوهروالدر قبله ، تشجيع ، بل تحريض شديد للحكومة المصرية لتسترد السودان .

أفادت السلطات الانجليزية المصرية أيضا من تقارير قادة حملة الانقاذ عن الصعوبات والمشاكل التي تجابه من يريد ان يغزو هذا البلد ، وما يجب ان يحضر ويتبع اذا ما أرادت الحكومة المصرية استعادة السودان . وهكذا جمعت في يدها معلومات كافية استطاعت على ضوئها أن تعد العدة وتتجنب أخطاء الماضي . وفوق ذلك فان الجيش المصري قد تم تدريبه ، واكتسب خبرة كافية في مجال التكتيك الحربي والاستراتيجية . ونحن بالطبع نذكر انه خرج مظفرا من معركة توشكي عام ١٨٨٩ ، مما رفع الروح المعنوية بين صفوفه بحيث أصبح في مقدوره أن يخوض حربا طاحنة .

يشير بعض المؤرخين المصريين الى أن بعض الشخصيات السودانية قد تقدمت بعرائض الى الحكومة المصرية تلتمس فيها انقاذ البلاد من جبروت الخليفة عبدالله . ففي كتاب « مصر والسودان » لمؤلفه الدكتور محمد فؤاد شكري ورد أن الياس باشا أم برير الجعلي المشهور قدم عريضة للمسؤولين في مصر تتضمن توقيعات لعدة مشايخ وأعيان من كردفان يلحون فيها على الحكومة لتستعيد السودان . فترجمت

هذه العريضة ، وأرسلها بيرنج الى سالسبري رئيس الوزارة البريطانية . ورسالة اخرى من الشيخ صالح فضل‌الله ود سالم شيخ الكبابيش الى مدير دنقلا السابق بيّن فيها أن كل القبائل تترقب رجوع السيادة المصرية على السودان . وقد ترجمت هذه الرسالة بدورها الى حكومة لندن . ويقرر الدكتـور شكري ايضا ان الجعليين قد تآمروا على حكومة الخليفة ، فبعث زعيمهم عبدالله ود سعيد برسول ليتفاوض مع كتشنر لاقامة حكومة جعلية تستعين بالبريطانيين ، ولا يكون للمصريين او الاتراك نصيب فيها .

على أن مسألة العرائض هـذه مشكوك في أمرها اذ كـان بعضها مزورا دبجه العسكريون ورفعوه الى اللورد كرومر ـ المعتمد البريطاني ـ على أساس انها صادرة من زعماء ومشايخ قبائل سودانية ، وتلك القبائل بريئة مما يفترون . وليس ببعيد أن تكون المسألة افكا ما بعده أفك ! ومهما يكن من شيء فان تلك العرائض ـ أيا كان مصدرها ـ قد شجعت الساسة والعسكريين على المضي في تنفيذ استرداد السودان .

كانت الحكومة البريطانية واثقة كل الثقة أن الشعب أو الرأي العام البريطاني سيؤيد حملة استعادة السودان للأخذ بثأر الجنرال غردون الذي اعتبره البريطانيون بطلا مسيحيا ، ونعتوه « بالشهيد » وكانت الملكة تعتبر مأساة غردون وصمة في جبين الشرف الانجليزي ولا محيص من ازالتها . وبالفعل تحمس أولئك القوم لنبذ سياسة حكومتهم السابقة التي كانت تقـول بخطة الدفـاع ، وطالبوا بعمـل انتقامي ضد « الدراويش » لا ليثأروا لغردون وحده ، بل لهكس ، ولتحقيـق عمل انساني في نظرهم هو تخليص السودانيين من استبداد الخليفة عبدالله بالاطاحة بدولة المهدية التي صورها بعض الكتاب بصور لا تخلو من بشاعة لاراقـة الدماء وممارسة تجارة الرقيق والطغيان والجبروت . يقول ثيوبولد في هذا : « قـد بدا للاستعماريين في التسعينيات أن انقـاذ السودانيين مما يعانون مـن ضغط سيمن عليهم بنعمة لن ينسوها » .

واخيرا فان العسكريين البريطانيين كانوا موتورين مـن ناحية الانصار وانهم يحقدون عليهم أشد الحقد لأن السودانيين قد مرغوا كرامة الامبراطورية البريطانية في الوحل عندما طردوا حملة انقاذ غردون التي رجعت تجر أذيال الانكسار ، وحينما توالت انتصارات عثمان دقنة على قادتهم في الشرق ، فسقط عـدد مـن الضباط والمقاتلة البريطانية صرعى . وقـد ضاعت منهم أموال طائلـة سدى . وفيما قال تشرشل فان جيش وود البريطاني بات أضحوكة أوربا وموضع تندرها وسخريتها ! فليس بمستغرب اذا تحمس العسكريون وغيرهم للزحف نحو هذا البلد لرد اعتبارهم وكرامتهم التي اهدرها السودانيون امام العالم أجمع .

تلك جملـة الأسباب الـتي حدت بالسلطات البريطانية والمصرية لتستعيد السودان .

الفتح الانجليزي المصري للسودان (١٨٩٦ ـ ١٨٩٨)

حملة دنقلا :

تقدم الحديث عن الاسباب التي حدت بالحكومتين البريطانية والمصرية لتستعيدا السودان . وما استعادة السودان في راي البريطانيين الا « تحرير السودانيين مـن طغيان الدراويش » (١) ! وقد صدر قرار الوزارة البريطانية لاحتلال دنقلا في ١٢ مارس ١٨٩٦ . وكان مفاجأة للأطراف المعنيـة ، بمعنى أن لورد كرومر ـ المعتمد البريطاني في مصر ـ لم يستشر في هذا الأمر . وكذلـك الخديوي والعسكريون لم يؤخذ رأيهم في الموضـوع . ومرد ذلك ـ في الظاهر ـ الى ضرورة الاسراع بتخفيف الضغط علـى البريطانيين في كسلا . وفي واقـع الأمر خشي البريطانيون الزحف الاستعماري الفرنسي نحو جنوب السودان . وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية هي التي أمرت بانفاذ حملة دنقلا ، الا انها لم تتدخل في تنفيـذ عمليات الغزو بل تركت الأمر برمته الى كرومر .

صدرت أوامر الخديوي بانفـاذ الحملة ، فوقع اختيـار كرومر على السير هيربرت كتشنر لقيادتها بحسبانه سردار الجيش المصري (خلف جرنفيل) ، وهو من سلاح المهندسين . اشترك في حملة النيل (١٨٨٤ ـ ٨٥) وعمل ضابط مخابرات في دنقلا قبل حملة ولسلي ، ومحافظا لسواكن في المدة ما بـين ١٨٦٦ ـ ١٨٨٨ اذ كانت محاصرة بقوات عثمان دنقنة . حارب في معركة توشكى ضـد عبد الرحمن النجومي . وقد انفرد من بين الضباط الانجليز بميزة واحـدة هي انه تعلم اللغـة العربية في فلسطين ، الأمر الذي جعله يكتسب دراية بعـادات السودانيين ونفسية الجندي المصري .

أمرت الحكومة البريطانية بتسيير حملة دنقلا ومـع ذلك فانها قررت أن يقوم الجيش المصري بمهمة الفتح ، وان تتحمل الحكومة المصرية نفقـات الحملة . وكان من العسـير جدا ، ان لم يكن من المستحيل ، ان تقوى الخزينة المصرية آنذاك على

(١) كره المهدي اطلاق لفظ « الدراويش » علـى أصحابه لأن « الدروشة » عنده ذهاب العقل وعدم الادراك . المرجع : منشورات المهدية : تحقيق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم ص ٢٩٦ .

دفع نفقات الحملة الباهظة . ونحن نعلم أن أمور مصر المالية لا زالت تسيطر عليها (لحد) الرقابة الدولية من أصحاب الديون الأوربيين . فما كان من وزارة المالية المصرية الا ان ارتجت اعضاء صندوق الدين ان يمنحوها نصف مليون من الجنيهات لتحقيق ذلك الهدف . وقد وافق الاعضاء ما خلا ممثلي فرنسا وروسيا . فتسلمت الحكومة المصرية المبلغ لتمويل تلك الحرب . وقد زيد ذلك المبلغ حتى بلغ ثمانمائة ألف جنيه قامت الحكومة البريطانية بدفعه الى الحكومة المصرية كسلفة في بادىء الأمر ثم اعتبرته منحة فيما بعد (١) .

تألف « الجيش المصري الجديد » من الفلاحين الذين جندوا بعد تسريح جيش عرابي (١٨٨٢) ، وقام العسكريون البريطانيون بتدريبهم .

واذا كانت العقلية المحركة للجيش المصري ، والروح الذي سرى في كيان الجنود جاء من خارج الديار المصرية ، فان مصر قد قدمت القوة التي استخدمت في الحرب . ولقد نما هذا الجيش مع الزمن وتطور حتى أصبح قوة ضاربة يعتد بها .

ومما زاد من حيوية الجيش المصري العنصر السوداني اذ كان بين الأربع عشرة كتيبة التي قادها كتشنر ست أورط سودانية ، وهي في الاغلب من ابناء الجنوب . وهؤلاء السودانيون قد امتازوا بفضيلتين عظيمتين من فضائل الجندية هما الولاء والشجاعة . يقول تشرشل عن هذا الجندي السوداني : « الى جانب الوفاء فالقلب منه قلب غضنفر ، ولقد أحب ضباطه ولم يخش شيئا في الوجود وبادخال عنصره بات الجيش المصري أداة حربية هائلة » . وجدير بالذكر ان اولئك السودانيين البواسل كانوا دوما في المقدمة . فليس بمستغرب اذا كان كثير من خسائر حملة الفتح منهم .

الى جانب الكتائب المصرية والسودانية تقرر أن تلحق بالحملة بطارية أو كتيبة بريطانية « لترفع العلم الانجليزي الى جانب العلم المصري في السودان » (٢) .

وفي شرقي السودان أمر البريطانيون باحضار الفين وخمسمائة جندي من الهنود الى سواكن ليعززوا الحامية المصرية هناك حتى تستطيع مساعدة حملة دنقلا . وقد وصل اولئك الجنود في يونيو ١٨٩٦ ، وبقوا بسواكن حتى سقطت دنقلا في يد كتشنر .

لما كانت صعوبات الحملة تنحصر في وسائل المواصلات وكيفية سير الجيش سيرا حثيثا الى الامام ، ووسائل الامدادات السريعة ، فقد قرر كتشنر ان يمد خط سكة حديد اثناء زحفه لتتدفق المقاتلة والذخائر والمؤن الى أرض المعركة . وتتبع الحملة السفن الحربية ومن خلفها سفن المؤن والمعدات الاخرى . وكذلك

(١) W. S. Churchill, The River War. p. 103 .

(٢) Sir Ronald Wingate, wingate of The Sudan, P. 105 .

اعتزم السردار أن يمد خط تلغراف الى الأماكن التي يصلها الجيش لاحكام الصلة بينه وبين مصر . ولا ننسى ان بالحملة ما ينوف على الخمسة ألف راسا من الابل والخيل والبغال والحمير للنقل .

وبعد أن اتخذت التدابير اللازمة تحرك كتشنر في ٢١ مارس ١٨٩٦ يصحبه السير ريجينولد وينجت مدير قلم المخابرات ونائبه سلاطين ، وآخرون من رئاسة الجيش بمصر الى وادي حلفا حيث وجدوا بقايا الخط الحديدي الذي مده الخديوي اسماعيل بين حلفا وصرص . ولكي يواصل مد هذا الخط من صرص نحو الجنوب ، احتل كتشنر عكاشة في جنوبي وادي حلفا ، ونقل اليها مركز قواته .

ومن ناحية اخرى فقد كان جيش المهدية في الشمال تحت قيادة محمد ودبشارة عامل الخليفة على دنقلا منذ ١٨٩٥ . وكانت أقصى نقطة للسودانيين في صواردة ، وعليها حمودة ادريس البقاري أميرا . ولما تناهى الى مسامع الانصار مجيء حملة الفتح الى عكاشة ، احتل حمودة كوشة في ٢ ابريل ، ثم فركة في ٢٨ ابريل ١٨٩٦ . وقد تجمع من الانصار في فركة حوالي (٣٥٠٠) جندي حسب رواية رونالد وينجت .

واقعة فركة (٧ يونيو ١٨٩٦) :

اختلفت الروايات في تسمية فركة ، فالمراجع الانجليزية تطلق عليها فركت ، وينطقها البعض بكسر الفاء ! وآخرون ينطقونها بفتح الفاء . وأغلب ظني أن التسمية او النطق الاخير هو الأصح استنادا الى ما حدثني به أحد زملائي من أبناء المحس بأن فركة (بفتح الفاء) برطانة المحس معناها الخور أو الفسور أو المنخفض . ولما كانت قرية فركة تقع بعد جبال أو مرتفع فان الاسم على المنخفض أقرب الى الواقع . وقد اهتممت باسم فركة لما نالته واقعة فركة من شهرة في التاريخ ، تلك الموقعة التي كسبها الجيش الفاتح والتي كان لها ما بعدها اذ رفعت الروح المعنوية بين صفوف جند كتشنر . ومن هنا يأتي اهتمام المؤرخين الغربيين بها .

وفيما يبدو ان الامير حمودة ادريس في فركة لم يرتفع الى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه كقائد في الجبهة الشمالية ، بل كان مهملا متراخيا . وبسبب تراخيه ـ وفق ما يقول تشرشل ـ استطاع الجيش المصري أن يدعم معسكره في عكاشة دون ان يتعرض لحرب . ونسبة لتقاعسه فقد اعطيت القيادة الى عثمان أزرق .

ولأن الخط الحديدي قد مد نحو الجنوب حتى آبار امبقول ، وأن دوريات الانصار كانت تشكل خطورة على حملات النقل وتناوش العاملين في الخط الحديدي وتعرقل مواصلة العمل فيه ، فقد تيقن كتشنر بضرورة احتلال فركة .

كانت استراتيجية السردار ان هي أن يشن هجومه على فركة بطريقي النيل والصحراء اللذين يؤديان الى القرية او الى معسكر الانصار فيهـا . فقسم جيشه مجموعتين قاد أكبرهما ، وتتألف من المشاة والطوبجية واصحاب مدافع المكسيم وعددهم حوالي سبعة الف جندي ساروا بطريق النيل ليهاجموا القرية من ناحية الشمال . وقاد برن مردخ الفي عسكري بطريق الصحراء وهم أصحاب الاسلحة الراكبة ليطوقوا فركة من الشرق والجنوب . أما من جهة الغرب فالنيل يقف عقبة كأداء في وجه اي تقهقر . وعلى ذلك فان القوة التي أعدها السردار لاحتلال فركة قدرت بنحو تسعة ألف مقاتلا وهي أكثر من ضعف عدد الانصار .

زحف المشاة من عكاشة في الثالثة والنصف مساء يوم ٦ يونيو بطريق النيل . وبعد ساعتين تحرك طابور الصحراء ليحتل التلال المطلة على فركة وبعيد فجر يوم ٧ يونيو ، وبينما كان السودانيون مشغولين باداء فريضة الصبح ، أطبق الغزاة على القرية واخـذوا الانصار على حين غرة . ولكـن الاخيرين لـم يشلهم هول المفاجأة ! اذ سرعان ما امتطى فرسانهم صهوات جيادهم ، واخذوا يكـرون بها نحو أعدائهم في جسارة وجراة نادرتين . وباعتراف تشرشل فان « العرب قد ابدوا مقاومة عنيدة » .

والحق أن السودانيين ـ كدابهم ـ قـد ابلـوا بلاء حسنـا . غير أن كثرة الاعداء ومضاء سلاحهم قد رجح بكفتهم . فاستشهد من السودانيين من استشهد وجرح من جرح . وقد ورد في كتاب حرب النهر لتشرشل ان قتلى الانصار وبينهم حمودة ادريس يوفون على الثمانمائة ، والجرحى خمسمائة ، وبلغ عـدد الاسرى ستمائة من السود والجعليين والبقارة والدناقلة . وكما ذكر نعوم شقير ـ وهو قد شهد الواقعة ـ فان السود قد أضيفوا الى الجيش الغازي . اما البقارة فقد أرسلوا بعائلاتهم الى سجن حلفا . وفي اليوم التالي احتل الغزاة صواردة .

ان اهمية فركة بالنسبة للجيش الفاتـح تكمن في انهـا كانت معركة كبيرة حامية . وفي راي تشرشل فان خطتها قد حبكت بدقة وظهر فيهـا أثر التدريب العسكري وكفاية الضباط البريطانيين . وكان من الطبيعي ان يسعد بها الانجليز في بلادهم ، وان يترقبوا بقية الفتح باهتمام وشغف شديدين .

نفض كتشنر يديه من دماء الأبرياء في فركة ، فالتفت الى ناحية أخرى عساه أن يحقق نصرا آخر بتحريض المواطنين على الخليفة عبدالله بزعزعة الثقة فيه وفي حكمه . وما من ريب ان كتشنر كـان موقنا بجدوى الحرب النفسية واثر الدعاية في النفوس فكتب منشورا الى السودانيين يندد فيه بالثورة المهدية ويدمغها بالزيف، ويتهم الخليفة عبدالله بالجور والطغيان .

بعد ملحمة فركة انتقل قائد حملة السودان بجيشه الى كوشة فيجنوبي فركة

حيث أقام معسكره هناك ، وواصل مد الخط الحديدي اليها . وهنا حاقت بالجيش الكوارث وتعاورته المحن اذ انتشر وباء الكوليرا في مصر وانتقلت جرثومة الداء الوبيل الى المناطق الواقعة بين اسوان وصواردة ففتكت بما ينوف على التسعمائة . وفي رواية أخرى الفين من العساكر والتابعين . وما كاد الجيش يشفى مـن دائه حتى تفشت فيه الحمى التيفودية . ليس هـذا وحده ، بـل قاسى الجيش من الحر والاعاصير المحملة بذرات الرمل والحصى ، كما هطلت الامطار غزيرة حتى جرفت الخط الحديدي في عديد الاماكن . واخيرا انكشفت الغمة وفاض النيل ، وللفيضان اهمية قصوى بالنسبة للحملة لتستطيع الوابورات عبور الشلالات . ومن ثم استأنف الجيش مسيرته (٢ سبتمبر) نحو دنقلا .

في ذلك الوقت كان الأمير محمد بشارة يعد العدة لملاقاة العدا . فحصن الحفير على الشاطىء الغربي للنيل (شمالي دنقلا العرضي) وفيها جمع كل جنده . وما برح ينتظر قدوم اعدائه الذين مروا به صبيحة ١٩ سبتمبر ١٨٩٦ . ودارت رحى معركة تبادل فيها الفريقان الرمي بالقنابل .وبعـد تجربة شاقة علـى الحملة ومخاطرة، استطاع الاعداء ان يشقوا طريقهم ويجتازوا منطقة الخطر ويعبروا النيل الى الحفير تحت وابل مـن الرصاص انهمر عليهم مـن الانصار . هنا اسرع ودبشارة ورجع برجالاته الى دنقلا خشية إن يداهما كتشنر فيجدها خالية ويحتلها دون مقاومة .

احتلال دنقلا (٢٣ سبتمبر ١٨٩٦)

واصل الجيش المصري سيره صوب دنقلا . وكانت خطـة السردار تطويق المدينة بالاسطول من الناحية الشرقية والجيش من الغرب . وكان محمد ود بشارة العامل على دنقلا مصمما على الصمود في وجه الاعداء مهما كان الثمن غاليا . والرأي عنده أن الموت خير من ان يرجع القهقرى . غير أن أمراء جيشه قد عارضوا فكرة الصمود لكثرة القوات الانجليزية المصرية . فاضطر اضطرارا ازاء هـذا الموقف الى الانسحاب بقواته . فما عتم الاعداء ان احتلوا المدينـة في ٢٣ سبتمبر دون مقاومة تذكر . وفي اليوم التالي احتلوا الدبة . واخيرا رفعوا العلم المصري على صنم قبالة مروي في ٢٦ سبتمبر . وبذا سقطت كل المديرية في ايدي الفاتحين .

وعلى حد تعبير هولت « كانت حملة دنقلا رخيصة سريعة ناجحة » . ان احتلال دنقلا قد انهى مهمة حملة سنة ١٨٩٦ . ومن تحصيل الحاصل أن نقرر ان نجـاح تلك العمليات الحربية حتى دنقلا كان مصدر بهجة عظيمة للشعب الانجليزي ، وآية ذلك أن الخطوة الأولى لاسترداد السودان قد اتخذت وآتت ثمارها .

على هذا النحو انتهت المرحلة الاولى للفتح، وأعد المسرح للمرحلة الثانية . بعد الفراغ من تلك المهمة اي احتلال دنقلا سافر كتشنر الى انجلترا ليحصل منها علـى اذن حكومتـه لمواصلـة الفتح « استشعارا للمسؤولية الأدبية تجـاه

السودانيين وتحريرهم من حكومة الخليفة عبدالله الغاشم » !! وفوق ذلك فقد تأكد البريطانيون من نشاط الفرنسيين في افريقيا الاستوائية وزحفهم نحو حوض النيل. فبات من اللازم اللازب سبقهم في ذلك المضمار . كما ان الجيش الذي ابقاه كتشنر في دنقلا كان عرضة لاغارات الانصار ذلك لان قواتهم ما زالت مركزة في العاصمة وغيرها .

من أجل ذلك فقد وافقت الحكومة الانجليزية على اكمال فتح السودان ، بل قدمت منحة قدرها ثمانمائة الف جنيه لتسدد منها مصر ما اقترضته من صندوق الدين وهو نصف مليون جنيه ، وتستعين بالباقي على نفقات الحملة الثانية . ولعلها ارادت بذلك أن تمهد السبيل للاشتراك مع مصر في حكم السودان ، بحجة أنها اسهمت بالمال والرجال والخبرة العسكرية في مشروع الفتح . ومما يقوي هذا الرأي أن كتشنر قد عاد وهو يحمل تفويضا بمواصلة الغزو ، ووعدا بمده بكتائب بريطانية لمساعدة الجيش المصري اذا دعت الحاجة الى ذلك .

المرحلة الثانية :

اعتزم كتشنر ان ينشيء خط سكة حديد آخر عبر الصحراء النوبية من حلفا الى أبي حمد ، على الرغم من أن خط دنقلا الحديدي قد وصل كرمة في ٤ مايو ١٨٩٧ . واغلب الظن أن السردار استهدف من هذا الخط تفادي الشلالات ولسرعة الوصول الى الهدف المنشود . وفي هذا يقول هولت بأن هذه معالجة ثورية لمشكلة غزو السودان . وكان من الممكن تحقيقها بسبب تفوق القوات الغازية فنيا .

وقبل أن نسترسل في الحديث عن استمرار كتشنر في زحفه نحو الجنوب لاكمال عمليات الغزو يتعين علينا أن نلتفت الى الجانب الآخر من الموضوع وهو موقف الخليفة عبدالله .

لما نما الى علم الخليفة نبأ سقوط دنقلا ، حسب أن كتشنر سيزحف عليه من ناحيتين : بالصحراء الى التمة ، وبطريق النيل الى أبي حمد وبربر كما فعل لورد ولسلي في حملة الانقاذ عام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ . هكذا قرر نعوم شقير . ومن أجل ذلك عزم على جمع قواته في العاصمة . فاستدعى محمود أحمد من دارفور ليترك حامية في دارفور واخرى في كردفان ، ويأتي بمعظم جيشه الى العاصمة . وبعد مسيرة استغرقت عدة شهور وصل محمود بجيشه الى أم درمان فوجهه الخليفة الى التمة ليقف في وجه كتائب الصحراء . ثم أمر عثمان دقنة بالمجيء من الشرق ليبقى بالسبلوقة . وأخيرا أشار عليه بالانضمام الى جيش محمود .

نكبة المتمة (أول يوليو ١٨٩٧) :

يروي أخبار نكبة المتمة عديد المؤرخين . وقد استقوها من عدة مصادر .

وفحواها باختصار أن الخليفة ومستشاريه قد عقدوا العزم على تحصين تلك المدينة لتصد جيش الاعداء اذا ما داهما من ناحية الصحراء . فأوكل أمر الدفاع عنها الى زعيمها عبدالله ود سعد فرح . بيد أنه لم يهتم بهذا الشأن . ولما كان الخليفة يشك في ولاء الجعليين فقد أصدر أمرا بأن يخلي أهل المتمة بلدهم ، ويرحلوا الى أية بقعة يختارونها على شاطيء النيل الشرقي . ولكنهم رفضوا ،وصمم عبدالله ود سعد وقبيلته على مناهضة الخليفة ، واستنجدوا بكتشنر في مروي ليمدهم بالسلاح والعتاد .

على أن الوقت كان أضيق من أن يمكن السردار من نجدة الجعليين . فداهمهم محمود ود أحمد بجيش جرار قوامه عشرة ألف مقاتلا ، في حين أن عدد الجعليين لم يزد على الثلاثمائة رجل ، وسلاحهم حوالي الثمانين بندقية ! وبدهي ان ينتصر محمود ، فأوقع بالجعليين مجزرة بشرية بشعة مات فيها نحو الفي نسمة . وكانت وبالا على دولة الخليفة عبدالله . وفي هذا يقول هولت : « ان انتصار محمود أحمد على المتمة يعد مأساة للدعوة المهدية اذ ختمت بالدم الكراهية بين أولاد البلد وملك التعايشي » .

وهكذا نكبت المتمة للمرة الثانية بعد مجزرة الدفتردار .

بعد حوادث المتمة الفاجعة يجدر بنا ان نوجه النظر نحو الجبهة الشمالية .

احتلال أبي حمد (٧ أغسطس ١٨٩٧) :

علمنا أن كتشنر قد قرر أن يمد خط سكة حديد حلفا ـ أبي حمد عبر الصحراء . وفي منتصف يوليو ١٨٩٧ وصل بناء الخط منتصف المسافة بين حلفا وأبي حمد . ومن ثم بات لزاما للحملة أن تستولي على أبي حمد لتستطيع مواصلة العمل في مد الخط الحديدي .

ان قوة الانصار المرابطة في أبي حمد قد قدرت بنحو خمسمائة وخمسين مقاتلا من قبائل الرباطاب ، المناصير ، الفادنية ، البقارة ، الكبابيش وبعض الجهادية السود ، وعلى رأسهم محمد الزين حسن الذي صمم على أن يذود عن حماه أو يهلك دونه .

وما هي الا أن قرر السردار الاستيلاء على أبي حمد حتى بعث اليها بقوة قادها هنتر باشا ، وانضم اليه من المرات عبد العظيم بك حسين خليفة على رأس قوة من العبابدة . ولقد استعد محمد الزين ـ في حدود امكانياته ـ استعدادا رائعا اذ حفر خندقا في شرقي البلد وفتح المزاغل في المنازل الشمالية والشرقية .

وقعت الواقعة في فجر يوم ٧ أغسطس ورغم أن الاعداء قد فاقوا الانصار كثيرا من حيث العدد والسلاح ، فقد أبلى السودانيون بلاء حسنا ، واظهروا مقاومة

جبارة مشرفة . ومن اسف فقد تغلب مضاء السلاح الناري اخيرا ، وسقطت الحامية في أيدي الغزاة المعتدين .

احتلال بربر (٦ سبتمبر ١٨٩٧) :

بعد كارثة ابي حمد طلب الزاكي عثمان البقاري ــ عامل الخليفة على بربر وامير الحامية ــ طلب مددا من الرجال والسلاح من محمود احمد بالمتمة . غير انه لم يحصل على شيء ، فما كان منه الا ان انسحب الى المتمة حيث انضم الى جيش محمود .

راي آخر هو ان ذلك الانسحاب حدث نتيجة لظن الانصار ان الجيش الانجليزي المصري ربما يعبر صحراء جكدول وينزل على المتمة ، وبذا يعزل بربر . على هذا تم الانسحاب .

ويقال ان الزاكي عثمان قد واجه تمردا من بعض العسكر ، كما هجر آخرون الحامية .

ازاء هذه التطورات لم يملك الزاكي الا ان ينسحب . ولهذا احتلها هنتر باشا بوابوراته ، ورفع عليها العلم المصري .

باحتلال بربر فتح طريق بربر سواكن السابق ، واستسلمت بعض القبائل ، وبالتالي تقلص نفوذ الانصار في منطقة البحر الأحمر .

استلام كسلا (٢٥ ديسمبر ١٨٩٧) :

أشرت سابقا الى ان ايطاليا قد طمعت في ضم كسلا الى املاكها فاعترضها لورد كرومر . على ان البريطانيين ــ بسبب الظروف السياسية العالمية ــ قد ابرموا اتفاقا مع الايطاليين (١٨٩١) بموجبه تحتل ايطاليا كسلا على أن ترجعها الى الخديوي اذا ما قدر له أن يسترد السودان . ثم اتفق كتشنر مع الايطاليين في كسلا على تسليمها له في الوقت المناسب .

وفي يوم عيد الكرسمص (٢٥ ديسمبر ١٨٩٧) سلم الايطاليون مدينة كسلا ــ اكبر مدن شرقي السودان ــ الى الكلونيل بارسونز البريطاني نيابة عن الحكومة المصرية ، فأسس فيها حامية عسكرية مصرية .

معركة عطبرة (٨ ابريل ١٨٩٨) :

واقعة عطبرة (اتبرة) أو النخيلة كانت من المعارك الحاسمة التي خسرها السودانيون لا لضعف القيادة العسكرية أو قلة في العدد ، ولم يكسبها الغزاة البغاة بشجاعة أو تكتيكات حربية ممتازة . وانما المسألة برمتها كانت مسألة اسلحة

حديثة كاسحة تواجهها أسلحة صدئة عتيقة اكل عليها الدهر وشرب ، او سلاح ابيض تقليدي . ولولا ذلك لما شمخ الاعداء بأنوفهم وباهوا في صلف بانتصاراتهم ، ولتغير مجرى الحرب .

نعود الان الى محمود أحمد الذي أقام بجيشه قرب المتمة بعد أن خربها وقضى على تمردها . ولما جاءت الأخبار تنبيء بسقوط بربر ، عبر محمود ورجاله النيل الى شندي في فبراير ١٨٩٨ . وقد انضم اليهم جيش عثمان دقنة بأمر الخليفة علما بأن دقنة كان يرفض دعوة محمود للجهاد معا . وكان من العسير ان يتعاون البجة والبقارة في ميدان واحد . كما أن عثمان دقنة المحنك في الحروب وذا التجارب والجراة التي حيرت افهام الضباط الانجليز في السابق ، لم ينسجم مع محمود ــ ذلك الشاب (في الثلاثين من عمره) الذي ينتمي الى عائلة الخليفة . ولقد اسند الخليفة القيادة الى محمود وكان الواجب ان يتخلى الخليفة عن نعرته القبلية او تحيزه للتعايشة في تلك الظروف العصيبة ويسند امر القيادة الى دقنة الذي عركته الحروب .

ومهما يكن من شيء فقد سار الجيش الذي ينوف على العشرين الفا محاذيا النيل رغم تعرضه لمناوشات سفن الاعداء الحربية اذ ليس من سبيل آخر للسقيا . وفي العالياب طفا عدم الانسجام بين القائدين الى السطح، فاختلفا في خطة الهجوم على جيش كتشنر . ففي راي محمود ان يزحفوا مباشرة الى طابية الداخلة (جزء من مدينة عطبرة الحالية) التي بناها السردار ، والتي اصبحت فيما بعد حصنا لجيشه احتمى به ، واستعد للزحف الأخير . اما خطة دقنة فتتلخص في السير بطريق الصحراء الى نقطة شرقي مصب نهر عطبرة فيكونون بنجوة من لهيب السفن ويصيرون في وضع مريح يمكنهم من ضرب طابية الداخلية او بربر . فأقر الخليفة راي دقنة .

واصل جيش محمود مسيرته حتى حط الرحال في النخيلة التي تبعد بنحو اثنين وثلاثين ميلا من الداخلة في ٢٠ مارس ١٨٩٨ . وكان الجنود الانصار يقاسون من الجوع والاعياء لصعوبة الامدادات . ويبدو ان العامل الذي أدى الى هزيمة انتجومي (الجوع) سيؤدي الى هزيمة محمود . فلا غرو قد بدأ بعض الجنود ــ تحت وطأة الجوع والارهاق ــ يهجرون الجيش !

ومن جهة أخرى فقد كان كتشنر يتتبع حركات جيش محمود وسكناته . فلما نما الى علمه زحف محمود من المتمة نحو عطبرة ، حشد جنده (حوالي ثلاثة عشر الفا) في كنور شمالي عطبرة . وما ان احس بتحول محمود عن خط سيره ليقوم بحركة تطويق والتفاف حوله ، حتى سارع كتشنر الى راس الهودي في انتظار الانصار .

فضل محمود أن يكون في موقف المدافـع « وتحصن تحصينا قويا في النخيلة فحفر خندقا مستديرا في وسط أجمة وبنى مـن ترابه متراسا فتح فيـه المزاغل واحاطه بزريبة متينة من الشوك » . ورغم أن كتشنر قد اقترب من معسكر محمود الا انه ظل أياما مترددا في مهاجمته . الى أن قرر أخيرا ان يلقي بكل ثقله على معسكر الانصار . فوقعت الواقعة في صبيحة الجمعة ٨ ابريل . ولقـد استبسل الانصار وأصلوا اعداءهم نيرانا حامية ، وأسقطوا منهم عددا كبيرا . يقول تشرشل في هذا :

« على الرغم من النار الكاسحة التي ظل يطلقها الدفاع والتي سببت خسائر فادحة ، الا أن الغلبة كانت في النهاية من نصيب الهجوم » . وعندما حمي الوطيس استشهد من السودانيين زهاء الثلاثة آلاف من الرجال ، وأصيب أربعة آلاف بجروح ، وأسر محمود ، وأرسل الى سجن رشيد كما أسرت عدة مئات مـن المواطنين . ولم ينج الا عثمان دقنة ومعه البقية الباقية من رجاله .

وعلى الاجمـال فان السودانيين ـ رغم تلك المأساة ـ كانـوا مثال الرجولة والاباء ، فهم قد صمموا على أحد امريـن : اما الانتصار أو الاستشهاد في سبيل الوطن . يقول تشرشل أيضا : « لم يكن في مقدور الدراويش أن يتقدموا الى الامام ، ولكنهم رفضوا في اباء وشمم أن يفروا من حومة الوغى فثبت مئات الرجال منه في أماكنهم يطلقون عياراتهم النارية او يذودون بسيوفهم ورماحهم عـن حوزة بلادهم الى النهاية » (١) . ونكرر هنا القول : « الفضل ما شهدت به الاعداء » .

وبالرجوع الى خطة محمود احمد نجد ان تكتيكاته كانت محكمـة . وحتى كتشنر ومن معه من كبار الضباط البريطانيين ما كـان في وسعهم أن يدبروا خطة دفاعية أجود مما تفتقت عنه عقليتا محمود وعثمان دقنة في تلك الحقبة . فليس في الامكان اذن ابدع مما كان . ونكرر هنا أن النصر آنذاك كـان رهينا ـ اذا توفرت الشجاعة والولاء ـ بقوة السلاح ليس غير . ومن تحصيل الحاصل ان تقول ان معركة عطبرة الفاجعة كانت ضربة على الدولة المهدية .

آخر اطوار الحرب

واقعة كرري (٢ سبتمبر ١٨٩٨) :

ذكرى معركة كرري تثير في انفسنا ـ نحن معشر السودانيين ـ كوامن الأسى ولواعج الحرقة . ولم تكن ذكرى انكى في الداء وأبلغ في الألم من ذكرى كرري . انها رمز التسلط والعدوان الآثم . وهي في ذات الوقت عندنا معركة الشرف التي سقط

(١) ونستون تشرشل « حرب النهر » ص ٢٨٨ .

فيها أجدادنا شهداء الوطن وتجلى فيها روحهم العالي بأظهر مجالية واقدامهم بأكمل معانيه . وبقدر ما نحزن اليوم على شهداء كرري بقدر ما نفخر بمواقفهم الكبيرة الشجاعة التي لم يملك الاعداء الا الاقرار بها . يخبرنا نعوم شقير « وهو من شهد الوقيعة بأنها « كانت أكبر واقعة رآها السودانيون منذ قام العالم . ولقد اظهر فيها السودانيون من البسالة واحتقار الموت والاستهلاك ما لا مزيد عليه » وما راء كمن سمع !

لنرجع الآن الى كتشنر الذي أمضى الاربعـة أشهر التي تلت انتصاره علـى محمود أحمد في النخيلة في الراحة والاستجمام ، والاستعداد للتقدم الأخير نحو ام درمان . وفي هذا الوقت طلب عونا عسكريا من دولته ، فبعثت اليه بأربع اورط انجليزية . وبهذا بلغ عدد جيشه زهـاء ٢٥و٨٠٠ ثلثهم مـن البريطانيين . ومن انجازاته في ذلك الوقت انه مد خطي السكة حديد والتلغراف من أبي حمد الى عطبرة حيث حشد جيشه ، ثم نقل الجيش الى ود حامد شمالي شلال السبلوقة .

ومن ناحية أخرى فقد كان الخليفة عبدالله يعد العـدة لملاقاة اعدائه ، فحصن السبلوقة وشواطيء النيل المجاورة لعاصمته . كما أرسل السفن لتجلب الحبوب من منطقة الشلك بأعالي النيل . وقد بلغ جيشه حوالي الستين الفا من المقاتلة .

على أن الخليفة لم يفد من تحصينه للسبلوقة فتيلا ، وآية ذلـك أن مشكلة تموين المحطات الخارجية كانت دائما عسيرة . فسحب الحامية من السبلوقة ، حتى ان كتشنر عندما زحف بجيشه من ود حامد نحو ام درمان لم يجـد من يعترض سبيله حتى حط الرحال في قرية العجيجة على بعد ثمانية أميال شمالي ام درمان في أول سبتمبر !

وقد زحف علـى الضفة الشرقية للنيـل الميجر ستيوارت يقـود من سموا «بالعربان المتحابة» وهم ـ وفق ما يقول شقير ـ من الجعليين، العبابدة، الجميعاب، الشكرية ، الشايقية والبطاحين الموالين للغزاة . فاحتلوا طابيتي شمبات والصبابي. ثم قذفت الوابورات طابية توتي واستلمت الخرطوم . ومن ثم أخذت المدافع ترمي بحممها ام درمان . وكان المدفعجية يصوبون نحو قبـة الامام المهدي . وما انفكوا يرمونها حتى هشموا اعلاهـا . وما هي الا أن خرج الخليفـة بجيشه اللجب حتى استعد كتشنر لملاقاتـه فتحصنت الكتائب الانجليزية بزريبـة ، وتحصن الجيش المصري بخندق . ومن خلفهم جميعا السفن الحربية .

أخيرا وقعت الواقعة في السهل الذي يقع حول العجيجة بين تلال كرري وجبل سرغام . بدأت في صبيحة يوم ٢ سبتمبر وانتهت في منتصف النهار . وكانت على ثلاثة أطوار او هجمات . وصف الشقير موقف السودانيين في الهجوم الأول بقوله :
« كنت أرى الدراويش فرسانا ومشاة يسقطون صفا وراء صف أمام نيران الجيش

ألحاصدة وهم يتلقونها بقلوب لا تهاب الموت » . ومن أسف لم يوفق فيها الانصار . وفي الهجوم الثاني كر يعقوب أمير الراية الزرقاء (السوداء) برجاله الابطال الذين استهانوا بالموت . فحصدتهم النيران . وفي الهجوم الثالث والاخير اندفع اصحاب الراية الخضراء (راية الامير علي ود حلو) نحو اعدائهم . ولكن حظهم لم يكن بأوفر من حظ اخوانهم الذين قضوا نحبهم اذ جندلت النيران صناديدهم ، وقضت على الكثرة الغالبة من رجالهم . فاستشهد في المعركة حوالي ١١،٠٠٠ وبلغ عدد الجرحى ١٦،٠٠٠ !

نقد البعض خطة الخليفة عبدالله العسكرية وهي انه لم يهاجم اعداءه ليلا . والحق ان الهجوم ليلا لم يغب عن ذهنه ، ولكنه خشي أنوار الاعداء الكاشفة . كما اشفق من أن يتسرب من لم يرغب في خوض المعركة بعيدا تحت جنح الظلام .

ويقال ان تلك المجزرة البشعة بكرري قد استهدفت للنقد في بريطانيا على الرغم من الاستجابة العاطفية لانهاء المهدية والانتقام لغردون بالاضافة الى الأسباب الأخرى .

والحق ان معركة كرري لم تكن متكافئة ، فهي انتصار للاسلحة الحديثة (بمقاييس تلك الحقبة) على السلاح الابيض والبنادق العتيقة . وفيما عدا ذلك فان جيش كتشنر لم يتميز بشيء ذي بال . فاستراتيجيته وتكتيكاته التي طبقها في القتال — وفق ما يقول ثيوبولد — كانت قديمة لم تتغير منذ أيام وترلو . أما من ناحية الشجاعة والاقدام فقد كان للسودانيين القدح المعلى . يقول ستيفنز ، وهو شاهد عيان للمعركة : « ان الدراويش قد بلغوا غاية المجد في كرري ، اذ كانوايلتفون حول الرايتين : السوداء والخضراء ، ويطلقون عياراتهم النارية البائسة في جسارة تامة . وكان حاملو الرماح يندفعون نحو الموت اندفاعا ، ويصول فرسانهم ويجولون تحت وابل الرصاص الهطال حتى لم يبق شيء » (1) .

وفي رأي تشرشل أن « العرب » — على حد تعبيره — لم يكونوا بأقل من الجيش الانجليزي المصري في اية ناحية اللهم الا في السلاح الناري . ويقول أيضا في كتابه « حرب النهر » ليس من العدالة في شيء ان تسحق القوات الانجليزية المصرية منازليها في وقت لم يكن في مقدور الأخيرين ان يفعلوا بالمثل لقصور أسلحتهم ،

---

(1) With Kitchner to Khartoum, p. 28? - G. W. Steevens .

(نقلا عن ثيوبولد « المهدية ») .

خاتمة

على تلك الصورة المؤسفة انتهت واقعة كرري ، وهي صورة تؤسي وتؤلم . بيد أن العزاء هو ان الذين جادوا بدمائهم الزكية من أبطالنا قد استشهدوا في سبيل الوطن العزيز ، فهم شهداء لامراء بنص حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « من مات دون ماله فهو شهيد ومن مات دون عرضه فهو شهيد » . ولقد مات اولئك الابرار ذودا عن حوزة أرضهم الطيبة وأموالهم وأعراضهم . والآن فان واجب أبناء هذا الجيل ان يأخذوا العبرة من كرري ، ويستلهموا جهاد أبطالها ، ويريحوا أرواحهم في ملكوتها الأعلى بالاستمساك باستقلالهم ، والتفاني في خدمة وطنهم المفدى للنهوض به والرقي في معارج الكمال .

موقف الخليفة عبدالله

بعد مأساة كرري الفاجعة أيقن الخليفة انه خسر المعركة ، فانسحب الى أم درمان عساه ان يجمع بعض قواته ليعيد الكرة على الاعداء . غير انه لم يوفق. فيمم شطر الغرب لا خورا أو فرارا من الموت ، ولكن لمواصلة الجهاد من هنالك .

أما الجيش الفاتح فقد دخل مدينة ام درمان ، وأبيحت ثلاثة أيام ! ولكن أهلها قد أخفوا النساء خوفا من أن يعبث الأنذال بشرفهن . ثم نبش الجنود قبر المهدي من قبته التي حطمت بأمر ضباطهم الانجليز فحزوا رأس الامام . وفيما يقرر هولت ان جثمان المهدي قد أحرق . ويقول شقير ان رأس المهدي قد حمل الى معرض التحف (المتحف البريطاني) بلندن . وقد ذكر كتشنر فيما بعد أن رأس المهدي قد دفن في وادي حلفا . وما من ريب ان هذه أعمال بربرية يندى لها جبين الانسانية خجلا لانها تجافي الاخلاق والمروءة والشرف .

وبعد أن أشفى كتشنر غليله من ام درمان توجه نحو الخرطوم ، فصلى على روح غردون في السراي . وفي لحظة تاريخية رفع كتشنر العلمين : الانجليزي والمصري ! مما أثار سخط الجنود والضباط المصريين الذين كانوا يظنون ان السودان قد فتح لهم وحدهم ، فظلوا يعيشون في ذلك الحلم منذ أن زحفوا نحو هذا البلد الى أن تكشفت لهم أخيرا الحقيقة .

وبموجب اتفاقية الحكم الثنائي سنة ١٨٩٩ ، دخل السودان مرحلة جديدة من تاريخه الطويل . وظل يعاني من نير الاستعمار البغيض الى أن قيض الله له نعمة الحرية والاستقلال في أول عام ١٩٥٦ . وما النصر الا من عند الله .

الفصل الرابع عشر

١) حادث فشودة

٢) نهاية الخليفة عبدالله

حادث فشودة (١٨٩٨ م) :

عالجت قبلئذ درامة فشودة في كتاب « تاريخ أوربا الحديث » ـ فصل التوسع الاستعماري ـ ولأن حادث فشودة جزء لا يتجزأ من تاريخ السودان الحديث فلا محيص لنا من تناوله هنا أيضا بقليل من التفصيل .

ان أهمية حادث فشودة تكمن في أنه كان صورة من صور الزحف الفظيع على افريقيا ، والتسابق الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا لابتلاع هذه القارة الفتية وبصفة خاصة حوض النيل الاعلى . ولقد أوشك هذا الحادث ان يجر البريطانيين والفرنسيين الى حرب طاحنة ، بيد ان دلكاسي ـ وزير خارجية فرنسا الحصيف ـ قد وزن الأمور بميزان دقيق ينم عن بعد النظر ، فتخلى عن فشودة وكفى الطرفين شر القتال .

لعله من المهم أن نذكر شيئا مقتضبا عن ماضي فشودة قبل الحادث . وفيما يذكر القارىء الكريم انني ذكرت في الفصل الخامس أن نقطة حربية قد أنشئت في فشودة بأعالي النيل عام ١٨٥٥ على عهد محمد سعيد باشا لمحاربة تجارة الرقيق. ومن ثم أضحت محطة تجارية هامة . ثم رفعت الى مديرية النيل الابيض وعاصمتها فشودة عام ١٨٦٥ على عهد الخديوي اسماعيل . وقد سقطت في أيدي الميديين في ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ م .

ومن الناحية الجغرافية فان الحكومة التركية المصرية السابقة قد أحسنت اختيار موقع فشودة على الضفة اليسرى للنيل الابيض على مرتفع يمتد لعدة أميال ويعلو بمقدار أربعة اقدام عن سطح النهر في أعلى درجات فيضانه . وهي المكان الوحيد الذي يتيسر الوصول اليه في موسم الامطار والفيضان في أشهر الصيف .

وفي زمن الجفاف فان فشودة ملتقى طرق القوافل من جنوبي كردفان . وهي تقع في شمالي ملتقى النيل الابيض ونهر سوباط ، ولهذا من السهل ـ وفق ما يقول ثيوبولد ـ أن يقف منها المرء في وجه أية حملة نيلية نازلة من الحبشة . وبالقرب من فشودة يلتقي بحر الغزال بالنيل الابيض . وعلى ذلك فهي ملتقى طرق من الشرق والغرب . ومن هنا تبدو أهمية فشودة الاستراتيجية الكبرى .

تتلخص قصة فشودة في ان فرنسا قد ارسلت بعثة من غربي افريقيا الى حوض النيل الأعلى حتى فشودة بهدف بسط نفوذها على تلك المناطق اولا ، ولاثارة المشكلة المصرية الخاصة بالاحتلال الانجليزي لمصر للضغط على انجلترا بطريقة تؤدي في النهاية الى اجلاء الانجليز من مصر . قامت تلك البعثة الفرنسية على الرغم من ان فرنسا كانت في الماضي القريب (قبل الحادث) تعترف بحق سيادة خديوي مصر وسلطان تركيا على السودان رغم اخلائه ! وعلى ذلك استندت فرنسا في معارضتها للاتفاقية الانجليزية ـ الكنغولية التي ابرمت بين الجانبين عام ١٨٩٤ .

ولنا أن نتساءل عن سبب التغيير الذي طرأ على أفكار الساسة الفرنسيين فأقروا ارسال بعثة مارشان . الواقع ان المسألة برمتها ترجع الى غيرة فرنسا وحسدها لبريطانيا ـ منافستها الكبرى في حقل الاستعمار . فالبريطانيون قد قاموا في أخريات القرن التاسع عشر بنشاط استعماري ملحوظ . فهم قد ضمنوا بموجب معاهدة مع المانيا (١٨٩٠) اعتراف الالمان بسيادة بريطانيا على أعالي النيل. ثم أعلنت بريطانيا حمايتها على يوغندة في مارس ١٨٩٣ ، واستحوذت على أونيورو . كما أبرمت الاتفاقية الانجليزية ـ الكنغولية في مايو ١٨٩٤ لتحول دون وصول الفرنسيين الى حوض النيل . وبعد ذلك يأتي الاتفاق بينهم وبين الايطاليين الذين سطوا على كسلا سنة ١٨٩٤ . واخيرا انفذوا حملة دنقلا (١٨٩٦) كمرحلة أولى لاستعادة السودان . هذه التحركات الاستعمارية قد أثارت غيرة الفرنسيين . فاعتزموا أن يرموا بثقلهم في حلبة السباق عساهم أن يقتطعوا جزءا من بلدنا هذا الذي أخلاه حكامه المصريون فأصبح خلوا او ملكا مباحا في نظر المستعمرين ! كأني بهم وقد تصوروا أن من في هذا القطر الكبير من البشر لا يستأهلون أن يؤبه لهم أو يعمل لهم أي حساب !

بدأت حملة مارشان مسيرتها اول ما بدأت في ٢٥ يونيو ١٨٩٦ عندما غادر فرنسا الى برازافيل على نهر الكنغو ليتتبع مجرى ذلك النهر . وكانت الحملة تتألف من ثمانية ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جنديا من زنوج النيجر او من السنغاليين. جاءوا على ثلاثة قوارب حديدية وزورق بخاري . وكانوا بحاجة الى السلاح ، فاعجب ان شئت لحملة حربية تريد أن تحتل بلادا وهي لا تملك مدفعا واحدا ! كان أمرهم عجبا اذ لم يكن في طوقهم الصمود امام هجوم قوي ، أو الرجوع القهقرى ! وكانت تعوزهم الذخيرة لأنهم أطلقوا معظم ما في جعبتهم على الانصار

الذين هاجموهم . ومنذ أن غادروا سواحل المحيط الاطلنطي ـ منذ عامين ـ لم يحصلوا على امدادات . وقد لاقوا من المشاق والاهوال ما يوهن عزائم الأبطال .

وصف تشرشل مغامرة بعثة مارشان فقال انهم ظلوا مدة اربعة أشهر يجولون في متاهات الضياع بعيدا عن مرأى ومسمع بني الانسان . ولقد حاربوا الوحوش الضارية وقاسوا من الحمى ، وتسلقوا الجبال ، واخترقوا الغابات الكثيفة ، بل وقفوا خمسة أيام بلياليها في المستنقعات الآسنة والماء يغمر اجسامهم حتى الاعناق! فما من عجب اذا مات خمسهم على الدرب . ولقد أسسوا في بحر الغزال عدة محاط نذكر منها واو ، رمبيك ومشرع الرق . وأخيرا توجوا نضالهم بالوصول الى فشودة حيث رفعوا عليها العلم الفرنسي في العاشر من يوليو ١٨٩٨ م .

يقول السير ريجينالد ونجت (صحب كتشنر الى فشودة) : « من الصعب الا يعطي المرء اعتبارا لشجاعة اولئك الشجعان الذين تحدوا كل معوقات الطبيعة . ومشوا الى هاتيك البقاع التي أمرتهم حكومتهم المجنونة بالذهاب اليها . ومع ذلك لو تأخرنا عن تحطيم قوى الدراويش في ام درمان لما أمكن انقاذ هذه البعثة من الابادة » (١) . ويعني بذلك ان حملة مارشان كانت عرضة لان يسحقها الانصار عاجلا او آجلا لولا أن ارسلتهم العناية الالهية لانقاذها من فناء محقق .

اذا صرفنا النظر عن أهداف الحكومة الفرنسية الاستعمارية البغيضة آنذاك ، فاننا لا نملك الا أن نعجب بجراة تلك البعثة المارشانية ـ ان جاز التعبير ـ وبسالة رجالها ومواقفهم البطولية . كل أولئك كان في سبيل أمهم الرؤوم فرنسا . بمعنى انهم جهدوا لتوسيع امبراطوريتها ، وزيادة مواردها ، وبالتالي رفاهية الشعب الفرنسي ، وما أجمل التضحيات في سبيل المجد ورفعة الوطن !

حملة أخرى الى فشودة :

لم يكتف الفرنسيون بحملة مارشان من غربي افريقيا ، بل خططوا لقيام حملة اخرى من الحبشة الى السودان .

وقد ترامى الى مسامع السلطات البريطانية أن ثمة بعثة فرنسية ببلاط منليك ملك الحبشة ، ومعها ممثل لقيصر روسيا . ولعلنا نذكر الصداقة الفرنسية الروسية في تلك الحقبة بعد ابرام التحالف الفرنسي الروسي . وكان هدف هذه البعثة انفاذ حملة حبشية تحت رعاية واشراف الفرنسيين تزحف من اثيوبيا لتلتقي بحملة مارشان في فشودة . وغاية الحملتين تكوين مناطق نفوذ فرنسية من الساحل الى الساحل أو من ساحل المحيط الهندي الى ساحل الاطلنطي بما في ذلك أعالي النيل .

(1) Ronald Wingate, Wingate of The Sudan, p. 120

أزاء هذه المطامع الفرنسية الاستعمارية ما كان من البريطانيين الا أن أوفدوا بعثة دبلماسية قامت من القاهرة الى اديس ابابا في ١٠ مارس ١٨٩٧ لتنافس النفوذ الفرنسي والروسي في الحبشة ، ولكسب حياد امبراطور الحبشة في الحرب القائمة بين الانجليز والمصريين في جانب ، والسودانيين في الجانب الآخر . وفوق ذلك كان من هم هذه البعثة الانجليزية الوقوف على نوايا الفرنسيين تجاه أعالي النيل ، ولصد امبراطور اثيوبيا عن مساعدة الفرنسيين في مشروعهم الرامي الى الاستيلاء على أعالي النيل .

وقد ابرم البريطانيون اتفاقية مع منليك في ١٤ مايو ١٨٩٧ م . بمقتضاها تعهد ملك الحبشة بالا يسمح بمرور الاسلحة والذخائر عبر بلاده الى السودان . وفي ذات الوقت ازداد البريطانيون اقتناعا على اقتناعهم بضرورة استعادة بقية السودان .

من جهة أخرى فان الاحباش أنفسهم كانت لهم مطامع في أرض السودان . بمعنى أنهم أزمعوا أن يمدوا حدودهم الغربية مع السودان لمئات الأميال داخل هذه البلاد حتى ملتقى نهر سوباط بالنيل الأبيض ! بل ان امبراطور اثيوبيا كان يؤمل في أن تمتد حدوده الغربية من الخرطوم الى بحيرة نيانزا !!

وقد انعكس تعاون الفرنسيين والأحباش أخيرا في اعداد الحملة المزمع ارسالها الى فشودة ، اذ حشد لها منليك جنده . فساروا حتى حطوا الرحال في فشودة في ٢٢ يونيو ١٨٩٨ . غير أنهم لم يجدوا مارشان لأنه لم يصل بعد ، فعادوا ادراجهم الى اثيوبيا .

تلك اذن الاوضاع السياسية واخبار الحملة الفرنسية ـ الحبشية . ولنرجع الى حملة مارشان في فشودة .

عود الى حملة مارشان :

أومأت الى أن بريطانيا كانت تعلم منذ زمن بتحرك حملة مارشان من الغرب الى النيل . وقد بعثت الحكومة البريطانية بتعليمات الى كتشنر (قبل معركة كرري بنحو شهر) بينت له كيف يتصرف ازاء مارشان أو غيره من الفرنسيين بأن يرسل سفنه على النيل الازرق حتى الروصيرص . ويقوم هو على رأس قوة من الجنود البريطانيين الى فشودة على النيل الابيض . ويتعين عليه الا يعترف بأي حق لفرنسا أو الحبشة على اية بقعة في وادي النيل . وعليه أن يوضح لأي قائد فرنسي يلتقي به بأن وجوده هناك يعتبر تعديا على حقوق البريطانيين والمصريين (١) .

لم يمض على واقعة كرري اسبوع حتى حلت بام درمان احدى بواخر الخليفة

(1) A. B. Theobald, the Mahdiya, p. 239

عبدالله (التوفيقية) التي أرسلها الى الجنوب ومعها باخرة أخرى (الصافية) ونحو اثنتي عشرة مركبا تحمل قوة بلغت خمسمائة جندي بقيادة سعيد صغير الجعلي بهدف احضار كميات من الحبوب لام درمان . حملت هذه السفينة نبأ اصطدام الانصار بقوة من السود يقودها ضباط بيض ولهم علم غريب . ونتج عن ذلك الاصطدام أن خسر الانصار اربعين رجلا بين قتيل وجريح . وقد عرج أمير الانصار على الرنك لينتظر الامدادات وتعليمات الخليفة لمواجهة ذلك الموقف . فما عتم كتشنر ان جهز حملة من خمس بواخر مسلحة ، واصطحب معه ونجت وجنودا من السودانيين والبريطانيين وأبحر (١٠ سبتمبر) نحو فشودة . وفي ١٥ سبتمبر ، وفي الرنك ، أطلق الانصار قنابل مدفعهم الوحيد على كتشنر . بيد أنه تغلب على قوتهم الصغيرة .

اللقاء التاريخي :

مخر اسطول كتشنر الصغير عباب الماء حتى اقترب من غايته ـ فشودة ـ فرسا (١٨ سبتمبر ١٨٩٨) على الشاطىء ليبعث السردار برسالة قبل وصوله الى أولئك الاوربيين . وقد ذكر كتشنر في رسالته لهم انتصاره على الخليفة عبدالله في معركة أم درمان ، ومصادمة قوة الانصار في الرنك ، وان دخوله فشودة بات وشيكا . وفي الصباح الباكر من يوم ١٩ سبتمبر واصل كتشنر سيره ليلتقي بقارب صغير يرفرف عليه العلم الفرنسي وفيه ثلاثة جنود سنغاليين يحملون خطابا من ميجر مارشان يوضح فيه وصول قواته الفرنسية واحتلال بحر الغزال بأمر حكومته، ثم احتلال فشودة في العاشر من يوليو . وانه ابرم اتفاقية مع ملك قبيلةالشلك (عبد الفضيل) في تلك المنطقة اصبح بموجبها تحت الحماية الفرنسية .

وحينما صارت وابورات كتشنر قاب قوسين أو أدنى من فشودة ، التقى القائدان على ظهر احدى البواخر فحيا مارشان كتشنر باسم فرنسا . ثم جلس القادة : « كتشنر وونجت في جانب ، ومارشان وجرمان في الجانب الآخر حول مائدة المفاوضات . وفيما يقول ثيوبولد انه لا بد أن يكون كل واحد منهم عالما بأنه امام مسائل كبيرة ودقيقة تحتاج الى الروية واللباقة . وآية ذلك أن بريطانيا وفرنسا المتنافستين التقليديتين على وادي النيل قد التقتا في هذه البقعة الموحشة . فأية كلمة او تصرف يتسم بالتهور قد يجر الى عراك ليس في فشودة وحدها ؛ بل في مواطن أخرى من العالم » (١) .

استهل كتشنر الحديث فبين انه مأذون من حكومته أن يقرر أن وجود الفرنسيين في فشودة وفي وادي النيل يعتبر انتهاكا مباشرا لحقوق مصر وبريطانيا

(1) A. B. Theobald, the Mahdiya p. 239

العظمى . وانه وفق تعليماته يتعين عليه أن يحتج احتجاجا صارخا على احتلال الفرنسيين لفشودة ، ورفع العلم الفرنسي على أملاك الخديوي . كما أشار الى أن الاحتلال الفرنسي لفشودة قد يؤدي الى حرب بين بريطانيا وفرنسا . ثم سأل مارشان عما اذا كان ينوي أن يقاوم « مصر » التي تحاول أن تستعيد أملاكها السابقة ، وترفع علمها على تلك الاملاك ؟ وكان رد مارشان انه بالطبع لا يقاوم ، وفي ذات الوقت لا يستطيع أن ينسحب من مديرية فشودة وبحر الغزال دون أمر حكومته . واذا أصر السردار على انسحاب مرشان فان الأخير ورفاقه لا يملكون الا أن يموتوا في مراكزهم !

ولعمر الحق قد تصرف مارشان في تلك اللحظة الحاسمة تصرفا حكيما وبطوليا في آن واحد اذ بين انه لا يقف في وجه قوة كتشنر وهي كبيرة ضاربة بالنسبة الى سريته ، وفي ذات الوقت لا يتزحزح عن مواقعه الا وهو محمول على الاعناق اللهم الا اذا أشارت عليه حكومته بالانسحاب ! هكذا تكون البطولة والاستعداد للتضحية في سبيل رفعة الوطن .

وما هي الا أن وصل النقاش الى هذا الحد حتى رفع كتشنر العلم المصري على فشودة على بعد خمسمائة ياردة جنوبي العلم الفرنسي . وما من ريب أن رفع العلم المصري وحده يعد دهاء من كتشنر وونجت لأن هذا الاجراء قد قوى حجة السردار في مفاوضاته مع مارشان ، بمعنى أن السودان استرد لمصر . وقد قر رأي كتشنر وأركان حربه ونجت مسبقا على أن يرفرف العلم المصري على فشودة ريثما تسوى الامور بين لندن وباريس . والطريف في هذه المقابلة بين الجانبين أن كتشنر وونجت كانا يرتديان الزي العسكري المصري ، وكان السردار يلبس الطربوش ! هذا دهاء « وشيطنة » أخرى قصد بها « الاستهلاك المحلي » اذ اقتضى الموقف لونا آخر أو تلونا دونه تلون الحرباء . ولعلهما كانا في حالة توارد خواطر مع القائل : « البس لكل حالة لبوسها » .

ترك كتشنر حامية في فشودة على رأسها ميجر جاكسون . ثم واصل سيره الى حيث يلتقي النيل الابيض بنهر سوباط ، وأسس حامية هناك رفع عليها العلم المصري أيضا . ومن ثم الى أم درمان بعد أن أصدر تعليماته المشددة لكل من جاكسون ومارشان يحظر نقل المعدات الحربية الفرنسية بالنيل .

على هذا النحو جرت الأمور في فشودة بين العسكريين ، وبقي بعدئذ أن يتناول الساسة البريطانيون والفرنسيون القضية بالمباحثات لايجاد الحل لتلك المشكلة العويصة .

الجانب الدولي

ألمعت الى ان بريطانيا قد ألمت بخبر قيام حملة مارشان من غرب افريقيا ،

وقد أيقن الساسة البريطانيون في مطلع عام ١٨٩٨ أن جيش كتشنر سيلتقي بالحملة الفرنسية الصغيرة قبل نهاية ذلك العام لامراء . وكان في تقديرهم ان التقاء القوتين سيؤدي الى صدام بين بريطانيا وفرنسا . ومن ثم أخذوا يعدون للأمر عدته . من ذلك ما أشار اليه تشرشل في كتاب « حرب النهر » وهو ان بريطانيا ، لكي توهن من قوى التحالف الفرنسي الروسي ، توخت سياسة لينة واسترضائية حيال روسيا في الصين بهدف التأثير على موقف فرنسا اذا ما حدث صراع بينهما وبين بريطانيا على أعالي النيل . بمعنى آخر ارادت بريطانيا ان تبعد روسيا من مساندة فرنسا في المشكلة حتى تجد فرنسا نفسها وحيدة فتنسحب من الميدان أو تتخلى عن أعالي النيل وغيرها من البلاد السودانية .

وعلى الصعيد الدبلماسي العالي اتخذت مشكلة فشودة أو الصراع حول أعالي النيل طابعا اتسم بالدقة والتعقيد . وقد احتدم الجدل بين بريطانيا وفرنسا ، وطفقت كل منهما تدلي بحججها ومبرراتها للسيطرة على تلك المناطق في جنوبي السودان . فاعتمدت فرنسا في ادعائها بحر الغزال ومديرية فشودة على نظرية الخلو أو الملك المباح ، أي ان السودان ، بعد أن اخلاه المصريون ، أضحى بلادا لا يملكها أحد وعلى ذلك فان من حق السابق لاحتلالها أن يتمتع بالسيطرة عليها !

وقد بينت فرنسا أن مصر نفسها قد اعترفت في عدة مناسبات بفقدان حقها في السودان . ومن ذلك أن الجنرال غردون عندما جاء الى السودان عام ١٨٨٤ ، قد زود بفرمان من الخديوي يتضمن ارجاع البلاد السودانية الى زعمائها وسلاطينها السابقين . وفي عام ١٨٨٥ كتب رئيس الوزارة المصرية الى أمين باشا مدير الاستوائية يوضح له ان الثورة المهدية قد أجبرت مصر على أن تتخلى عن تلك المناطق الاستوائية وفوق ذلك فان البريطانيين انفسهم عقدوا معاهدة عام ١٨٩٠ مع ملك يوغنده ، بموجبها أصبحت بلاده التي كانت جزءا من مديرية خط الاستواء المصرية تحت الحماية البريطانية . وحتى نفوذ المهديين (في رأي الفرنسيين) لم يكن محسوسا في جنوب السودان . ولان الفرنسيين قد دخلوا بحر الغزال منذ ١٨٩٧ ، ووصلوا فشودة قبل الانكليز بنحو ثلاثة أشهر ، ففي تقديرهم انه من العدالة أن تؤول مديريتا بحر الغزال وفشودة الى ملكيتهم .

من جهة اخرى فقد ردت بريطانيا بأن الحكومة المصرية قد تخلت عن حقوقها في السودان بصفة مؤقتة لأنها جابهت قوة فائقة . وتلك الحقوق لم تذهب ادراج الرياح ، وانما ظلت معطلة . وأن مصر قد استردت سيادتها على السودان بعد اذ انتصرت على جيش المهديين . وحتى فرنسا نفسها قد احتجت على لسان وزير خارجيتها على الاتفاقية الانجليزية ـ الكنغولية عام ١٨٩٤ التي بمقتضاها أجرت بريطانيا حاجز لادو لملك البلجيك مدى الحياة ، احتجت فرنسا على أساس ان الخديوي وأعوانه انما تركوا السودان لظروف خارجة عن ارادتهم ، وان تخليهم عن

السودان كان موقوتا ليس الا . ومن هنا نعلم أن ساسة فرنسا قد أقروا حقوق المصريين على السودان وان تخلوا عنه ذلك لان هذا الاقرار كان يناسب الفرنسيين في السابق أم الان فلا !

وبما أن بريطانيا قد أعوزها المنطق والناحية القانونية التي تبيح لها الاشتراك في استعمار السودان ، فقد استندت على حق الفتح بمعنى انها اسهمت بالمال والرجال والخبرة العسكرية في فتح السودان ، ومن حقها أن تشترك في الاستحواذ عليه .

على أن بريطانيا لم تعر في النهاية الحجج الفرنسية اهتماما . فأصرت على أحد أمرين لا ثالث لهما : اما أن تأخذ فشودة أو الحرب ! ومن ثم اخذت المشاعر تلتهب في كل من البلدين . فاتفق البريطانيون حكومة ومعارضة وشعبا على الوقوف بصلابة في وجه الفرنسيين ، والاصرار على اجلائهم من فشودة مهما كان الثمن لانها في نظرهم نتاج جهودهم وثمرة من ثمار انتصارهم أرادت فرنسا أن تغتصبه منهم . وكانوا على ثقة تامة من ان اسطولهم لا تجاريه قوة فرنسا البحرية .

ولم تقصر الصحافة الفرنسية في اثارة الشعور والخواطر ، فاستنكرت مطالبة الانجليز بانسحاب مرشان على أساس أن الانجليز ليس لديهم الحق الذي يخولهم التدخل في هذا الأمر . وما برحت بعض الصحف تقرر أن فرنسا هي الصديق الذي يجد فيه الخديوي والمصريون العون ، وانها الأخت الكبرى والصديقة الحبيبة لمصر « كما اشارت الى ان الفرنسيين لن يتركوا فشودة الا اذا ترك الانجليز مصر ! » (١) ومن أجل ذلك ظن الساسة المصريون أن مشكلة فشودة ستتمخض عن حل للمسألة المصرية بمعنى أنها ستقود الى جلاء الانجليز من مصر .

ولقد شغل الشعبان الفرنسي والبريطاني بحادثة فشودة حتى أعتبرها رجل الشارع مسألة شرف وكرامة . وانجرف الدبلماسيون في تيار الاثارة النابعة من الجماهير في كلا الجانبين حتى أوشكوا أن يدفعوا ببلديهما الى هاوية الحرب السحيقة . وبالفعل بدات الاستعدادات الحربية في كل من الموانىء والاسطولين البريطاني والفرنسي .

أخيرا تغلب العقل على العاطفة ، وسادت الحكمة في الجانب الفرنسي حين استسلم دلكاس وزير خارجية فرنسا ، فأعلن (٤ نوفمبر) أن حملة مارشان ستنسحب من فشودة . وفي ١١ ديسمبر ١٨٩٨ تم جلاء الفرنسيين من فشودة . وآية ذلك أن الفرنسيين قد تيقنوا أن تلك المناطق السودانية لا تستأهل أن تقوم حرب من أجلها لبعدها وتخلفها ، وانها في حالة نشوب حرب ستقع حتما في أيدي

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري مصر والسودان » ص ٤٨٣

البريطانيين لضخامة قوتهم في السودان . وفوق كل ذلك فان فرنسا – فيما يقول ثيوبولد – لم تستطع أن تغامر بالدخول في حرب ضد بريطانيا لأن حليفتها روسيا ظلت محايدة أثناء النزاع بين الطرفين . ولعل الروس قد محضوا حلفاءهم الفرنسيين النصح ليتجنبوا اشعال حرب على مشكلة فشودة .

شيء آخر هو أن فرنسا كانت تواجه الحلف الثلاثي الذي تربص بها الدوائر . فاذا دخلت فرنسا في حرب ضد بريطانيا فان المانيا (العدو التقليدي لفرنسا) قد تسدد لها الطعنات في خاصرتها . كل اولئك كان مدعاة الى جنوح الفرنسيين الى الوسائل السلمية . فكانت ثمرة التفاهم بين الفريقين ابرام اتفاقية بلندن في ٢١ مارس ١٨٩٩ م .

ان تلك الاتفاقية الفرنسية البريطانية كانت مكملة لاتفاق سابق تم في ١٤ يونيو ١٨٩٨ خاص بتحديد مناطق النفوذ الانجليزية والفرنسية في غربي وشرقي نهر النيجر . وبموجب اتفاقية مارس ١٨٩٩ ، خرج حوض بحر الغزال وبحر العرب بأجمعه بما في ذلك دار فرتيت ودارفور من دائرة النفوذ الفرنسي (١) . من هنا يتضح ان فرنسا قد اعترفت أخيرا بوحدة وادي النيل .

أما فرنسا فقد اطلقت يدها في بقية البلاد الافريقية في غربي وادي النيل ، تلك البلاد التي لم تحتلها الدول الاوربية بعد . ولأن الدول الأوربية الكبرى قد لا ترضى عن هذه التسوية فقد أسكتت المانيا بأنهم وعدوها بمراعاة سياسة الباب المفتوح في التجارة في أعالي النيل . ولم تهتم روسيا بهذه البلاد آنذاك . (٢)

على هذا النحو انتهت درامة فشودة التي أصبحت رمزا للتنافس الاستعماري والكراهية الدفينة بين القطرين . وبعد أن تم الاتفاق بين الدولتين المتنافستين تحسنت العلاقات بينهما حتى توجت بالوفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٤ . ولكي يمحوا آثار الماضي بخصومته ونزاعه ، فقد تغير اسم فشودة الى كدوك ، ولم يبق لهذا الاسم وجود الا في بطون الكتب . ق

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكري « مصر والسودان » ص ٤٨٥

(٢) ونستون تشرشل « حرب النهر » ص ٣١١

نهاية الخليفة عبدالله

لم أشأ أن أختم هذه الصفحات دون تسجيل حديث مقتضب عن مصير الخليفة عبد الله بعد واقعة كرري المشؤومة على دولة المهدية .

ذكرت سابقا ان الخليفة عبدالله قد تيقن انه خسر معركة كرري بلا امتراء . فما عتم أن انسحب من حومة الوغى الى عاصمته عساه ان يجمع فلول جيشه لمقاومة الغزاة . فأمر بضرب النحاس والامباية ، ولكن لم يجتمع اليه من المقاتلة ما يفي بالغرض . عندئذ اقتنع بأنه اذا اطال البقاء في أم درمان فانه لا محالة واقع في قبضة الاشرار . وسرعان ما جمع أهله وخلصاءه ومن تبعهم ، وبضعة آلاف من الجهادية ، ويمم شطر الغرب ، لا جبنا او فرارا من الموت . ولكنه أراد أن يستعيد قواه الحربية ، ويعد للحرب عدتها ثم يكر على أعدائه .

سبق القول أيضا أن كتشنر قد بعث ببعض عسكره وعلى رأسهم سلاطين باشا لمطاردة الخليفة عبدالله . كما ابحرت الوابورات أيضا نحو الجنوب بحثا عنه . غير انهم جميعا باءوا بفشل ذريع ، لان الله قد انجى الخليفة ومن معه في ذلك الوقت من كيد المطاردين .

ألقى الخليفة عصا التسيار في أبي ركبة حيث دفن والده . ولحق به عثمان دقنة ومن بقي على قيد الحياة من رجاله بعد ملحمة كرري . ومن ثم أخذ يراسل بعض الامراء الذين ما زالوا بمنأى عن سيطرة الحكام الجدد . فكتب الى الختيم موسى قائد حامية الأبيض ، فانضم اليه برجالاته . ثم اجتمع اليه أحمد فضيل قائد حامية القضارف بمن تبقى معه من الجند بعد مطاردات ومصادمات مع جيش الاعداء وبخاصة اثناء عبور النيلين : الازرق والابيض . أما النوبة فلم يستجيبوا لنداء الخليفة .

ولسوء حظ الخليفة فقد وقف له علي دينار بالمرصاد فأغلق في وجهه الطرق المؤدية الى دارفور أو الى ما ورائها من بلاد . وبهذا أعان دينار الحكومة على حصر تحركات الخليفة في البلاد الواقعة بين النيل الأبيض وحدود دارفور الشرقية . وما من شك أن علي دينار كان موتورا من ناحية الخليفة عبد الله الذي جاء به الى أم درمان ، وجعله احد ملازمي بابه وهو سليل سلاطين دارفور .

ظل الخليفة عبد الله نحو عام شغل الحكومة الجديدة الشاغل ، أو كما قرر تشرشل : « استمر الخليفة طيلة الربيع والصيف عام ١٨٩٩ يتمتع بمكانة مرموقة

بكردفان ، وما برح يدرب اتباعه وينهب الناس . ولقد شكل خطرا مستمرا على الحكومة . وكان لعنة على الأهلين ، وعنصرا خطرا من عناصر القلق والاشفاق » (1)

ولقد اعتزم كتشنر أن يقوم بمحاولة للقضاء على الخليفة ، فأوكل هذا المشروع الى أخيه الكلونيل كتشنر بحسبانه أكبر الضباط الموجودين رتبة . وقد ظن المسؤولون أن الخليفة ليس لديه اكثر من ألف مقاتل مسلحين بأسلحة رديئة .

زحف الكلونيل كتشنر فوجد الخليفة في يناير ١٨٩٩ قرب شركيلة على راس قوة منظمة قوامها حوالي ٧٠٠٠ محارب . فما كان منه الا ان انسحب خوفا من أن تحل به كارثة هكس . وهكذا باءت هذه الحملة بالفشل .

أما الخليفة فقد ترحل من منطقة الجوامعة الى جبل قدير تيمنا بالمهدي ، وليتبرك بالمكان الذي انطلق منه قائد الثورة المهدية البطل محمد احمد المهدي ، فحقق من الانتصارات ما شابه المعجزات . وبعد موسم الامطار قام الخليفة من جبل قدير متجها شطر جزيرة أبا حيث اندلعت شرارة الثورة الظافرة .

ومن جهة أخرى أنفذت الحكومة للخليفة حملة تألفت من حوالي ثمانية الف جنديا اتجهت من كاكا في أعالي النيل الى جبال النوبة . غير أنها لم تجد الخليفة هناك . وعلى ذلك فشلت أيضا هذه الحملة .

وعلى الرغم من أن الحكومة بدت قوية متماسكة ، الا انها كانت عرضةلبعض المشاكل . فامضاء اتفاقية الحكم الثنائي في يناير ١٨٩٩ ، أثارت سخط الضباط والجنود المصريين اذ رأوا فيها تغولا على حق مصر في السودان . بل ظهر تمرد بين الجنود السودانيين الذين أثارهم الضباط المصريون . ونسبة لأن كتشنر قد أرسل القوات الانجليزية الى مصر بعد سقوط ام درمان ، فقد تبين ـ فيما يقرر هولت ـ أن الحكومة كانت ترتكز على جدار يريد أن ينقض .

بالاضافة الى ذلك فان الخليفة محمد شريف وابني المهدي البشري والفاضل قد قتلهم جنود الحكومة في الشكابة بتهمة أنهم كانوا يخططون لاشعال ثورة مهدية أخرى . ومن تحصيل الحاصل أن نقول ان هذا الحادث الأليم قد زاد من بغض المواطنين لتلك الحكومة الاستعمارية البغيضة . ليس بمستغرب اذن اذا تخوفت الحكومة من هذه المسائل ، ومن احتمال اقتراب الخليفة من أم درمان .

ولكي تضع حدا لهذه الامور ، جهزت الحكومة حملة بقيادة ريجينالدونجت ـ مدير قلم المخابرات ـ لملاقاة الخليفة عبدالله . فالتقى الجمعان في واقعة ام دويكرات بالقرب من مكان مدينة كوستي الحالية في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ . ومرة أخيرة تغلبت الاسلحة النارية الثقيلة على الابطال الذين هاجموا اعداءهم في جراة واستهانة بالموت ، فاستشهد الكثيرون . فما هي الا ان تأكد الخليفة من

(1) ونستون تشرشل « حرب النهر » ص ٣٣٨

خسران المعركة حتى افترش فروته وانتظر منيته في ايمان بقضاء الله وقدره . وجلس على يمينه الخليفة علي ودحلو ، وعلى شماله أحمد فضيل . لاقوا جميعا مصيرهم واستشهدوا في رزانة وثبات دونه ثبات الشم الرواسي. واللهيتوفىالانفس حين موتها وما كان لنفس أن تموت الا بأذن الله صدق الله العظيم .

على هذا النحو طويت صفحة من تاريخ السودان الحديث. وفي هذا يقول الدكتور شبيكة : « وهكذا مر فصل من تاريخ البلاد فيه النار والنور والدم والحياة . فيه ثورة على النظم ونزوع الى مثل عليا دينية واجتماعية ، وفيه من الجانب الآخر ضحايا وآلام فيها القوة الكامنة في الشعب السوداني ، واندفعت قونه حارة متدفقة كالسيل ، ولكنها حماسة وقتية أتت بالمعجزات والخوارق وما لبثت أن هبطت الحرارة وبرزت عوامل الاختلاف بعد الوحدة والوئام » (١).

ولقد أضحى الخليفة عبدالله هدفا لتشنيع بعض كتاب الغرب وهجومهم . فهذا رينيل رود الذي وصف معركة ام دويكرات يقول : « انتهت حياة واحد من اكبر الطغاة الذين عرفتهم افريقيا . هذا الذي سفك دم عشرات الالاف مناخوانه في الدين وابناء قبائله عن عمد ، وافنى الملايين بسبب المجاعة والجوع ، وخرب قطرا عظيما بأسره واعاد تجارة الرقيق في أرذل صورها ، وجعل التعذيب وبتر الاعضاء وسائله الوحيدة للحكم » (٢) . وغني عن القول ان هذا الكاتب مبالغ ومتحيز تحيزا لا يحتاج الى بيان .

اما ثيوبولد الذي مجد الخليفة عبدالله في بعض احاديثه عنه ، فقد قال عن حقبة الخليفة :

« من الخطأ ان تضفي على تلك السنين صبغة البطولة والحرية والرخاء لان ذلك العهد كان على الجملة ، وللكثرة الغالبة من السودانيين عهد عنف وخوف وزعزعة . ولكن من وراء الغيوم وقف رجال مقتدرون ، واعمال جليلةوشجاعة لا تجارى . فلتكن هذه ذكريات سعيدة تجترها الاجيال وقبسا ينير طريق المستقبل » (٣) .

واذا كانت النظرة للخليفة عبدالله قاتمة في نظر بعض مؤرخي الشرق والغرب، واذا كان حكم الخليفة عبدالله لم يخل حقا من عنف وشدة على المعارضين له ، والذين لم يخلصوا النوايا للدعوة المهدية ، فان الحق الذي لا لبس فيه أنالسودان – على عهد الخليفة عبدالله – قد أضحت له كينونة بين الدول بعد ان تخلصمن جور التركية وشناعة ادارتها ، وتمتع بحكم وطني خالص تنفس فيه المواطنون عبير الاستقلال والحرية العبق .

---

(١) الدكتور مكي شبيكة « السودان عبر القرون » ص ٣٧٤–٣٧٥

(2) Ronold Wingate, Wingate of the Sudan, p. 162

(3) A. B. Theobald, the Mahdiay p. 357

فهرس الخرائط

ثبت المراجع العربية

(١) نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان
(٢) الدكتور مكي شبيكة : السودان عبر القرون
(٣) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي في الازمنة الحديثة
(٤) الشاطر بصيلي عبدالجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل
(٥) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث
(٦) عباس محمود العقاد : عبقرية خالد
(٧) عباس محمود العقاد : حقائق الاسلام واباطيل خصومه
(٨) مصطفى الرافعي : الاسلام نظام انساني
(٩) الدكتور محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان
(١٠) الدكتور محمد فؤاد شكري : مصر والسودان
(١١) عبدالرحمن الرافعي بك : عصر اسماعيل
(١٢) الدكتور مولود عطا الله (معهد الدراسات الافريقي بموسكو) :محاضرة بجامعة الخرطوم ـ مؤتمر « السودان في افريقيا »
(١٣) محمد احمد الحاج : « حياتو بن سعيد » بحث لمؤتمر « السودان في افريقيا »
(١٤) عبدالرحمن الرافعي : مصر والسودان في اوائل عهد الاحتلال
(١٥) الدكتور احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
(١٦) عبدالحميد العبادى ، مصطفى زيادة وابراهيم احمد العدوى : الدولة الاسلامية : تاريخها وحضارتها
(١٧) جهاد في سبيل الله : اشرف على اعداده عبدالله محمد أحمد
(١٨) مقدمة ابن خلدون
(١٩) منشورات المهدية : تحقيق الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم
(٢٠) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق
(٢١) مذكرات الاستاذ موسى المبارك عن الخليفة عبدالله
(٢٢) مذكرات الاستاذ عبدالله محمد أحمد عن الخليفة عبدالله .

المراجـــع الانجليزية

(1) Richard Hill , Egypt In The Sudan .

(2) Yousuf Fadl Hassan, The Arabs And The Sudan .

(3) P. M. Holt , A Modern History of The Sudan .

(4) P. M. Holt , The Mahdist State In The Sudan .

(5) Encyclopedia Britannica Volume 20 .

(6) Winston S. Churchill , The River War .

(7) M. F. Shukry , Gordon At Khartoum .

(8) Mekki Shibeika , British Policy In The Sudan .

(9) A. B. Theobald , The Mahdiya .

(10) Sir Ronald Wingate , Wingate of The Sudan .

(11) G. W. Steevens , With Kitchner to Khartoum .

أسئلة امتحانات الشهادة المدرسية السودانية
في ثلاث عشرة سنة ١٩٥٨ ــ ١٩٧٠

مجلس امتحانات السودان

بالتضامن مع هيئة الامتحانات بجامعة كيمبردج
امتحان الشهادة السودانية
التاريخ
مارس ١٩٥٨

القسم الثاني

السودان ١٨٢١ ــ ١٩٣٩

(١) الى أي مدى نجح الخديوي اسماعيل في جهوده لتقويم الادارة المصرية ــ التركية في السودان ؟

(٢) كيف تعلل فشل بعثة غردون في عام ١٨٨٤ ــ ١٨٨٥ .

(٣) صف الخطوات التي ثبت بها الخليفة عبدالله نفوذه بين وفاة المهدي وسنة ١٨٨٩ .

(٤) اكتب وصفا للفتح الانجليزي المصري للسودان من حملة دنقلة (مارس ١٨٩٦) حتى موقعة ام درمان في سبتمبر ١٨٩٨ .

(٥) ما هي الخطوات التي اتخذت لتطوير اقتصاديات السودان في الثلاثين عاما بين أمضاء اتفاقية الحكم الثنائي وبدء الازمة الاقتصادية في عام ١٩٢٩ .

(٦) كيف ولماذا تغير سنة ١٩٣٩ النظام الاداري الذي وضع في اتفاقية الحكم الثنائي ؟

(٧) اكتب باختصار عن ثلاثة مما يلي :

أ ــ اغتيال اسماعيل باشا في شندى .
ب ــ السلطان على دينار .
ج ــ موقعة عطبرة في عام ١٨٩٨
د ــ الكلونيل مارشاند .
هـ ــ مشروع الجزيرة .
و ــ اتفاقية مياه النيل عام ١٩٢٩ .

مجلس امتحانات السودان

بالتضامن مع هيئة الإمتحانات بجامعة كيمبردج
امتحان الشهادة السودانية
التاريخ
مارس ١٩٥٩

القسم الثاني

السودان ١٨٢١ ــ ١٩٣٩

١ ــ لماذا فتح محمد علي السودان ؟ والى أي مدى حقق أهدافه ؟

٢ ــ صف ادارة السودان في العهد التركي المصري ، واذكر التغييرات الهامة التي طرات عليها فيما بين ١٨٢١ و ١٨٨٤ .

٣ ــ تحدث عن قيام ثورة المهدي على الحكم التركي المصري في السودان ،وعن أسباب نجاحها .

٤ ــ تتبع أسباب انهيار سلطة الخليفة عبدالله بين عامي ١٨٨٩ و ١٨٩٨ .

٥ ــ على أي الأسس بنيت اتفاقية الحكم الثنائي سنة ١٨٩٩ ؟ صف نظام الحكم الذي وضعته تلك الاتفاقية .

٦ ــ كيف نمت ثروة السودان وتطورت احواله الاجتماعية فيمابين ١٨٩٩ و ١٩٣٠ ؟ والى أي حد توفقت عوامل النماء بسبب الازمة الاقتصادية في الثلاثينيات .

٧ ــ اكتب بايجاز عن ثلاثة مما يلي :ــ

أ ــ الزبير باشا رحمة
ب ــ سير صموئيل بيكر
ج ــ حصار الخرطوم
حادث فشودة
هـ ــ مؤتمر الخريجين العام .

مجلس امتحانات السودان

بالتضامن مع هيئة الإمتحانات بجامعة كيمبردج
امتحان الشهادة السودانية
التاريخ
مارس ١٩٦٠

القسم الثـــاني

السودان ١٨٢١ ـ ١٩٣٩

١ ـ اكتب وصفا لتوسع النفوذ المصري في وادي النيل وفي السودان الغربي وعلى سواحل البحر الاحمر فيما بين عامي ١٨٦٣ و ١٨٨٠ .

٢ ـ ما هي المساعي التي بذلت لتطوير :

أ ـ الزراعة

ب ـ التعليم في السودان في عهد الحكم التركي ـ المصري ؟

٣ ـ ما هي المحاولات التي قامت بها حكومتا الخرطوم والقاهرة لقمع الثورة المهدية في غرب السودان ولماذا فشلت ؟

٤ ـ ما هي الاهداف الرئيسية لحروب الخليفة الخارجية والى اي حد كانت الحروب سببا في تدهور دولة المهدية ؟

٥ ـ اكتب وصفا لسير حروب استعادة السودان من بدء حملة دنقــلا وحتى واقعة امدرمان .

٦ ـ صف النظم الادارية التي أقيمت في السودان من سنــة ١٨٩٩ حتــى عام ١٩٢٢ .

٧ ـ أكتب باختصار عن ثلاثة مما يلي :ـ

أ ـ سليمان الزبير .

ب ـ عثمان دقنــة .

ج ـ الملك آدم أم دبالو .

د ـ خزان سنــار .

هـ ـ المعاهدة البريطانية المصرية ١٩٣٦ .

مجلس امتحانات السودان

بالتضامن مع هيئة الإمتحانات بجامعة كيمبردج
امتحان الشهادة السودانية
التاريخ
مارس ١٩٦١

القسم الثـــاني

السودان ١٨٢١ ـ ١٩٣٩

١ ـ أكتب مقالا عن فتح اسماعيل باشا والدفتردار للسودان في عام ١٨٢١ .

٢ ـ الى أي حد نجح الخديوي اسماعيل في محاولاته لاصلاح الادارة التركية المصرية في السودان ؟

٣ ـ اكتب وصفــا موجزا للجهاز الحكومي الذي شيــده الخليفة عبــدالله التعايشي في السودان .

٤ ـ ما هي الاسباب التي أدت الى نجاح حملة الفتح الانجليزي ـ المصري للسودان في ١٨٩٦ ـ ١٨٩٨ .

٥ ـ اكتب مقالا عن السياسة المصرية في السودان في الفترة ما بين ١٩٢٢ـ ١٩٣٩ .

٦ ـ ماذا كانت آثار الازمة العالمية الاقتصادية في الثلاثينيات الاولى علــى السودان من حيث :ـ

أ ـ التجارة والرخاء العام .

ب ـ التعليــم ؟

٧ ـ اكتب بايجاز عن ثلاثة مما يلي :ـ

أ ـ الشيخ محمد الخير .

ب ـ سقوط الخرطوم عام ١٨٨٥ .

ج ـ موقعة فركــة .

د ـ ثورة ١٩٢٤ .

هـ ـ اتفاقية مياه النيل ١٩٢٩ .

امتحانات السودان

امتحان الشهادة المدرسية السودانية

التاريخ
مارس ١٩٦٢

القسم الثـــاني

السودان ١٨٢١ ــ ١٩٣٩

١ ــ اكتب نبذة عن توسع الحكم التركي المصري في وادي النيل وفي غـرب السودان وعلى شواطىء البحر الاحمر بين عامي ١٨٦٣ و ١٨٨٠م .

٢ ــ ما هي أهم الخطوات التي اتخذها الحكم التركي ــ المصري لكي يقف تجارة الرقيق في السودان ؟

٣ ــ لماذا فشلت مهمة غردون في السودان في عام ١٨٨٥ م ؟

٤ ــ ما هي أسباب تداعي حكومة المهدية بين عامي ١٨٨٩ و ١٨٩٨ ؟

٥ ــ اشرح نظام الحكم الثنائي كما بينته اتفاقية عام ١٨٩٩م واشرح تطوره حتى عام ١٩٢٢ .

٦ ــ كيف ولماذا قامت حكومة السودان بحملة دارفور في سنة ١٩١٥ ؟

٧ ــ اكتب باختصار عن ثلاثة مما يلي :ــ

ا ــ سليمان الزبير .

ب ــ الكولونيل مارشاند .

ج ــ موقعة عطبرة .

د ــ كيف نشأ مؤتمر الخريجين العام .

هـ ــ المعاهدة الانجليزية ــ المصرية لعام ١٩٣٦ .

امتحانات السودان

امتحان الشهادة المدرسية السودانية

التاريخ
مارس ١٩٦٤

القسم الثـــاني

السودان ١٨٢١ ــ ١٩٣٩

١ ــ هل حقق محمد علي اهدافه عندما فتح السودان في عام ١٨٢١ ؟

٢ ــ ما هي الاصلاحات الادارية التي ادخلها الخديوي اسماعيل فـي السودان ؟

٣ ــ ما هي الخطوات التي اتخذها الخليفة عبدالله لتركيز سلطته في الحقبة من وفاة المهدي حتى عام ١٨٨٩ ؟

٤ ــ اكتب عن الاحتلال الانجليزي المصري للسودان من عام ١٨٩٦ الى عام ١٨٩٨ .

٥ ــ ما هو التقدم الذي طرأ على حياة السودانيين في المجال الاقتصـادي والاجتماعي بين عام ١٨٩٩ وعام ١٩٣٠ ؟

٦ ــ كيف اثرت السياسة المصرية على السودان في الفترة ما بين عام ١٩٢٢ و ١٩٣٩ ؟

٧ ــ اكتب بايجاز عن ثلاثة مما يلي :ــ

ا ــ احمد باشا ابو ودان .

ب ــ سير صموئيل بيكر .

ج ــ معركة فركـة .

د ــ اتفاقية مياه النيل لسنـة ١٩٢٩ .

هـ ــ السلطان علي دينـار .

امتحانات السودان

امتحان الشهادة المدرسية السودانية

التاريخ

مارس ١٩٦٦

القسم الثـاني

السودان ١٨٢١ ـ ١٩٣٩

١ ـ الى اي مدى حقق محمد علي اهدافه من فتح السودان في عام١٨٢١ ؟

٢ ـ ما هي اساعي التي بذلت لتطوير :

أ ـ الزراعة .

بـ التعليم في السودان في عهد الحكم التركي ـ المصري .

٣ ـ اكتب وصفا لتوسع النفوذ التركي ـ المصري في وادي النيل الاعلـى وفي دارفور وعلى سواحل البحر الاحمر فيما بين ١٨٦٣ و ١٨٨٠.

٤ ـ اكتب وصفا موجزا للجهاز الاداري الذي شيده الخليفة عبدالله فـي السودان .

٥ ـ تتبع حوادث الفتح الانجليزي المصري للسودان مـن عام ١٨٩٦ الـى ١٨٩٨ .

٦ ـ ما هي آثار الازمة العالمية الاقتصادية في أوائل الثلاثينيات على السودان من حيث :ـ

أ ـ التجارة والرخاء العام .

بـ التعليـم .

٧ ـ أكتب باختصار عن ثلاثة مما يلي :ـ

أ ـ السير صموئيل بيكر .

بـ سقوط الخرطوم سنة ١٨٨٥ .

جـ ـ معركـة عطبرة .

د ـ خزان سنـار .

هـ ـ اتفاقية مياه النيل عام ١٩٢٩ بين مصر والسودان .

امتحانات السودان

امتحان الشهادة المدرسية السودانية

التاريخ

مارس ١٩٦٧

القسم الثـاني

السودان ١٨٢١ ـ ١٩٣٩

١ ـ اكتب عن التوسع المصري في وادي النيل وعلى ساحل البحر الاحمـ فيما بين ١٨٦٣ و ١٨٨٠ .

٢ ـ الى اي حد كان الخديوي اسماعيل ناجحا في جهوده لاصلاح الادا في السودان ؟

٣ ـ ما هي مهمة غردون في ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ وما هي أسباب فشلها ؟

٤ ـ ما هي الخطوات التي اتخذها الخليفة عبدالله لتدعيم حكمه في الفتر ١٨٨٥ ـ ١٨٨٩ ؟

٥ ـ صف نظام الحكم الذي اقيم في السودان في سنة ١٨٩٩ وتتبـع تطو حتى سنة ١٩٢٢ .

٦ ـ اكتب عن حركة المقاومة ضد الحكم الثنائي منذ قيامه حتى سنة ٩٢٤

٧ ـ اكتب باختصار عما يلي :

أ ـ عبدالرحمن النجومي أو هيكس باشا .

بـ مشروع الجزيرة أو اتفاقية مياه النيل سنة ١٩٢٩ .

امتحانات السودان

امتحان الشهادة المدرسية السودانية

التاريخ
مارس ١٩٦٨

القسم الثـــاني

السودان ١٨٢١ ــ ١٩٣٩

/ الى اي مدى حقق محمد علي اهدافه من فتح السودان في عام١٨٢١ ؟

٢ / صف ادارة السودان في العهد التركي المصري واذكر التغييراتالهامةالتي طرات عليها فيما بين ١٨٢١ و ١٨٨٤ .

٣ / ما هي المحاولات التي قامت بها حكومة التركية لقمعالثورةالمهديةفيغرب السودان وماذا فشلت ؟

٤ / اكتب وصفا للجهاز الاداري الذي اقامه الخليفة عبدالله فيالسودان .

٥ / ما هي الخطوات التي اتخذت لتنميـة اقتصاد السودان فيالفترة ما بين ١٨٩٩ و ١٩٢٩ ؟

٦ / اكتب عن حركة المقاومة ضد الحكم الثنائي منذ قيامه حتى ١٩٢٤ .

٧ ــ اكتب باختصار عما يلي :

أ ــ حمدان ابو عنجة او ريجينالد وينجت .

ب ــ خزان سنار او مؤتمر الخريجين العام .

امتحانات السودان

امتحان الشهادة المدرسية السودانية

التاريخ
مارس ١٩٦٩

القسم الثـــاني

السودان ١٨٢١ ــ ١٩٣٩

١ / ما هي الخطوات التي اتخذها محمد سعيد والخديوياسماعيل لمحا
تجارة الرقيق في السودان والى أي مدى تكللت بالنجاح ؟

٢ / لماذا فشل غردون في مهمة سحب الحاميات المصرية من السودان ؟

٣ / وضح اسباب قيام الثورة المهدية ثم صف الخطوات التيمكنتالمهدى
السيطرة على غرب السودان .

٤ / تتبع تدهور نفوذ الخليفة عبدالله فيما بين ١٨٨٩ و ١٨٩٨ .

٥ / اكتب وصفا لحوادث الفتح الانجليزي المصري للسودان مـن عام٩٦
الى ١٨٩٨ الى ١٨٩٨ .

٦ / تتبع الاتجاه الذي سلكته السياسة المصرية في السودان فيما بين ٢٢
و ١٩٣٩ .

٧ ــ اكتب باختصار عما يلي :

أ ــ ممتاز باشا أو عثمان دقنه .

ب ــ اتفاقية الحكم الثنائي سنة ١٨٩٩ أو حملة دارفور سنة ٩١٦

التاريخ
مارس ١٩٧٠

القسم الثـــاني

السودان ١٨٢١ ــ ١٩٣٩

٨ ــ ماهي العوامل التي أدت الى نجـاح محمد علي في فتـح السودان
سنة ١٨٢١ ؟

٩ ــ اكتب نبذة عن ادارة السودان في عهد محمـد سعيد ١٨٥٤ــ١٨٦٣

١٠ ــ ما هي أسباب ونتائج الصراع بين الخليفة عبدالله والاشراف ؟

١١ ــ لماذا قام الخليفة عبدالله بحروبانه الخارجية وماهو أثر هذهالحروب
على دولة المهدية ؟

١٢ ــ اكتب مقالا عنمقاومة السودانيين الحكم الاجنبي فيما بين ١٨٩٨ــ٢٤

١٣ ــ وضح مدى تأثر السودان بالازمة الاقتصادية (١٩٢٩ ــ ١٩٣١) .

١٤ ــ اكتب باختصار عما يلي :

أ ــ الملك نمر أو عبد الرحمن النجومي .

ب ــ كلية غردون التذكارية أو خزان سنار .

الفهـرس